

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات

مجلة
مَدارات تَاريخيّة

مجلة مدارات تاريخية
مجلة دورية دولية أكاديمية محكمة
تعنى بالبحوث والدراسات التاريخية

المجلد الأول
العدد04
ديسمبر2019



مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات

مجلة مدارات تاريخية

دورية دولية محكمة ربع سنوية

تعنى بالبحوث والدراسات التاريخية

المجلد الأول – العدد الرابع – ديسمبر 2019

الرقم الدولي للمجلة ردمد: 2676-1939

الإيداع القانوني: مارس -2019

ترسل جميع المراسلات إلى رئيس هيئة تحرير مدارات تاريخية

العنوان الالكتروني:

madaratmagazine@gmail.com

الهيئة العلمية الاستشارية

قواعد وشروط النشر في المجلة

مجلة مدارات تاريخية هي مجلة علمية أكاديمية محكمة تعنى بنشر الدراسات والبحوث التاريخية باللغات العربية والانجليزية والفرنسية على أن يلتزم أصحابها بالقواعد التالية:

1- تنشر مجلة مدارات تاريخية البحوث العلمية الأصيلة والجادة للباحثين من داخل القطر الجزائري ومن خارجه.

2- تخضع جميع البحوث للتقويم من قبل لجنة محكمة، مكونة من دكاترة وأساتذة يساعدهم خبراء من تخصصات معرفية مختلفة، وهذه اللجنة هي الوحيدة المخول لها قبول أو رفض البحوث المقدمة لها.

3- أن تكون المادة المرسلة للنشر أصيلة ولم ترسل للنشر في أي جهة أخرى.

4- ألا يتجاوز حجم البحث 20 صفحة بما في ذلك قائمة المراجع والجداول والأشكال والصور وألا تقل عن 10 صفحات.

5- أن يتبع كاتب المقال الأصول العلمية المتعارف عليها في إعداد وكتابة البحوث وخاصة فيما يتعلق بإثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباس.

6- تتضمن الورقة الأولى العنوان الكامل للمقال واسم الباحث ورتبته العلمية، والمؤسسة التابع لها، الهاتف، والبريد الالكتروني وملخصين، في حدود مائتي كلمة أحدهما بلغة المقال والثاني باللغة الإنجليزية على أن يكون أحد الملخصين باللغة العربية، والكمات المفتاحية باللغتين العربية والانجلزية.

7- تكتب المادة العلمية العربية بخط نوع simplified Arabic مقاسه 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر، العنوان الرئيسي simplified 16 Gras العناوين الفرعية simplified Arabic مقاسه 14.

8- هوامش الصفحة أعلى 02 وأسفل 02 وأيمن 02 وأيسر 02 ، رأس الورقة 01، أسفل الورقة 1.25 حجم الورقة عادي (A4).

9- يرقم التهميش والإحالات بطريقة آلية Not de fin على أن تعرض في نهاية المقال.

10- المقالات المرسلة لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.

11- المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر إلا على رأي أصحابها.

12- كل مقال لا تتوفر فيه الشروط لا ينشر مهما كانت قيمته العلمية.

13- يحق لهيئة التحرير إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة متى لزم الأمر دون المساس بالموضوع.

ملاحظة: ترسل المقالات على العنوان البريدي التالي : madaratmagazine@gmail.com

كلـــــمة العـــــــــــد د

على بركة الله وحسن عونه وتوفيقه...

ها نحن نصل للعدد الرابع من مجلة مدارات تاريخية التي أنطلقت باكورة أعدادها مع بداية هذه السنة، وصدر منها العدد الأول خلال شهر مارس 2019، لتتوالى أعدادها على طول سنة 2019، لنصل في هذا العدد الرابع مع نهاية سنة 2019، لتدخل المجلة في العام الجديد ومع بداية شهر مارس القادم بحول الله، سنتها الثانية التي نتمنى ان تكون بداية سنة موفقة لكل الباحثين وبداية نفس جديد لمجلة مدارات تاريخية ولمركز المدار المعرفي الذي ينشد كل طاقمه للرقي بالبحث العلمي في الجزائر والوطن العربي على العموم.

ها نحن نفتتح هذا العدد المصادف لشهر ديسمبر، هذا الشهر الذي يضم الكثير من الاحداث التاريخية الهامة في تاريخنا وتاريخ الشعوب، ولعل من أبرز الأحداث التي يمكن أن نستعيدها في هذه المناسبة، هي ذكرى مظاهرات ديسمبر الشهيرة، التي اسمعت الرأي العام العالمي بقضيتنا الوطنية، وأكدت لجميع شعوب العالم وعلى رأسهم الدولة الاستعمارية أن الشعب الجزائري ملتف حول ثورته المجيدة وحول جبهته جبهة التحرير الوطني وجيشه الناشئ جيش التحرير الوطني.

كما شهدت بلادنا مرحلة هامة في هذه الشهور، والتي مرت بكل عافية وسلام وآمان، وذلك بتضحيات الأبطال، وإخلاص أبناءها المؤمنين بأن هذه الأمة يجب أن تخرج من مأزقها بكل سلام واطمئنان، وعلى رأس هؤلاء المضحين جيشنا الشعبي الوطني، الذي أخلص لله والوطن والشعب، وجعل أمن البلاد واستقرارها غايته القصوى. وأثبت بكل جدارة أنه سليل جيش التحرير الوطني وحامى حمى الوطن.

وهاهي مجلة مدارات وبالتنسيق مع مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات تتابع وتساير كل هذه التغيرات على جميع المستويات حتى يكون للباحث والمفكر والعالم والمؤرخ دوره في رسم ملامح هذا التحول وتأريخه ونقده وتحليله ليكون مادة صالحة للتطبيق والتنفيذ وتكون وثيقة للأجيال القادمة في المستقبل.

وكما في الأعداد السابقة ستجدون في العدد كوكبة من المقالات العلمية الجادة والرزينة، على مختلف أصعدة البحث التاريخي، وفي شتى جوانبه المعرفية المتعددة، ومن مختلف الرؤئ والقراءات، كما ضم العدد نخبة من الباحثين المتميزين كل حسب تخصصه ومن مختلف أقطار العالم العربي والإسلامي، فنسعد في أسرة مجلة مدارات بهذا التنوع الجغرافي الذي جمعته صفحات مجلة مدارت تاريخية.

رئيس التحرير

أ/ عبد القادر عزام عوادي

الفهــــــرس

الكاتب: د/ العيد غزالة
المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي ببئر الباي – جامعة تونس

عنوان المقال: الزيتون في التراث الديني بين النصوص المقدسة وكتب النّوازل

البريد الالكتروني: laidgazala@yahoo.fr

الزيتون في التراث الديني بين النصوص المقدسة وكتب النّوازل

تاريخ الارسال: 2019/11/12 تاريخ القبول: 2019/12/22 تاريخ النشر:2019/12/31

التلخيص

تتمحور إشكالية البحث حول أهمية وصورة شجرة الزيتون والزيت في الكتب المقدسة (العهد القديم والعهد الجديد والقرآن)، وذلك من خلال ما ورد في هذه الكتب ورصد الدلالات الروحية والدينية والثقافية والأسلوبية. كما تتمحور إشكالية البحث إلى تسليط الضوء على مكانة الزيت والزيتون في كتب النوازل، وذلك من خلال استقراء ما تحتويه بعض المسائل المتعلقة بالزيّاتين وموقف الفقهاء من مسألة نجاسة الزيت واستعمالاته في المأكل أيام المسغبة وجواز استعماله للإنارة في المساجد.

الكلمات المفتاحية:الزيتون- الزيت- الصورة- كتب النوازل – القرآن- العهد القديم- العهد الجديد- الزكاة- النجاسة- الخسيس.

Abstract :

The Following research deals with the importance as well as the image of the olive tree and oil in the holy books (the Old Testament, the Iron Covenant and the Koran),through the contents of these books and monitoring the spiritual, religious, cultural and stylistic connotations. The reaserch also focuses on highlighting the place of oil and olives in Law Consultation (kūtob Nawzīl), through extrapolating the contents of some issues related to « Zayatīn » and the position of the scholars on issue of the impurity of oil and its use food during the famine days and may be used for lighting in mosques.

مقدمة:

كثيرا ما يتردد على الألسن أن النّص القرآني والكتب المقدّسة الأخرى وكتب الأحكام أو النّوازل تناولت شجرة الزيتونة على انفراد دون الأشجار والزراعات الأخرى. وموضوع شجرة الزيتون طال فيه الأخذ والعطاء خلال حقب تاريخية مضت يطفو على السطح حينا ويختفي أحيانا وبقيت تلك البحوث في عزلة رغم أهميتها وتنوعها. ويعد موضوع بحثنا حول شجرة الزيتون التي اكتسبت بعدا رمزيا في النصوص االمقدسّة من جهة ومن جهة أخرى تناولت النصوص التشريعية من خلال كتب النّوازل شجرة الزيتون ومادة الزيت كمادة لإثراء الجدل القائم في باب الزكاة وفي مسألة النجاسة واستعمالاتها في المساجد للإنارة وطرح مسائل متصلة بأيام المسغبة التي عرفتها الدولة الحفصية. ويعدّ بحثنا أيضا ضمن مجال المقاربات الانتروبولوجية-الدينية والمتعلق بثقافة الانسان وعلاقته بالمقدّس.

هل تعتبر شجرة الزيتون الأكثر قداسة في النص القرآني والنصوص المقدسة الأخرى؟ كيف تتراوح صورة الزيتونة في المخيال الشعبي من خلال النص القرآني؟ ماهي المسائل والنّوازل التي طرحت على الفقهاء حول نصاب الزيتون والمسائل المتعلقة حول الزيت؟

1. شجرة الزيتونة في النصوص المقدسة

اتخذت شجرة الزيتون في الكتب المقدسة صفة الشجرة المباركة لحملها دلالات مختلفة. فالزيتونة ترمز إلى السلام وهي أيضا رمز الصمود والصبر والعطاء والثبات نظرا لسهولة نموها بعد قطعها من أسفل جذعها[1]. ولفهم أكثر حضور الزيتون في الكتب المقدسة اعتمدنا على النص القرآني ثم على العهد القديم ثم كتب الأناجيل الأربعة الكبرى والتي تسمى بالعهد الجديد والمعتمدة لدى الكنيسة وتسمى الأناجيل القانونية Canoiques وهي: إنجيل متّى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا وكذلك على الأناجيل الأخرى غير المعتمدة والتي تسمى "أبوكريف" Apocryphes.

أ- الزيتون في القرآن

أخذت شجرة الزيتون مكانة في النص القرآني مثل بقيّة الأشجار الأخرى واتصفت بالشجرة المباركة لعلوّ شأنها ومكانتها في الحياة الاقتصادية والغذائيّة والعلاجية وهو ما يبيّنه الجدول التالي:

الرقم	السورة	الآية
99	الأنعام	وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ

مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ		
وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ	الأنعام	141
اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ	النور	35
وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ {1} وَطُورِ سِينِينَ {2} وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ	التين	1
يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ	النحل	11
ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا {26} فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا {27} وَعِنَبًا وَقَضْبًا {28} وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا {29} وَحَدَائِقَ غُلْبًا {30} وَفَاكِهَةً وَأَبًّا {31} مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ	عبس	29
وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءْ	المؤمنون	20

نتبيّن من خلال جملة الآيات التي حواها الجدول عدّة استنتاجات تعكس أهمية شجرة الزيتون في النص القرآني وهو ما يبرهن على أهميتها لدى عامة المسلمين. وأول ما استرعى انتباهنا بعد الاطلاع على جملة من الآيات هو أن شجرة الزيتون ذكرت في القرآن سبعة مرّة: ستة مرات لفظا متصلة بالغراسات الأخرى مثل الرمان والنخل والتين والأعناب ومرّة وحيدة بالإيحاء في سورة "المؤمنون" وهو دلالة على اتصال النص القرآني بالنصوص المقدسة الأخرى ونعني العهد القديم والعهد الجديد. وقد أتت منفردة في سورة النور تحمل دلالة ورمزية إلى الشجرة المباركة المقدسة وهو ما جعلها تحمل في طياتها العديد من التفاسير. فيذكر ابن كثير في تفسيره بأن هذه الزيتونة ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ولا في غربيها فيقلص عنها الفيء قبل الغروب بل هي في مكان وسط تعصرها

الشمس من أول النهار إلى آخره فيجيء زيتها صافيا معتدلا مشرقا. ويقال بأنها شجرة بأرض فلاة أي بالصحراء لا يظلها شجر ولا جبل ولا كهف وهو أجود لزيتها. وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية ولكنه مثل ضربه الله تعالى لنوره[2]. إضافة إلى إشكالية المكان في سورة النور فقد استعمل القرآن الزيتونة لتحديد مكان مقدس وهو طور سيناء الذي يتعلق بحياة النبي عيسى.

أما أسلوبيا فقد وردت شجرة الزيتون دلالة على القسم. فقد أقسم الله بالتين والزيتون وهو ما جعل اختلاف بين المفسرين فالمراد بالتين هي مدينة دمشق ومكان مسجد أصحاب الكهف، أما الزيتون دلالة على بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى وهو أيضا الجبل الذي كلّم الله عليه موسى[3]. كما أننا إذا تأملنا في الآية نجد أن الله تعالي يقسم بالتين والزيتون وأن قسم الله لا يكون إلّا بشيء عظيم مما يدل على أهميتهما بالنسبة لجسم الإنسان حيث تم ربط ذلك في آخر الآية وهو خلق الانسان بأحسن تقويم، لذا فقد حرص العلماء وخبراء التغذية على معرفة فوائد كل من التين والزيتون لجسم الانسان. ولكن يبقى السؤال قائما لماذا أقسم الله بالزيتون هل لقداسة المكان التي توجد به الشجرة المباركة أو للمكان الذي تجلى فيه الله على رسوله موسى أو أن لرمزية المكان الذي يعتبر مهد الأنبياء؟

ب- العهد القديم والعهد الجديد

تراتبيا يكون الحديث عن الزيتون ومادة الزيت في العهد القديم والعهد الجديد قبل القرآن بسبب الزمن الكرونولوجي، ولكن كان ذلك عن قصد لنبرز للقارئ بأن الكتب السماوية متصلة بعضها ببعض وأن الدّارس للنص القرآني لا يهمل دراسة الكتب المقدسة الأخرى دون الولوج في إشكالية التحريف، وربما اتخذانا للقرآن في البداية إلى اليقين الراسخ لدينا بأنه لم تشوبه أي انزلاقات أوتحريفات.

- العهد القديم

السفر	الآية	رقمها
سفر الخروج	وسليخة خمس مئة بشاقل القدس. ومن زيت الزيتون هينا	24-30
	وبالطيب والزيت للضوء ولدهن المسحة وللبخور العطر.	28-35
	والمنارة الطاهرة وسرجها السرج للترتيب وكل انيتها والزيت للضوء	37-39

السفر	الآية	رقمها
سفر اللاويين	ثم يأخذ الكاهن الخروف الواحد ويقربه ذبيحة اثم مع لج الزيت. يرددهما ترديدا امام الرب.	12-14
	ويأخذ الكاهن من لج الزيت ويصب في كف الكاهن اليسرى	15-14
	ويغمس الكاهن اصبعه اليمنى في الزيت الذي على كفه اليسرى وينضح من الزيت بأصبعه سبع مرات امام الرب.	16-14
	ومما فضل من الزيت الذي في كفه يجعل الكاهن على شحمة اذن المتطهر اليمنى وعلى ابهام يده اليمنى وعلى ابهام رجله اليمنى على دم ذبيحة الاثم.	17-14
	والفاضل من الزيت الذي في كف الكاهن يجعله على راس المتطهر ويكفر عنه الكاهن امام الرب.	18-14
	فيأخذ الكاهن كبش الاثم ولج الزيت ويرددهما الكاهن ترديدا امام الرب.	24-14
	ويصب الكاهن من الزيت في كف الكاهن اليسرى	26-14
	وينضح الكاهن بأصبعه اليمنى من الزيت الذي في كفه اليسرى سبع مرات امام الرب.	27-14
	ويجعل الكاهن من الزيت الذي في كفه على شحمة اذن المتطهر اليمنى وعلى ابهام يده اليمنى وعلى ابهام رجله اليمنى على موضع دم ذبيحة الاثم	28-14
	والفاضل من الزيت الذي في كف الكاهن يجعله على راس المتطهر تكفيرا عنه امام الرب.	29-14
سفر العدد	قرب الذي قرب قربانه للرب تقدمة من دقيق عشرا ملتوتا بربع الهين من الزيت	15-4
	كن للكبش تعمل تقدمة من دقيق عشرين ملتوتين بثلث الهين من الزيت	6-15
	تقرب على ابن البقر تقدمة من دقيق ثلاثة اعشار ملتوت	9-15

السفر	الآية	رقمها
	بنصف الهين من الزيت	
سفر التثنية	لأشير قال. مبارك من البنين اشير. ليكن مقبولا من اخوته ويغمس في الزيت رجله	24-33
سفر القضاة	فقالت لها الزيتونة أترك دهني الذي به يكرمون بي الله والناس واذهب لكي املك على الاشجار.	9-9
	ثم أضرم المشاعل نارا وأطلقها بين زروع الفلسطينيين فاحرق الاكداس والزرع وكروم الزيتون.	5-15
سفر صموئيل الثاني	واما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون كان يصعد باكيا وراسه مغطى ويمشي حافيا وجميع الشعب الذين معه غطوا كل واحد راسه وكانوا يصعدون وهم يبكون.	30-15
سفر الملوك الأول	وعمل في المحراب كروبين من خشب الزيتون علو الواحد عشر أذرع	23-6
	وعمل لباب المحراب مصراعين من خشب الزيتون. الساكف والقائمتان مخمسة.	31-6
	والمصراعان من خشب الزيتون. ورسم عليهما نقش كروبيم ونخيل وبراعم زهور وغشاهما بذهب ورصع الكروبيم والنخيل بذهب.	32-6
	وكذلك عمل لمدخل الهيكل قوائم من خشب الزيتون مربعة	33-6
	فقالت حي هو الرب إلهك انه ليست عندي كعكة ولكن ملء كف من الدقيق في الكوار وقليل من الزيت في الكوز وهذا اقش عودين لاتي واعمله لي ولابني لنأكله ثم نموت.	12-17
	لأنه هكذا قال الرب إله اسرائيل ان كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص الى اليوم الذي فيه يعطي الرب مطرا على وجه الارض.	14-17
	كوار الدقيق لم يفرغ وكوز الزيت لم ينقص حسب قول الرب	16-17

السفر	الآية	رقمها
	الذي تكلم به عن يد ايليا	
سفر الملوك الثاني	ولما امتلأت الاوعية قالت لابنها قدم لي ايضا وعاء. فقال لها لا يوجد بعد وعاء. فوقف الزيت.	6-4
	فاتت واخبرت رجل الله فقال اذهبي بيعي الزيت واوفي دينك وعيشي انت وبنوك بما بقي.	7-4
	فسمع لهم حزقيا واراهم كل بيت ذخائره والفضة والذهب والأطياب والزيت الطيب وكل بيت اسلحته وكل ما وجد في خزائنه. لم يكن شيء لم يرهم اياه حزقيا في بيته وفي كل سلطنته.	13-20
سفر أخبار الأيام الأولى	وبعضهم أؤتمنوا على الانية وعلى كل امتعة القدس وعلى الدقيق والخمر والزيت واللبان والأطياب.	29-9
	وعلى الزيتون والجميز اللذين في السهل بعل حانان الجديري وعلى خزائن الزيت يوعاش.	28-27
سفر أخبار الأيام الثانية	والان الحنطة والشعير والزيت والخمر التي ذكرها سيدي فليرسلها لعبيده.	15-2
	ولما شاع الامر كثر بنو اسرائيل من اوائل الحنطة والمسطار والزيت والعسل ومن كل غلة الحقل واتوا بعشر الجميع بكثرة.	5-31
	ومخازن لغلة الحنطة والمسطار والزيت واواري لكل انواع البهائم وللقطعان اواري.	28-32
سفر عزرا	الى مئة وزنة من الفضة ومئة كر من الحنطة ومئة بث من الخمر ومئة بث من الزيت والملح من دون تقييد.	22-7
سفر نحميا	ردوا لهم هذا اليوم حقولهم وكرومهم وزيتونهم وبيوتهم والجزء من مئة الفضة والقمح والخمر والزيت الذي تأخذونه منهم ربا.	11-5
	وان نأتي بأوائل عجيننا ورفائعنا واثمار كل شجرة من الخمر والزيت الى الكهنة الى مخادع بيت الهنا وبعشر ارضنا الى	37-10

السفر	الآية	رقمها
	اللاويين، واللاويون هم الذين يعشرون في جميع مدن فلاحتنا.	
	لان بني اسرائيل وبني لاوي يأتون برفيعة القمح والخمر والزيت الى المخادع وهناك انية القدس والكهنة الخادمون والبوابون والمغنون ولا نترك بيت الهنا	39-10
	قد هيأ له مخدعا عظيما حيث كانوا سابقا يضعون التقدمات والبخور والانية وعشر القمح والخمر والزيت فريضة اللاويين والمغنين والبوابين ورفيعة الكهنة.	5-13
	واتى كل يهوذا بعشر القمح والخمر والزيت الى المخازن	12-13
سفر أيوب	يساقط كالجفنة حصرمه وينثر كالزيتون زهره.	33-15
	يعصرون الزيت داخل اسوارهم. يدوسون المعاصر ويعطشون.	11-24
المزامير	انعم من الزبدة فمه وقلبه قتال. الين من الزيت كلماته وهي سيوف مسلولة.	21-55
	وخمر تفرح قلب الانسان لإلماع وجهه أكثر من الزيت وخبز يسند قلب الانسان.	-104 15
	امرأتك مثل كرمة مثمرة في جوانب بيتك. بنوك مثل غروس الزيتون حول مائدتك.	3-128
سفر الأمثال	لان شفتي المرأة الاجنبية تقطران عسلا وحنكها انعم من الزيت.	3-5
سفر إشعياء	امن أسفل القدم الى الرأس ليس فيه صحة بل جرح واحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تلين بالزيت.	6-1
	ففرح بهم حزقيا واراهم بيت ذخائره الفضة والذهب والأطياب والزيت الطيب وكل بيت اسلحته وكل ما وجد في خزائنه. لم يكن شيء لم يرهم اياه حزقيا في بيته وفي كل ملكه	2-39
	اضع في .اجعل في البرية الارز والسنط والاس وشجرة الزيت	19-41

السفر	الآية	رقمها
	البادية السرو والسنديان والشربين معا.	
سفر إرميا	فيأتون ويرنمون في مرتفع صهيون ويجرون الى جود الرب على الحنطة وعلى الخمر وعلى الزيت وعلى ابناء الغنم والبقر. وتكون نفسهم كجنة ريا ولا يعودون يذوبون بعد.	12-31
سفر حزقيال	فحممتك بالماء وغسلت عنك دماءك ومسحتك بالزيت.	9-16
	فتحليت بالذهب والفضة ولباسك الكتان والبز والمطرز وأكلت السميذ والعسل والزيت وجملت جدا جدا فصلحت لمملكة.	13-16
	وخبزي الذي اعطيتك السميذ والزيت والعسل الذي اطعمتك وضعتها امامها رائحة سرور وهكذا كان يقول السيد الرب.	19-16
	حينئذ انضب مياههم واجري انهارهم كالزيت يقول السيد الرب.	14-32
	وفريضة الزيت بث من زيت. البث عشر من الكر من عشرة ابثاث للحومر لان عشرة ابثاث حومر.	14-45
	في الشهر السابع في اليوم الخامس عشر من الشهر في العيد يعمل مثل ذلك سبعة ايام كذبيحة الخطية وكالمحرقة وكالتقدمة وكالزيت	25-45
	ويعملون الحمل والتقدمة والزيت صباحا محرقة دائمة.	15-46
سفر هوشع	وهي لم تعرف أني انا اعطيتها القمح والمسطار والزيت وكثرت لها فضة وذهبا جعلوه لبعل.	8-2
	والارض تستجيب القمح والمسطار والزيت وهي تستجيب يزرعيل.	22-2
	أفرايم راعي الريح وتابع الريح الشرقية. كل يوم يكثر الكذب والاغتصاب ويقطعون مع اشور عهدا والزيت الى مصر يجلب.	1-12
	تمتد خراعيبه ويكون بهاؤه كالزيتونة وله رائحة كلبنان.	6-14
سفر يوئيل	تلف الحقل ناحت الارض لأنه قد تلف القمح جف المسطار	10-1

السفر	الآية	رقمها
	ذبل الزيت.	
سفر حبقوق	فمع انه لا يزهر التين ولا يكون حمل في الكروم يكذب عمل الزيتونة والحقول لا تصنع طعاما ينقطع الغنم من الحظيرة ولا بقر في المذاود	17-3
سفر حجي	ودعوت بالحر على الارض وعلى الجبال وعلى الحنطة وعلى المسطار وعلى الزيت وعلى ما تنبته الارض وعلى الناس وعلى البهائم وعلى كل اتعاب اليدين.	11-1
	هل البذر في الاهراء بعد. والكرم والتين والرمان والزيتون لم يحمل بعد. فمن هذا اليوم ابارك	19-2
سفر زكريا	فأجبت وقلت له ما هاتان الزيتونتان عن يمين المنارة وعن يسارها.	11-4
	وأجبت ثانية وقلت له ما فرعا الزيتون اللذان بجانب الانابيب من ذهب المفرغان من أنفسهما الهبي.	12-4
	فقال هاتان هما ابنا الزيت الواقفان عند سيد الارض كلها.	14-4
	وتقف قدماه في ذلك اليوم على جبل الزيتون الذي قدام اورشليم من الشرق فينشق جبل الزيتون من وسطه نحو الشرق ونحو الغرب واديا عظيما جدا وينتقل نصف الجبل نحو الشمال ونصفه نحو الجنوب.	4-14

- العهد الجديد

الإنجيل	الآية	رقمها
متى	ولما قربوا من اورشليم وجاءوا الى بيت فاجي عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين.	1-21
	وفيما هو جالس على جبل الزيتون تقدم اليه التلاميذ على انفراد قائلين: "قل لنا متى يكون هذا وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر؟"	3-24

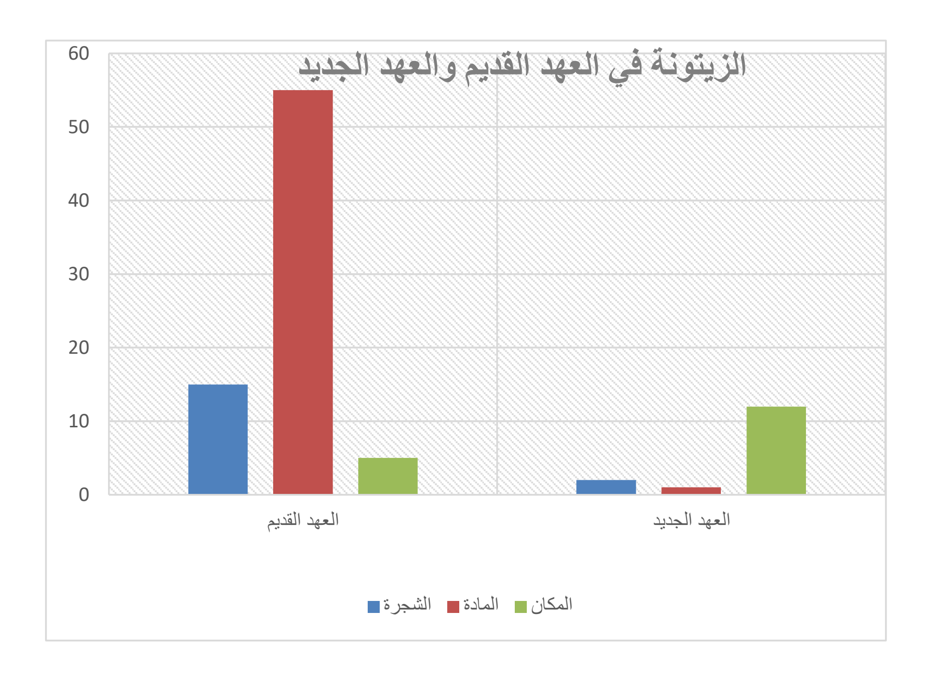
الإنجيل	الآية	رقمها
	ثم سبحوا وخرجوا الى جبل الزيتون.	30-26
مرقس	ولما قربوا من اورشليم الى بيت فاجي وبيت عنيا، عند جبل الزيتون، أرسل اثنين من تلاميذه.	1-11
	وفيما هو جالس على جبل الزيتون تجاه الهيكل سأله بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس على انفراد.	3-13
	ثم سبحوا وخرجوا الى جبل الزيتون.	26-14
لوقا	واذ قرب من بيت فاجي وبيت عنيا عند الجبل الذي يدعى جبل الزيتون أرسل اثنين من تلاميذه.	29-19
	ولما قرب عند منحدر جبل الزيتون ابتدأ كل جمهور التلاميذ يفرحون ويسبحون الله بصوت عظيم لأجل جميع القوات التي نظروا	37-19
	وكان في النهار يعلم في الهيكل وفي الليل يخرج ويبيت في الجبل الذي يدعى جبل الزيتون.	37-21
	وخرج ومضى كالعادة الى جبل الزيتون وتبعه ايضا تلاميذه.	39-22
يوحنا	أما يسوع فمضى الى جبل الزيتون	1-8
الرسالة إلى العبريين	حينئذ رجعوا الى اورشليم من الجبل الذي يدعى جبل الزيتون، الذي هو بالقرب من اورشليم على سفر سبت.	12-1
رو	فان كان قد قطع بعض الاغصان، وانت زيتونة برية طعمت فيها، فصرت شريكا في أصل الزيتونة ودسمها.	17-11
	لأنه ان كنت انت قد قطعت من الزيتونة البرية حسب الطبيعة، وطعمت بخلاف الطبيعة في زيتونة جيدة، فكم بالحري يطعم هؤلاء الذين هم حسب الطبيعة، في زيتونتهم الخاصة.	24-11
رؤيا يوحنا اللاهوتي	وسمعت صوتا في وسط الاربعة الحيوانات قائلا: "ثمنية قمح بدينار، وثلاث ثماني شعير بدينار. واما الزيت والخمر فلا	6-6

الإنجيل	الآية	رقمها
	تضرهما".	
	هذان هما الزيتونتان والمنارتان القائمتان امام رب الارض.	4-11

ما يمكن الاحتفاظ به بعد التمعّن في محتويات الجداول المتعلقة بالزيتون ومادة الزيت بالنسبة للعهد القديم والعهد الجديد هو تعدد الدلالات والأشكال والسياقات التي ذكرت فيها شجرة الزيتون ومشتقاتها من المادة والاستعمالات للحياة اليومية وإلى رمزية الشجرة المباركة. ويستقيم أن نتساءل عن رمزية الزيتون عند اليهود والمسيحيين وما علاقة ما ورد في العهد القديم والعهد الجديد بما ورد في النص القرآني؟

الانطباع الذي نخرج به بعد الاطلاع على ما ورد في العهدين أنّ شجرة الزيتون والزيت الذي يعتبر المادة التي تستخرج من الزيتون والدلالة والرمزية للمكان ذكرت في العهد القديم أكثر ما ذكرت في العهد الجديد بمختلف الأناجيل الأربعة المعتمدة أو من خلال بقية الأناجيل غير المعترف بها وهو ما يبنيّنه الرسم البياني الذي وضعناه حول الزيتونة في العهد القديم والعهد الجديد.

كما نلاحظ بأن مادة الزيت التي ذكرت 55 مرة في العهد القديم ومرة واحدة في العهد الجديد قد أخذت حيزا كبيرا لكثرة استعمال هذه المادة في المناطق التي تهيمن عليها غراسة الزياتين ومن أهم هذه الاستعمالات نجد استعمال الزيت للإضاءة وللأكل. كما يحتل الزيت مكانة مقدسة عند اليهود للطهارة: "فحممتك بالماء وغسلت عنك دماءك ومسحتك بالزيت"[(4)]، ومن الطهارة من الآثام نذكر ما ورد: "في الشهر السابع في اليوم الخامس عشر من الشهر في العيد يعمل مثل ذلك سبعة ايام كذبيحة الخطية وكالمحرقة وكالتقدمة وكالزيت"[(5)]. ولمكانة الزيت عند اليهود فقد ذكر في العهد القديم لدلالات وصفية عديدة منها لوصف جنسي فهو يشبه شفتيْ المرأة الأجنبية تقطران عسلا وبأن حنكها أنعم من الزيت، فهذه الآية تدل على عدم الاقتراب من النساء اللاتي حرمنا في التوراة والانجيل وخاصة المرأة الأجنبية التي ليست على ذمته[(6)].



بالنسبة إلى شجر الزيتون ذكرت في العهد القديم 15 مرة وفي العهد الجديد 3 مرات فتظهر كل من الآيات المذكورة في العهدين أن لهذه لشجرة الزيتون مكانة هامة في الحياة اليومية فأغلب الخشب المستعمل في المنازل متأت منها، ولقداستها فإن المحاريب وأبواب أماكن التعبد وغيرها من الأشياء المتعلقة بالمكان المقدس جميعها مصنوع من شجرة الزيتون دون سواها لاعتبار أن الزيتون بمثابة منارة ومرشدة للتائهين أمام اللّه[7].

يأخذ المكان حيزا أكبرا في العهد الجديد 12 مرة مقارنة بالعهد القديم 5 مرات، ولكن هذا التفاوت لا يمنع قدسية المكان التي وضعت فيه شجرة الزيتون التي دائما ترمز إلى جبل الزيتون الذي يشرف على فلسطين من الجهة الشرقية فترى من قمته كل شوارع المدينة وبيوتها ولا شك أن اسمه مأخوذ من شجر الزيتون الذي كان موجودًا فيه بكثرة. ولا تزال توجد فيه بعض أشجاره الكبيرة الحجم والقديمة العهد إلى الآن.

ويكثر ذكر هذا الجبل في العهد القديم تحت أسماء مختلفة: جبل الزيتون[8] والجبل[9] والجبل الذي تجاه أورشليم[10] والجبل الذي على شرقي المدينة[11]وجبل الهلاك[12]. كما

يذكر في العهد الجديد في علاقته بحياة المسيح على الأرض[13]. ويفصل هذا الجبل عن فلسطين وادي قدرون[14].

صعد على هذا الجبل داود عاري القدمين وباكيًا وهاربًا أمام أبشالوم.وعلى هذا الجبل ظهر الله لحزقيال في رؤياه[15]. كما ظهر لزكريا بروح النبوة واقفًا على هذا الجبل شافعًا في قومه[16]. وطالما صعد المسيح إليه، وفي وقت نزوله منه قبل موته بأيام قليلة استقبله أتباعه بالترحيب وكان يبكي على المدينة ومصيرها القريب[17]، وقد تحدث من سفح ذلك الجبل عن خراب الهيكل وتدمير المدينة[18]، وقبل الفصح الأخير صعد إلى هناك حيث بستان جثسيماني في غرب الجبل. وقد كانت بيت عنيا وبيت فاجي في شرقه.

وفي الوقت الحاضر توجد مدينة صغيرة تسّمى العازرية مكان بيت عنيا حيث كانلعازر ومرثا ومريم، وبالقرب من هذا المكان صعد المسيح إلى السماء[19]. ويسّمي العرب جبل الزيتون في الوقت الحاضر جبل الطور[20]، وقد كان جبل الزيتون مكسوًا قديمًا بالزيتون والتين والبطم والسنديان، وبالنخل في بعض المواضع كبيت عَنْيَا[21]. وكانت بقرب قمته شجرتان من الأرز وتحتها أربعة حوانيت لبيع الحمام لخدمة الهيكل، ولم يبق من كل ذلك شيء سوى الزيتون والتين.

2. صورة شجرة الزيتون في المخيال الشعبي

تحتل شجرة الزيتون مكانة هامة في المخيال الشعبي من رمزية الشجرة في الأمثال الشعبية أو من خلال البعد الرمزي في المخيال الديني كان ذلك من خلال قدسية الزيتون في الكتب المقدسة أو من خلال بعض المصنفات الأدبية اتي يكون أصحابها من علماء وفقهاء في الدين لاستدلالهم بالنصوص الدينية لاكتساب مشروعية وسلطة معنوية على المتقبل.

تعتبر الأمثال الشعبية من حقول التراث اللامادي وإرثا حضريا باستطاعته تقديم وصف وتصوير الواقع لحياة المجتمعات ويمكن أن تمثل الأمثال الشعبية شاهدا صادقا ومصدرا لكتابة التاريخ ودراسة ثقافات المجتمعات ودراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية لمجتمع ما. وتحتل شجرة الزيتون ومادة الزيت مكانة هامة في التراث والموروث الشعبي حيث نجدها متواترة في الأمثال الشعبيّةالتي تمكننا من دراسة العديد من المواضيع المتعلقة بأهمية غراسة الزيتون وتوظيفها الشجرة وزيتها للتشبيه وأهميتها للمداواة وتأمين الأمن الغذائي. كما أن ثراء الثقافة الشعبية يعتبر رافدا من روافد المصادر التاريخية وهو ما جعل رودولف زلهايم يعترف بقيمة الروايات الشفوية والشعبية لكتابة التاريخ "حقا يمكن

أن يكون الأساس التاريخي المروي لنا بالنسبة إلى هذا المثل أو ذاك مقاربا للحقيقة" وهو ما يبيّنه الجدول التالي:[22]

الأمثال	موضوعها	مصدرها
الزيت أكلا ودهنا ونورا في البيت	تعدد استعمالات زيت الزيتون	شهادات شفوية
الماء اللي ماشي للسدرة الزيتونة أولى به	شجرة الزيتون نظرا إلى تعدد منافعها فهي الأولى بالمياه	الطاهر الخميري "الأمثال العامية التونسية
مطرة مايو إذا تكون رحمة للزيتون	أهمية أمطار ماي في ارتفاع حجم المحصول	شهادات شفوية
المرا مرمرة تحب القمح من المندرة والزيت من المعصرة واللحم من الجزرة	زيت الزيتون من بين الحاجيات التي يجب أن تتوفر للبيت بالنسبة للمرأة	الطاهر الخميري "الأمثال العامية التونسية
الفلاحة راحة والصنعة منعة والتجارة فجور وفلاحة الزيتون غنى	قيمة غراسة الزيتون	الطاهر الخميري "الأمثال العامية التونسية
إلّي أمه في البيت يأكل الزيت	حرص الأمهات على توفير الزيت بالبيت	روضة الورتاني
الزيت إذا تبزع ما عاد يلم	تشبيه	روضة الورتاني
خبز وزيتون عيشة المغبون	بساطة الغذاء	شهادات شفوية
الزيتون عفة وخدمة الرجال ذلة	قدسيّة الزيتون	شهادات شفوية
كان عندها زيت في عكتها راهو بان على قصتها	تحقير	شهادات شفوية
ما هواء كان هواء الزيتون وما ظل كان ظل الكرمة	نقاوة الهواء بالمناطق التي تنمو بها الزياتين	شهادات شفوية

خبز مخبوز وزيتك في الكوز	أهمية الزيتون في تحقيق الأمن الغذائي	شهادات شفوية

3. النّوازل المتعلقة بالزيتون والزيت

أ- المهنة كعمل خسيس

اعتمدت جلّ الدراسات[23] التي اشتغلت على فئة الفقراء أو الشرائح السفلى والدنيا في المجتمع الحفصي على مرادفة مصطلح "االرديئة" بـ"الخسيسة" في الصنائع. لكن في هذه الدراسة المكمّلة لمجهودات الباحثين السابقين سنحاول الحديث على الصنائع الخسيسة.

ويتعيّن التوقف بعض الشيء عند الشروح اللغوية لمصطلح الخسيسة. فقد جاء في لسان العرب أن مصطلح الخسيسة أشتق من فعل خسس والخسيس هو الرذل والدنيء. وعند العرب المرأة الخسّاء القبيحة الوجه[24]. وأورد صاحب القاموس المحيط أن كل فعل جعله خسيسا ودنيئا وحقيرا. والمستخِسُّ: الدُّون والقبيح الوجه[25]. بمعنى أن الصنائع الخسيسة أقل قيمة في المجتمع من حيث مردودها المالي ومن حيث الجانب الأخلاقي فإن الأعمال الخسيسة تشوبها شائبة الرذالة داخل المجتمع الحفصي. وبالنسبة إلى التقسيم الاقتصادي- المهني قدّم البرزلي والونشريسي ناقلاً عنه والدباغ في معالم الإيمان صورة لأصحاب مهن الفقراء واعتبر هذه المهن من الصنائع الرذيلة[26]. تعتبر في نفس الوقت عملية إقصاء لفئة من الصنائع ووصف للوضعية الاجتماعية لأصحابها. وما سنحاول تبيينه من خلال رصد بعض الأمثلة على أنواع الأعمال الخسيسة التي رصدتها كتب التاريخ والتراجم وكتب الرحلات، فقد اعتبر أن الحائك والحجام والكناس والخباز والفران والكتانيين والعطارين والزياتين بأنهم الأكثر فقرا حسب ما أورده البرزلي في نوازله[27]، رغم أن بعض الصنائع مثل العطارين والزياتين والكتانين يعتبر أصحابها من أثرياء المجتمع، وهو تلميح إلى احتقار بعض المهن[28] عكس "الصناعات الجليلة كالتجار والبناة"[29] و"الحياكة فهي اليوم في إفريقيّة من صناعات ذوي الهيآت"[30]، ويبيّن صاحب المقدمة أنها "من أمهات الصنائع"[31] لأنها مطلوبة لدى أصحاب الجاه، لكنه يؤكد أن الأعمال الأخرى كالحداد والخياط والجزار والدباغ والدهان والحمامي... فهي أعمال للبسطاء ولكنها ضرورية في نفس الوقت "مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله"[32].

أعطت هذه الصورة السلبية للزياتين - والصورة التي نريد تقديمها حول الزياتين التي تخص العاملين في جني الزيتون والعاملين في معاصرة الزيت وليس أصحاب المعاصر وكبار الفلاحين من وجهاء القوم - اقصاءهم من بعض الخطط مثل الإمامة بسبب نجاسة رائحته عملهم المباشر إما ساعة الجني أو عند العمل لاستخراج الزيتوتعرض ملابسهم وأجسامهم للأوساخ من بقايا الزيت، والسبب الثاني أن بعض المهن مثل الجزار والزيات تشوبهم ريبة بحكم الغش في الوزن والكيل وبيع المغشوش من الزيت النجس دون علم المشتري والتعامل بالربا في البيع والشراء[33]. أخذ كل من ابن عرفة والبرزلي في مسألة الإمامة موقفا متحاملا على أن أصحاب الصنائع الرذيلة فهم لا يمكن أن يكونوا أئمة إذ يعتبران أنّ الجزار والدباغ والزيّات لهم روائح قبيحة ويتعاملون بالربا[34]، وهي عملية إقصاء لأن من شروط الإمامة حسب الغزالي أن يكون ذا علم وهو ما ذهب إليه كل من الإمام ابن عاشر وابن رشد[35]، حتى وإن كانت القرائن التي يقدمها ابن عرفة والبرزلي حول الربا فالشاذ يحفظ ولا يقاس عليه، ربما وراء هذا التحامل اعتبارات أخلاقية وشخصية فقد تكون هذه المناصب حكرا لمجموعة محدّدة إذ لا تكون إلا لأصحاب العائلات المعروفة وكأنها وراثية.

وعندما نقارن بما هو متوفر لنا عن بعض الأسعار في مختلف الميادين نلاحظ عدم تطابقها مع الأجور. وإذا كانت أجرة المدرس تقدر بـ10دنانير ذهبية وأجرة قاضي الجماعة 15 دينارا في كل شهر[36] الذي يعتبر أفضل حال من الفئات الأخرى غير كافية فما بالك بأجرة أصحاب المهن الرديئة كالحمّامي والخبّاز والزبّال وممّن يجمع الزيتون بثلثه[37] وغيرهم في مجابهة متطلبات الحياة اليومية؟

ب- موقف الفقهاء من استعمال الزيت النجس

من القضايا التي طرحت في النّوازل موقف الفقهاء من استعمال الزيت النجس للأكل والانارة داخل المساجد وكذلك امكانية غسل الزيت النجس لإعادة استعماله خاصة أيام المسغبة والمجاعات التي حلّت بالمجتمع الحفصي وغيرها من المجتمعات الأخرى وقد طرحت هذه المسألة مع التعاطف مع فئة الفقراء ومع ارتفاع ثمن الزيت.

بالنسبة لقضية النجاسة فقد أخذت جدالا كبيرا بين الفقهاء ويعود ذلك لحساسية وقيمة الغذاء عند المسلمين. فالنجاسة في اللغة: اسم لكل مستقذر وكذلك النجس بكسر الجيم وفتحها وسكونها والفقهاء يقسمون النجاسة إلى قسمين: حكمية وحقيقية وفي تعريفهما

اختلاف في المذاهب. فالمالكية قالوا: أن النجاسة العينية هي ذات النجاسة، والحكمية أثرها المحكوم على المحل به[38].

فكيف توصل فقهاء المالكية إلى جواز الطبخ والأكل بالزيت النجس وما هو سندهم في ذلك؟ هل هو اجتهاد أم أن الضرورات تبيح المحظورات؟

أمّا الدّهن، فكانوا يستهلكون ما هو نجس كالزّيت الذي وقعت فيه فأرة وكذلك السمن النجس[39]. فقد أفتى بعض العلماء بجوازه "فإن كان زمن مسغبة جاز أكل الفقراء والمساكين له ولو لم يكن جاز الاستصباح والانتفاع به من غير أكل ولا بيع"[40]. فالرسول رأى إذا وقعت فأرة في سمن "ألقوها وما حولها فأطرحوه وكلوا سمنكم"[41]. وهذا السؤال يكشف اهتمام المسلم بالطعام لأنه يجمع خاصة ما هو ديني والمتمثل في الزكاة والصدقة. وما هو اقتصادي والمتمثل في البيع والشراء وما هو اجتماعي في السُّلْفَة. مما جعل الفتوى تواكب العصر أصبحت تجيب عن نازلة عصرها لأن من مظاهر عناية الدين الإسلامي بالطعام الفتوى فهي تعتبر رأيًا دينيا وقرارا شرعيا ولا بد لها من مواكبة العصر لذلك أصبحت تجيب عن نازلة عصرها[42].

وقد لعبت فتوى الطعام دورا في هذا المجال لأنها كانت على وعي كبير بالرموز السلبية للسائل. فقد شهدت الفترة التي عاشها البرزلي والونشريسي أوضاعا متردية في كل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وقلة الطعام. وأمام خطر الموت جوعا يأكل الفقير الطعام النجس غير آبه بنجاسته رغم أن الإسلام أمر بالابتعاد عن الانتفاع بالطعام الذي يسبب الموت كما جاء في النّص القرآني "حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع"[43] وكذلك "قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرما على طاعم يطعمه إلاّ أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أُهلّ لغير الله به"[44]. ونتيجته أنه فسق أي تعاطيه وغْيٌ وضلالة وشرك وهو نوع من الخبائث حسب ما أورده ابن كثير في تفسيره[45].

نشير إلى أن العديد من الأسباب كالكوارث الطبيعيّة مثل الجراد والجفاف والاضطرابات السياسيّة وهجوم الأعراب على مدينة تونس والمدن الأخرى وفساد المحاصيل أثرت في حياة العامة عموما وعلى حياة الفقراء وجموع المهمّشين خصوصا وفرضت أنواعا معيّنة من الأطعمة[46] وهو ما صوّره البرزلي من أنّ الفقراء قد أصبحوا يستهلكون الزيت النجس أيام المسغبة[47].

أما إزالة النجاسة من الزيت فعند الحنفية يكون ذلك بصب الماء عليه ورفعه عنه ثلاثا أو يوضع في إناء مثقوب ثم يصب عليه الماء فيعلو الزيت ويحركه ثم يفتح الثقب إلى أن يذهب الماء. أما عند المالكية فالمائعات غير الماء مثل الزيت والسمن والعسل فتنجس بقليل النجاسة ولا تقبل التطهير بحال من الأحوال ولا يقبل تطهير نجس الزيتون المملح والفخار الذي غاصت النجاسة في أعماقه[48]. وقد سئل اللخمي هل يطهّر الزيت إذا وقعت فيه فأرة؟ فأجاب هذا راجع إلى صفة النجاسة فإن كانت دهنيّة فلا تقبل التطهير لأنه يعلو على الماء وينضاف للزيت ولا يذهبه الماء. وذهب الصائغ إلى نفس الإجابة بأن غسل الزيت لا أقول به لأن المراد بالغسل إزالة عين النجاسة ولا تزول من الزيت به لمخالطتها له وممازَجَتها إيّاه وعدم ذهابها[49].

وأما المازري[50]فأجاب "إن تغير لون الزيت أو طعمه أو رائحته فلا يقبل التطهير ويُراق، وإن لم يتغير منه شيء فبعض أصحاب مالك أجاز استعماله وان لم يغسل، وبعضهم أجازه مع الغسل وبعضهم اجتنبه أصلا، والاحتياط أفضل بالاستناد إلى القاعدة الفقهيّة "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"[51].

أخذ الزيت مكانة هامة في الحياة العامة في الأكل وفي الإنارة وقد كان يستعمل في المساجد في الأيام العاديّة وفي المناسبات الدينية، لكن لا يمكن تحديد كمية الزيت المستعملة في كل مسجد - لأن كل مسجد له زيتا يستصبح به- ولا نوعية الزيت رغم أنه توجد بعض الإشارة في المطلق للكمية باستعمال خزائن للزيت والقناديل[52]، لكن الزيت شكّل في النّوازل وعند الفقهاء جدلا فقهيا حول استعمال الزيت النجس في إنارة المساجد لطهارة المكان.

عند الحنفية لا يمكن استعمال الزيت النجس في الإضاءة به المسجد ويمكن استعماله في أماكن أخرى كالمنازل. وعند المالكية لا يجوز الانتفاع مطلقا بالمائعات المتجنسة. أما الحنابلة فإنهم أجازوا استعمال الزيت النجس في غير الأكل كأن يستضاء به في غير المسجد[53].

ج- الزكاة تجب من الحب أم من الزيت؟

استنادا للنص القرآني "وآتو حقَّه يوم حصاده"[54] بمعنى هي الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيله وهي الصدقة من الحب والثمار[55]، لكن نلاحظ هناك اختلاف بين العلماء في وجوب اخراج زكاة الزيتون حبا وتتفق في وجوب إخراجه زيتا إضافة إلى مسألة مقارنة الزيتون الجاف بالتمر الجاف فأجاب اللخمي[56] بعدم الانتفاع به الا في وقت خرصه وعصره[57]. وقد ذهب بعض الجمهور مثل السيوري[58] وغيرهم بأن الزيتون لا يخرص[59].

والخرص لغة:حزر الشيء، يقال: خرصت النخل إذا حزرت ثمره.فالخرص هو الحزر والتخمين لما على النخل من الثمر[60].

أما اصطلاحا:تقدير الرطب والعنب على النخل والكرم كم يكون إذا صار تمرا وزبيبا لكي يعرف مقدار الزكاة،حتى إذا جفت الثمار أخذت الزكاة التي سبق تقديرها منها. ووقت خرص الزيتون يكون قبل القطف بشهر على الأقل أي عندما يكون صالحا للكبس. وفائدة الخرص هي: معرفة ما يجب بالزكاة وإطلاق أرباب الثمار بالتصرف فيها، والحاجة إنما تدعو إلى ذلك حين يبدر الصلاح [61].

واختلف الفقهاء في خرص الزيتون على قولين[62]:

القول الأول:ذهب مالك وأحمد بن حنبل إلى القول بأن الزيتون لا يخرص وهو مرويعن الزهري والأوزاعي والليث. وحجتهمأنّ حب الزيتون متفرق في شجره، مستور بورقه، ولا حاجة بأهله إلى أكله، بخلاف النخل، والكرم، فإن ثمرة النخل مجتمعة في عذوقه، والعنب في عناقيده، فيمكن أن يأتي الخرص عليه، والحاجة داعية إلىأكلهما في حال رطوبتهما.

القول الثاني:وذهب الأوزاعي والليث وغيرهما إلى القول بخرص الزيتون. وحجتهمأنّ الزيتون ثمر تجبفيه الزكاة، فيخرص كالرطب والعنب.

وتجب زكاة الزيتون، بالنسبة للأكل زكاته يكون 5 أوسق أي 300 صاع، وأما للعصر يخرج من الزيت العشر عندما يكون من المطر أما المساقاة فيكون نصف العشر. ويذكر البرزلي بأن النصاب يساوي خمس أوسق وهو الآن قدر القفيز التونسي ... والوسق ستون صاعا بصاعه عليه الصلاة والسلام وهو أربعة أمداد بمدّه عليه الصلاة والسلام، وكل مدّ رطل ثلث والرطل اثنتا عشر أوقية والأوقية عشرة دراهم وثلثان[63]، فخلال القرن الثامن هجري/الثالث عشر ميلادي ولاعتبارات دينية قام الحفصيون بتغيير القفيز الذي أصبح يساوي "الوسق الشرعي" أي 175.92 لترا وصار يتضمن عشر "صفحات" وتسمى أيضا "الويبة" التي تساوي 17.59 لترا. وتشمل كل "صفحة على 12 مدّا ويسمّى أيضا "الصاع" الذي يساوي 1.46 لترا[64].

تجب زكاة الحرث أي الزرع والثمار ويتعلق الوجوب بها من وقت الطيب وهو بلوغ الزرع أو الثمر حد الأكل منه وقال مالك إذا أزهى النخل وطاب الكرم وأسود الزيتون بمعنى أن واجب اخراج الزكاة على الزيتون على عكس ما ذهب اليه الشافعي لا زكاة في الزيتون وقد أورده ابن زرقون عن ابن وهب[65] وهو ما ذهب اليه ابن حنبل. أما وجوب الزكاة على زيت الزيتون فقد

أجمع عليه جميع الفقهاء وأجمعت عليه جل المذاهب بإخراج نصف العشر من الحب أو من الزيت إذا سقي بماء المطر وبنصف العشر إن سقي بألة رافعة" ونصف العشر فيما سقي بكلفة كالغرب والدالية[66].

خاتمة

تبيّن لنا من خلال هذا العمل المقتضب أن شجرة الزيتون كانت تعبّر عن إيلاء المجتمعات القديمة والوسيطة ولها أهمية في المجال الاجتماعي والاقتصادي ولها دلالات روحية وقدسية. وفي هذا السياق، اكتشفنا أهمية الزيتون في نصوص العهد القديم والعهد الجديد وفي القرآن بما يؤكد الترابط بين الكتب السماوية، وكذلك ارتباط الزيتون بمادة الزيت في نصوص النوازل رغم الجدل حول مسألة الزكاة والنصاب.

وقد تبيّن لنا أيضا أنّ بعض المصادر قدمت صورة سلبية لمهن الزياتين التي ارتبطت بالمهن الرديئة والتي تشوبها الريبة وهوما جعل العديد من الفقهاء الاجماع على عدم تولي الزياتين الامامة والخطابة، ورغم هذه الصورة القاتمة والسلبية إلا أن الزيات تبقى من المهن الضرورية في المجتمع.

[1]-Toussaint-Samat (M), Histoire naturelle et morale de la nourriture, Édi. Larousse, coll. In extenso,1997, p164-165.

[2]- ابن كثير(عماد الدين)، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، الطبعة 8، دار الجيل (بيروت) ودار الصابوني (القاهرة)، 1990، ج2، ص606.

[3]- ابن كثير، مختصر تفسير بن كثير، ج3، ص651.

[4]- سفر حزقيال، 9:16

[5]- ن.م، 25:45.

[6]- سفر الأمثال، 3:5.

[7]- انجيل يوحنا اللاهوتي، 4:11

[8]- سفر صموئيل الثاني 15: 30، وسفر زكرياء 14: 4

[9]- سفر نحميا 8: 15.

[10]- سفر الملوك الأول، 11: 7

[11]- سفر حزقيال 11: 23

[12]- سفر الملوك الثاني 23: 13

[13]- انجيل متى 21: 1 و24: 3 و26: 30 وانجيل مرقس 11: 1 و13: 3 و14: 26، وانجيل لوقا 19: 29 و37 و21: 37 و22: 39، وانجيل يوحنا 8: 1، وانجيل الرسالة إلى العربيين 1: 12.

[14]- سفر صموئيل الثاني 15: 14 و23 و30.

وادي قدرون: ويسمى وادي موسى، وهو واد في قبلي بيت المقدس بينه وبين أرض الحجاز وهو وادد حسن كثير الزيتون. الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، ج5، ص346

[15]- سفر حزقيال،11: 23

[16]- سفر زكرياء، 14: 4

[17]- انجيل لوقا 19: 37-44

[18]- انجيل متى 24: 3 وانجيل مرقس 13: 3

[19]- انجيل لوقا 24: 50 و51.

[20]- جبل الطور: عند العرب هو الجبل، وقال بعض أهل اللغة لا يسمى طورا حتى يكون ذا شجر ولا يقال للأجرد طور، ويقال لجميع بلاد الشام الطور. وقد ذكر بعض العلماء أن الطور هذا المشرف على نابلس يحجه السامرة، وأما اليهود فلهم اعتقاد عظيم ويزعمون أن إبراهيم أمر بذبح إسماعيل فيه. وعليه كان الخطاب الثاني لموسى عند خروجه من مصر ببني إسرائيل، وبلسان النّبط كل جبل يقال له طور فإذا كان عليه نبت وشجر قيل طور سيناء. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 47.

[21]- بيت عنيا: تشغل موقعها اليوم قرية صغيرة تُدعى العازرية (العيزرية) اي موضع لعازر، وتقع على بعد 2.5 كلم شرق-جنوب شرق جبل الهيكل وهي قرية بالبيت المقدس بها قبر العازر. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص67.

[22]-Sellehim(R), « *Mathal* »,E.I2, p50-65.

- وللمزيد من فهم قيمة الأمثال الشعبية المتعلقة بالزيتون والزيت وقيمت زيت الزيتون في الحياة العامة بالبلاد التونسية يمكن الرجوع إلى ما كتبه: الفريني(محمد)، زيت الزيتون في الإيالة التونسية: تاريخ مادة غذائية أساسية في العهد الحديث، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، تونس، 2016.

[23]- جدلة(ابراهيم)، المجتمع الحضري بإفريقية في العهد الحفصي، وحدت البحث: الجنوب الغربي، التاريخ والآثار والمجتمع، جامعة قفصة، 2010، ص222-224

- حسن(محمد)، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- تونس- السلسلة: تاريخ4، المجلد XXXII، جامعة تونس، تونس، 1999، ج2، ص627-637.

- بعيزيق(صالح)، بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، تونس، 2006، ص441-454.

- تأليف جماعي، المغيّبون في تاريخ في تاريخ تونس الاجتماعي، بيت الحكمة، تونس، 1999.

[24]- ابن منظور(جمال الدين)، لسان العرب، ط6، دار صادر، بيروت، 2008، ج5، ص66.

[25]- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ط8، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005، ص541.

[26]- البرزلي(أبو القاسم)، فتاوى البرزلي: جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتيين والحكّام، المعروف بنوازل البرزلي، تحقيق وتقديم: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002، ج4، ص 200.

[27]- ن.م، ج4، ص 528.

[28] -Brunschving (R), " Métiers vils en Islam ", *S.I*, N°16, 1962, pp41- 60.

[29]- البرزلي، نوازل البرزلي، ج4، ص 201.

[30]- ن.م، ج4، ص 204.

[31].ابن خلدون(عبد الرحمان)، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2002، ص 385-391.

[32]- ن.م، ص 381-382.

[33]- البرزلي، نوازل البرزلي، ج3، ص316-317.

[34]- ن.م، ج1، ص 180.

[35]- شروط الإمامة: البلوغ والفقه والقيام بشروط الإمامة أي عدم العجز عن الركوع والسجود. الغزالي(أبو حامد)، إحياء علوم الدين، صححه عبد المعطي أمين قلعجي، دار صادر، بيروت، 2004، ج1، ص 234.

- ابن عاشر(محمد)، شرح ابن عاشر المسمى بالحبل المتين، المكتبة الثقافية، بيروت 1987، ص 82.

- ابن رشد (أبو الوليد)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار قهرمان للنشر والتوزيع، اسطنبول، 1985 ص 112-113.

[36]- العمري(شهاب الدين)، وصف افريقية والأندلس في أواسط القرن الثامن للهجرة، قطعة من مسالك الأبصار، نشر وتعليق حسن حسني عبد الوهاب، مطبعة النهضة، د.ت، ج4، ص77.

[37]- الونشريسي(أحمد بن يحي)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج4، ص307.

[38] - ابن منظور، لسان العرب، ج14، ص198-199.

- البرزلي، نوازل البرزلي، ج1، ص145

- الجزيري(عبد الرحمان)، الفقه على المذاهب الأربعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج1، ص12.

[39] - البرزلي، نوازل البرزلي، ج 5، ص 165.

[40]- ن.م، ج1، ص145.

[41]- البخاري(أبو عبد الله محمد بن إسماعيل)، صحيح البخاري، كتاب الوضوء، تحقيق صدقي جميل العطّار، دار الفكر، بيروت، 2006، ج1، ص73.

- أبو الأجفان(محمد)،" العلاقات بين فقهاء المغرب العربي خلال القرون 8 و9 و10هـ في بناء المغرب العربي"، الجامعة التونسية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة الدراسات الاجتماعية،9، تونس، 19-24 أكتوبر، 1981، ص30.

[42]- Ghaleb(Ben Cheikh), Alors c'est quoi l'Islam ?, Presses de la renaissance, Paris, 2001, p80.

[43]- المائدة، الآية 3.

[44]- الأنعام، الآية 145.

[45]- ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، ج1، ص478-479، وص627.

[46]- جدلة، المجتمع الحضري، ص 74.

- حسن محمد، المدينة والبادية، ج2، ص 799.

[47]- البرزلي، نوازل البرزلي، ج 1، ص 145.

[48]- ن.م، ج1، ص144.

- الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة، ج1، ص25-27.

[49]- البرزلي، نوازل البرزلي، ج1، ص145.

[50]- أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر بن محمد التَّميمي المازَري ولد سنة 443هـ وتوفي سنة 536هـ، إمام المالكية في عصره، ومن المحدّثين المشهورين، بلغ درجة الاجتهاد، حتى سُمِّي "بالإمام". قال عنه القاضي عياض:هو آخر المتكلمين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد ودقّة النظر، لم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض أفقه منه ولا أقوم بمذهبهم»، ووصفه الذهبي بوصف: «الشيخ الإمام العلامة البحر المتفنِّن.» وُلد وعاش في المهدية الموجودة وتُوفي بها. بن مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، 186-188.

[51] ن.م، ج1، ص146

[52]- ن.م، ج1، ص391.

[53]- الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة، ج1، ص43-44.

[54]- الأنعام، الآية 141.

[55]- ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، ج1، ص624-625.

[56]- علي بن محمد الربعي القيرواني أبو الحسن اللخمي من فقهاء المذهب المالكي (ت478هـ)، حاز رئاسة بلاد إفريقية جملة، وتفقه به جماعة السَّفَاقُسيين. كان مغرىً بتخريج الخلاف ويخالف المذهب وقواعده وهو التجديد في فقه الإمام مالك، وهو باعث الحركة العلمية في بلاد المغرب. من الطبقة العاشرة في طبقات المذهب المالكي من أهل أفريقية، كان رئيس الفقهاء في عصره، وأحد الأربعة الذين اعتمدهم خليل في مختصره. قال فيه القاضي عياض: "وكان أبو الحسن فقيهاً فاضلاً ديّناً مفتياً متفنناً، ذا حظ من الأدب والحديث، جيد النظر، حسن الفقه، جيد الفهم. وكان فقيه وقته، أبعد الناس صيتاً في بلده. وبقي بعد أصحابه، فحاز رئاسة بلاد إفريقية جملة." من أهم مؤلفته كتاب التبصرة.

- ابن ناجي، معام الإيمان، ج3، ص246-248.

- بن مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص173.

[57]- البرزلي، نوازل البرزلي، ج1، ص547

[58]- أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث السيوري توفي بالقيروان سنة 460هـ/1067م أو 462هـ/1069م، خاتمة علماء إفريقية أخذ عن أبي عبد الله بن سفيان المقري، وبه تفقه ابن اللخمي وابن سعدون وحسان البربري وعبد الحق الصقلي وآخر شيوخ القيروان. كان له عناية بالحديث والقراءات.

- ابن ناجي، معام الإيمان، ج3، ص232-235.

- بن مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص172.

[59]- البرزلي، نوازل البرزلي، ج1، 552

[60]- ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص45.

[61]- البرزلي، نوازل البرزلي، ج5، ص46.

[62]- ابن سلاّم (أبو عبيد القاسم)، كتاب الأموال، تقديم ودراسة وتحقيق محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، 2009، ص518.

[63]- البرزلي، نوازل البرزلي، ج1، ص549

[64]- برنشفيك (روبار)، تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج2، ص260-263.

- برنشفيك (روبار)، " المكاييل التونسية في العصر الوسيط"، *المجلة الافريقية*، الجزائر، 1935، ص85-96.

- برنشفيك (روبار)، "المكاييل التونسية في بداية القرن السابع عشر"، *حوليات معهد الدراسات الشرقية*، الجزائر، 1937، ص74-87.

[65]- ن.م، ج1، ص550

-ابن زرقون 502)هـ 586 – هـ(، هو محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد، الأنصاري، أبو عبد الله، المعروف بابن زرقون. فقيه ومحدث أندلسي، ولد في شريش، واستقر بإشبيلية وبها مات. سمع أباه، وأبا عمران بن أبي تليد، وأبا القاسم بن الأبرش و أبو بكر بن الجد وغيرهم قال الذهبي. كان سيد الأندلس في وقته. ولي قضاء سبته، فحمت سيرته ونزاهته، وكان أحد سروات الرجال، حافظاً للفقه مبرزًا فيه، وكان الناس يرحلون إليه للأخذ عنه والسماع منه لعلو روايته. التنبكتي(أحمد بابا)، نيبل الابتهاج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989، ص316. بن مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص228-229.

-أبو محمد الفهري مولاهم عبد الله بن وهب بن مسلم الفقيه المالكي من العهد العباسي، وكان يسكن مصر وهو المولود في الفسطاط سنة 125هـ، لزم الإمام مالكاً أكثر من عشرين سنة، وقضى حياته في طلب العلم توفي سنة 197هـ/812م. بن مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص89.

[66]- البرزلي، نوازل البرزلي ج1، ص553.

الكاتب: **د/ الصادق زياني**
جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة

عنوان المقال: **التحولات الطوبونيمية بالمجالات الكتامية من نهاية الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الهجري التاسع/ 15م-دراسة نماذج-**

البريد الالكتروني: profziane@yahoo.com

التحولات الطوبونيمية بالمجالات الكتامية من نهاية الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الهجري التاسع/ 15م-دراسة نماذج-

تاريخ الارسال: 2019/11/20 تاريخ القبول: 2019/12/22 تاريخ النشر:2019/12/31

التلخيص

تأتي هذه الدراسة لتسليط الضوء على أحد التوجهات البحثية التي بدأتتثير اهتمامًا متزايدًا بين الباحثين، ممثلا في "الطوبونيميا"، وهذا لما قدمته من نتائج مهمة متعلقة بالأساس بالتحولات التي مست أسماء المواقع خلال العصر الوسيط، وتخصيصا بالمجالات الكتامية من بلاد المغرب الأوسط، من خلال اختيارنا لنموذجي "ميلة" و"سطيف"، ومحاولة إبراز تأثيرات عملية التعريب التي مست المعالم الجغرافية مقارنة بأصولها بمصادر المغرب القديم (الأدبية، المسيحية، الايبغرافية، البيزنطية)، وتتبع تواصل أو انقطاع الطوبونيم في المصادر الوسيطية، وكذا مرجعية التسمية (فينيقية، نوميدية، لاتينية، محلية)، ومدلولها اللغوي.

الكلمات المفتاحية:الزيتون- الزيت- الصورة- كتب النوازل – القرآن- العهد القديم- العهد الجديد- الزكاة- النجاسة- الخسيس.

Abstract :

This study highlights one of the trends in research that has begun to generate a growing interest among researchers, represent in the "Toponymy", because of the important results related to the bases of the transitions that affected the names of sites in the Middle Ages, and in particular the Kutama territiry of Central Maghreb (*al-Magrib al-Awsat*), This is through our selection of models "Mila" and "Sétif", he tries to highlight the effects of the Arabization process that has affected in a the geographical way compared to its origins in the sources of the ancient

Maghreb and follow the continuation or interruption of Toponymy in medieval sources, as well as the Reference label, and linguistic significance.
Key words: toponymy, Kutama territiry, Mila, Sétif, continuation, interruption, linguistic meaning

مقدمة:

ساهمت مدرسة الحوليات الفرنسية في توجيه دفة البحث التاريخي للعصر الوسيط إلى ميدان بحثي جديد ومهم للغاية، ممثلا في الجغرافية التاريخية، والتي أثمرت نتائج جديدة أماطت اللثام عن الكثير من المعطيات المجهولة إلى وقت قريب، وانتهى بها الأمر إلى تحييد الدراسات التاريخية عن طابعها الكلاسيكي المعهود، إلى أبحاث أكثر جدية مازجة المعطيات الوسيطية والمعلومات التي توفرها مصادر التاريخ المغربي القديم بشتى مشاربها.

وتعد الطوبونيميا أحد فصول الجغرافية التاريخية، حيث استطاع الباحثون التأكيد على أنه علم قائم بذاته مرتبط بميادين بحثية أخرى، على غرار: اللسانيات، الأنثروبولوجيا، الايبوغرافيا، الاجتماع، وغيرها من الميادين الأخرى. وبفضل هذه النتائج المتوصل إليها، يمكن الحديث عن مرجعية تسمية المواقع، مدلولها الجغرافي، تصنيفها الطوبونيمي، وكيفية وصولها بطابعها المعرب الحالي، انقطاعها أو تواصلها خلال فترات المختلفة من الدراسة.

وتدور إشكالية الدراسة حول التحولات التي طرأت على أسماء المواقع تخصيصا بالمجالات الكتامية خلال الفترة الوسيطية؟ وتأثر أصل التسمية بعملية التعريب التي واكبت الفتوحات الاسلامية لبلاد المغرب؟وحدوث تواصل أو انقطاع للطوبونيمات بالمجال الكتامي خلال فترة معينة من الاطار الزمني للدراسة؟ أسئلة نريد الاجابة عليها من خلال النصوص العربية التي عاصرت الفترة الوسيطية من الفتح الاسلامي إلى نهاية القرن الهجري التاسع/15م، وربطها بالمعطيات التي قدمتها لنا مصادر التاريخ القديم لبلاد المغارب، وهذا بإسقاطها على النماذج المختارة ممثلة في الطوبونيمين ميلة وسطيف.

أولا- الطوبونييما: المفهوم والمضمون

1-مفهوم الطوبونيميا:

تظهر بعض التعريفات لهذا التوجه البحثي لتاريخ المواقع، ومدلولاتهافي قراءات كثيرة، من مدارس مختلفة، يمكن تلخيصها في الآتي:

مع محمد حسن كممثل للمدرسة التونسية، تم طرح ماهية علم الطبونوميا انطلاقا من مدخله العام في الموقعية = الطوبونوميا (*Toponymie*)، على أنها فصل من فصول الجغرافية التاريخية، التي هي أداة تيسر الإجابة عن بعض الاسئلة التي عجزت النصوص عن فك رموزها، وهذا انطلاقا من مقارعة النص المصدري مع الواقع الأثري لتحديد المواقع المجهولة، وليس الموقعية فحسب، بل جل ما له علاقة بالطوبونوميا على غرار المسالك، الطرق، المعالم، والشبكات المائية، وعليه يمكن خلالها تأسيس أطلس أثري للمواقع أكثر توازنا ودقة

وحاول الوافي نوحي الإحاطة بماهية الطوبونيميا كفرع من علم الأنوماستيكا، والذي فرعه الثاني هو الأنتروبونيميا (علم الأسماء) من خلال تحديد ماهيته اللغوية، والاصطلاحية. فلغويا يعني دراسة الأعلام المكانية (الأعلامية المكانية، العلمية المكانية، الأماكنية)؛ وأما معناه الاصطلاحي، فهو العلم الذي يهتم بدراسة مجموعة من الأماكن في زمن ما، بغض النظر عن نوع الكتابة التي دونت بها (العربية، المحلية، اللاتينية...إلخ)، أو نوع المجال (الصحراوي، الجبلي...إلخ)[1].

وتبرز أهمية هذا العلم في مناحي كثيرة، فهو يساعد على تحديد الهوية، كما يهدف إلى تحصيل المعرفة بالإنسان ومحيطه الاجتماعي والثقافي، ويؤدي البحث في هذا العلم إلى إحياء الذاكرة الجماعية وبناء الهوية الثقافية، بشرط توفر أحد أبرز قواعد البحث في هذا المجال وهي استحضار كل الألسن المتداولة.

وعلى نفس المنوال سار رشيد الحسين في كتاباته[2]، لتحديد مفهوم الطوبونيميا، حيث أشار إلى أنه من العلوم الموضوعية التي تهتم بإدماج المعطيات التاريخية في الواقع المعيشي، فهو علم الأعلام الجغرافية (*Toponymie*) أو الأماكنية، كما أنه يمثل عنصرا مساعدا لكشف هوية المجتمعات والشعوب، واستعادة ذاكرتها الجماعية والثقافية[3].

إن هذه الأداة البحثية الجديدة سرعان ما وجدت طريقها إلى المدرسة الجزائرية، حيث بدأت تدريجيا الخوض في تجربة دراسة الموقعية انطلاقا من توفر كم هائل من المواقع الأثرية مقرونة بالعصر الوسيط الإسلامي بمجالات المغرب الأوسط عموما، والمجال الزابي محل الدراسة تحديدا. إن القراءات التي توجها أحد نماذج المدرسة الجزائرية ممثلا في علاوة عمارة في دراستين[4]، ومن خلالهما حاول تقديم تفسيرات لمفهوم الطوبونيميا، بحصرها في أصل اسم الموقع، وكيفية تحوله إلى واقعه العربي، منتقلا من أصله النوميدي إلى اللاتيني ثم

العربي، مع ربط كل هذه التغيرات الطوبونيمية بعمليات التعريب التي مست أغلب الطوبونيمات القديمة مابعد الفتح الاسلامي للمنطقة، مع ذكره للتواصل الذي عرفته الطوبونيميا المحلية بمجالات كثيرة[5].

ومتأثرا بكتابات هشام جعيط، نهج الطاهر طويل نفس منحى المدرسة التونسية فيما يخص ماهية علم الطوبونيميا وأهميتها، رابطا إياها بعمليات التعريب التي مست جل المواقع ببلاد الأوراس مجال دراسته، وببلاد الزاب مجال الدراسة الحالية، حيث يرى بأن الطوبونيميا هي أداة مساعدة للفهم السريع لتعريب أسماء المدن والمناطق، وكذا أصلها، رابطا هذا الأمر بتغيرات جوهرية في التسمية نتيجة تلاقي الأسلمة مع الألفاظ العربية المجلوبة والمقتبسة من المشرق[6].

أما طبيعة هذه الأداة البحثية بحسب خديجة ساعد، فهي:" تهتم بأسماء الأماكن دراسة وتحليلا، من حيث صياغتها ومعناها وتطورها، وذلك بالاعتماد على عدد من الحقول المعرفية، كالتاريخ، واللغة، والأنثروبولوجيا والجغرافيا، كما يتطرق هذا العلم إلى التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية التي طرأت على المجتمع عبر مختلف الحقب التاريخية، وذلك من خلال ماهية المكان وتسميته الطوبونيمية"[7].

لقد مثلت مدرسة الحوليات الفرنسية منطلقا للجغرافية التاريخية، والتي تعد المواقعية أحد فصولها المهمة، حيث يقدم لنا ألبار دوزا (*Albert Dauzat*)، حقيقة أساسية مفادهاأن الطوبونيميا هو علم من العلوم التي تدرس الموقعية بشتى أصنافها مثل أسماء المدن، القرى، البلدان، الأنهار، الجبال...إلخ، وأشار إلى أن الطوبونيميا أو أسماء المواقع الجغرافية تقوم في الأساس على اللسانيات أو اللغويات[8].في حين تشير قراءات شارل روستنغ (*Charle Rostaing*)، إلى أن الطوبونيميا هو العلمالذي يدرسمرجعيةومفهوم أسماء الأماكن وتطوراتها المتتالية، ويضيف بأنها تأخذ بعين الاعتبار أسماء الأماكن المأهولة، والمدن، والقرى، والأماكن المحلية، مثل تلك الموجودة في الجبال والأنهار، وهذه هي دراسة الأورونيميا والهيدرونيميا[9].

وعلى دربهم سار أرثور بيليغرن (*Arthur Pellegrin*)، الذي صنف الطوبونيميا ضمن العلوم، رابطا إياها بدراسة أسماء الأماكن،في قوله:" الطوبونيميا هو البحث والوصف والشرح للمعاني التيساعدت ولازالت تعين لتحديد جوانب

الطبيعة وصلاتها بالحضور البشري، ابتداء من مصطلحات الإرشاد إلى غاية تعيين شوارع المدينة، مرورا بأسماء الينابيع
والأنهار والجبال والقرىالمدن والبلدان"[10].

مع جون لواك (*Jean Loicq*) تبرز الماهية والمرجعية العلمية للطوبونيما، فهي تدرس أسماء الأماكن أو تعين جميع أسماء المواقع الجغرافية لقرية، أو منطقة، وما إلى ذلك...وهذا يعني أن الطوبونيميا هو فرع من اللسانيات (*Linguistique*)، وهو علم يمكن أيضًا أن يمارس وفقًا لوجه مزدوج، وصفي (*synchronic*) أو تاريخي (*diachronique /évolutif*)[11].

وحاولت أنا أرياس تور (*Ana Arias Torre*) تقديم تعريف للطوبونيميا، فأشارت إلى أنها تمثل دراسة لأسماء الأماكن، وهذه الأسماء تمثل الشاهد على التغيير في لهجات أو ألسنية (*Linguistique*)للغة معينة[12].وتظهر أهمية الطوبونيميا من خلال النموذج الكتالوني[13] الذي أورده محند تيلماتين (*Mohand Tilmatine*)، وانطلاقا منه جاءت ماهية الطبونيميا، وأهدافها مرتبطة بالهوية واللسان والموروث الثقافي[14].

2- مضامين الطوبونييما:

لا شك أن تسميات المعالم الجغرافية (المواقعية) مختلفة، فقد تكون منفردة، في حين قد نجد تسمية المواقعية مركبة أحيانا أخرى، والأمثلة في ذلك كثيرة، وعليه، فالطوبونيميا ارتبطت بالكثير من المضامين، مما جعل الباحثون يحاولون تفصيلها، في أصناف محددة،ويمكن تلخيص بعض هذه الأصناف ومضامينها في الآتي:

- أسماء المواقع المرتبطة بالتضاريس: الجبل،الكاف،الذراع،الرأس،الثنية،الشعبة،الكدية،الفج[15]. ويطلق عليها تسمية الأورونيم [*Oronyme*][16]. ومن الأمثلة التي جاء ذكرها بالمجالات الكتامية بالمصادر الاسماعيلية موقع: (فج الأخيار)، وهو المعلم الجغرافي الذي ارتبط اسمه ببدايات الدعوة الاسماعلية الشيعية ببلاد المغرب الأوسط[17]. كما يورد لنا البكري نموذجا آخر لموقع بميلة هو جبل بني ياوروت[18].
- أسماء المواقع المرتبطة بالمياه: عين،بئر،المنبع،الحمام، الوادي،تالة،الحاسي،الداية،الفيض،العقلة،الحوض،السبخة،الشط،العنصر[19]. ويطلق عليها تسمية الهيدرونيم [*Hydronyme*][20]. ومن الأمثلة ما ورد ذكره بموقع ميلة خلال الفترة الوسيطة: عين ميلة[21] أو عين المدينة[22].

- أسماء المواقع المرتبطة بالعرق (الاثنية): شخصية قبلية، قبيلة، عشيرة. وتدعى: الاثنونيم [*Ethnonyme*][23].

-أسماء المواقع المرتبطة بالمنظومة الدينية أو المقدسة: المتصوفة،المرابطون، المشايخ،العلماء،الفقهاء. ويطلق على هذا النوع تسمية الهجيونيم[*Hagionyme*][24].

- أسماء المواقع المرتبطة بأسماء الأشخاص: وهناك حالتين لهذا النوع، فقد يكون إسم الشخص لوحده المكون الوحيد للموقعية؛ في حين الحالة الثانية يكون فيها إسم الشخص جذر ثان مكون للموقعية، أي أن إسم المعلم الجغرافي مركب
من إسم الشخص ودال آخر. ويحمل هذا الصنف تسمية: الإيبونيم [*Éponyme*][25].

- أسماء المواقع المتعلقة بالتماثل في الشكل التركيبي: ونعني بها إثنانأوأكثرمنأسماءالأماكنالمتماثلة في الشكل التركيبي، وتنسبإلىمجالاتجغرافيةمختلفة. ويطلق عليها إسم الهومونيم [*Homonyme*][26].

ثانيا- نماذج للطوبونيما بالمجالات الكتامية:

تم اختيار نموذجين للمواقعية بالمجالات الكتامية، من خلال موقعي ميلة وسطيف، وتمت المعالجة انطلاقا من تتبع تواصل أو انقطاع كل طوبونيم على حدى بالمصادر الوسيطية، ومقارنة الشكل التركيبي فيها، مع العودة إلى حضور تسمية الموقع في مصادر التاريخ القديم بشتى أنواعها (الأدبية، المسيحية، الايبغرافية، الرومانية، البيزنطية...إلخ)، ثم مقارنة الشكل التركيبي لاسم الموقع في المصادر الوسيطية والقديمة، وتحديد مرجعية الاسم، والتحولات التي طرأت عليه من خلال تأثيرات عملية التعريب، مع التنبيه لوجود التصحيفات أو التحريفات، ثم محاولة الوصول في نهاية المطاف إلى مدلوله اللغوي. في حين، إذا ما تأكد انقطاع التسمية في مرحلة زمنية معينة للفترة الوسيطية، يتم إبراز التسمية الجديدة، ومحاولة تحديد أسباب الانقطاع الطوبونيمي، وفيما يلي دراسة للنموذجين:

1- سطيف:

1-1- الموقع والبعد الاسترتيجي:

تقع بالمجالات الكتامية[27]، إلى الشمال من بسكرة، وتستقر ضمن الطريق الروماني القديم منها إلى قسنيطنة[28](*Cirta*) وعلى الطريق بين ميلة وقلعة بني حماد بنواحي المعاضيد بالمسيلة، وهي أقرب منها إلى ميلة فهي على بعد مرحلة[29]، يسمح لها موقعها وحدودها بالاشراف بدون شك على مجرى وادي بوسلام الذي يتحكم في حصانة موقعها، كما تستقر كنقطة مراقبة في

آن واحد على جبال القبائل الصغرى، ومرتفعات بابور، وتحافظ على سيطرتها على الطريق القادم من الغرب، والذي ينتهي بعبوره إلى البيبان[30].

واكتسبت سطيف مكانة مرموقة بفضل موقعها الاستراتيجي، فأصبحت خلال القرن الميلادي الثالث قاعدة مقاطعة موريطانيا السطايفية[31]. ارتقت مكانتها في نهاية القرن الهجري الثالث/9م على عهد صاحبها علي بن عسلوجة، بعد وصول واستقرار الجماعات الاسماعيلية بالمنطقة الجبلية في الشمال منها بين فصيل بني سكتان (إيكجان/بني بوعزيز)، ومنها كان منطلق الدعوة الاسماعيلية في بطون كتامة أيام أبو عبد الله الداعي[32].

وتقطع من الشمال سطيف سلسلة الأطلس التلي (جبال بابور)، ومن الجنوب سلسلة الأطلس الصحراوي التي تمثلها جبال بوطالب التي تقابل سبلة بأعالي مقرة (*Macri*)، وتتوسط السلسلتين سهول منبسطة، يذكر ذلك صاحب وصف إفريقيا:" سطيف مدينة بناها الرومان على بعد ستين ميلا جنوب بجاية، بعد قطع كل الجبال، في سهل جميل جدا"[33]. وتعتبر سطيف منطقة عبور إستراتيجية فقد مثلت نقطة تلاقي لطرق رومانية كثيرة، تواصلت خلال الفترات الوسيطة، وحتى الحديثة، فمنها إلى جيجل مسلك عبر سطيفيس، ومنها إلى جميلة طريق عبر الجبال، ومنها إلى قسنطينة عبر ميلة، وينطلق منها طريق قديم إلى لمبيز، وآخر إلى زانة[34].

واشتهرت على العهد البيزنطي بقلعتها مستطيلة الشكل، التي تم تشييدها في حدود 540م[35]، هذه الأخيرة نلاحظ استمرار حضورها في المصادر العربية:" إلى جهة الجنوب حصن سطيف ...كبير القطر كثير الخلق كالمدينة"[36]. كما أن المدينة:" محاطة بأسوار مبنية بحجر جميل ضخم مكعب"[37]. مما يؤكد ماذهب إليه بلونشي بأن مدن البربر المسلمين خلال العصر الوسيط، ماهي إلا استمرار للمدن العسكرية البيزنطية[38]. ويظهر ديهل تخطيط القلعة البيزنطية، موضحا حصانتها بالأبراج مربعة الشكل، والمحيطة بها لتأمين أسوارها الخارجية، وتشبه بشكل واضح أبراج حصن طبنة[39]، وتاملالا، وزانة[40]. كما يدرج صورة للقلعة البيزنطية القديمة، والتي رسمها ديلارم[41].

2-1- حضور الطوبونيم في مصادر التاريخ القديم:

Sitifensium- Sitifensi-Sitifi - Sitifim-Satifis -Sitifis

- خلدت التسمية بالشكل (*Setifis*) في نقائش لاتينية عديدة[42].

- ذكر الموقع عند صاحب تاريخ روما أميانوس (*Ammien Marcellin, XXVIII, 28/ 6*) بالشكل (*Sitifim*)، في النص الآتي[43]:

ac Ruricius quidem apud Sitifim caesus

- جاء رسم اسم الموقع في نقيشة لاتينية بالشكل (*Sitifi sepultus*)[44]. كما تم ذكرها بالشكل (*Sitifi*) في المسلك الأنطونيني جامدة، ومرتبطة مع:[*a Lambese Sitifi, a Theveste Sitifi, a Lamasba Sitifi*]
- وردت بنفس التسمية (*Sitifi*) في ألواح بوتنغر، بروكوب، وبطليموس.
- وذكرت في شكلها العرقي (الإثني) في رسائل القديس أوغسطين بالرسم (*Sitifensis*)[45]، كما خلدت التسمية في نقيشة لاتينية أخرى[46] وتظهر في الكتابة الآتية:

rei p(ublicae) splend(i) d(issimae) col(oniae) Sitifen[sis]

- كما نجدها في نقيشة أخرى بالتسمية (*Sitifensium*)[47]، مدونة في الكتابة الآتية:

r(es) p(ublica) Sitifensium Ner(vianorum) Antoninianor(um)

- سنة 411م، ذكرت في قائمة المجمع الديني لقرطاج، من خلال مشاركة أسقفينكممثلين للمدينة أحدهما دوناتي، والآخر كاثوليكي[48].
- سنة 484م، ذكرت في قائمة المجمع الديني لقرطاج، من خلال مشاركة أسقف وحيد[49].

- نلاحظ تباين واضح في الجذر النهائي لكل التسميات السابقة في المصادر القديمة، ونرجح أنها زيادة لاتينية في نهاية كل الأسماء لا غير، إما للتدليل على وضعية المدينة كما هو حال المدينة التي تحولت إلى مستعمرة / جمهورية أو لإحياء حقيقة عرقية كائنة في تلك المرحلة، وكل هذه التسميات تنتهي في جذرها الأساسي (S-i/e-tif) عند تسمية موقع واحد، وتطابق التسمية المعربة (سطيف).

1-3- تواصل و انقطاعالطوبونيم في المصادر الوسيطية:

سطيف- سَطِيف – سُطَيف- سْطِيفْ

لقد توصلنا إلى أن التسمية اللاتينية للطوبونيم تنتهي عند الاسم المعرب (سطيف)، الذي اتفقت كل المصادر العربية في ذكر شكله التركيبي، مع تباين في لهجة نطقه لاختلاف بسيط في تشكيل الحروف، ووردت فيالمواضع الآتية:

- في افتتاح الدعوة، خلال بدايات وصول الجماعات الاسماعيلية للمجالات الكتامية التي كانت مستقلة عن حكم بني الأغلب:" وذكروا ميلة، وسَطِيف، وبلزمة، وقالوا هي في حدودنا"[50]. (سين مفتوحة، وكسر الطاء).
- جاءت في جغرافية اليعقوبي، مقترنة بالتوطين العربي بها، وممثلين في بني أسد:" ومدينة يقال لها سَطِيف بها قوم من بني أسد بن خزيمة عمال من قبل بني الأغلب"[51]. (سين مفتوحة، وكسر الطاء).
- في مسالك الإصطخري، مرتبطة بالتوطين البشري، ممثلين في قبيلة كتامة:" وأما كتامة فأوطانها بناحية سطيف"[52]. (دون تشكيل الحروف).
- وردت في رحلة ابن حوقل النصيبي، ذاكرا أبعادها مع مدن من بلاد الزاب:" مدينة سطيف كثيرة الخير تقارب ميلة والمسيلة وتصاقب القسطنطينية"[53]. (بدون تشكيل الأحرف).
- يذكرها المقدسي ضمن مدن بلاد إفريقية:"...سَطِيف، إيكجان، مرسى الدجاج، أشير"[54]. (سين مفتوحة، وكسر الطاء).
- يوردها البكري في مسالكه، واصفا قدمها، كتاميتها، وضعيتها بعد الهجرات الهلالية بامتلاك العرب لجبايتها:" سطيف وهي مدينة كبيرة جليلة أولية...كانت في الأول لكتامة، غلبتهم عليها العرب، وكانوا يعشّرونهم"[55]. (سين مفتوحة، وكسر الطاء).
- وردت في نزهة المشتاق مقترنة بحصنها الذي يجاور مدينة بجاية:" وعلى مقربة من مدينة بجاية إلى جهة الجنوب حصن سطيف"[56]. (دون تشكيل الحروف).
- وذُكِر اسم الموقع عند صاحب الاستبصار، من خلال المسلك ميلة- القلعة الحمادية:" وعلى الطريق بين ميلة وقلعة أبي طويل وهي قلعة حماد، مدينة سِطيف، وبينها وبين ميلة مرحلة"[57]. (بكسر السين).

- جاءت في معجم البلدان:" سَطِيفُ: مدينة في جبال كتامة بين تيهرت والقيروان من أرض البربر ببلاد المغرب...ومنها خرج أبو عبد الله الشيعي"[58]. (كسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت، وآخره فاء بضمة).
- أوردها صاحب العبر، في معرض حديثه عن ديار كتامة، وحدودها:" وبين ديارهم ومجالات تقلبهم مثل إيكجان وسُطَيف"[59](ضم أوله ثم فتح ثانيه).
- وفي المصادر المتأخرة، جاءت عند صاحب وصف إفريقيا بالشكل سْطِيفْ[60](إسكان أولها وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت، وآخره فاء ساكنة).

- ماذا نستنتج؟ انتهينا إلى تواصل تام لطوبونيم سطيف خلال الفترة الوسيطة من خلال حضوره في كل المصادر حتى المتأخرة، ولاشك أن رسم شكلها التركيبياتفقت عليه جل الروايات العربية، وهو دال على موقع سطيف بجبال كتامة على الطريق بين ميلة والقلعة، الذي يعد فرعا متواصلا خلال العصر الوسيط من الطريق الروماني القديم القادم من قسنطينة باتجاه سطيف عبر ميلة[61].

من المرجح أن التباين الواضح في منطوق اسم الموقع في تشكيل حروفه، يعود في الأساس إلى تعريب التمسية من أصلها اللاتيني، كالآتي:

- سِطيف (كسر السين): ناتجة من تعريب أحد الجذور الرئيسية في التسميات اللاتينية التي ذكرناها سلفا وهي: *(Sitifensium-Sitifensi-Sitifis)*، مع التأكيد على أن الجذور الاضافية في التسمية الأصلية، ونقصد بها: (*ensium- ensi- is*)، نظنها زائدة في الأسماء اللاتينية، وقد قمنا بإهمالها في ترجيحات التعريب من الأصل اللاتيني.
- سَطِيف(فتح أولها، وكسر ثانيها): نرجح أنها نتجت عن تعريب الإسم اللاتيني الوارد بالشكل : (*Satifis*)، مع إهمال الجذر الإضافي في التسمية الأصلية لظننا بأنه زائدة لاتينية في الأسماء الأصيلة.

1-4- المدلول اللغوي للطوبونيم:

- يرى بيلغرن بأن التصنيف الطوبونيمي لاسم الموقع سطيف (*Sétif*) من التسمية اللاتينية (*Sitifis*)، يندرج ضمن الطوبونيميا المرتبطة بالألوان، وأشار إلى أنها تقابل الأسود (*Négre*) أو الحيوان باللون الأسود(*Animal de couleur noir*)، وهي تطابق التسمية المحلية: (*Esedif.*)

(*pl. isedifen*)،وأشار إلى أنها تقابل: في اللهجة التارقية الكلمة*Ouzzaf* ()، في المنطوق الشاوي (الأوراسي) الكلمة *(Asett'af)*، وكما لها نظير في اللهجة الميزابية هي *(Zett'af)*[62].

- الطرح نفسه تذهب إليه ساعد خديجة، حيث تربأن طوبونيم سطيف يتفق في مدلوله مع اللون الأسود، إنطلاقا بحسبها من الاتفاق الحاصل بين الباحثين والمهتمين باللغة المحلية، بأن طوبونيم سطيف يطابق التسمية المحلية قليلة الاستعمال *(Azettaf)* أو *(Asettaf)* من الجذر *(STF /ZTF)*[63].

- يقدم لنا محمد شفيق المدلول اللغوي للطوبونيم المشتق من التسمية المحلية الدالة على اللون الاسود بشكل واضح في معجمه:

- سَوِدَ، اِسْوَدَّ، اِسْوَادَّ، كان أسْوَدَ = **نَسطَّاف**؛...إلخ.
- الأَسْوَدُ = **أسطَّاف** /ج/ **ئسطَّافن**؛... إلخ.[64]

2- ميلة:

2-1-الموقع والبعد الاستراتيجي:

من غُرَر مدن الزاب[65]، تستقر في منطقة جبلية بالقطاع الشمالي لمقاطعة نوميديا (الزاب)، يضعها اليعقوبي بين تيجيس وسطيف[66]، ويضعها الادريسي بين قسنيطنة على الشرق منها وسطيف[67]، وتعد من أهم المحطات على الطريق الروماني القديم بين قسنيطنة وسطيف[68]، والمتواصل خلال العصر الوسيط، حيث يقدر صاحب نزهة المشتاق طوله بأربع مراحل. وتعد ميلة من المدن الأربعة التي كونت الكنفدرالية السيرتية مع قسنطينة والقل وسكيكدة[69]، مما سمح لها بحسب ديهل من مراقبة الممرات الساحلية الشمالية القريبة منها[70]، وبحسب اليعقوبي:" سواحل البحر تقرب من هذه المدينة ولها مرسى يقال له جيجل، ومرسى يقال له اسكيكدة ومرسى يقال له مابر ومرسى يقال له دبهاجه"[71]. كما يشير البكري إلى ذلك في قوله:"ثم تسير من مدينة ميلة إلى مرسى الزيتونة وهو جبل جيجل"[72].

واحتلت ميلة موقعا استراتيجيا مُهِمًا، أين تتمحور حولها مدن ومسالك كثيرة في اتجاهات مختلفة، فمدينة سطيف تقارب ميلة على الطريق منها إلى قلعة بني حماد، على طول مرحلة[73]، كما لا تبعد ميلة عن قسنطينة الهوى سوى ثمانية عشر ميلا أو ثلاث مراحل[74]،ومنها إلى بلاد حماد أربع مراحل إلى الشرق[75]. كما لها ارتباط ببجاية، فهي على بعد ثلاثة أيام[76].

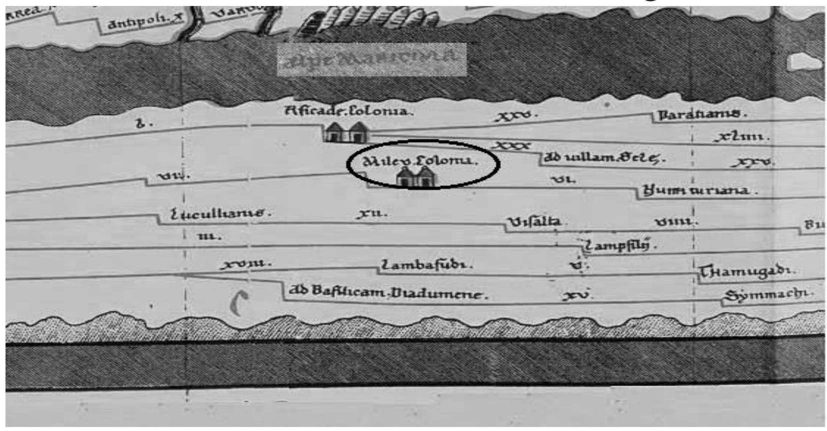
واشتهرت ميلة بأسطورة مسجد فاتحها أبي المهاجر دينار:" وانتهى المهاجر إلى عيون أبي المهاجر وافتتح ميلة، وكانت إقامته في هذه الغزاة نحوا من سنتين"[77]، وقبل هذا، عرفت بقلعتها البيزنطية، هذا الحصن المنيع الذي يتواصل ذكره في المصادر العربية على غرار حصن سطيف[78]. من مواصفات الحصن الاسلامي أو القلعة البيزنطية، هو سورها الذي بحسب ديهل انطلاقا من مخطط غزال يصل طوله إلى حوالي 1200م[79]، ويذكر البكري أنه من صخر، وقد هدم في أحداث 378هـ/989م، أيام حملة المنصور بن أبي الفتوح يوسف بن زيري الصنهاجي على ببلاد كتامة[80]. بالإضافة إلى الأبراج التي وضعت لحماية القلعة، والتي يظهرها ديهل انطلاقا من مخطط دولامار[81].

2-2- حضور الطوبونيم في مصادر التاريخ القديم:

Milev – Mileum- Milei- Milevatanus- Millevitanus- Mileo

حافظت ميلة على اسمها القديم، والذي جاء ذكره في مختلف مصادر التاريخ القديم: المسلك الأنطونيني، ألواح بوتنغر، نصوص القديسأوغسطين، النصوص البيزنطية المتأخرة لبروكوب، قائمة المجمعات الدينية المسيحية، ووردت بالأشكال، وفي المواضع الآتية:

- وردت على ألواح بوتنغر بالشكل (*Milev Colonia*)[82].



طوبونيم ميلة على ألواح بوتنغر

(المرجع: *Tabula Peutingeriana, P a r s III*)[83].

- وخُلِّدت تسمية الموقع بالشكل (*Milev*) في النقيشتين الآتيتين[84]:

Q. SITTIO.
Q. FIL. QVIR.
FAVSTO. IIVIRO.
PRAEF. I. D. COL. VE
NERIAE. RVSICADE
ET. COL. SARN[MILEV]
ET COL. MINERVIAE
CHVLLV. AEDIL.
MVNCIPES. OB.
MERITA. EIVS.
AERE CONLATO

APRONAE. SEX. FIL. FI
DAE. CONIVGI.
Q. SITTI. Q. FIL. QVIR. FAVS
TI. PROBATI. AB.
IMPP L. SEPTIMIO. SEVERO
PERTINACE. AVG. ET.
M. AVRELIO. ANTONINO. AVG.
IN. QVINQ. DECVRIAS. ALLECTI. A. DIVO
M. ANTONINO. PIO. FLAM. PERP.
IIIVIR. QVINQ. IIIVIR. PRAEF. I. D.
..L. VENER. RVSIC. PRAEF. I. D.
..L. SARN[MIL(EV)]. ET. PRAEF. I. D.
COL. MINER. CHVLLV. AEDIL
AMICI. OB MERITA MARITI
..VS. IN. SE. AERE. CONLATO.
L. D. D. D.

- جاء بالشكل (*Mileum/Milevm*) في المسلك الانطوني[85].
- ذكرت في رسائل القديس أوغسطين بالشكل (*Mileum*)[86].
- أوردها القديسأوبتاتاميلي بالشكل (*Milei*)[87].
- ذكر الموقع بروكوب، واعتبرها منالمدنالنوميديةالتي تم تحصينها على عهد الامبراطور البيزنطيجستنيانا[88].
- خلّدت تسمية الموقع الكتابات اللاتينية على عدة نقيشات، والتي حملت الشكل العرقي (الإثني)(*Milevatanus*)[89].
- خلدت تسمية الموقع في كتابات لاتينية على نقيشات حملت النموذج (*Millevitanus*)[90].

- سنة 256م، وردت تسمية الموقع في قائمة المجمع الديني بالشكل (*Mileo*)[91].
- سنة 402م/411م/ 416م، اكتسبت المدينة شهرة وصيت كبيرين بعد حضور اسمها في قائمة المجمع الديني المسيحي[92].
- سنة 553م، جاء ذكر اسمالمدينةفيالمجمعالدينيالمنعقدبالقسطنطينية[93].

– نلاحظ أن التمسية النوميدية أو اللاتينية الواردة في النصوص السابقة، تنتهي كلها عند الجذر الأساسي (*Mile*)، وهو الإسم الذي بقيت محافظة عليه المدينة حتى نهاية العهد البيزنطي، ووصول الفاتحين العرب.

2-3- تواصل و انقطاع الطوبونيم في المصادر الوسيطية:

ميلة - مِيلَة – مِيْلة – مِيلَةُ- ميله

تظهر صورة الموقع في المصادر العربية بشكل تركيبي موحد، ولا نقف عند تباين واضح، ماعدا تشكيل الأحرف، وذكر الطوبونيم في المواضع، وبالأشكال التركيبية الآتية:

- سنة 59هـ/679م، وردت في تاريخ خليفة ابن خياط مرتبطة بروايات فتح الموقع على عهد أبي المهاجر ابن دينار:" وانتهى المهاجر إلى عيون أبي المهاجر وافتتح ميلة"[94]. (دون تشكيل الأحرف).
- جاءت في جغرافية اليعقوبي:" مدينة عظيمة جليلة يقال لها مِيلَة عامرة محصنة"[95]. (كسر الميم وفتح اللام).
- خلال عمليات استرجاع الجماعات الاسماعيلة للمدن الأغلبية، ومنها ميلة التي كانت تحت إمرة موسى بن العباس وفرِح بن جبران. يورد القاضي النعمان اسم الموقع بالشكل مِيلَة[96]. (كسر الميم وفتح اللام).
- أوردها البكري: "ولمدينة مِيلَة بابٌ شرقي يعرف بباب الرّوس، وعلى مقربة منه جامعها"[97].(كسر أولها وفتح لامها).
- ذكرت عند صاحب الاستبصار:" مدينة مِيْلة: مدينة أزلية فيها آثار للأول تدل على أنها كانت مدينة كبيرة"[98]. (كسر الميم واسكان الياء).
- جاءت في معجم البلدان: " مِيلَةُ: بالكسر ثم السكون، ولام". (كسر أوله وفتح لامه وتاء متحركة بضمة/ ونقل عن المصدرين: بالكسر ثم السكون، ولام).

- ذكرها ابن عذاري بالشكل مِيلة، خلال ثورة أبو الفهم مع جموع كتامة ضد العائلة الزيرية، وكانوا تحت إمرة أبو الفتح المنصور بن زيري.
- يذكرها الوزان في وصف إفريقيا:"مدينة مِيلَة". (كسر أوله وفتح لامه)
- جاء الاتفاق في ذكر اسم الموقع بالشكل ميلة: في نزهة الادريسي، رحلة العبدري، عبر ابن خلدون، رسائل ابي المطرف. (بدون تشكيل الأحرف).

– نلاحظ تواصل الطوبونيم خلال الفترة الوسيطية من خلال حضوره في جل المصادر حتى القرن الهجري التاسع/15م وما بعده، كما يبرز التشابه التام في الشكل التركيبي لاسم الموقع في جل الروايات، وحتى الشكل الصوتي الذي يكاد يكون واحدا. بل يبرز الاتفاق في أغلب المصادر على تشكيل أحرف التسمية، بالرغم من غياب هذا التشكيل في كثير من المصادر سالفة الذكر. وعليه، فالشكل الموحد لا يعدو أن يكون ناتج عن تعريب اسم المدينة النوميدية، أو اللاتينية *Milev*= ميلاو[99] أو*Mileu* = ميلو[100].

Milev مِيلَاو ميلو	– ← تعريب-	مِيلَا مِيلَة ميله

- نلاحظ أن عملية التعريب تكاد تكون حرفية من أصل تسمية المدينة النوميدية ثم اللاتيني (*Milev*)،معالتأكيد على أن حرف (*v*)في الأصل اللاتيني لا يقصد به الفاء، بل يشير إلى حرف (*u*) التي تتحول إلى (واو) في العربية. كما أن
تعريب الاسم، يحتمل أن تكتب بألف طويلة في الأخير فتقرأ (ميلا)، أو بتاء مهملة لا تنطق وتقرأ ميلة، كما يمكن أن تقرأ بهاء مخففة بحسب ما ورد عند تيسو بالشكل ميله (*Milah*)[101].

2-4- المدلول اللغوي للطوبونيم:

- إن طوبونيم (ميلة) المعرب من الأصل اللاتيني يثير إشكالا بخصوص مدلوله، فتذهب المصادر اللاتينية إلى ربطه بالجانب الإثني-العرقي (*Milevatanus*)[102]، ونرجح أنها قبيلة أو بطن من القبائل اللوبية التي استوطنت الموقع، فطُبِعَ اسم الموقع بهم. هذه القراءة نجد لها

تأكيد في مسالك البكري، حين يضع ميلة ضمن القبائل الكتامية، وكانت لها مواطن غير التي ذكرتها النصوص اللاتيني، في قوله:" ويسكن قسنطينة قبائل شتى من أهل ميلة ونفزاوة وقسطيلية، وهي لقبائل من كتامة"[103].

- باتباع شجرة النسب لقبيلة كتامة وبطونها، والتي يذكرها ابن خلدون في العبر، نجد أقرب مطابقة للتسمية ميلة في البطن (موليت) من بطون سدويكش الكتامية، والتي مجالاتها تمتد ما بين قسنيطنة إلى بسائط بجاية[104]، ويرجح أن التسمية المنقوشة بالكتابة اللاتينة بالشكل (*Milevatanus*)[105] هي مجرد تحويل للتسمية القبلية من أصلها اللوبي، والتي حرفت إلى العربية، فتحولت إلى (موليت) بدل (ميلايات) أو (ميلوات) بعد تعريب التمسية اللاتينية، والتي قد تكون هي أيضا محرفة في شكلها. ونظن أن موليت تقابل (أمّولة) أو (إمّولة) الحالية والتي مجالات استقرارها بين سطيف وبجاية. ونجد تطابقا لهذه التسمية، مع فرع (إمولة) من (بني فنزر) من قبيلة (بني سليمان) بتطوان المغرب الأقصى[106].

- يقدم لنا الحسن الوزان، أحد التخمينات حول مدلول الكلمة ميلة، فيقول:" ويكثر في البلاد التفاح والاجاص وغيرهما من الفواكه، بحيث أن اسم هذه المدينة – على ما أظن- مشتق من الاسم اللاتيني ميلة بمعنى التفاح"[107]. وقد علق مترجمو نسخة وصف إفريقيا على هذه القراءة بأنه:" اشتقاق غير صحيح"[108].

خاتمة:

من خلال العرض السابق يظهر مدى أهمية علم المواقعية (الطوبونيما) بالنسبة لدراسات التاريخ المحلي للمناطق أو المجالات، فبعد البحث الذي تناولنا في جزء منه التحولات الطوبونيمية لبلاد الزاب خلال الفترة الوسيطية، جاء الدور هذه المرة على المجال الكتامي المصاقب لبلاد الزاب، وهذا من خلال ما مر بنا من نماذج ممثلة في طوبونيمي ميلة وسطيف. وقد خلصنا إلى أن عملية التعريب المواكبة للأسلمة قد مست اللسان المحلي، وكان لها تأثير مباشر آخر على المعالم الجغرافية.

ومن النتائج المتوصل إليها تواصل الطوبونيم ميلة خلال الفترة الوسيطة، وقد تأكدنا من أن التسمية المعربة ماهي إلا تعريب تام للأصل الذي لم نتأكد من مرجعيته، ونفس الملاحظة تنطبق على الطوبونيم سطيف، وهذا من خلال تتبعنا لحضور التسميات في المصادر العربية، والرجوع بالتاريخ الى الفترات التي سبقت الفترة الاسلامية، لا نتحدث هنا عن الفترتين البيزنطية والرومانية فحسب، بل الاغريقية والفينيقية والنوميدية، وهو ما أتاح لنا

تقديم مقاربات، وترجيحات للمدلول اللغوي للاسم، ومقاربات أخرى تخص المرجعية المحلية للتسمية من خلال المعطيات التي وفرتها لنا المعاجم اللغوية، والدراسات المتعلقة بالمواقعية المحلية.

الهوامش:

[1] الوافي نوحي، "الطوبونيميا: مجال توارد الهويات وتفاعلها"، المؤتمر السنوي السادس [تجاذبات الهوية: الدلالات والتحديات (الهوية المغربية أنموذجا)]، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، وجدة- المغرب، 2017. ويراجع تقرير حول الجلسة الأولى للمؤتمر من إعداد كمال بحو ومحمد البالي:

- file:///C:/Users/azer/Downloads/maroco_hawia.pdf.

مقال حول المؤتمر بالموقع الالكتروني لجريدة الشرق24 بتاريخ 13 نوفمبر 2017 بعنوان:"مركز الدراسات بوجدة يُكرم نجل محمد عابد الجابري":

- http://acharq24.com/m/news13404.html.

[2] يراجع دراسة أخرى له، والموسومة بـ: الأعلام الجغرافية والهوية: الأعلام الأمازيغية بالصحراء وموريطانيا، منشورات جمعية أوس للتنمية والعمل الثقافي والاجتماعي، 2008.

[3] رشيد الحسين، "الأعلام الجغرافية والهوية (4)- جزء كبير من الاعلام الامازيغية لم تفلح موجات الغزو في طمسها-"، أكراو أمازيغ، العدد 83، أكتوبر 2001: http://www.tawalt.com/?p=3897

[4] "التحولات المجالية والطبونيمية لبلاد الزاب من الفتح الاسلامي الى نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي"، مجلة تراث الزيبان، 2016؛ "الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير الاجتماعية لبلاد الزاب"، المجلة الخلدونية، 9 (2011).

[5] علاوة عمارة، "التحولات المجالية والطبونيمية"، ص 13-15.

[6] الطاهر طويل، "جغرافيةالعمرانبالمغربالأوسطخلالالقرونالهجريةالأربعةالأولى": مغرب أوسطيات (دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الاسلامي الوسيط)، مكتبة إقرأ، قسنطينة- الجزائر، 2013م، ص 58.

[7] ساعد خديجة، الطبونيميا الأمازيغية (أسماء وأماكن من الأوراس)، دار النشر آنزار، بسكرة- الجزائر، 2017م، ج1، ص 5-6.

[8] « Bien qu'elle tente souvent géographes et historiens, la Toponymie relève avant tout de Linguistique. Pour avoir méconnu cette vérité élémentaire». Albert Dauzat, Les noms de lieux: (Origine et évolution, Villes et villages, Pays, Cours d'eau,

Montagnes), Lieux-dits, Bibliothèque des Chercheurs et des Curieux, Librairie Delagrave, 27eme Édition, 1963, p. 3.

[9]«De la Toponymie elle envisage aussi les noms des lieux habités, ville, villages, et lieux-dits, que ceux des montagnes et des rivières, et c'est l'étude de l'oronymie et de l'hydronomie ». Charle Rostaing, Les noms de lieux (Que Sais-je), Paris, presses universitaires de France, 8eme Édition, 1974, p.5 et 7.

[10]« Est recherche, description et explication des vocables ayant servi ou servant encore à désigner les aspects de la nature dans ses rapports avec la présence humaine, depuis les termes d'orientation jusqu'aux désignations des rues d'une ville, en passant par les noms des sources, des rivières, des montagnes, des villages, des cités et des pays ». A. Pellegrin, Essai sur les noms des lieux D'Algérie et de Tunisie (Etymologie, Signification), Edition S. A. P. I, Tunis, 1949, p. 11.

[11]Jean Loicq, « La toponymie ou science des noms de lieux- Son application au patrimoine celtique de l'Ardenne », Folia Electronica Classica (Louvain-la-Neuve), 5(2003). http://bcs.fltr.ucl.ac.be/FE/05/toponymie.html.

[12]« Los topónimos son nombres que en gran parte reproducen y/o representan el mundo circundante. Estos nombres representan ideas oconceptos referidos, en su mayoría, a la topografía: Econimia, hidronimia, oronimia, litonimia, astionimia; a la fitografía: fitonimia y a la zoografía: zoonimia. La estructura interna de estos nombres puede mostrar procesosmorfológicos de derivación, verbos o adjetivos cambian de categoríapasando a constituir sustantivos. Estos tres grupos de palabras estánen relación directa con la formación de nombres toponímicos, porqueexpresan ». Ana Arias Torre « Toponymie de Ticapampa », Bol. Acad. peru. leng. 47 (2009), p.83.

[13] Nomenclàtor toponímic de Catalunya (2007).

[14]«La Toponymie est un des signes d'identité les plus tangibles de notre terre, qui outre le fait d'être une source importante d'information linguistique, recèle une valeur esthétique tout aussi considérable,...; elle devient ainsi un patrimoine culturel, collectif et multiséculaire que nous nous devons de préserver et de transmettre aux générations futures, afin que surtout elle ne soit pas déformée ou substituée ». Mohand Tilmatine, « Toponymie et aménagement linguistique : vers une

terminologie amazighe?, Acte du colloque international Aménagement linguistique : bilan et perspectives 12-13 et 14 mars 2012 », Revue Iles D Imesli, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Département de langue et culture Amazigh, Univ-Tizi Ouzou, Algérie, 4 (2012), p.104.

[15]Brahim Atoui, Toponymie et espace en Algérie, Thèse de Doctorat, sous la direction de: Marc Cote, Université de Provence - Aix-Marseille I, France, 1996, p. 109.

[16]Kadmon Naftali, « Glossaire de la Terminologie Toponymique », la Commission de toponymie de l'Institut Géographique National de Franceet par la Commission de toponymie du Québec, Paris et Québec, 1997, p. 22.

[17]القاضي النعمان، أبو حنيفة بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي (ت 363 هـ/ 973 م)، كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986م، ص 47.

[18] البكري، المصدر السابق، ج2، ص 254.

[19]Brahim Atoui, op. cit., p. 85-93 ; Tilmatine Mohand, «Toponymie et aménagement linguistique : vers une terminologie amazighe?, Acte du colloque international aménagement linguistique : bilan et perspectives 12-13 et 14 mars 2012», Revue Iles D Imesli, Univ-Tizi Ouzou, Algérie, 4 (2012), p. 112.

[20]Arthur Pellegrin, Essai sur les noms des lieux d'Algérie et de Tunisie (Etymologie, Signification), Edition S. A. P. I, Tunis, 1949, p. 159.

[21]البكري،أبوعبيدعبداللهبنعبدالعزيزبنمحمد) ت 487 هـ/ 1094 م، المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ج2، ص 254 (داخل المدينة عين تعرف بعين أبي السباع مجلوبة تحت الأرض من جبل بني ياوروت). يوسف عيبش، المرجع السابق، ص 350.

[22] يوسف عيبش، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد المغرب، أثناء الاحتلال البيزنطي، أطروحة دكتوراه دولة في آثار وتاريخ المغرب القديم (منشورة)، تحت إشراف: محمد البشير شنيتي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة-الجزائر، 2007/2006م، ص 350 (اللوحات).

[23] ساعد خديجة، المرجع السابق، ج1، ص 6.

[24]Christian Bonnelly, Jean-Marc Nicole, Judith Roy, «Le processus de formation et d'évolution des Hagionymes », Cahiers de géographie du Québec, 16 (1972), p. 99.

[25]« Éponyme [eponym]: En toponymie, nom de personne dont est tiré, en tout ou en partie, un nom de lieu ». NaftaliKadmon, « Glossaire de la Terminologie Toponymique ».

[26]« Homonyme [homonym] Deux ou plusieurs noms de lieux… ». Naftali Kadmon, *op. cit.*, p. 15.

[27] يذكر الادريسي حدود قبيلة كتامة:" تمتد عمارتها إلى أن تتجاوز أرض القل وبونة". ويذكر حدودها صاحب العبر من جبل أرواسفي القبلة إلى سيف البحر ما بين بجاية و بونة. الادريسي،أبوعبداللهمحمدبنمحمدبنعبدالله) ت .علىالأرجح 560 هـ 1160 /م) نزهةالمشتاقفياختراقالآفاقأوكتابروجر،مكتبةالثقافةالدينية،القاهرة، 2002م، مج1، ص 269؛ ابن خلدون، ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت 808 هـ/ 1406 م)، ديوان المبتدأ والخبر فيتاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن والحواشي والفهارس: خليلشحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2001م، ج6، ص 195؛ موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري/11م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ص 98.

[28] Charles Tissot, Géographie comparée de la province Romaine D'Afrique, Imprimerie nationale, Paris, 1884, T.2, p. 404.

[29]مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار "وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب"، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء-الرباط، 1985م، ص 166.

[30]Charles Deihl,L'Afrique byzantine (Histoire de la domination byzantine en afrique 533-709),Ernest Lerauxediteur, Paris, 1896, p. 258.

[31] موسى لقبال، المرجع السابق، ص 101.

[32] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 48 و 81 (الهامش)؛ ابن الأثير، عزالدينأبيالحسنمحمدبنمحمدبنعبدالكريمالجزري، (ت 630 هـ / 1233 م)،الكاملفيالتاريخ،تحقيق :أبيالفداءعبداللهالقاضي،دارالكتبالعلمية،بيروت، مج6، ص 451؛ فرهاد دفتري، الإسماعيليون، تاريخهموعقائدهم، ترجمة: سيف الدين القصير، دار الساقي، بيروت، 2012، ص 224.

[33] الوزان، بن محمد الفاسي الشهير بليون إفريقيا (ت بعد 957 هـ/ 1550 م)، وصف إفريقيا،ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ج2، ص 52.

[34]Stéphane Gsel, *Atlas archéologique de l'Algérie (A.A.A)*, textes – cartes, impr-libr Adolphe Jourdan, Alger, 1911, t.1 et 2, F° 16, N° 364.

[35] يوسف عيبش، المرجع السابق، ص 334.

[36]الادريسي، المصدر السابق، مج1، ص 269.

[37]الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 52.

[38]Blanchet Paul, « Excursion Archéologique dans le Hodna et le Sahara », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département Constantine*, 33 (1900), p. 292-293.

[39]Grange Raoul , « Monographie de Tobna (Thubunae »,*Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département Constantine*, 35 (1901), p. 67 ; Blanchet, *op. cit.*, p. 289.

[40]Deihl, *op. cit.*, p. 253 et 255.

[41]*Ibid*, p. 256-257.

[42]C.I.L., 8465, 8468, 8480.

[43]NoDictionaries Latin : Ammianus Historiae 28/6. http://nodictionaries.com/ammianus/historiae-28/6.

[44]C.I.L., 4692.

[45]A.A.A, F° 16, N° 364.

[46]*Ibid*, C.I.L., 8480.

[47]*Ibidem*, C.I.L., 10340.

[48]*Ibidem*.

[49] يوسف عيش، المرجع السابق، ص 332.

[50] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 36.

[51] اليعقوبي، أحمدبنيعقوببنواضحالكاتب(تنحو 284 هـ / 897 /مأوبعد 292هـ 905 / م)،كتابالبلدان،مطبعةبريل،مدينةليدن، 1892م، ص 140.

[52]الإصطخري، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الكرخي (ت. على الأرجح 346 هـ/ 957 م)،مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1927م، ص 44.

[53]ابن حوقل، أبوالقاسممحمدالنصيبي(ت 367 هـ 977 / م)،كتابصورةالأرض،منشوراتدارمكتبةالحياة،بيروت، 1992م، ص 93.

[54]المقدسي، أبوعبداللهشمسالدينمحمدبنأحمدبنأبيبكرالبناءالبشاري(ت 374 هـ/ 984 م أو 380 هـ/ 990 م)،أحسنالتقاسيمفيمعرفةالأقاليم،مطبعةبريل،ليدن، 1906م، ص 218.

[55]البكري، المصدر السابق، ج2، ص 258.

[56] الادريسي، المصدر السابق، مج1، ص 269.

[57] الاستبصار، ص 166.

[58]ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي (ت 626 هـ/ 1299 م)، معجمالبلدان،دارصادر،بيروت، 1977م، ج3، ص 220.

[59]ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 195.

[60]الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 52.

[61] يذكر المسلك بشكل واضح في رحلة ابن حوقل:" من تيجيس إلى قسنطينة، إلى ميلة إلى سطيف إلى مسيلة". المصدر السابق، ص 85.

[62]Pellegrin, *op. cit.*, p. 83.

[63] خديجة ساعد، المرجع السابق، ج1، ص 199.

[64] محمد شفيق، المعجم العربي الأمازيغي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1996م، ج1، ص 559.

[65] البكري، المصدر السابق، ج2، ص 245.

[66] اليعقوبي، المصدر السابق، ص 140.

[67] الادريسي، المصدر السابق، مج1، ص 265.

[68]Tissot, *op. cit.*, T.2, p. 404 ; Deihl, *op. cit.*, p. 604.

[69] عمار نوارة، الخريطة الأثرية لمنطقة ميلة وضواحيها في العهد الروماني، ماجستير في التراث والدراسات الاثرية (منشورة)، قسم التاريخ والآثار، جامعة قسنطينة- الجزائر، 2012/2011، ص 229.

[70]Deihl, *op. cit.*,p. 604.

[71] اليعقوبي، المصدر السابق، ص 140.

[72] البكري، المصدر السابق، ج2، ص 245.

[73] الاستبصار، ص 166.

[74] طول الطريق بين قسنيطينة وسطيف أربع مراحل، والمسافة بين سطيف وميلة على نفس الطريق مرحلة واحدة، وعليه فالبعد بين قسنطينة وميلة ثلاث مراحل.

[75]الحميري ، أبو عبد الله محمد الصنهاجي بن عبد المنعم (ت 900 هـ/ 1495 م) الروض المعطار فيخبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص 569.

[76] الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 244.

[77] خليفة بن خياط، شباب أبو عمرو بن أبو هبيرة الليثي العصفري (ت 240 هـ/ 855 م)، تاريخخليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 1985م، ص 226.

[78] ورد حصن ميلة في رواية القاضي النعمان خلال عمليات تطويق المدن الأغلبية من قبل الجماعات الاسماعيلية:" وغلب عبد الله واصحابه على أرباض ميلة، ودخل جميع من فيها إلى الحصن فانحصروا به". القاضي النعمان، أبو حنيفة بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي (ت 363 هـ/ 973 م)، كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع،تونس، 1986م، ص 136.ويراجع روايته، ص 167. حول حصن سطيف، عند محاصرة الداعي أبي عبد الله لعلي بن عسلوجة وأخيه.

[79]Deihl, *op. cit.*,p. 603.

[80] البكري، المصدر السابق، ج2، ص 245؛ الحموي، ج5، ص 244؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص 243.

[81]Deihl, *op. cit.*, p. 604.

[82] يشير باستارد Bastard إلى العثور على نصب تذكاري في موقع تيدي(س)(Tiddi(s)/ من قبل ريني Renier وكرولي Creuly مكتوب عليه: ColoniaSarn-Milev، ويذكر نفس التسمية تيسو Tissot، والتي جاءت في النقيشة: C.I.L., VIII, 6710. يراجع:

-M. Bastard, « Notes sur les Evêchés voisins de Cirta (Extraites de l'Africa Christiana).», Recueil des notices et mémoire de la société archéologique du département de Constantine, 1863, p. 236; Tissot, *op. cit.*, T.2, p. 407.

[83]http://www.hs-augsburg.de/~harsch/Chronologia/Lspost03/Tabula/tab_pe04.html.

[84]« Deux villes Numido-Romaines », Recueil des notices et mémoire de la société archéologique du département de Constantine, 1853, p. 85; C.I.L., 6710 et 6711.

[85]Tissot, *op. cit.*, T.2, p. 406.

[86]A.A.A, F°17, N°59.

[87] *Ibid.*

[88] يوسف عيبش، المرجع السابق، ص 346.

[89]يــذكر باســتارد أن التســمية العرقيــة أو الاثنيــة (*Milevatanus*) يمكــن رؤيتهــا بشــكل واضــح علــى النصــب التذكاريــة المعثــور عليهــا، بعضــها في قســنطينة، والآخــر في ميلــة. كمــا يــذكر غــزال في الأطلــس الأثــري للجزائــر بعــض النقيشــات التي ورد فيهــا الاســم العرقي، على ســبيل المثــال: C.I.L., 6700, 10327, 10328.

[90]P. Petitmengin, « Inscriptions de la région de Milev »,Mélanges de l'école française de Rome, 1967 (79-1), p. 177-178. https://www.persee.fr/doc/mefr_0223-4874_1967_num_79_1_7534.

[91]A.A.A, F°17, N°59.

[92] وقد أورد باستارد القائمة الاسمية لأساقفة ميلة بالمجمعات الدينية المسيحية. يراجع:
Bastard, *op. cit.*, p. 236-239 ; Tissot, *op. cit.*, T.2, p. 407.

[93] يوسف عيبش، المرجع السابق، ص 346.

[94]خليفة بن خياط، المصدر السابق، ص 226.

[95] اليعقوبي، المصدر السابق، ص 140.

[96] القاضي النعمان، المصدر اسابق، ص 136.

[97] البكري، المصدر السابق، ج2، ص 245.

[98] الاستبصار، ص 166.

[99] زهيــر بخــوش، التركيبــة البشــرية لمجتمــع الريــف الأوراســي أثنــاء الاحــتلال الرومــاني، أطروحــة دكتــوراه علــومفي الآثــار القديمــة (منشــورة)، معهــد الآثــار، جامعــة الجزائــر 2، 2016/2017م، ص 108.

[100] أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر، 1931م، ص 241.

[101]Tissot, *op. cit.*, T.2, p. 849. (Milah ‘Oued’, Près de Milev).

[102]Bastard, *op. cit.*, p. 236;

[103] البكري، المصدر السابق، ج2، ص 245.

[104] ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 197.

[105]A.A.A, F°17, N°59.

[106] محمد الشودري، "مقالات في كلمات: تاريخ تطوان"، بريس تطوان، 109، (2017).
-. https://www.maghress.com/presstetouan/25131

[107] الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 60.

[108]نفسه، ج2، ص 60 (الهامش).

الكاتب: د. محمد فوزي مصري رحيل
جامعة عين شمس- جمهورية مصر العربية

عنوان المقال: الكِحَّالةُ والكَحّالون في مصروالشام زمن الحروب الصليبية

البريد الالكتروني:m_raheel@aucegypt.edu

تاريخ الإرسال: 2019/03/22 تاريخ القبول: 2019/09/15 تاريخ النشر:2019/12/31

الكِحَّالةُ والكَحّالون في مصروالشام زمن الحروب الصليبية

الملخص بالعربية:

يهتم هذه البحث بدراسة موضوع "الكحالة والكحالون" أو طب العيون وأشهر من عمل به في مصر والشام زمن الحروب الصليبية. تبدأ الدراسة بمقدمة حول أسباب اختيار الموضوع، وصعوبات الدراسة ثم عدد من المباحث: **المبحث الأول- تعليم الكحال ووضعه الاقتصادي والاجتماعي: شمل تعليم الكحال في المدارس الطبية، والبيمارستانات و بيوت الكحالين ثم مكانة الكحال الاقتصادية والاجتماعية ثم أخلاقيات ممارسة الكحالة. المبحث الثاني : أشهر الكحالين ومؤلفاتهم : ويتعرض لمشاهير الكحالين و انتاجهم العلمي الذي وصلنا ويفصل لأربعة منهم مما وصلنا انتاجهم وهم : أبو العباس القيسي و خليفة بن أبي المحاسن الحلبي، وو ابن النفيس وأخيراً صلاح الدين الكحال. المبحث الثالث : تشريح العين في ضوء كتب الكحالة في عصر الحروب الصليبية . المبحث الر ابع :طرق علاج أمراض العيون التي تنوعت بين العلاج الغذاء ثم الدواء وأخيراً الجراحة ،المبحث الخامس: الآلات الطبية التي استخدمها الكحالون في جراحة العيون والتي تطورت بشكل كبير في ذلك العصر ساعد على علاج كثير من الحالات المستعصية، المبحث السادس: الاهتمام بالكحالة عند الصليبيين**، ثم خاتمة تتضمن أهم نتائج البحث

الكلمات المفتاحية: الكحالة، الكحالين، طب العيون، الحروب الصليبية، البيمارستانات، مصر، الشام، الطب الإسلامي، الحضارة الإسلامية ، أبو العباس القيسي، ابن النفيس، طبقات العين، صلاح الدين الكحال، أبي المحاسن الحلبي، ابن أبي أصيبعة، آلات جراحة العيون.

Abstract :

This research Interested in the subject of Study "kehala and Kahalin" ophthalmology and the famous Optometrist and their works, in Egypt and Syria during the Crusades era. The Study begins with an introduction about the reasons for choosing the subject, then the difficulties that faced the research after that the six topics: The First is " The kahal Education and its economic and social status", they were educated in medical schools, Hospital (Bumarstan), Houses of (kahaleen) Optometrists, the final point is the ethics of them. The second topic is "The famous (kahaleen) Optometrists and their books", which were reached us, I focus on four of them: Abu

Al Abbas Al Qaisi, Khalifa bin Abi Al Mahasin Halabi, Ibn Al-Nafees and finally Salah Al-Din Al-Kahhal. The third topic is "Anatomy of the eye in the light of Kehala books in the era of the Crusades". The fourth topic is "methods of treatment of eye diseases", which varied between food treatment, medicine and finally surgery. The fifth topic is "Medical instruments which used by Alkhalon in eye surgery", which developed significantly in that era and helped to cure many of the intractable cases. The sixth topic is "The interested with the Kehala in the Crusader settlements". Finally the conclusion, includes the most important results of the research.

key words: Al-Kahlain, Ophthalmology, Crusades, Bimarastanat, Egypt, syria, Islamic Medicine, Islamic Civilization, Abu Al-Abbas Al-Qaisi, Ibn El-Nafis, Salah Al-Din Al-Kahhal, Abo Elmahasen Alhalaby, ibn Abi Osibiaa, surgery instruments

مقدمة:

الكحالة (طب العيون)[1]- من أهم مجالات العلوم الطبية التي ازدهرت في ظل الحضارة الإسلامية؛ نظراً لارتباطها بصحة الإنسان صانع الحضارة، ومن ثّمَ لم يتردد المسلمون في الاستفادة من منجزات الأمم السابقة، وخاصة الفرس واليونانيين والسريان والهنود، تلك الأمم التي قطعت أشواطًا عديدة في هذا المجال، وما أن استوعب الأطباء المسلمون ما أنجزه السابقون، حتى بدأوا في دراسته ونقده والإضافة إليه[2]. وقد ارتبط ازدهار العلوم الطبية بالاستقرار السياسي والقوة العسكرية، فلما تفشت الصراعات التي أدت للتناحر اهتزت الحضارة الإسلامية، وتعثرت خطواتها، وتمكن الأوربيون من غزو الساحل الشامي في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجريين، فيما عرف بالحركة الصليبية، ولما أفاقت القوى الإسلامية في عهد الزنكيين والأيوبيين، كان الاهتمام بالنهضة الطبية بكل مجالاتها ومنها الكحالة.

وفي هذه الدراسة نكرس جهدنا لإلقاء الضوء على حقل الكحالة والكحالين في مصر والشام، خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، للتعرف على جهود كحالة القطرين المتعانقين أبداً في تقدم علم الكحالة، في وقت كان المسلمون في أشدّ الحاجة إليها مثل باقي العلوم الطبية، بحكم ما تخلفه الحرب من جرحي وموتى، وما يواكبها من أوبئة وأمراض.

وإذا ما تحدثنا عن دراسات سابقة، فنجد كثيراً من الدراسات التي اهتمت بالطب الإسلامي بشكل عام، ومنها أطروحتان حول الأحوال الطبية لبلاد الشام خلال تلك الفترة[3]، إضافة إلى أخرى تتعلق بالطب في مصر والشام في عصر المماليك[4]، غير أنها لم تتعمق في

مجال الكحالة، وكلّ اهتمامهما كان باستعراض أسماء الكحالين، وما ألفوه بشكل عرضي، دون الغوص في تلك المؤلفات للتعرف على مناهجها وما أضافته إلى المعارف في هذا الحقل الطبي المهم.

المبحث الأول- تعليم الكحال ووضعه الاقتصادي والاجتماعي:

تنوعت وسائل تعليم الكحالين -في مصر والشام- خلال فترة الدراسة، في ثماني وسائل هي: الملاحظة السريرية والممارسة، والقراءة الذاتية، والملازمة، والإملاء، والمناقشات والمناظرات، والمراسلات الطبية، والرحلة والحفظ[5].

وفيما يتعلق **بالملاحظة السريرية** فقد كان الطالب الراغب في تعلم الكحالة يصاحب أستاذه في البيمارستان، فيشاهد طريقة فحصه للمرضى، وكيفية تجهيز العلاج لهم، وممن تلقى الكحالة بهذه الطريقة القاسم بن خليفة بن أبي أصيبعة الذي أخذ صناعة الكحل عن القاضي نفيس الدين بن الزبير في البيمارستان العتيق في السقطين أسفل القاهرة، وكان أهم بيمارستان في مصر قبل بناء البيمارستان الصلاحي[6]. كما كانت **القراءة الذاتية** من وسائل تلقى علم الكحل وممن حصلها من هذا الطريق رشيد الدين ابن خليفة أبي أصيبعة قبل أن يمارسها في وقت كان يدرس فيه الطب ككل[7]، وهناك **القراءة على الأستاذ** حتى يصحح لتلميذه ما يخطأ في قراءته، ويشرح له ما يعسر عليه فهمه، فقد قرأ أحمد بن القاسم ابن أبي اصيبعة على مهذب الدين في البيمارستان النوري[8] ، كما كانت **"الملازمة"** من وسائل تعليم الكحالين، فقد لازم القاسم بن خليفة -والد أبي العباس ابن أبي اصيبعة- الكحال أبا الحجاج يوسف حتى أخذ عنه الكحل[9]. وكذلك **المناقشات والمناظرات** فقد كان من عادة مهذب الدين الدخوار أن يتناقش مع طلابه ومريديه في الأمور الطبية التي يختلف عليها وفي ذلك يقول ابن أبي اصيبعة[10] :"ويبحث في ذلك مع المتميزين منهم إن كان الموضوع يحتاج الى فضل بحث أو فيه إشكال يحتاج تحرير"، وأكد أن الدخوار بالرغم من بلوغه مرحلة متقدمة من العلوم الطبية ومن بينها الكحل كان **يحفظ** كل يوم شيئا من كتب الأقدمين.

أما **أماكن التعلم** فقد تعدّدت إما في المدارس الطبية المتخصصة، أو في البيمارستانات، أو في بيوت الكحالين، أو دكاكينهم التي انتشرت في الأسواق، أو حتى في الطرقات، وكذا في المعسكرات.

المدارس الطبية:

كان بالشام عددًا من المدارس الطبية التي لا تدرس إلا الطب بفروعه ومنها الكحالة، وكان في دمشق ثلاث مدارس هي: الدخوارية واللبودية والدينسيرية. فأما المدرسة الداخوارية فكانت بجوار المارستان النوري، أسسها مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار الذي كان كحالاً ثم جمع مع الكحالة الطب ،كما كان والده وأخوه كحالين من قبله، فلما أحس بدنو الأجل قام عام سنة621هـ/1225م على حد قول النعيمي أو 622هـ/1226م على حد قول ابن ابي أصيبعة بوقف بيته وثروته الكبيرة التي جمعها من الطب، على تعلمه، وتوفي عام 628هـ/ 1230م، وظلت المدرسة تعمل ويعين الأطباء فيها للتعليم لفترة طويلة بعد عصر الحروب الصليبية(11). أما المدرسة الدينسيرية التي أسسها غرب البيمارستان النوري الطبيب عماد محمد الدنيسيري المتوفى عام 686هـ/1287م ، ولم نعثر عل أحد من الكحالين تعلم فيها، لكن ذلك لا يعني عدم تعليم الكحل بها، وكذلك المدرسة اللبودية الواقعة خارج دمشق -آنذاك- التي أسسها الطبيب يحي بن محمد اللبودي المتوفى عام 670هـ/ 1271م(12).

أما مصر فكان بها عدد من المدارس الطبية منها مدرسة الإسكندرية التي كانت تدرس فيها كلّ العلوم ومنها الطب كما أشار ابن جبير(13)، ومدرسة قلاوون بجوار المارستان وكان يدرس فيها الطب وفروعه ومنها الكحالة(14).

البيمارستانات

كانت البيمارستانات أمكنة لتعلم الطب -النظري والعملي- وهو ما قرره المقريزي حال حديثه عن بيمارستان قلاوون حيث أشار صراحة لتخصيص مكان لإلقاء الدروس النظرية(15). وفي كلّ بيمارستان قاعة للكحالين بجانب باقي القاعات المخصصة لكلّ نوع من الأمراض(16)، وكانت البيمارستانات منتشرة في مختلف بقاع مصر والشام غير أن أشهرها: البيمارستان النوري بدمشق الذي أسسه الملك نور الدين محمود(17)، والبيمارستان الصلاحي بالقاهرة الذي أسسه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب 567هـ/ 1171م(18)، والبيمارستان الصلاحي في القدس الذي اسسه صلاح الدين الايوبي عقب استعادة القدس عام 588هـ / 1192م(19)، ثم بيمارستان السلطان المنصور قلاوون675هـ/1276م(20). وممن اشتهر بالتعليم في البيمارستان النوري رضي الدين الرحبي الطبيب الكحال، الذي كان يداوي المرضي، وحوله تلامذته ومنهم أبو العباس ابن أبي اصيبعة وابن النفيس وغيرهما كثير فيتعلمون منه بشكل نظري وعملي في آن واحد(21).

بيوت الكحالين

وكانت بيوت الكحالين من أهم مواطن تعليم الكحالة، حيث كان يجلس الكحال ويعلم من يريد التعلم على يديه، وبخاصة أولاد الكحال نفسه؛ لأن المهنة كانت من المهن الشريفة، بجانب كون عوائدها المادية كبيرة، تزداد كلما زاد علماً وخبرة، وممن تلقى الكحالة في بيوت الكحالين عبد الرحيم بن على الدخوار؛ فقد كان والده علي وأخوه حامد كحالين مشهورين، ومن ثّمَ بدأ عبد الرحيم حياته كحلاً قبل أن تتوسع علومه الطبية، ولما آلت إليه رياسة الطب كان يستقبل الطلاب في بيته قبل أن يصير مدرسة[22]، كذلك تلقى ابن ابي أصيبعة الكحالة عن والده وعمّه في بيتهما وكانا مشهورين بالكحل[23].

الوضع الاجتماعي والاقتصادي للكحال

لما كانت الكحالة فرعاً من فروع العلوم الطبية، بجانب أنها تعالج واحد من أخطر أعضاء الإنسان وهي العين، فقد كثرت أرزاق الكحالين، الذين كلما زاد علمهم وقدرتهم على ممارسة هذه الصناعة أقبل الناس عليهم، وزادت أرزاقهم، وحققوا ثروات تفاوتت بقدر شهرتهم، حيث استدعاهم الحكام، فإذا نجحوا منحوهم العطاء الجزيل، وقربوهم وقبلوا شفاعتهم وسمحوا لهم بالعمل في البيمارستانات الكبرى، فيقبل عليهم المرضى وطلاب العلم. فهذا عبد الرحيم الدخوار الذي كان طبيباً كحالاً :"حظى عند الملوك ونال المال والجاه مالم ينله غيره من الأطباء" على حد قول ابن أبي أصيبعة[24]. وبسبب الوضع الاجتماعي الممتاز للكحال؛ فقد حرص الأطباء والكحالون على نقل خبراتهم لأبنائهم، فأبو العباس القيسي الكحال الشهير المفضل لدى الصالح نجم الدين أيوب كان كحالاً من أسرة طبية، فقد كان والده طبيباً وأخوه كذلك[25]، وللتدليل على الدخل الطيب للكحال فقد بلغ ما حصله أبو الفضائل بن الناقد اليهودي المتوفى 584هـ/ 1188م في يوم واحد من الزيارات المنزلية لمرضى العيون نحو 300 درهم، أشار ابن أبي اصيبعة[26] إلى أنه :"معاش زائد وقبول كثير".

الرقابة على الكحالين:

لم تكن ممارسة الكحالة مهملة من قبل حكام مصر والشام زمن الحروب الصليبية، لكن كانت هذه الحرفة الشريفة مراقبة بصرامة من قبل المحتسب الذي وجب عليه أن يمتحن الكحالين بناء على كتاب "العشر مقالات في العين" لحنين ابن اسحق، حتى يتأكد من علم الممتحن بتشريح العين وأنواع الامراض التي تتعرض لها، وأنواع العلاج المناسب لكل حالة مع القدرة على تركيب الأدوية. إذا تأكد المحتسب من توافر كل ذلك اذن للكحال بالعمل. وأوجب كل من الشيزري وابن الاخوة من بعده على المحتسب أن يراقب اهتمام الكحالين بنظافة

وصلاحية الأدوات التي يستخدمونها؛ حتى لا تنقل الأمراض بين الناس بسبب العدوى، كما شدد على ضرورة منع كحالوا الطرقات من العمل حتى يخضعوا للامتحان بسبب قلة علمهم وغش بعضهم في تركيب الأدوية، وهو ما يؤدى لتفاقم أمراض العيون وضياع أموال الناس بالباطل[27]. وربما تدخل كبار الأطباء لضبط ممارسات الكحالين مثل جمال الدين بن ابي الحوافر كبير أطباء مصر في عصر العزيز عثمان بن صلاح الدين والملك الكامل بن العادل، الذي كان قام بضرب كحال يهودي لأنه أهان المهنة حين قام بكحل أحد الباعة في السوق واقفاً والبائع جالس وقال له :"إذا كنت أنت سفلة في نفسك أما للصناعة حرمة كنت قعدت إلى جانبه وكحلته ولا تبقى واقفا بين يدي عامي بياع حمص، فتاب أن يعود يفعل مثل ذلك"[28].

أخلاقيات ممارسة الكحالة

بحكم أن الكحالة فرع من فروع العلوم الطبية كان لممارستها ضوابط أخلاقية ، وقد كثر الحديث عن أخلاق الطبيب في كثير من المؤلفات الطبية وبعضها صدر بشكل مستقل[29]، وقد أجمل لنا صلاح الدين الكحال الأخلاقيات يجب أن يلتزم بها الكحال في عبارة قصيرة موجزة قائلاً: "واعلم أن هذه الصناعة منحة من الله تعالى يعطيها لمستحقها لأنه يصير واسطة بين الحق سبحانه وتعالى في طلب العافية له حتى تجري على يديه فتحصل له الحرمة الجزيلة من الناس ويمثل عندهم ويشار إليه في صناعته ويطمأن غليه فيما يعتمده وفي الآخرة والمجازاة من رب العالمين. لأنه النفع المتنقل لخلق الله عظيم خصوصاً للفقراء العاجزين، مع ما يحصل لنفسك من كمال الأخلاق وهو خلق الكرم والرحمة فيجب عليك حينئذ أن تلبس ثوب الطهارة والعفة والنقاء والرأفة ومراقبة الله تعالى وخاصة في عبورك على حريم الناس كتومًا على أسرارهم محبا للخير والدين ومكباً على الاشتغال في العلوم تاركاً للشهوات الدنية غير الضروري معاشراً للعلماء مواضبا للمرضى حريصا على مداواتهم متحايلاً في جلب العافية إليهم"[30].

ومن هذا النص يتضح لنا البعد الأخلاقي الذي حرص عليه الكحالون المسلمون، وهذا البعد لا يتم إلا براقبة من ضمير الكحال، لأن رقابة المحتسب وحدها غير كافية لأنه يراقبه في الأسواق لكن من يراقبه في البيوت غير الله ثم الضمير، ومن هنا شدد صلاح الدين الكحال على الطهارة والعفة والرأفة ومراقبة الله تعالى وكتم الأسرار ومعاونة المحتاج، مع ضرورة التعليم المستمر من خلال الاستمرار في مطالعة كتب الكحالة إما لتثبيت ما لديه من

علم أو الزيادة فيما نقص لديه، ناهيك عن مخالطة العلماء للاستفادة من المباحثة معهم وبذل كامل الجهد في مداواة المريض.

المبحث الثاني : أشهر الكحالين ومؤلفاتهم

في ظل حركة الإفاقة الإسلامية في القرن السادس الهجري وما صاحبها من نهضة طبية -كما ذكرنا- برز عدّد من الكحالين بعضهم جمع فيما بين الكحالة والطب، ووضعوا التصانيف في صنعة الكحل، وصل إلينا القليل منها وفقد الكثير. ومنهم: **الشريف الكحال، برهان الدين أبو الفضل سليمان**، الذي ولد في مصر وانتقل إلى الشام واشتهر بالكحل، واتقن عدّداً من العلوم الأدبية، وخدم في بلاط صلاح الدين الأيوبي كحالاً، براتب ضخم ومكانة السامية عند السلطان(31). ورضي **الدين أبو الحجاج يوسف بن حيدرة الرحبي** المتوفى 631هـ/1233م، الذي بدأ حياته طبيبا، ثّمُ اشتهر بالكحل في دمشق ،حيث استقر به المقام، واتخذ بها دكاناً للكحل، وخدم صلاح الدين الأيوبي في مصر، وتنقل فيما بين القلعة والبيمارستان الصلاحي، ولما توفي صلاح الدين عاد الى دمشق ليعمل في البيمارستان النوري حتى توفي، وتتلمذ عليه مهذب الدين الدخوار وغيره من الأطباء والكحالين المشاهير(32).

ومن مشاهير الكحالين **القاضي نفيس الدين بن الزبير الكولامي**، ولد 556هـ/ 1160م قرأ صناعة الطب وأتقن صناعة الكحل والجراحة، ولاه الملك الكامل ابن العادل رياسة الطب بالديار المصرية، وكان يكحل بالبيمارستان الناصري، وتوفي 636هـ/ 1238م، وورث عنه أولاده صناعة الكحل، وعدهم ابن أبي أصيبعة :"المشهورين بصناعة الكحل المتميزين في علمها وعملها"(33).

وموفق الدين **أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس المعروف بابن أبي أصيبعة**. ولد في دمشق واتقن صناعة الكحل تتلمذ على والده وعمّه اللذين كانا كحالين مشهورين، وكذلك تتلمذ على مهذب الدين الدخوار وزاول معه الطب والكحالة، كما تتلمذ على رضي الدين الرحبي، وعمل في البيمارستان الصلاحي ثمّ خدم الأمير عزّ الدين فرخشاه صاحب صرخد وتوفي 688هـ/ 1296م(34).

أبو العباس القيسي وكتابه نتيجة الفكر

هو الطبيب والكحال فتح الدين أبو العباس أحمد ابن القاضي الرئيس جمال الدين أبي عمرو عثمان بن هبة الله بن أحمد ابن عقيل القيسي(35). ولد ونشا في أسرة طبية برز من أبنائها عدد من الأطباء المشاهير، وكان والده ابن ابي الحوافر طبيب ملوك بني أيوب. اختار الملك الكامل

محمد الأيوبي أبي العباس ليكون طبيباً للبلاط، وظل في خدمته حتى توفي فانتقل لخدمة الصالح نجم الدين أيوب من بعده، فألف له كتاباً مختصر في الكحالة[36]، وتوفي القيسي عام 657هـ / 1256م[37] أثنى عليه ابن ابي أصيبعة[38] قائلاً:"كان مثل أبيه جمال الدين في العلم والفضل والنباهة، نزيه النفس صائب الحدس أعلم الناس بمعرفة الأمراض وتحقيق الأسباب والأعراض حسن العلاج والمداوة لطيف التدبير عالي الهمة كثير المروءة فصيح اللسان كثير الاحسان".

منهجه في الكتاب

اسم الكتاب وسبب تأليفه

سمى أبو العباس القيسي كتابه "نتيجة الفكر في علاج أمراض البصر"، وقد ألف الكتاب بناء على أمر من السلطان الصالح نجم الدين أيوب حسبما سطر في صدر الكتاب قائلاً :"فإنّه لما خرجت الأوامر العالية المولوية الأعظمية الملكية الصالحية النجمية ..... بتأليف كتاب في أمراض العين والأسباب المحدثة لها، والعلامات الدالة عليها والعلاجات الشافية منها، امتثلت ذلك وسألت الله أن يجعل ما سلكته فيه أحمد المسالك"[39].

ويبدو أن كتابته كان لغرض عسكري باعتباره دليلاً طبياً متوفراَ لأطباء الجيش، يمكنهم الرجوع اليه بسهولة للتعرف على امراض العين وأيسر سبل علاجها، بعيداً عن التفاصيل المفرطة، والشروح والنقاشات الطبية التي يطول مراجعتها وتحتاج لقاعات الدرس، ومن ثّمَ فكر كثيراً في تيسير علم الكحل واختصاره للولوج إلى الهدف مباشرة، وهو ما يتضح من حجم الكتاب الذي يعد صغيراً مقارنة بباقي مصادر علم الكحالة الأربعة التي وصلتنا من فترة الدراسة، إذ يقول :"ووضعت الكتاب المشار إليه مشتملاً على ذكر أمراض العين وأسبابها وعلاماتها وعلاجاتها، وأودعت فيه من النكت الغريبة، والفوائد العجيبة، ومن الأدوية المفردة، والمركبة ما صحت تجربتها واتضحت منفعتها ولم يحتج معها في غالب الأمر إلى غيرها"[40].

خطة الكتاب: قسم القيسي كتابه سبعة عشر باباً: بدأها بتشريح العين وطبيعتها ثمُ تتبع طبقاتها، وما يعتريها من أمراض، وما يناسبها من وسائل مختلفة من العلاج[41].

وإذا ما تحدثنا عن مصادر الكتاب فنلحظ أن المؤلف بسبب شدّة الاختصار لم يهتم بذكر مصادره مثل باقي مؤلفي كتب الكحالة المعاصرين، فطبيب الجيش ليس لديه رفاهية الوقت ليتأمل من أين جاء المؤلف بهذه المعلومات والذي يهمه نجع العلاج.

هذا ويقر محققا الكتاب من خلال خبرتيهما الكبيرة بكتب طب العيون في الحضارة الإسلامية بأن القيسي في كتابه لم يقدم جديداً عمن سبقه، فيما عدا إشارة مقتضبة لوصف الزرق[42] عند ذكره لأمراض الرطوبة الجليدية ومحاولته ذكر أن الماء من أمراض العدسة، وذلك عند ذكره علامة يبس الرطوبة الجليدية[43].

خليفة بن أبي المحاسن الحلبي وكتابه الكافي في الكحل

لم تذكر المصادر المعاصرة شيئاً عنه، ولم يؤرخ له مؤرخ الأطباء ابن أبي أصيبعة رغم المعاصرة، ولا يعلم تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته، وأرجح أنّ سبب ذلك عدم اشتهاره في الأمصار أو مصاحبته لأحد الحكام المشاهير، بجانب اكتفائه بالكحل دون الطب. ويبدو من اسم المؤلف أنّه عاش وزاول الكحالة في مدينة حلب في شمالي سوريا في القرن 6هـ/13م[44]. ويمكن تلمس شيء من سيرته من نص كتابه ذاته، فمن مراجعة نص الكتاب نجد ثلاثة تواريخ تعيننا على هذا الغرض: الأول 652هـ حيث ذكر المؤلف انه استخرج قشة من عين مريض في مدينة حلب[45]. الثاني 654هـ حين تولى علاج أحد أمراء حلب من رمد أوجب فصده[46]، إذن كان خليفة في حلب في أواخر حكم الأيوبيين قبيل الغزو المغولي، ويبدو من روايته أنه صار خبيراً في الكحل، على جانب من الشهرة مكنته من تقديم خدماته لأحد الأمراء. ويبدو أن خليفة دخل في خدمة أحد أمراء المغول بسبب الشهرة التي حصلها، وذلك عقب الغزو المغولي للشام، ولما هزم المغول في عين جالوت 658هـ، ورحلوا عن الشام حملوا معهم خليفة، ودليل ذلك قيامه بمعالجة عين جارية لأحد أمراء المغول عام 662هـ[47]، كما حكى خبر علاجه لعين طائر جارح من طيور الأمير المغولي الذي كان يخدمه[48]، ولا ندري هل عاد إلى حلب بعد خدمته للمغول أم بقى في خدمتهم حتى توفي. وبناء على ما سبق فقد ألف الكتاب بعد 662هـ ، وقبل 673هـ لأن نسخة باريس من كتاب الكافي نسخها عبد العزيز بن ابي سعيد المسيحي الموصلي في هذا العام[49]، وربما قابل عبد العزيز نسخته على نسخة المؤلف لأن فرصة اللقاء بين الناسخ والمؤلف كبيرة بحكم قصر المدة بين التأليف والنسخ.

ويبدو من نص الكتاب أن خليفة كان واسع الاطلاع على العلوم الطبية كما يبدو من قائمة المراجع والعلماء الذين ردّد آراءهم صراحة عند كل موضع أخذ عنه فيه، ويبدو أنه كان ذكيا حاضر البديهة حكيماً في التصرف في الازمات، بدليل سبقه لاستخدام المغناطيس في استخراج قطع الحديد الدقيقة من الجروح[50] . وإذا كان مؤرخو الشرق قديما وحديثا قد أغفلوا الحلبي إلا أن مؤرخو العلوم يدينون بالفضل للمؤرخ الشهير لوكلير L. Leclerc [51] الذي ألقى الضوء

لأول مرة في التاريخ الحديث على خليفة وكتابه[52]، ومن يومها يذكر الكتاب بكل مدح وثناء دون معرفة تفاصيل كافية عن مؤلفه.

منهج الكتاب

سبب التأليف: قام ابن ابي المحاسن الحلبي بالنظر في كتب الطب والكحالة التي سبقت عصره فوجدها قد اهتمت بالعين وأمراضها ووسائل علاجها، غير أنّه وجد بعض أوجه القصور التي أراد أن يجبرها معبراً عن ذلك بقوله :"غير أنّه ربما وقع منهم -رحمهم الله تعالى- إهمال بعض ما يفتقر اليه هذا العلم الجزئي من الجزئيات". غير أن إحساس خليفة بالحاجة لتأليف كتاب متكامل في الكحل بما يسد النقص، لم يكن فقط دافعه للتأليف، لكنه طولب من قبل بعض المحيطين به لتأليف الكتاب كما قال:"ثم سألني من كانت إجابته فرصة، ومجاذبته غصة أن اضع كتاباً مجدولاً في العين، جامعاً لما تأملته من هذه الكتب، وزيادات ربما خلت عنها أكثر المبسوطات، فضلاً عن المختصرات، مع تجارب في المعالجات، ولعمليات شاهدتها ومنافع جمة تتبعتها"[53]. وبالرغم من عدم تصريح ابن أبي المحاسن بشخص من طلب منه تأليف الكتاب، إلا أنني أرجح أنه شخص جليل القدر ربما كان من المغول الذين خدمهم كما نص كتابه، وربما لم يصرح باسمه حتى لا يتعرض لنقمة بني قومه في وقت كانت عداوة العالم الإسلامي للمغول عل أشدها.

اسم الكتاب : سمى خليفة الحلبي كتابه "الكافي في الكحل" ومن هذا الاسم يتضح أن المؤلف كان يهدف من تأليفه أن يضع موسوعة شاملة تضم كلّ ما وصل اليه العلم في الكحالة حتى عصره، بجانب ما توصل اليه هو نفسه من ممارسة الكحل سواء بالغذاء أو بالدواء أو بالجراحة.

خطة الكتاب: ويتضمن الكتاب جملتين: الأولى في حد العين وتشريحها وأحوالها الكلية وحال العصب الأجوف وكيفية سريان الروح الباصر فيه والعصب المحرك للعين ومبدأه، وتتكون من فصول ستة تتعلق بتشريح العين وطبيعتها. الجملة الثانية: تشتمل على ستة فصول ترتبط بوسائل حفظ صحة العين وأمراض طبقاتها وسائل علاجها والأدوات الجراحية. ثم يتتبع طبقات العين وما يعتريها من أمراض وما يناسبها من كحل أو علاج أو عمل باليد (الجراحة). وختم الكتاب بدليل صيدلي مفصل (أقراباذين) بالأدوية المعروفة لعلاج العين حتى عصره[54].

ما قدمه خليفة من جديد[55]: لم يكن خليفة مجرد ناقل عمن سبقه من الكحالين والأطباء، لكنه وبحكم خبرته قدم أشياء جديدة جديرة بالذكر منها: أنّه ألف أول كتاب يضم رسماً

توضيحياً لتشريح الدماغ وعلاقتها بالعينين والطريق الذي يسلكه البصر بين العينين والدماغ. وأنه أول من وضع رسوماً للأدوات الجراحية المستعملة في جداول أنيقة. وأنّه أول من وضع جداول منظمة أنيقة لأمراض الأجفان والعينين وآلية الإبصار. كما أنّه أول كتاب يفرد فصلاً خاصاً عن المكاييل والأوزان والمقاييس المستعملة في الطب آنذاك أوفى من المقادير التي ذكرها ابن سينا في كتاب القانون، كما أكد الدكتور قلعجي -محقق الكتاب -الذي قارنها بالجرام. وأنه أول كتاب يستعين بإطار مرجعي ضخم بلغ ثلاثة وسبعين كتابا ألفها 41 مؤلفاً.

مآخذ على الكتاب[56]: وبالرغم من أهمية كتاب الكافي في الكحل إلا أن عليه بعض المآخذ منها : كثرة الأخطاء النحوية والإملائية وهو ما يوضح أنه لم يكن متبحرا في العربية. واستعمال المؤلف للغة العامية في كثير من الأحيان وفي الغالب هي العامية الحلبية، وهو ما يجعل المطالع للكتاب من غير أهل حلب صعوبة في فهم محتواه. بالإضافة إلى ميل المؤلف للتصرف في النصوص المقتبسة عن الأسبقين فكان يختصر بشكل وافٍ أو مخل وهو وما أفضي إلى شيء من عدم الفهم للمطالع.

ابن النفيس وكتابه المهذب في الكحل المجرب:

هو علي بن أبي الحزم القَرشي، ولد عام ونشأ في دمشق ودرس الطب على يد عبد الرحيم الدخوار، والطبيب عمران الإسرائيلي، كما كان فقيهاً شافعي المذهب، ومحدثاً وعالماً بالعربية والمنطق، انتقل إلى القاهرة وآلت إليه رياسة الأطباء والكحالين في مصر، يقول عنه السبكي :"أما الطب فلم يكن على وجه الأرض مثله، قيل: ولا جاء بعد ابن سينا مثله، قالوا: كان في العلاج أعظم من ابن سينا" وقال عنه ابن تغري بردي:"الحكيم الفاضل، العلامة في فنه، لم يكن في عصره من يضاهيه في الطب والعلم والعلاج"، ترك عدداً من المؤلفات يهمنا منها "المهذب في الكحل المجرب"، وأوقف أملاكه وأمواله الجزيلة وداره الرائعة علي البيمارستان المنصوري لأنه لم يتزوج ولم يكن له من يرثه، توفي عام 687هـ / 1288هـ[57].

منهجه في المهذب

اسم الكتاب: سماه ابن النفيس "المهذب في الكحل المجرب" ، طبق ابن النفيس فيه المنهج الذي اعتمده والقائم على اختبار المعلومات الطبية قبل نقلها، فلا يسلم بما جاء به الأقدمون، لكن يختبره ويعتمد ما ثبت صحته، ثمّ يدعم ما وقر في نفسه صحته بالتشريح إن تطلب الامر، ومن ثمَّ غض الطرف عن اختلافات من سبقوه في أمور لم تصح لديه، وقد أدى منهجه

التجريبي إلى رفض كثير من نظريات من سبقه بعد ميل لبديل عنها[58]. كل هذا جعله يتفرد في كتابه بخطة فريدة مما نتج عنها كثير من الكشوف الجديدة لم يأت بها من سبقه.

خطة الكتاب[59]

قال ابن النفيس: "إني أرتب هذا الكتاب على مقدمة ونمطين". المقدمة : تتعلق بتعريف صنعة الكحل وقواعدها، وطبيعة العين. النمط الأول: في قواعد هذه الصناعة ،نظرياً وعملياً. النمط الثاني في تفاريع هذه الصناعة، وتتضمن أمراض العين بشكل مفصل وطرق علاجها، وختم الكتاب بقائمتين: إحدهما للأدوية المركبة، والأخرى للأدوية المفردة.

ما قدم من جديد في علم الكحالة في المهذب

يقر محققا الكتاب بأن ابن النفيس أضاف كثيراً لعلم الكحل من ذلك: تعديل المقدح بحيث يكون أكثر رقة بما يشبه السيف مع حفر حز يشبه النهر وجعل عنقه مستدير، مما يسهل خروج الماء من العين بسهولة بأقل قدر من الجرح وبالطبع الألم. كما أنه أول من شرح فكرة البعد الثالث Three dimension. ووصف بدقة متناهية التشخيص التفريقي بين تمزق القرنية وسحجاتها. ويعد أول من عزا الكمنة إلى التهاب القزحية والجسم الهدبي. وذكر ابن النفيس لأول مرة أن الماء (الساد) يقع خلف العنبية (القزحية) وليس أمامها على العكس من المفاهيم السائدة فيما قبله. كما وصف تستطح القرنية الناتج عن نقص الضغط داخل العين والذي يحدث في حالات التجفف الشديد كما في حالات الإسهالات أو السبات الشكري والأقياء المزمنة. ووجه بمعالجة الزرق الحاد بالاستفراغ ولعله كان رائداً في معالجة الزرق قبل استعمال osmoglyn وال Glycerin للتخلص من السوائل وتخفيف ضغط العين، كما وصف ابن النفيس لأول مرة طريقة استخراج الساد بالضغط والشفط وحذر من ضياع السائل المائي مما يؤدى لفقد البصر[60].

صلاح الدين الكحال و"كتابه نور العيون وجامع الفنون"

هو صلاح الدين بن يوسف الكحال الحموي ت 696هـ / 1296م، ومما يؤسف له أنه لم يكن قريباً من أحد الحكام حتى يهتم به كتاب التراجم، ومن ثمّ لا نكاد نعرف شيئاً عنه سوى أنه كان على قيد الحياة عام 696هـ/1296م، وأنه تتلمذ على والده الذي كان كحلاً مرموقاً في حماة، وكانت له وصفات طبية ناجحة نقلها ولده عنه، كما أخذ عن الحكيم نعمان. ومن الواضح أن صلاح الدين الكحال كان على دراية واسعة بمؤلفات الكحل السابقة مما انعكس

على الإطار المرجعي الضخم المعتمد عليه في كتابه [61]. ولا نعلم من تلاميذه سوى ولده أبي الرجا الذي ألف كتابه من أجله[62].

منهجه في "نور العيون وجامع الفنون"

اسم الكتاب وسبب التأليف

ألف صلاح الدين الكحال كتابه بناءً على طلب ولده الملقب بأبي الرجا؛ بغرض توفير موسوعة طبية شاملة في طب العيون، تحوى خلاصة ما جاء في مؤلفات السابقين التي توفرت له بشكل كبير، ويحسب له ذكر مصادره التي نقل عنها، وهو ما ييسر الوصول إلى مصادره مثل قوله :"قد بين أقليدس في كتاب اختلاف المناظر أن الجرم الذي يرى بزاوية عظيمة يرى عظيما وبزاوية صغيرة يرى صغيراً"[63]. وقد بلغ عدد من نقل عنهم 94 مؤلفاً من اليونان والعرب والفرس، وعدد الكتب 31 كتاب وأقرباذين[64]. وسماه نور العيون وجامع الفنون لارتباطه بالعين وأمراضها وما يناسبها من فنون العلاج المختلفة.

خطة الكتاب: وضع صلاح الدين الكحال لنفسه خطة ثابتة لتدوين الكتاب قوامها عشر مقالات وكل مقالة مكونة من عدة أبواب بدأها بطبيعة العين وتشريحها ومذاهب الرؤية، وأنواع الأمراض، ثم تتبع طبقات العين وأمراضها وطرق علاجها [65].

مميزات نور العيون وجامع الفنون

تميز كتاب نور العيون بعدة ميزات منها: أنه لخص كل من جاء قبله في الكحالة حتى عصره. كما أنه ذكر مصدر كل معلومة اعترافاً بفضل من سبقه. وضمن الكتاب رسماً توضيحياً ملوناً لتشريح العين جاء في نهاية المقالة الأولى. ويعد أول كتاب في طب العيون يرسم صوراً توضيحية يشرح بها نظرية الإبصار معتمداً على إقليدس وجالينوس وما توصل إليه في هذه النظرية. وأخيراً رسم صور توضيحية لـ18 آلة جراحية كانت تستخدم في جراحات العيون.[66]

المبحث الثالث : تشريح العين في ضوء كتب الكحالة في عصر الحروب الصليبية

وظيفة العين

العين آلة الابصار، كما أنها عضو آلي حساس متحرك[67] وظيفتها كما قال أبو العباس القيسي: "هداية البدن وإرشاده لمقاصده ووقايته وصيانته"[68] والإحساس بالألوان والأجسام[69]. وتتكون من عدة أقسام كالتالي:

الجفون: غطاء العين "يلقى عنها عنف الملاقيات"[70] تتكون من جلد ثم غشاء ثم جرم شحمي، ثم جرم غضروفي ينبت في حافته شعر يسمى الهدب Cilium وظيفته وقاية العين من غبار الجو، ويجمع الروح الباصر بسواده[71]، والجفن الأعلى متحركُ والأسفل ساكنُ[72].

الأعصاب: نابتة من الدماغ خلقت لإفادتها وتيسر الحس والحركة[73]. ويخرج من الدماغ سبعة أزواج[74] كل زوج منها له فردة يمنى وأخرى يسرى[75]، لها ثلاث وظائف: أولها إذا عرضت آفة لأحدى العينين عاد الروح الباصر للعين الأخرى. ثانيها: اتحاد شبح المبصرات فيري على ما هو عليه. ثالثها: تستند كل واحدة منها على الأخرى[76].

العضل: يتألف من الأعصاب ومن رباطات ولحم مفرد[77] وعددها ست عضلات[78]. ووظيفتها التحكم في فتح وغلق العين[79]. **والرباطات:** أعضاء نابتة من العظم خالية من الحس[80]. أما **الرطوبات:** فأعضاء بسيطة اعتقد خطأً أنها مكونة من المني وظيفتها قبول الروح الباصر[81].

الطبقات[82] أعضاء غشائية مؤلفة من المنتجسين (السحايا) ومن العصب الأول من أزواج العصب الدماغية ومن السمحاق. والمنتجسين غشاءان يعلوان الدماغ من داخل قحف الرأس ويعرفان بالأم الرقيقة والأم الجافية[83]. والسمحاق غشاء فوق قحف الرأس[84]، وهي سبع طبقات:

<u>طبقة الصلبة</u>: سميت بالصلبة لأنها أصلب طبقات العين وتسمى بالسمحاق[85] تتكون حين يبرز العصب الأجوف من عظم المقلة في كل عين مكوناً غشاءً غليظاً لاصقاً بعظم المقلة، وتقي العين من صلابة عظم المقلة وخشونته[86]، وطبيعتها أنها باردة يابسة ولونها أبيض[87].

<u>طبقة المشيمية</u>: سميت بذلك لأنها تشبه مشيمة الجنين[88]، ولأنها تشتمل على كل ما تحويه، وهي كثيرة العروق تغذي جميع الطبقات[89] وطبيعتها أنها باردة يابسة لكنها تسخن وترطب بسبب كثرة العروق بها[90].

<u>طبقة الشبكية</u>: توجد داخل طبقة المشيمية –في وسطها- لتحميها وتغذيها، ولونها أبيض، وسيمت شبكية لأنها تشبه شبكة الصياد وتغذي الرطوبتين الزجاجية والجليدية[91]، وتميل بجوهرها للبرودة واليبوسة[92] .

الرطوبة الزجاجية: تلي الشبكية وتشبه الزجاج المذاب، وهي صافية تضرب لقليل من الحمرة، تعلو النصف الداخلي من الجليدية، ومن وظائفها تغذية الرطوبة الجليدية[93] وتتقلب بين الحرارة والرطوبة[94]. وتعرف الرطوبة الزجاجية في عصرنا الحالي باسم الخلط الزجاجي[95].

الرطوبة الجليدية: صافية مثل الجليد أو البرد، وشكلها شكل كرة من الخلف ومسطح من الأمام بحذاء الحدقة[96] غائصة لنصفها في الرطوبة الزجاجية، وهي الآلة الأولى للإبصار، قال عنها جالينوس هي "أشرف أجزاء العين لأن بها يكون البصر"[97]، ويسميها حنين بن إسحاق آلة البصر وهي في العين بمنزلة القلب من البدن[98]، وتميل إلى البرودة طبيعتها[99]. وتعرف هذه الرطوبة في العصر الحديث باسم الجسم البلوري[100].

طبقة العنكبويتة: تشبه نسيج العنكبوت تستر الجزء الظاهر من الرطوبة الجليدية، وتحميها وتحجزها عن الرطوبة البيضية، وتنشأ وتتغذي من الشبكية، وهي صقلة يمكن للإنسان أن يرى صورته فيها[101] وطبيعتها أنها أبرد وأيبس من الشبكية لقلة عروقها[102].

الرطوبة البيضية: تشبه بياض البيض الرقيق أمام الرطوبة الجليدية، خلقت لوقايتها وتغذيتها، كما أنها ترطب العنبية وتمنع خشونتها[103]، وهي قريبة الشبه من الرطوبة الجليدية لكنها أرطب وأقل برداً[104]، وغذائها من العنبية[105]. وتعرف في عصرنا الحاضر بالخلط المائي[106].

طبقة العنبية (القذحية): تلي الرطوبة البيضية وتشبه نصف العنبة، ولونها اسمانجوني بين البياض والسواد والحمرة ليجمع البصر ويعدل الضوء، وفي وسطها ثقب يسمى الحدقة ينفذ منها الروح الباصر[107]، وتتسع في الظلام وتضيق كلما اشتد الضوء[108]، تنشأ من الطبقة المشيمية ومن وظائفها نقل الغذاء للقرنية[109]، وهي أشد حرارة من المشيمية لكن باطنها لحمي كثير الدم[110].

طبقة القرنية: تنشأ من أطراف الطبقة الصلبة لتكمل كرة العين من الخارج وتشبه القرن المرقق بالنحت والجرد، وهي صافية شفافة لينفذ منها النور والصور[111]، وتتكون من أربع طبقات من القشور للوقاية وصيانة العين، وبالرغم من صلابتها إلا أنها شديدة الشفافية[112] وهي باردة من الخارج حارة رطبة من الداخل[113].

طبقة الملتحمة: تنبت من غشاء السمحاق وتتغذي من الطبقة الصلبة، وتلتحم بباقي أجزاء العين وخاصة بالقرنية ولونها أبيض غير شفاف، ومنفعتها أنها تشد جملة العين وتربطها من الخارج، وتقيها من الأمراض وتستر عضل العين[114].

الروح الباصر: هو جرم بخاري لطيف يتولد عن لطيف الروح النفساني محصور في العصب الأجوف.

ومما سبق يتضح إدراك الكحالين المسلمين ومنهم كحالوا فترة الدراسة أهمية تشريح العين، فعلى أساس هذا التشريح يمكن فهم طبيعة أقسام العين ووظيفة كل منها وما يمكن أن يصيبه من أمراض وطرق علاج كل منها، وقبل ذلك وقاية العين من الامراض.

وجهة نظر الكحالين في كيفية الإبصار

هناك ثلاث وجهات نظر في كيفية الإبصار: الأولى: رأي الرياضيين وهو أنه يخرج شعاع من العين على شكل مخروط زاويته عند مركز البصر وقاعدته عند سطح المبصر، فإذا انطبقت القاعدة على المبصر أدركته، ويرفض ابن سينا هذا المذهب وينتقده[115] وكذلك ينتقد ابن النفيس هذا الرأي ويعتبر حجج مؤيديه محض خرافات[116] . الثانية: أن يتكيف الهواء الخارج من العين ويصير ذلك الهواء المتكيف آلة الإبصار وقد رفضه ابن سينا[117].الثالثة: رأي الطبيعيين وهو انطباع أشباح المرئيات بتوسط الهواء المشف من الجليدية، ويميل ابن سينا إلى هذا المذهب[118] ويرفض ابن النفيس هذا الرأي بقوة ويرى أن "الإبصار يتم بورود شبح المرئي إلى الحاسة بسبب وقوعه على الرطوبة الجليدية أو على الطبقة الشبكية او على الطبقة العنكبويتة أو على الروح الذي في العين... ثم الروح تؤديه إلى الحاسة فتدركه وذلك ما ذهبنا إليه والله أعلم"[119]. ورأي ابن النفيس في نظرية الرؤية وفيزيولوجيا العين يوافق رأي ابن الهيثم وهو الصحيح المعتمد في عصرنا الحاضر[120].

المبحث الرابع :طرق علاج أمراض العيون:

بالرغم من تقدم كحالي المسلمين في عصر الحروب الصليبية بالنسبة لعصرهم، إلا أنهم كانوا في قمة الواقعية فنجد أن ابن النفيس[121]، يؤكد على أن الكحالين غير ملزمين بنجاح كل ما يعالجونه من أمراض لأن "المعالج كالخادم للطبيعة وهي قد تقصر" وكل دور الكحال أن يعمل بكل جد في حدود ما يعلم لعلاج المرض وبعد ذلك يترك الأمر لله.

كما كان هناك عدد من الاعتبارات في علاج الأمراض المختلفة: أولها: نوع المرض هل مألوف أم مجهول، ثانيها: مدي ضعف وقوة المرض، ثالثها: سبب المرض، رابعها: قوة المرض، خامسها: مزاج المريض، سادسها: سن المريض، سابعها: عادة المريض، ثامنها: وقت الإصابة بالمرض، تاسعها: مكان المريض من الأرض، عاشرها: طبيعة المناخ[122].

ولما كانت أمراض العيون كثيرة جداً تختلف من فصل إلى فصل ومن بقعة جغرافية إلى غيرها ومنها ما تشترك فيه كل جهات الأرض، فإننا سوف ننتقى عدداً من تلك الامراض لنتعرف على

طريقة علاجها من خلال المصادر المتاحة لنا بغية إدراك مدى التقدم الطبي للمسلمين في هذا العصر مقارنة بالصليبيين.

تعريف مرض العين:

يعرف خليفة الحلبي[123] مرض العين بأنه "حالة مقابلة للصحة تضر بالأفعال الطبيعية"، ويعرف ابن النفيس مرض العين بأنه "حالة لها غير طبيعية يجب عنها لذاتها آفة في أفعال العين وجوباً أولياً"، ويرى أن مرض العين نوعان : مركب باجتماع عدة أمراض مثل الرمد والقرحة وغيرهما، ومفرد من أحد هذه الأمراض[124]. ويقسمها صلاح الدين الكحال وخليفة الحلبي [125] إلى ثلاثة أجناس: مرض بسيط مثل الرمد، ومرض آلي مثل الحول ومشترك بين الصنفين.

وسائل علاج العين

الوسيلة الأولى: التدبير بالغذاء ويقوم على التوقف عن تناول الغذاء الضار بالعين، وتناول الغذاء النافع لها في أوقات المناسبة[126]. والوسيلة الثانية: تقديم الدواء سواء المفرد المكون من عنصر واحد أو المركب من عدة عناصر، ويقدم ذلك عن طريق الفم أو الأنف أو الاذن أو الدبر أو القبل أو التكميد بخرقة ساخنة في موضع الألم أو صب السائل على المريض أو الطلاء أو المسح أو النثر أو الأكحال والمراهم. والوسيلة الثالثة: الجراحة أو العلاج باليد من كحل وتقطير وقدح[127].

المبحث الخامس: الآلات الطبية التي استخدمها الكحالون في جراحة العيون.

لم تكن جراحة العيون تتم بشكل عشوائي لكن كان لها أصول ترسخت بمرور الزمن أكد عليها الكحالون في فترة الدراسة تأكيدا مشدداً كما يتضح مما يلي:

ملابس الطبيب: يجب أن تكون مناسبة بشكل لا يعقيه عن العمل، فلا تكون واسعة فتربكه، ولا تكون ضيقه تعيق حركته[128].

تهيئة المريض: كان على الكحال أن يهيئ المريض الواجب علاجه بالجراحة قبل إجراء العملية فيصف له الوضع المناسب لجلوسه، ويتأكد من أنه تناول الطعام منذ وقت يسمح بهضمه؛ حتى لا يتعرض للقيء أثناء الجراحة، ويحتم ألا يكون مصاب بالسعال أو الزكام[129].

الخادم المعاون: لا بد أن يختار الكحال الخادم المعاون وهو المقابل للمرض في عصرنا الحالي، وهذا الخادم لابد أن تتوافر فيه صفات معينة تمكنه من معاونة الكحال حال إجراء الجراحة، ومن هذه الصفات أن يكون فطناً سريع الاستجابة لطلب الطبيب، بحيث يقدم له الآلة

المناسبة حال النطق باسمها، وأن يكون ملماً بكل ما يحتاجه الكحال قبل وأثناء وبعد الجراحة، وفوق ذلك أن يكون رفيقا بالمريض، لأنه من يتعهده قبل وأثناء وبعد الجراحة، ومن ثم يحدثه حديثا مهدئا قبل الجراحة وأثناء الجراحة يحكم الإمساك به، بما لا يؤلمه، وبعد الجراحة يهون عليه الألم، ويجب أن يكون مطيعاً لكل أوامر الطبيب، وبخاصة الصمت حين الطلب لأن الشغب وارتفاع الصوت يشوش ذهن الطبيب وربما يفسد الجراحة[130].

وقت العملية الجراحية: لم تكن كل الأوقات تصلح لجراحة وعلاج العيون، وكان الكحالون المسلمون موفقين إلى حد كبير في اختيار أوقات الجراحة فابن النفيس مثلا يفضل أن يكون عند انتصاف النهار، في جو صحو بلا غبار، أو ريح في وقت يكون فيه المريض قد هضم الطعام وتهيء مزاجه، ويحبذ القيسي أن يجلس المريض "قبالة الضوء في الظل بحذاء الشمس في يوم شمالي الهواء"[131].

هيئة جلوس الطبيب: لكل عملية جراحية وضع مناسب لجلوس الطبيب ومثلا في حالة قدح الماء يجب أن يجلس على كرسي أو وسادة عالية وقدماه مثبتتان على الأرض؛ حتى يتمكن من الإشراف على العين وتحريك المهت بشكل يحقق الغرض، كما يجب أن يكون في موضع مناسب من المريض بحيث تسهل حركة يده لإجراء الجراحة[132].

هيئة جلوس المريض: لكل جراحة وضع مناسب ففي قدح الماء يجلس المريض على مخدة عالية ويجمع ركبتيه الى صدره ويشبك يديه لتجمع ساقيه[133]

العناية بالمريض بعد الجراحة: الموضوع مرتبط بنوع الجراحة ولو اتخذنا جراحة القدح مثالاً نجد أن ابن النفيس يحتم العناية بالمريض بعد الانتهاء من الجراحة، فيأمر أن ينام في موضع شديد الظلمة، ويوصي القيسي أن يهجر الكلام والعطس، وإذا دهمه عطس يدغدغ راس أنفه وإن أصابه سعال يتجرع الجلاب ودهن اللوز بجانب تقديم طعام لا يحتاج لمضغ[134].

بعض آلات جراحة العين

تنوعت الآلات التي استخدمها كحالوا عصر الحروب الصليبية حسب الغرض من الجراحة وسوف نعرض لأهمها حتى نتعرف على مدى تقدمهم التقني بالنسبة لعصرهم:

فتاحة العين: يفضل أن تتخذ من الذهب أو الفضة وربما تتخذ من النحاس، وهيئتها أنها على هيئة المقص مكونة من كلابين متقاطعين طولهما قدر عرض أربعة أصابع ، رأس كلٌ منهما قدر ثلث دائرة مخرومة حتى يخف وزن الفتاحة بما لا يؤذي الجفن. ويحتم أن يكون جسم الكلاب مربع حتى تحكم اليد السيطرة عليه فلا ينفلت عند فتح العين. ويفضل أن يكون في طرف

الفتاحة زائدة مستديرة "حتى إذا أمسك الفتاح الساعد بإبهامه وسطاً ووضع السبابة عن جانبه لتمنعه من الميل، وقعت تلك الزائدة على طرف السبابة من أسفل فمنعت من خروج اليد عن موضعها ساعة الفتح"(135)

المسلخ: الأفضل أن يصنع من الفضة لكن معظم الكحالين يتخذوه من النحاس؛ لأنه أرخص، وطوله فتر بمقدار الاتساع بين اصبعين، ويكون مضلع الساعد حتى لا ينفلت من يد الكحال، وأحد طرفيه ذو ثلاثة سطوح وفسر ابن النفيس ضرورة السطوح الثلاثة بقوله :"وإنما جعل من ثلاثة سطوح لأن المستدير لا يسهل به السلخ؛ لفقدانه الزوايا المسهلة النفوذ بين الاجسام والمسطح كالسيف لا يرفع المسلوخ رفعا يسهل الانسلاخ وما زاد على ذلك من السطوح مثقل" ثم يأخذ المسلخ في الاتساع بالتدريج ثم يأخذ في الضيق إلى زاويته.(136)

المقدح: هو في طول فتر وأثخن من الميل قليلاً، وساعدها مضلع والأفضل أن يكون مثمن وأحد طرفيها قد يكون على هيئة معلقة والطرف الآخر طرف دقيق جداً يمكنه النفاذ للعين دون اعوجاج وطوله بقدر ثخن الإبهام وعند طرفه يكون له ثلاثة سطوح في وسط كل منها حز مثل النهر. وقد ابتكر ابن النفيس مقدحة رائعة وصفها كالتالي :"رأسها بدل المثلث من فوق رقيق كالسيف وفي وسط كل سطح حز كالنهر وعنقه مستدير فكان أخذها للماء أسهل"(137). ويفضل صلاح الدين الكحال(138) أن يصنع المقدح من نحاس أحمر أو أصفر ويفضل أن يكون طول ساقه ما يعادل طول قبضة ونصف ويلحم به رأس بقدر عقدة الإبهام وبين الرأس والساق خرزة تفصل بينهما، وتكون الرأس مثلثة غير حادة. وابتكر صلاح الدين لكحال مقدحاً مجوفاً مثله مثل المصمت لكن به قناة بطول المقدح ورأس المقدح به ثقب ينفذ منه الماء لقناة المقدح عند القدح وقد تحدث صلاح الدين الكحال عن هذا المقدح قائلاً:"هذا المقدح ما سبقني أحد إلى العمل به وقدحت به جماعة بمصر"

المكاوي: الأفضل أن تتخذ من الذهب وهي أنواع: منها ما هو أدق من الميل وعلى طول الفتر وعلى طرفه نصف دائرة قطرها مثل ضعف ثخنه. ومن المكاوي ما يكون طرفه الذي يكوى به مثلثاً يمكن من كي الصدغين لسد طريق المواد إلى العينين، ويمكن تشكيل ضلع هذا المثلث ليكون مثل المنشار ليمكنه قطع العرق إن احتاج الطبيب لذلك، ومنها ما يكون له رأس عريضة تمكن من الاتكاء عليها إذا كان غرض المكواة ثقب العظم(139)، ويوصي ابن النفيس الكحال الذي يستخدم المنشار أن يكون سريعا قدر الطاقة حتى لا يطول ألم المريض(140)، كما يوصي

صلاح الدين الكحال مستخدم المكواة أن يحدد غرضه قبل الكي حتى يكون دقيقا في كية فلا يزيد عن القصد ويؤلم المريض بلا داع[141].

الإبر: ربما يحتاج الكحال في الجراحة لخياطة الجرح مثل تشمير العين، ومن ثم يوصي ابن النفيس أن تكون الإبرة من الذهب أو الفضة وأن تصنع بشكل بالغ الصغر والدقة ويوصي أن يستخدم خيط من الابريسم ويكون بالغ الدقة خاليا من العقد والزوائد[142].

القمادين: هي أداة لإخفاء المشرط، وصفها ابن النفيس كالتالي: أحد طرفيها مستعرض مثل سمك الخنصر وطولها اصبعين، والطرف المستعرض محفور فيه قناة يجري فيها المشرط، حتى إذا وضع فيها لا يظهر، ويلحم على حافته صفحة تستر المشرط، وفي وسط الغطاء بالطول ينفذ فيه مسمار طرفه السافل في أسفل المشرط والعالي في ذيل سمكة من نحاس أو فضة، فإذا أريد إظهار المشرط دقت السمكة للأعلى فيظهر المشرط بقدر ارتفاعها، فإذا أريد إخفاء المشرط دفعت السمكة لأسفل ويجب أن يكون ارتفاع السمكة بقدر لا يرتفع رأسها عن رأس القمادين. وللقمادين فائدتان: أولهما أن لا يسبب ألم للمريض حيث أن المشرط مختف، وثانيهما: أن من المرضى من يخاف بشدة من المشارط ونحوها وحين يري القمادين يجده لا سن له فلا يجزع فيعمل الطبيب بلا ازعاج من حركة المرض[143].

المقراض: هو مقص ذو ساعد بطول إصبع أو أكبر بقليل، ورأسه غير حاد حتى لا يجرح، وموضع القص بطول خنصر أو أقل بقليل، ويكون مسطح سمكه قليل يسهل دخوله بين الملتحمة ويقطع السبل أو الظفرة. وكلما صغر حجمة كان افضل[144].

المبحث السادس: الاهتمام بالكحالة عند الصليبيين:

حين وصل الصليبيون للشرق وجدوا أن المسلمين قد قطعوا شوطاً طويلاً في مختلف المجالات الطبية، ومن ثم لم يكن هناك مندوحة من الاستفادة منهم، وعليه فقد شيدت المستشفيات في مختلف المدن الصليبية وبخاصة المستشفيات الملحقة بمقرات الهيئة الدينية العسكرية التي جمعت بين العمل الخيري والعسكري في آن واحد[145] وأشهرها: هيئة الفرسان الاسبتارية، وهيئة الفرسان الداوية، وهيئة فرسان التيوتون الألمان، وهيئة فرسان القديس أليعازر المجذومين، وهيئة فرسان القديس توماس الانجليز(146). وبخاصة الهيئتين الأوليين بحكم ضخامة الإمكانيات وسعة الانتشار، وكان من الطبعي أن يتأثر الصليبيين حال انشائهم للمستشفيات بالنظم الإسلامية بحكم السبق الحضاري، وعليه لا نستبعد وجود قاعة للكحالين في كل مستشفى صليبي، وأرجح أن هؤلاء الكحالين كانوا من المسيحيين الشرقيين أو

اليهود الذين دخلوا في خدمة الصليبيين، لكن لم نقف على مصدر يذكر اسم طبيب صليبي متخصص في طب العيون وكان له باع، أو حتى مترجم صليبي قام بترجمة أحد كتب الكحالة التي كانت مشهورة ومعروفة ومتاحة في ذلك العصر(147).

وقد أقر كبير مؤرخي الحروب الصليبية وليم الصوري[148]، حقيقة الثقة العالية التي أولاها الملوك والأمراء الصليبيين للأطباء الشرقين : مسلمين ، مسيحيين ، يهود وجاء ذلك في عبارة بليغة قال فيها : "كان أمراؤنا ..... يحتقرون الأطباء اللاتين ولا يثقون في مقدرتهم، ويؤمنون بكفاءة اليهود والسامريين والسريان والمسلمين فقط"؛ ومن أشهر الأطباء الشرقيين الذين خدموا ملوك الصليبين الطبيب المسحي أبو سليمان داود بن أبي فانه، الذي خدم الملك عموري الأول وبرع في الطب هو وأولاده حتى صار مقربا من عموري ومن بعده بلدوين المجذوم الذي قرب أحد أبناء هذا الطبيب ودشنه فارساً وظل هذا الطبيب وأبنائه في خدمة ملوك الصليبيين حتى بدت علامات انهيار المملكة فسير أبنه الفارس لصلاح الدين يبشره بأنه سوف يفتح القدس، وبعد تمام الفتح كانت أمنية أبي سليمان أن يكون أولاده في خدمة ملوك بني أيوب وقد كان(149)، ولا نستبعد قيام أبو سليمان وأولاده بعلاج أمراض العيون التي تعرض لها الصليبيون ، بجانب باقي الامراض بحكم إلمام الطبيب بأمراض العيون وطرق علاجها بجانب باقي الأمراض كما أكد ابن النفيس[150] حين قال :"كل طبيب كحال وليس كل كحال طبيب فالطبيب يلزمه أن يكون عارفاً بالكحل والكحال لا يلزمه أن يكون عارفاً بطب ما عدا العين".

الخاتمة

نخلص مما سبق إلى عدد من النتائج نجملها فيما يلي، أن عصر الحروب الصليبية قد شهد نهضة طبية كبيرة موازية لحركة اليقظة الإسلامية، وهو ما انعكس على الكحالة بحكم كونها أحد أفرع العلوم الطبية، وهو ما انعكس على تنوع المؤسسات التي تلقى فيها الكحالون تعليمهم مثل المدارس الطبية والبيمارستانات وبيوت الكحالين وغيرها، كما أن كحالي هذا العصر قد تمتع الكثير منهم بالثراء والجاه بحكم قربهم من السلاطين وولاة الأمر، لأهمية الكحالة وخطورتها قننت كتب الحسبة ممارسة الحرفة وفرضت رقابة المحتسب على الكحالين في الأسواق كما لم يسمح لكحال بالعمل في بيمارستان بلا اختبار للتأكد من قدرته على ممارسة المهنة. وحرص العديد من الكحالين على التأليف في هذا العلم منها ما جاء لتعليم الطلاب مثل المهذب في الكحل المجرب لابن النفيس ومنها ما وضع لنقل الخبرة للولد مثل نور العيون وجامع الفنون لصلاح الدين الكحال ومنها ما ألف بناء على طلب القيادة السياسية

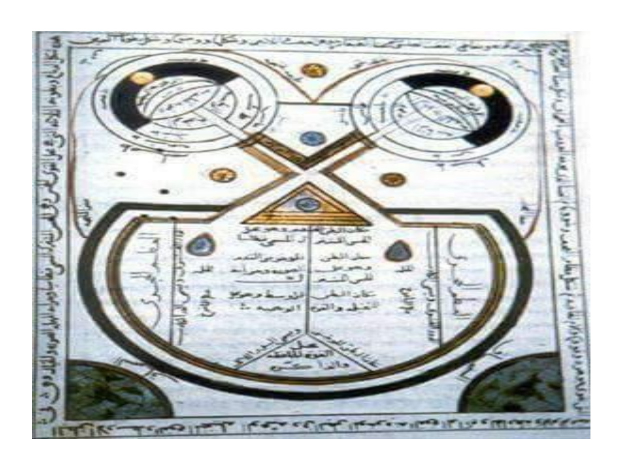
ممثلة في السلطان كما حدث في تأليف "نتيجة الفكر في علاج أمراض البصر" لأبي العباس القيسي. ولم يكن الكحالون الذين وصل إلينا انتاجهم العلمي مجرد نقلة لما كتبه الأقدمون لكنهم نقدوا القديم وصححوا بعض ما وقعوا فيه من أخطاء وأضافوا ما توصلوا هم اليه من جديد في مؤلفاتهم، وبخاصة في الآلات الجراحية التي تفنن في تطويرها ابن النفيس وصلاح الدين الكحال، كما نخلص إلى أن الصليبيين لم ينبغ من بينهم من صار له مكانة في علم الكحل، بالرغم من استعانتهم بالأطباء والكحالين من نصارى الشام للعمل في مستشفياتهم، التي سارت على النمط الإسلامي[151]، وأرجح أن سبب ذلك هول قلة إلمامهم بالعربية لغة العلم آنذاك.

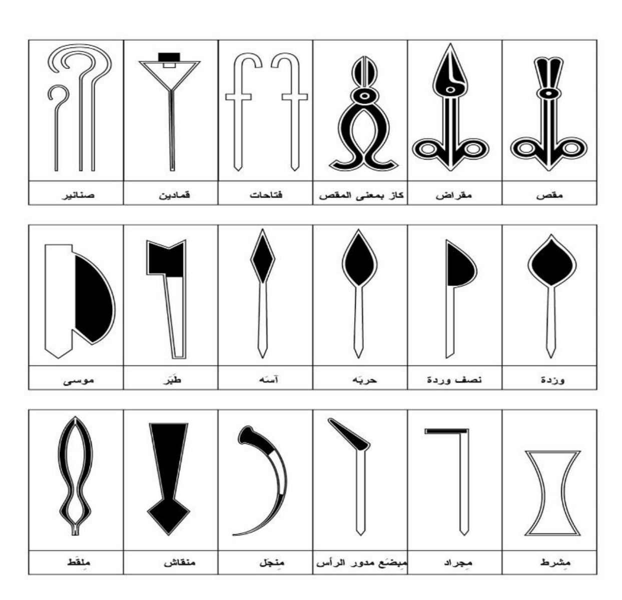
الأشكال:

شكل 1 تركيب العين عن صلاح الدين الكحال: نور العيون ، ص 51.



شكل 2 علاقة العين بالدماغ عن خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 64.



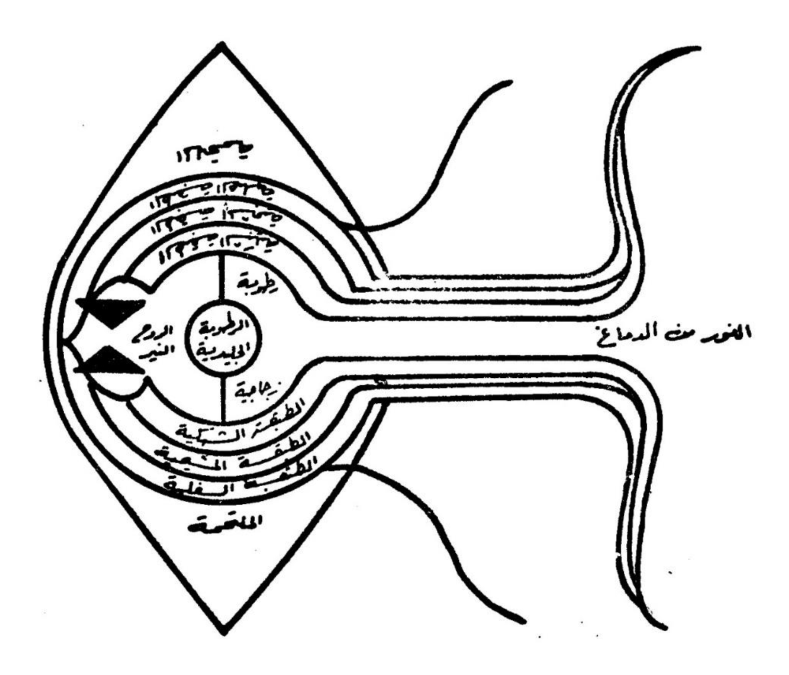


شكل 3 جدول ببعض الآت علاج وجراحة العيون عن خليفة الحلبي: الكافي، ص 325-326

شكل رقم 4

تشريح العين عند العرب والمسلمين

نقلاً عن : سليمان قطاية: الكحالة أو طب العيون عند العرب، مجلة التراث العربي، مجلد 1، العدد 3، أكتوبر ، 1980، ص 35.



التهميش:

[1] - الكحالة لفظ مشتق من كلمة الكحل وهو في اللغة: كل ما وضع في العين يستشفى به مما ليس بسائل. والكحال: هو من يضع الكحل في العين. ومنه فن الكحالة والمقصود به طب العيون. والكحال هو الطبيب الاخصائي بطب العين. انظر : سليمان قطاية: الكحالة أو طب العيون عند العرب، مجلة التراث العربي، مجلد 1، عدد 3، أكتوبر 1980، ص 29.

[2] - نشأة حمارنة: مقدمة حول طب العيون العربي (الكحالة)، مجلة التراث العربي - سوريا، مجلد 5، العدد 17، أكتوبر، 1984م، ص 162-164

[3] - سعيد محمد الغمري: الطب في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق، 1424م/ 2003م؛ ناصر بن محمد الحازمي: الحركة العلمية الطبية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، 1427هـ/ 2006م،

[4] - محمد عطية أبو هويشل: الأحوال الصحية والطبية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية بغزة، 1433هـ

[5] - عبد الرحمن النقيب: الإعداد التربوي والمهني للطبيب عند المسلمين، القاهرة، دار الفكر العربي، 1984م، ص140-150

[6] - ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم بن خليفة، ت 668هـ): عيون الانباء في طبقات الأطباء، ج2، نشر أوجست ملر، فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية، 1995، ص 247؛ عبد الرحمن النقيب: الإعداد التربوي، ص 138-139.

[7] - ابن أبي أصيبعة: عيون الانباء، ج2، ص 247؛ عبد الرحمن النقيب: الإعداد التربوي، ص 141، 142.

[8] - ابن أبي أصيبعة: عيون الانباء، ج2، ص 242.

[9] - ابن أبي أصيبعة: عيون الانباء، ج2، ص 247؛ عبد الرحمن النقيب: الإعداد التربوي، ص143.

[10] - عيون الانباء، ج2، ص 243؛ عبد الرحمن النقيب: الإعداد التربوي، ص 146؛ محمد فؤاد الذاكري: "المدارس الطبي الدمشقية"، ضمن كتاب : ندوة المدارس الطبية في الحضارة الإسلامية، الرباط، منظمة الايسسيسكو، 2011م، ص 32،31.

[11] - ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج2، ص239-244؛ النعيمي (عبد القادر بن محمد، ت 978هـ/ م): الدارس في تاريخ المدارس، ج2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1990م، ص 100-104؛ سعيد محمد الغمري: الطب في بلاد الشام، ص 97؛ ، ناصر بن محمد الحازمي: الحركة العلمية الطبية، ص 131؛ محمد عطية أبو هويشل: الأحوال الصحية والطبية، ص 79-80؛ محمد فؤاد الذاكري: المدارس الطبي الدمشقية، ص 35.

[12] - النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص104-108؛ سعيد محمد الغمري: الطب في بلاد الشام، ص 98-101؛ ناصر بن محمد الحازمي: الحركة العلمية الطبية، ص 132-140، محمد عطية أبو هويشل: الأحوال الصحية والطبية، ص 80-81؛ محمد فؤاد الذاكري: المدارس الطبي الدمشقية، ص 35.

[13] - ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد، ت 614هـ/ 1217م): رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، د.ت ، ص 40؛ محمد عطية أبو هويشل: الأحوال الصحية والطبية، ص79.

[14] - المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر، ت 845هت/1441م)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج4، تحقيق أيمن فؤاد سيد، لندن، دار الفرقان، 1995، ص 513؛ أبو السرور البكري: مختصر كتاب قطف الأزهار، مخطوط، ص 150؛ محمد عطية أبو هويشل: الأحوال الصحية والطبية، ص 81.

[15] - الخطط ، ص 406.

[16] - المقريزي: الخطط، 406؛ محمد كمال الدين عز الدين: العلوم الطبيعية عند العرب في العصور الوسطى، القاهرة، مطبعة التأليف، د.ت، ص 48.

[17] - ابن كثير (أبي الفداء إسماعيل بن عمر، ت 774هـ): البداية والنهاية، ج16، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، دار هجر، 1998م، ص 486؛ أحمد عيسى تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص 206.

[18] - أبس السرور البكري، مختصر كتاب قطف الأزهار، ص71؛ أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص 76-78

[19] - حول بيمارستان صلاح الدين في القدس انظر: ابن شداد (يوسف بن رافع، ت 632هـ /1239م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994م، ص 354؛ أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ت 665هـ): الروضتين في أخبار الدولتين، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص 196؛ وأيضا انظر: ألبير شاندور، صلاح الدين الأيوبيك البطل الانقى في الإسلام، ترجمة سعيد أبو الحسن، دار طلاس، دمشق، 1993، ص 375؛ محمد جمعة عبد الهادي، البيمارستانات والمستشفيات في بيت المقدس و عكا زمن الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الفيوم، 2015، ص 10.

وتنص الوثيقة رقم 64 (وثائق مقدسية تاريخية، نشر جميل العسلي، ج3، عمان، 1989م، ص 88) صراحة على وجود قاعة للكحالين في البيمارستان الصلاحي، احتاجت عام 978هـ لبعض الصيانة فخصص لها مبلغ بغرض الصيانة من دخل الأوقاف الموقوفة على البيمارستان.

[20] - المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج4، ص 694

[21] - ابن أبي أصيبعة: عيون الانباء، ج2، ص 243.

[22] - ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج2، ص 239، 244؛ ناصر بن محمد الحازمي: الحركة العلمية الطبية، ص 414.

[23] - ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج2، ص 246-247.

[24] - عيون الانباء، ص 239.

[25] - القيسي (أبو العباس احمد بن عثمان بن هبة الله ت 657هـ / 1259م): نتيجة الفكر في علاج امراض البصر، تحقيق د. محمد ظافر وفائي و د. محمد رواس قلعجي، لندن- مؤسسة الفرقان، 1998م، مقدمة التحقيق ص ، ص 11.

[26] - عيون الانباء، ص 116

[27] - الشيزري (عبد الرحمن بن نصر ت 589هـ / 1193م) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1946م، ص 100،101؛ ابن الاخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي ت 729هـ / 1329م): معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان وصديق احمد المطيعي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976م؛ ص 257.

[28] - ابن ابي اصيبعة: عيون الانباء، ج2، ص 119.

[29] - اسحق بن علي الرهاوي: كتاب أدب الطبيب، تحقيق كمال السامرائي و داود سلمان، إيران، 1992.

[30] - صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص ؛ على عبد الفتاح: أعلام المبدعين من علماء العرب والمسلمين، مكتبة اين كثير، الكويت، 2010، ص 1073.

[31] - ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج2، ص 182.

[32] - ابن ابي أصيبعة: عيون الانباء، ج2، ص 194.

[33] - ابن ابي أصيبعة: عيون الانباء، ج2، ص 120؛ تاريخ البيمارستانات، ص 82.

[34] - تاريخ البيمارستانات، ص 81؛ الحركة العلمية الطبية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ص 440.

[35] - حاجي خليفة (ت 1068هـ/ 1657م): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج2، بيروت – دار إحياء التراث العربي، د.ت، ص 1924.

[36] - القيسي (أبو العباس احمد بن عثمان بن هبة الله ت 657هـ / 1259م): نتيجة الفكر في علاج امراض البصر، تحقيق د. محمد ظافر وفائي و د. محمد رواس قلعجي، لندن- مؤسسة الفرقان، 1998م، مقدمة التحقيق ص 11-12.

[37] - حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 1924.

[38] - عيون الانباء، ج2، ص 119.

[39] - القيسي: نتيجة الفكر، ص 20.

[40] - القيسي: نتيجة الفكر، ص 20.

[41] - القيسي: نتيجة الفكر، ص 21-22.

[42] - الزرق تعرف في عصرنا بالجلوكوما Glaucoma أو الماء الأزرق. القيسي: نتيجة الفكر، ص 119، حاشية 119.

[43] - القيسي: نتيجة الفكر، مقدمة التحقيق ص 13.

[44] - سليمان قطاية: الكحالة، ص 30.

[45] - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 214.

[46] - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 702.

[47] - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 235.

[48] - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 315.

[49] - خليفة الحلي: الكافي في الكحل، مقدمة التحقيق، ص 22.

[50] - خليفة الحلي: الكافي في الكحل، مقدمة التحقيق، ص 14.

[51] - نيكولاس لوسيان لوكلير Nicholas Lucien Leclerc 1816-1893م : طبيب جيش فرنسي ومترجم ومؤرخ للطب العربي، خدم فترة في الجزائر مصاحبا للجيش الفرنسي، يعد كتابه تاريخ الطب العربي الصادر في باريس 1876م من أوائل الكتب التي أرخت للطب العربي. كما ترجم العديد من كتب الطب العربية القديمة مثل: شرح كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب للجزائري، وترجم أقساما من كتاب التصريف للزهراوي. عنه انظر: نجيب العقيق: المستشرقون، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1964م، ص 203؛ كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج2، دار النضال، ص 560؛ مادة لوسيان لوكلير على موقع الموسوعة الحرة ويكيبيديا https://fr.wikipedia.org/wiki/Lucien_Leclerc

[52] - الكافي في الكحل، مقدمة المحققان ص 13-14

[53] - الكافي في الكحل، ص 32.

[54] - انظر كامل خطة الكتاب في الفهارس: خليفة الحلي: الكافي في الكحل ص 733-738.

[55] - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، مقدمة المحققان، ص 15، 16.

[56] - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، مقدمة المحققان، ص 16.

[57] - السبكي (عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، ت 771هـ): طبقات الشافعية الكبرى، ج8، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي، القاهرة، دار احياء الكتب العربية، د.ت، ص 305؛ ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف ت 874هـ / م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2008م، ص 377؛ العيني (بدر الدين محمود، ت 855، 1451م)، عقد الجمان (عصر المماليك)، ج2، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، دار الكتب المصرية، 2010م، ص 374؛ الحركة العلمية الطبية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ص 445.

[58] - ابن النفيس: المهذب في الكحل المجرب، مقدمة التحقيق، ص 12.

[59] - كامل الخطة في فهرس الكتاب، ص 507-515.

[60] - ابن النفيس: المهذب في الكحل المجرب، ص 12-17.

[61] - صلاح الدين بن يوسف الكحال: نور العيون وجامع الفنون، مقدمة التحقيق، ص 31.

[62] - صلاح الدين بن يوسف الكحال: نور العيون وجامع الفنون، مقدمة التحقيق، ص26.

[63] - صلاح الدين بن يوسف الكحال: نور العيون وجامع الفنون، 63.

[64] - صلاح الدين بن يوسف الكحال: نور العيون وجامع الفنون، مقدمة التحقيق، ص 29.

[65] - صلاح الدين بن يوسف الكحال: نور العيون وجامع الفنون، ص 10-16.

[66] - صلاح الدين بن يوسف الكحال: نور العيون وجامع الفنون، مقدمة التحقيق ص 30-31.

[67] - ابن النفيس: المهذب، ص 51؛ أبي المحاسن الحلبي، الكافي في الكحل، ص 37.

[68] - نتيجة الفكر، ص 23؛ أبي المحاسن الحلبي، الكافي في الكحل،37.

[69] - أبي المحاسن الحلبي، الكافي في الكحل، ص 37؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 25.

[70] - ابن النفيس: المهذب، ص 71.

[71] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 23.

[72] - ابن النفيس: المهذب، ص 73؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 49.

[73] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 23.

[74] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 23؛ ابن النفيس: المهذب، ص 55؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 37.

[75] - ابن النفيس: المهذب، ص 55.

[76] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 25.

[77] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 23.

[78] - صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 46.

[79] - ابن النفيس: المهذب، ص 63.

[80] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 23.

[81] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 23.

[82] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 26-31.

[83] - - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 40.

[84] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 24.

[85] - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 40.

[86] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 26؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 39.

[87] - ابن النفيس: المهذب، ص 76؛ - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص40.

[88] - ابن النفيس: المهذب، ص 65.

[89] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 26؛ خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 42،43، صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 40.

[90] - ابن النفيس: المهذب، ص 77.

[91] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 26،27؛ خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 45؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 42.

[92] - ابن النفيس: المهذب، ص 77.

[93] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 27؛ ابن النفيس: المهذب، ص 65،66؛ خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 47؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 43.

[94] - ابن النفيس: المهذب، ص 77.

[95] - سليمان قطاية، الكحالة، ص 36.

96 - ابن النفيس: المهذب، ص 65.

[97] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 27؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 44.

[98] - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 46.

[99] - ابن النفيس: المهذب، ص 77.

[100] - سليمان قطاية، الكحالة، ص 36.
[101] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 27؛ ابن النفيس: المهذب، ص 66؛ خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 45؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 42.
[102] - ابن النفيس: المهذب، ص 77.
[103] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 28؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 45
[104] - ابن النفيس: المهذب، ص 78.
[105] - - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 47.
[106] - سليمان قطاية، الكحالة، ص 36.
[107] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 28؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 41.
[108] - - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 43.
[109] - ابن النفيس: المهذب، ص 69.
[110] - ابن النفيس: المهذب، ص 77.
[111] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 29؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 40.
[112] - ابن النفيس: المهذب، ص 68.
[113] - - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 40-41.
[114] - - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 42.
[115] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 31-32؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 54، 69.
[116] - ابن النفيس: المهذب، ص 88.
[117] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 31-32؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 54، 69.
فصل صلاح الدين الكحال أسباب قبول ابن سينا لمذهب الطبيعيين ورفضه للمذهبين الآخرين ورفض أبو العباس القيسي الغوص في الموضوع لأنه من وجهة نظره خارج عن الصناعة الطبية.
[118] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 31-32؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 54، 69.
[119] - ابن النفيس: المهذب، ص 92-93.
[120] - سليمان قطاية: الكحالة، ص 42-43.
[121] - المهذب، ص 152.
[122] - ابن النفيس المهذب، ص 153
[123] - الكافي في الكحل، ص 71.
[124] - المهذب، ص 101.
[125] - خليفة الحلبي: الكافي في الكحل، ص 71؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 82،83
[126] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 200؛ ابن النفيس: المهذب، ص 153؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 123.
[127] - ابن النفيس: المهذب، ص 153؛ صلاح الدين الكحال: نور العيون، ص 98،99، 104.

[128] - ابن النفيس: المهذب، ص 162.

[129] - أبو العباس القيسي: نتيجة الفكر، ص 86.

[130] - ابن النفيس: المهذب، ص 163.

[131] - ابن النفيس: المهذب، ص 163؛ أبو العباس القيس، نتيجة الفكر، ص 86.

[132] - ابن النفيس: المهذب، ص 160-161، 162؛ أبو العباس القيس، نتيجة الفكر، ص 86

[133] - ابن النفيس: المهذب، ص 161؛ أبو العباس القيس، نتيجة الفكر، ص 86

[134] - ابن النفيس: المهذب، ص 167؛ أبو العباس القيس، نتيجة الفكر، ص 88.

[135] - ابن النفيس: المهذب، ص 166.

[136] - ابن النفيس: المهذب، ص 167.

[137] - ابن النفيس: المهذب، ص 169.

[138] - نور العيون، ص 427،428.

[139] - ابن النفيس: المهذب، ص 170.

[140] - ابن النفيس: المهذب، ص 170.

[141] - نور العيون، ص 235.

[142] - ابن النفيس، المهذب، ص 171.

[143] - ابن النفيس: المهذب، ص 169.

[144] - ابن النفيس: المهذب، ص 167.

[145] - محمد جمعة محمد عبد الرحمن: البيمارستانات والمستشفيات، ص 21-62.

146- حول هذه الهيئات ودورها الخيري انظر: محمد فوزي رحيل: هيئة الفرسان الإسبتارية من الديني إلي السياسي بالخطوة البطيئة، مجلة تراث، العدد 138، أبو ظبي، 2011؛ محمد فوزي رحيل: هيئة الفرسان الداوية انتصارات وانكسارات لها أسبابها، مجلة تراث، العدد139، أبو ظبي، 2011؛ محمد فوزي رحيل: هيئة الفرسان التيوتون من النشاط الخيري إلي الحربي، مجلة تراث، العدد 143، أبو ظبي، 2011؛ محمد فوزي رحيل: الفرسان المجذومون حينما يكون المرض سلاحاً، المجلة العربية، الرياض، رمضان 1435هـ - يوليو 2014م؛ محمد فوزي رحيل: فرسان القديس تواس في عكا محاولة انجليزية لإثبات الوجود، مجلة الرافد، الشارقة، مارس 2017م.

[147] - ظن أحد الباحثين خطاءً أن هيئة الفرسان الاسبتارية إبان عصر الحروب الصليبية قد أنشأت مستشفى متخصص لطب العيون، وسبب هذا الخطأ هو قيام الفرع الإنجليزي من هيئة الاسبتارية التي تحمل حاليا اسم دولة فرسان مالطا، في عام 1882م ببناء مستشفى لطب العيون في القدس، فاعتقد أن هذا المستشفى يعود للعصر الصليبي وهذا غير صحيح، لمزيد من التفاصيل انظر: Charles M. Watson, The story of Jerusalem, London, 1912, p. 193,

عمر الصالح البرغوثي و خليل طوطح، تاريخ فلسطين، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، د.ت، ص 193؛ محمد جمعة محمد عبد الرحمن: البيمارستانات والمستشفيات، ص 44؛ مادة "مستشفى ال

للعيون" على الموسوعة الحرة ويكيبيديا
https://en.wikipedia.org/wiki/Saint_John_Eye_Hospital_Group

[148] - الحروب الصليبية، ج3، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م، ص 450، محمد مؤنس عوض، أضواء على الطب في المناطق الصليبية، ضمن كتاب "عصر الحروب الصليبية بحوث ومقالات"، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2006م، ص 133.

[149] - ابن أبي أصيبعة: عيون الانباء، ج2، ص 120.

[150] - مفتاح الشفاء في العين، مخطوط رقم 2579 بمكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض، ص 2.

[151] - ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج2، ص 121؛ محمد مؤنس عوض: أضواء على الطب في المناطق الصليبية، ضمن كتاب "عصر الحروب الصليبية" القاهرة، دار عين للبحوث، 2006م، ص 133؛ سعيد الغمري: الطب في بلاد الشام، ص 226؛ ناصر الحازمي: الحركة العلمية الطبية، ص 324.

الكاتب: ا / أبوالعلا المصطفى
طالب باحث في سلك الدكتورة- جامعة القاضي عياض كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش

عنوان المقال: تدبير النزاعات على الماء في مدينة فاس قبل الحماية

البريد الالكتروني:Elmustapha0505@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/05/01 تاريخ القبول: 2019/10/28 تاريخ النشر: 2019/12/31

تدبير النزاعات على الماء في مدينة فاس قبل الحماية

الملخص بالعربية:

يعتبر النزاع على الماء من بين المواضيع التاريخية التي لازالت لم تحظى باهتمام يليق بمدى تأثيرها على المجتمعات، خاصة منها تلك التي ظلت تعتمد بشكل كبير على نمط العيش الفلاحي، كحالة المغرب خلال الفترات السابقة للإستعمار، فإذا كان هذا الأخير قد استطاع وضع نضم قانونية حديثة تؤطر مختلف الأمور ومن بينها تدبير الموارد المائية، فإن الفترات السابقة له ظل المغرب يعتمد فيها على أشكال تقليدية لتدبير المياه والنزاعات الناشبة حوله، سواء منها تلك المؤطرة بالشرع المستمد من الدين الإسلامي والمذهب المالكي أو تلك المقتبسة من العرف السائد في البلاد. ومدينة فاس من بين المدن المغربية التي شكلت أنموذجا لتعدد النزاعات على الماء وتجددها خلال فترات متواترة قبل الاستعمار.

الكلمات المفاتيح: النزاع_ الماء_ فاس_ قبل الاستعمار

Abstract :

The water dispute is one of the historical topics thatstill have not received sufficient attention to the extent of its impact on societies, especially thosethat have reliedheavily on the rustic life style, such as the case of Moroccoduring the pre-colonial period. If the latter was able to develop a modern legalframe works That manage various aspects, including the management of water resources, in previous periods, Morocco continued to rely

on traditional forms of water management and disputes, boththoseframed by Sharia derivedfrom the Islamic religion and the Maliki doctrine or thosederivedfrom the prevailing custom in the country. The city of Fez isamong the cities of Morocco, whichformed a model for the multiplicity of renewal disputes over water during frequent periods before the colonial.
Keywords : dispute-water- Fez- pre-colonial.

ستعرف الظاهرة الحضرية بالمغرب الأقصى انطلاقا من العصر الوسيط توسعا ملحوظا، سواء من حيث الكم أو الكيف، فظهرت عواصم كبرى اعتبرت مدنا قيادية في الغرب الإسلامي. وإن كنا اليوم نعتمد بشكل كبير على الأبحاث الأركيولوجية للتعرف على المدن الماقبلوسيطية، نظرا لشح المصادر المكتوبة، أو كونها في الغالب مصادرا أجنبية كتبت عن بعد، فإننا نتوفر على حصيلة لا يستهان بها من النصوص المكتوبة حول مدن العصر الوسيط.

ستحظى هذه المدن، ومن ضمنها فاس، باهتمام مهم من لدن عدة نصوص تاريخية، فرغم أن جزء مهما منها لم يواكب عملية التأسيس، حيث كتبت في فترات لاحقة من ذلك، إلا أننا لا نكاد نجد مصدرا تاريخيا أو جغرافيا يتحدث عن المدينة دون الحديث عن إمكاناتها المائية،والتي تمثلت بشكل كبير في الواد الذي يخترقها والمسمى باسمها (واد فاس) وكذا بعض العيون المائية.

فقدمت لنا هذه النصوص وصفا يختلف أهميته حسب كل مصدر، وحاولت البرهنة على أهمية واد فاس من خلال ما يوفره للمدينة من كميات مائية استغلت في جل الأنشطة.غير أن هذا المجرى المائي سيكون في أحيانا كثيرة موضوعا للنزاع بين ساكنة فاس فيما بينها، ففاس ونظرا لكونها ظلت تتكون من عدوتين مختلفتين، وفي كثير من الأحيان متنافرتين، فقد كان لابد لكل واحدة منها من موارد مائية سيكون مصدرها الواد الفاصل بينهما، وهو ما كان سببا من بين أسباب عديدة للتنازع بينهما.

غير أننا عندما نكون بصدد البحث والنبش عن أمور دقيقة تخص الموارد المائية، ولها علاقة بالمعاش اليومي للمجتمع، كحالتنا هاته، التي من خلالها نسعى إلى التطرق لكيفية

تدبير النزاعات على الماء، فإن النصوص التقليدية تبقى عاجزة بشكل كبير عن تقديم إجابات صريحة بخصوص هذا الأمر. هذا العجز يجعلنا نتقصي الإجابات الممكنة من خلال نصوص أخرى أصبحت تشكل بديلا أساسيا للباحث في تاريخ المغرب وخاصة للفترات الوسيطية والحديثة. ونخص بالذكر هنا كتب النوازل الفقهية بالإضافة إلى وثائق جديدة ظهر بعضها في الفترات القليلة السابقة.

لقد أخذ النزاع على الماء داخل مدينة فاس عدة أشكال، يبقى أبرزها النزاع على مليكة الماء، بينما تجلى الشكل الثانيفيالنزاع على قسمة الماء، وهذا الأخير هو الذي يدخل في صلب مساهمتنا هاته، التي سنتطرق فيها لكيفية تدبير النزاع على قسمة الماء بين ساكنة فاس.

عرفت فاس خلال القرون الأولى لتأسيسها صراعات سياسية متأججة أدخلت المدينة في دوامة من النزاعات تطورت في أحيان كثيرة إلى حروب. وتعتبر فترة الأمراء الزناتيين المغراويين[1] خلال القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي، من أكثر الفترات قتامة في تاريخ فاس، وبشكل أدق خلال فترة تقسيم المدينة بين الأميرين ولدي (دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية المغراوي)، حيث ولي الأمير "الفتوح" عدوة الأندلس، في حين ولي الأمير "عجيسة" عدوة القرويين.[2] فكان هذا التقسيم بمثابة إعلان للحرب بين الأخوين، الأمر الذي كان سببا في انتشار الخوف وغلاء الأسعار واشتداد المجاعة وكثرة القتل.[3]

إن هذا الصراع الذي دار بين العدوتين، والذي جعل من فاس مدينتين، لكل مدينة سورها وأبوابها وجامعها وقيساريتها ودار سكتها، واعتبر الواد حدا فاصلا بين المدينتين،[4] سيكون الماء عاملا إضافيا في تأجيجه واستمراره لفترات طويلة.

تشير وثيقة[5] تتحدث عن شبكة المياه في مدينة فاس،إلى كون المدينة ظلت تعرف لمدة طويلة صراعا بين عدوتيها، الأندلس والقرويين بشأن مياه واد فاس، حيث يقول كاتب التقرير "***وما يزال الصياح والنزاع والخصام بين العدوتين***"[6]حول قسمة الماء بينهما والموجودة بمكان يعرف "بسيدي مجبر."[7]وحسب منطوق الوثيقة فإن النزاع بلغ شأنا عظيما، تطور من مجرد خلاف إلى خصام بين العدوتين، اعتبره كاتب التقرير صراعا دائما، فعبارة "***ومايزال***" توحي إلى قدم الصراع واستمراره منذ فترات طويلة غير محددة. وحجتنا في ذلك كلام آخر ورد في مقدمة التقرير، حيث يشرح فيه صاحبه الأسباب التي جعلته يقدم على

تدوين تقريره، قائلا: «***مازلت منذ عقلت وأنا أود أن نعثر على من تكلم في شأن هذا الوادي***[8] ***المبارك الداخل لمدينة فاس أو قيد مقاديره ومجاريه وتقاسيمه... يعتمد عليه في ذلك مع الاضطرار إليه والاحتياج. ويكون عدة نافعة في الاحتجاج، حاسمة لمادة النزاع واللجاج.***"[9]

فقد جاءت كتابة التقرير لتوفير سند قانوني يحتكم إليه في حال حدوث النزاع أو تجدد الخلاف حول مياه واد فاس، ويكون وسيلة لإثبات ادعاء ما أو نفيه. والمستنتج من كل هذا أن لصراع العدوتين بشأن مياه واد فاس أصول تاريخية جد قديمة.

وحتى نحيط بالنزاع ونفهمه أكثر، وجب علينا الرجوع إلى أصل الخلاف ومنطلقه، فقد أشارت النصوص المصدرية الأولى التي أرخت لمدينة فاس إلى وجود تفاضل بين العدوتين (الأندلس والقرويين) بخصوص الموارد والحصص المائية، لقد أشار (البكري)[10] إلى وفرة الماء في عدوة القرويين وتنوع منشئاتها المائية بالمقارنة مع عدوة الأندلس، حيث قال: "***وعدوة القرويين في غربي عدوة الأندلسيين وعلى باب دار الرجل فيها رحاه وبستانه بأنواع الثمر وجداول الماء تخرق داره.***"[11] قد يبدو هذا القول مبالغا فيه، بحكم إشارة النص إلى تملك كل دار على بستان ورحى ومورد مائي، إلا أنه قد يكون المقصود هو الإشارة إلى مدى غنى عدوة القرويين ووفرة مياهها، غير أن هذه المبالغة يمكن أن تتبدد بعد تأكيد الأمر من قبل نصوص أخرى، فتميز مياه عدوة القرويين أشار إليه كذلك الجغرافي (الشريف الإدريسي)[12] خلال القرن السادس الهجري، ونستشف نفس الخلاصة من خلال كتاب (الاستبصار) الذي وصف فاس خلال نهاية القرن السادس الهجري، نهاية القرن الثاني عشر ميلادي.[13]

وبذلك نرى بأن اختلاف الحظوظ المائية بين العدوتين هو أمر واضح أكدته النصوص التاريخية. مما يعطي تبريرا لإمكانية وجود النزاع بين الطرفين حول الماء في فترات شكل فيها الماء في بعض الأحيان وسيلة حربية في سبيل الضغط على العدو وإجباره على الاستسلام، كما فعل "حماد بن معنصر بن المعز" في حربه مع ابن عمه الأمير "دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية المغراوي"، حيث قام الأول في سبيل دخول فاس بقطع ماء الواد الداخل إليها عبر عدوة القرويين.[14]

إقدام "حماد بن معنصر بن المعز" على قطع الماء على عدوة القرويين فيه تلميح إلى أهمية عنصر الماء بالنسبة لهذه المنطقة من المدينة، واعتمادها عليه في شتى شؤون حياتها. صحيح أن الماء شديد الأهمية بالنسبة للجميع سواء عدوة القرويين أو عدوة الأندلس، لكننا

نتساءل لماذا عدوة القرويين وليس عدوة الأندلس، مع العلم أن هذه الفترة كانت فيها مدينة فاس مدينة واحدة في عهد الأمير دوناس، حيث سيكون تقسيم المدينة بعد وفاته؟

إن استخدام الماء في الحرب من خلال الواد، وتوظيفه كأداة للحصار، قد تم في فترات لاحقة كذلك، بغرض تسهيل عملية اقتحام المدينة وبالخصوص انطلاقا من عدوة القرويين، مما يزيد في التأكيد على أثر الماء وأهميته على هذه العدوة أكثر من غيرها. فخلال الصراع الموحدي المرابطي قام الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي الكومي عند دخوله فاس من جهة عدوة القرويين عبر باب السلسلة، بتوظيف مياه واد فاس في هدم سورها سنة 540هـ، ونقل ذلك مؤرخ الدولة الموحدية (البيذق) بنوع من الاختصار،[15]ونقله كذلك (ابن أبي زرع) بنوع من التفصيل، قائلا: "***بعد الحصار الشديد...قطع [عبد المومن] عنها [فاس] النهر الداخل إليها بالألواح والخشب والبناء حتى انحصر الماء فوقها في الوطا، فوصل إلى مركزه ثم خرقه، فهبط الماء دفعة واحدة، فهدم سورها***."[16]

ما نستخلصه هو أن استغلال النهر في هدم سور المدينة كان من جهة عدوة القرويين باعتبارها عدوة تحظى بنصيب أكبر من مياه واد فاس، ومياهها أكثر تأثيرا على المدينة من عدوة الأندلس، كما تؤكد ذلك وثيقة أخرى نقل مضمونها الباحث (محمد مزين)[17] وهو ما يزيد في توضيح التفاضل بين العدوتين بخصوص وفرة الموارد المائية لصالح عدوة القرويين بالمقارنة مع ضعفها لدى عدوة الأندلس. فكون اقتصار عدوة الأندلس على استغلال هذا المجرى للسقي فقط، دليل على ضعف استفادة هذه الجهة من الماء الداخل لفاس.

واستكمالا للتوضيح، نذكر كذلك أن الوثيقة التي أشار إليها (مزين)، تشير إلى الدور الذي كان قد لعبه الخليفة المرابطي (يوسف ابن تاشفين) في محاولته لتجاوز الخلاف الدائر بين العدوتين حول الماء حيث تقول الوثيقة: "***ولما اكتسبت المدينة الحضارة بإجراء الماء الحلو إلى كل دار ورفع الماء لعدوة الأندلس وذلك بأمر يوسف بن تاشفين.***"[18] يحيلنا هذا القول على الدور الذي قام به هذا الخليفة المرابطي في سبيل استتباب الأمن والقضاء على النزاعات التي وجد مدينة فاس، عند دخوله لها، غارقة فيها إبان حكم بني مغراوة الزناتيين. ويحيلنا كذلك إلى التمييز الذي ساد بين العدوتين بخصوص الموارد المائية في الفترات السابقة.

فبعد أن كثر القتل بين العدوتين خلال فترة تقسيم المدينة بين الأميرين المغراويين المذكورين سلفا.[19] حتى أصبح للقتال مكان مخصوص يلتقي فيه الطرفان للمواجهة الحربية.[20] سيحاول (يوسف ابن تاشفين) رأب الصدع الحاصل بين الطرفين (عدوتي القرويين والأندلس)، عن طريق هدم الأسوار الفاصلة بين العدوتين وربطها بواسطة قناطر، حتى صارت فاس مدينة واحدة من جديد.[21]

يبدو أن الخليفة المرابطي لم يدخر جهدا في سبيل إصلاح ذات البين بين العدوتين المتجاورتين والذي كان الماء أحد أسبابه، حيث عمد يوسف ابن تاشفين إلى تمكين عدوة الأندلس من الماء، فبعد أن كانت العدوة تقتصر على حق السقي من الواد الداخل عند (باب الجديد) من عدوة القرويين فقط، كما تشير إلى ذلك الوثيقة المذكورة،[22] أصبح بإمكانها الحصول على نصيب أكبر يشمل غايات أخرى تهم الشرب وغيره من الأعمال، خاصة في الجانب العمراني داخل هذه الناحية. " **فصار الناس من عدوة الأندلسيين أولئك الذين كانوا مستقلين عن الماء ...يبنون بالجهات الو اقعة على الماء.**"[23]

إذن فبعد الأعمال التي قام بها المرابطون، وعقدهم الصلح بين الفريقين، تمكنت عدوة الأندلس من الحصول على موارد مائية لم تستغل فقط للشرب أو السقي بل ساهمت في توسيع المجال العمراني للعدوة، والتي ظلت تعد أقل قيمة من عمران العدوة المقابلة، عدوة القرويين.

لقد تحسنت الأمور أكثر بالنسبة لعدوة الأندلس بخصوص الموارد المائية، مما قد يكون أحد الأسباب التي أدت إلى توقف الصراع بين العدوتين ولو لفترة قصيرة، إذ سرعان ما فتئت العداوة بينهما أن تجددت، كما يرصد لنا ذلك (الشريف الإدريسي)، الذي وصف فاس في منتصف القرن السادس الهجري، بعد مرور حوالي قرن على دخول المرابطين لها، قائلا: "**وبين المدينتين أبدا فتن ومقاتلات وبالجملة إن أهل مدينة فاس يقتل فتيانهما بعضهم بعضا.**"[24]

إذن لقد تجددت الصراعات من جديد وبصورة شرسة كما يستفاد من قول الإدريسي (فتن ومقاتلات بالجملة)، ويبدو أن هذه الصراعات لم تخمد لفترة طويلة، فعبارة (وبين المدينتين أبدا) تؤكد على أن هذا الصراع ما يفتأ يتكرر بين الخصمين العنيدين في فترات متلاحقة. على أن أسباب هذا الصراع المتجدد لا تخرج على العادة، فالماء حاضر بثقله

من جديد. ذلك أن (الإدريسي) الذي قلنا إنهوصف المدينة بعد حوالي قرن على دخول (يوسف بن تاشفين) إليها قد أشار إلى التفاوت الحاصل بين العدوتين بخصوص الموارد المائية، إذ يقول: "**والأندلس ماؤها قليل...أما مدينة القرويين فمياهها كثيرة**."[25] وهذا أمر من المنطقي جدا أن يكون سببا للنزاع والفتن بين العدوتين.

فإذا كانت الأجواء قد هدأت نوعا ما في صدر الدولة المرابطية، فقد عادت المدينة من جديد إلى حالها السابق، فالمشكل المائي لازال مطروحا، وقد يكون بشكل أكبر نظرا للتوسعة العمرانية التي عرفتها عدوة الأندلس بعد الاستقرار والهدوء الذي عاشت فيه على الأقل في بداية حكم دولة المرابطين لفاس. إذن يبدو أن عدوة الأندلس كانت تعرف مشكلا دائما يجعلها تعاني باستمرار من نقص الماء، وقد حاول البعض تفسيره بعوامل مختلفة، فالفرنسي (روجي لوطورنو Roger le Tourneau) يرى بأن واد فاس يقسم المدينة إلى قسمين غير متساويين، ليس فقط من حيث المساحة العمرانية التي تبدو فيها عدوة القرويين متفوقة، بل من حيث جل الأنشطة الاقتصادية، فهي توجد بها الحصة الكبرى من الصناعات الرئيسة (من حياكة ودباغة وخرازة) ما عدا الفخارين ومربي الماشية فإنهم لا يخضعون لهذه القاعدة، لكن نشاطاتهم هي بالضبط أليق بالضاحية منها بالحاضرة.[26]

هذا التفسير الذي قدمه (لوطورنو) يمكن أن نجد له صدى في المراحل الأولى لتأسيس المدينة فاس، وبالخصوص، تأسيس نواتها الأولى، عدوة الأندلس، على يد إدريس الأول (172هـ/ 789م) فحسب (ليفي بروفنصال Lévi-Provençal)[27] فإن المؤسس الثاني للمدينة، إدريس الثاني، باني عدوة القرويين (193هـ/809م) تعامل مع عدوة الأندلس بنوع من اللامبالاة، فهي المدينة القديمة التي أسسها سلفه بدعم من القبائل الأمازيغية التي احتضنته،[28] فجاءت المدينة بسيطة تستجيب للظروف الصعبة التي بدأت فيها الدولة، وانعكس ذلك على أنظمة الري، التي لم تكن على الشكل المطلوب، على عكس النواة الثانية، عدوة القرويين، التي ساهمت العناصر العربية التي قدمت على عهد إدريس الثاني، في بنائها، وهي عناصر ألفت الحضارة وجودة المعمار سواء في الأندلس أو في القيروان، غير أن التجديد سيمس أيضا النواة الأولى، بحكم استقرار بعض العناصر العربية فيها، غير أنها رغم ذلك احتفظت في كثير من الأحيان بمعالمها البدوية القديمة.[29]

أما الباحث (طارق مدني) فيرى بأن الفرق بين العدوتين يعود إلى أن عدوة الأندلس شبه قروية منطوية على نفسها، في حين أن عدوة القرويين حافظت على نموها مع توسع دائم للأحياء السكنية،[30] كما أن الموارد المائية تبدو متفاوتة، والعامل المسؤول عن هذا التفاوت حسب نفس الباحث، يمكن إرجاعه إلى العامل الطبوغرافي، الذي جعل من الصعب تقنيا على عدوة الأندلس استعمال مياه واد فاس بشكل مباشر وجلبه إلى داخل المدينة.[31] وتؤكد هذا الأمر مجموعة من النصوص الإخبارية التي أشارت في غير ما مرة إلى وجود تفاوت في المنشئات المائية بين العدوتين، مثل النص الذي أورده (البكري)[32] والنص الذي أورده (الإدريسي).[33] وفرة مياه عدوة القرويين أمر يوضحه كذلك صاحب (الأنيس المطرب)، بقوله: "**وتختص عدوة القرويين بكثرة الأنهار**[34] **والأرحاء والعيون العذبة والآبار القريبة الطيبة...ويحصد الزرع بفحص المصارة التي بخارج باب الشريعة من أبواب عدوة القرويين عن أربعين يوما.**"[35]

إن الاختلاف في مسألة الحظوظ المائية يدفعنا إلى الرجوع إلى البدايات الأولى التي بدأت فيها عملية تطويع الواد وتوزيعه داخل المدينة، ذلك أن الواد قبل وصوله إلى المدينة ينزل عبر منحدر سيصبح فيما بعد عدوة القرويين، بمعنى أن عدوة القرويين وبفعل انحدارها لن تجد صعوبة في التزود من ماء الواد، عكس عدوة الأندلس التي رغم أنها سابقة في التأسيس إلى أنها شيدت في مكان مرتفع عن النهر، خوفا من فيضان المجرى، الذي كان سببا في تهديم النواة الأولى للمدينة التي أسسها إدريس الأول في سياق بحثه المتواصل عن موقع لبناء مدينته الجديدة.[36] يطرح هذا الإشكال الطبوغرافي السؤال كيف تزودت عدوة الأندلس بالماء؟ إن الإجابة على هذا السؤال غير متاحة لحد الآن نظرا لغياب نص يتحدث عن هذه المسألة، لكن الراجح أن سلسلة من الأشغال قد أنجزت من أجل تيسير عملية التزود، وما يؤكد ذلك هو كثرة المجاري التي تم حفرها داخل عدوة الأندلس والتي سميت بأسماء الأودية، كواد مصمودة وغيره.[37]

لقد اتضح لنا أن العدوتين لم تكونا أبدا متساويتين من حيث الموارد المائية، مع تسجيل تفوق لصالح العدوة اليسرى للواد (عدوة القرويين)، مما كان في الغالب سببا للصراعات والمواجهات العنيفة بين الفريقين، والتي كانت تتأجج في أوقات الندرة التي تصيب الواد، بالخصوص في فترة الصيف.[38]

إن كل ما قيل، لا يجب أن يفهم منه أن سبب الصراعات حول الموارد المائية في فاس، كان سببه النقص الحاصل في كمية الموارد المائية المخصصة لعدوة الأندلسيين بالمقارنة مع تلك المخصصة لعدوة القرويين، وبالتالي احتمال نشوب الصراع بدعوى تضرر العدوة الأولى، بل العكس تماما، فكون الموارد المائية المخصصة للطرفين غير متساوية، لا يعني بالضرورة إجحافا في حق عدوة الأندلس، فكمية المياه الذاهبة لهذه العدوة قد تكون بالفعل تتناسب مع البنية العمرانية وحجم الساكنة لديها، وهو ما يشير إليه الباحث (طارق مدني) الذي يرى بأن عدوة القرويين لم تتوقف عن النمو، أما عدوة الأندلس فكانت أقل نموا وتتوسع بشكل محتشم.[39] وفي كل الحالات كانت كل عدوة ملزمة باحترام صبيب ومجرى الماء بطريقة تتناسب مع عدد ومتطلبات الساكنة.[40] ما يفتح الباب للقول بأنه من الممكن أن تكون عدوة القرويين بدورها متضررة وغير راضية بحصتها من ماء واد فاس، وهو ما سيتضح لنا من خلال مناقشة المسألة من خلال كتب النوازل.

فقد أورد (المهدي الوزاني)[41] نازلة[42] أفتى فيها الفقيه الشيخ (التاودي أبو عبد الله محمد).[43]

ومضمون النازلة يقول: " **سئل أيضا[التاودي] عن مسألة وادي فاس وقسمته، فإن من المعلوم المشهور أنه منقسم بين أهل العدوتين...والقسمة بينهما و اقعة عند الأقواس الأربعة التي تحت باب السبع: اثنان ذاهبان لعدوة الأندلس وهما الأعليان المواليان للسور، والاثنان وهما الأسفلان ذاهبان لعدوة القرويين، وقد ميز ماء الأعليين عن ماء الأسفلين بسور محكم الرصف متقن الوصف، حافظ الأعليين،[44] ثم إنه عمد الأسفلون لذلك السور وهتكوه وخرقوا فيه خرقا أذهب الماء إليهم، وأجرى أكثرهم لمائهم، فهل يقضى عليهم بإصلاح ما أفسدوه، وببناء ما هدموه لما لحق أرباب القسمة العليا من الضرر في الجنات والأرحية وغيرها؟ هذا وفي مشرب إحدى القسمتين انحدار يأخذ صاحبه أكثر من حقه، هل يجب، سيدي في أصل القسمة ومبدئها أن تكون الأرض مستوية بحث لا يجري الماء في إحدى القسمتين إلا وقد جرى في الأخرى؟ والسلام**".[45]

يمكن القول، ومن خلال سرد النازلة، أنها تهم قضية واقعية وغير متخيلة، نظرا لذكر كافة الأطراف المتدخلة في النزاع، ووجود كل العناصر الضرورية التي تهم التأريخ للنازلة، وهي طرفي النزاع، عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين ومكان النازلة المتمثل في موضع قسمة واد فاس الداخل إلى المدينة عند ضريح سيدي مجبر، أما الزمن فإنه غير ذي أهمية

كبرى، مع أننا افترضنا سابقا أنه في القرن السادس الهجري، والذي يمثل الزمن الذي عاش فيه الفقيه الشيخ التاودي، أو ربما تكون النازلة حدثت في زمن سابق له ورفعت إليه للإجابة عنها، ورغم أن النازلة لم تصرح فعلا هل احتج أحد الأطراف بسبب الواقعة، إلا أنه من الطبيعي أن يكون أصحاب القسمة العليا قد تأذوا من فعل سكان القسمة السفلى.

تشمل النازلة قضيتين:

- القضية الأولى تتعلق بشكل القسمة المعمول بها بين الفريقين المكونين لمدينة فاس، وعلى ما يبدو أنها قسمة قديمة حافظت على استمرارها منذ زمن طويل، حيث يظهر أن قسمة ماء واد فاس تعرف اختلافا في توزيع الأقواس التي تحمل الماء، فقوسان منها يوجدان في الأعلى، ويخصان عدوة الأندلسيين، وقوسان في الأسفل يخصان عدوة القرويين، وبين القوسين يوجد فاصل يميز بين ماء الأعليين عن الأسفلين، وهو عبارة عن سور حسب النازلة[46] مبني بإحكام، وحسب الوثيقة المؤرخة بسنة 1715م[47] فإنه حاجز مكون من معدن الفضة.

من خلال هذه القضية يبدو أن أحد الطرفين كان متضررا من القسمة. وقد يبدو من الوهلة الأولى أن الطرف الأسفل المتمثل في عدوة القرويين هو المتضرر بحكم أنه المبادر إلى خرق السور، غير أن ذلك يبدو مناقضا لما قلناه سابقا بكون عدوة القرويين هي المهيمن على النصيب الأكبر من الموارد المائية القادمة عبر واد فاس. لكن النازلة أوردت عبارة يمكن من خلالها قلب الموازين لصالح عدوة القرويين، فالعبارة تقول، "هذا وفي مشرب إحدى القسمتين انحدار يأخذ صاحبه أكثر من حقه"[48]، منطقيا الانحدار سيكون لصالح الأقواس الموجودة في الأسفل، وبالتالي استئثارها بالنصيب الأكبر بفعل عامل الانحدار، غير أن هذا الطرح بدوره يطرح إشكالا، حيث يسقط معه المبرر الذي يجعل عدوة القرويين تقوم بهتك السور إذا كانت هي أصلا المستحوذ على الجزء الأكبر من الماء. لكن ومن أجل فهم سليم لنص النازلة وجب أولا الوقوف على معنى بعض المصطلحات، والتي يعتبر فهمها أمرا حاسما في فهم حيثيات النزاع.

والمصطلحات المقصودة هنا، هي مصطلح الأعليان والأسفلان، فقد ورد في نص النازلة أن قسمة ماء واد فاس كانت في شكل أربعة أقواس، : اثنان ذاهبان لعدوة الأندلس وهما الأعليان المواليان للسور، والاثنان وهما الأسفلان ذاهبان لعدوة القرويين،[49] فمن خلال

الوهلة الأولى قد يعتقد بأن المقصود بالأعليان هما المرتفعان في الأعلى والأسفلان هما المنحدران في الأسفل، بمعنى الارتفاع والانحدار الطبوغرافي، وبالتالي تكون عدوة القرويين هي العدوة السفلى، وهي التي قامت بهدم السور، لكن وكما أشارت إلى ذلك الوثيقة الإسماعلية " **أن قسمة عدوة القرويين تنحدر من قوسيها اللذين من ناحية الضريح... والوادي هناك محصور... إذا فتح منه حجران أو ثلاثة تفجر كله لعدوة الأندلس وبقيت عدوة القرويين معلقة**"[50] إذن فالوثيقة توضح بأن عدوة القرويين هي التي كانت معرضة للضرر في حال وقوع هتك في الجدار الفاصل بين العدوتين، فلماذا إذن ستقوم بإلحاق الضرر بنفسها؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن نفس الوثيقة في حديثها عن تحديد موضع القسمتين، قسمة الأندلس وقسمة القرويين، تشير بالقول إلى "وقسمة عدوة القرويين جارية منحدرة."[51]

انطلاقا مما سبق فإنه يمكن تبني تفسير أخر لمصطلحي الأعليان والأسفلان الواردان في النازلة المذكورة. إن المقصود هنا بالأعليان والأسفلان بالنسبة للأقواس الموزعة لماء الواد، لا يعني المرتفعين والمنحدرين، ولكن يعني تحديد الموقع، فالأعلى لا يقصد به الموجود في الأعلى وإنما الموجود في مكان يلي مكان ما ويتبعه، وبالتالي الأعلى هنا هم القرويين والأسفل هم الأندلسيون.

إن ما نستخلصه من هذه النازلة أن الصراع بين العدوتين حول الماء كان منذ فترات سابقة للتاريخ الذي يوجد في الوثيقة المؤرخة بسنة 1715م،[52] فعلى الأقل لدينا تاريخ سابق للقرن السادس الهجري، مع أن كل المؤشرات التي ذكرناها سابقا تؤكد على أن النزاع يمكن أن يكون منذ فترة حكم الأميرين "عجيسة والفتوح" والذي أسفر عنه، إلى جانب أمور أخرى، تنصيب العدوتين العداء لبعضهما البعض.

أما السؤال الذي مفاده هل يستوجب على عدوة الأندلس إصلاح الضرر الذي لحق بالسور المخصص للفصل بين القسمتين، من أجل رفع الأذى الذي لحق السور ومعه عدوة القرويين؟ فكان جواب الشيخ التاودي[53] غريبا إلى حد ما، ذلك أنه أقر بوجود الضرر، لكنه في المقابل حمل السلطات المسؤولة مسؤولية إصلاحه وليس من قام بارتكاب الفعل (عدوة الأندلس). وهنا نتساءل لماذا تتحمل السلطات المسؤولة في المدينة تبعات أفعال الغير؟ لكن في الوقت نفسه، نجد أن المفتي في هذه النازلة اعتبر الخرق الذي لحق بالجدار أكثر من ضرر

بل تعداه إلى عداء بيِّن، مما قد ينجم عنه تصاعد في النزاع إلى ما لا تحمد عقباه، من هنا كانت دعوته إلى تدخل السلطات العليا لإزالة أسباب الفتن.[54]

إن ما يمكن إضافته من خلال إدراج هذه النازلة، والذي جاء لتبيان إمكانية مسؤولية كلا الطرفين (عدوة القرويين وعدوة الأندلس) في نشوب الصراع بينهما، حيث نفينا سابقا كون نشوب النزاع قد ينشأ فقط نظرا لاستئثار عدوة القرويين بالحجم الأكبر من الموارد المائية، وبالتالي احتجاج عدوة الأندلس على ذلك. لكن هذه النازلة أثبتت أن النزاع قد ينشأ نتيجة تصرفات تعرض حصة الجانب المسيطر على النصيب الأكبر من المياه لتضرر تقدم عليه العدوة المقابلة، والذي يبدو أنه كان في صالحها وقوع خلل في تصريف قسمة القرويين، الأمر الذي كان ينتج عنه تدفق المياه إلى جهتها.

- القضية الثانية: تهم السؤال عن شكل القسمة المعمول بها، ذلك أن إحدى القسمتين توجد في منحدر يجعلها تأخذ أكثر من نصيبها، وهو ما يطرح إشكالية وجوب أن تكون الأرض مستوية حتى ينال كل طرف نصيبه المتفق عليه. تطرح هذه القضية عدة إشكالات، ومن هنا جاء السؤال المطروح على الفقيه (التاودي) الذي قدم جوابا نظريا، حيث أكد على أنه من الواجب لكي تكون قسمة، أن يكون السطح مستويا، لكن تسوية السطح تحتاج إلى عمل وجهد ليس بالهين، لأن الأمر يحتاج إجراءات تقنية ميدانية معقدة، تعرف بتقنية التكبيس،[55] غير أن عدوة القرويين كانت تستعين بإنشاء جدار يمنع الماء من الذهاب إلى العدوة الأخرى، هذه العدوة ونظرا لأنها كانت تملك نصيبا أقل من نصيب الجهة المقابلة كانت تعمد إلى هذا الجدار وخرقه حتى تحصل على مياه أكثر.[56]

إن البحث عن أسباب نشوب الصراع بين الأطراف المتدخلة في استغلال ماء واد فاس، تجعلنا نعود من جديد إلى نقطة البداية، المتمثلة في نص الوثيقة[57] المؤرخة بالقرن الثامن عشر، فإنه يلفت انتباهنا في بدايتها إشارة كاتبها إلى مسألة مهمة للغاية تتعلق بالتدوين حول واد فاس وتقسيماته بين الأحياء، وخاصة بين العدوتين، باعتبارهما القسمين الرئيسين في المدينة. فالكاتب يقول، "**ما زلت منذ عقلت و أنا أود أن نعثر على من تكلم في شأن هذا الوادي المبارك الداخل لمدينة فاس. أو قيد مقاديره ومجاريه وتقاسيمه في قرطاس**"[58]، ينفي التقرير وجود أي عملية تدوين أو تقييد يخص تقسيم وتوزيع المقادير المائية التي منبعها واد فاس. وهو أمر يثير الاستغراب، فكيف لمسألة مثل هذه ألا تكون

محط تدوين أو أن تجد اهتماما من لدن كافة الجهات المتدخلة في أمور الواد؟ مع ما نعلم ما لهذه القضية من أهمية قصوى. فهل يكون غياب هذا الأمر هو ما كان مدعاة لتجدد الصراع بين العدوتين؟

إن تأكيد الوثيقة على استمرار الصراع بين العدوتين لفترات طويلة، والذي عبرت عنه بالقول، "**وما يزال الصياح والنزاع والخصام بين العدوتين من أجل ذلك على الدوام، وكل يدعي الغبن في قسمته، وعدم الوصول لقدر حقه الآن، والله يحق الحق ويبطل الباطل ويهدي الجميع إلى سواء السبيل.**"[59] كان محفزا على كتابة هذا التقرير الذي يشرح بالتفصيل والدقة جميع التقسيمات التي تطرأ على مجرى واد فاس منذ دخوله المدينة حتى خروجه منها.

فأصبح بذلك هذا التقرير، كما يوضح ذلك ناشره، رسما عدليا عليه خطاب القضاة وتعريف بالشهود، يستعمل في المرافعات عند القضاة والمنازعات حول ماء واد فاس، ودليل ذلك أن الناشر وجد من التقرير عدة نسخ خطية له عند عدة أشخاص.[60] ويبقى السؤال المطروح هو لماذا خلال 1715م، وليس قبل، أم أن هناك بالفعل وثائق أخرى تعالج هذا الأمر تعود لفترات سابقة؟

يكشف النزاع الذي تشير إليه الوثيقة عن مجموعة من الإشكالات، أولها كيف أن كلا الطرفين يدعي الغبن في قسمته، هل المقصود من ذلك أن كلا الطرفين غير راض على القسمة الحاصلة بينهما؟ وهنا نتساءل إذا كان الأمر كذلك فلماذا تم القبول بهذه القسمة منذ البداية؟ ولماذا لم يتم التوافق على قسمة معينة ترضي الطرفين معا؟ أم أن المقصود هو أن كل طرف يدعي الغبن في قسمته في وقت معين، عندما تزداد حاجاته ومتطلباته من الموارد المائية أو لحظة نقصان هذه الموارد في أوقات الجفاف، أو خلال فصل الصيف مثلا؟ خاصة وأن العدوتين معا استمرتا في النمو والتوسع وبالأخص عدوة القرويين، كما وضحنا ذلك أعلاه.

إن الإجابة على هذه الإشكالات تتطلب منا معرفة هل كانت القسمة مبنية على التفاضل أم التساوي؟ وهو ما لا تجيب عليه الوثيقة، مما يزيد في حيرتنا وصعوبة إدراك أسس هذه القسمة، وكيف وصلت الأمور إلى ادعاء كل طرف تظلمه منها، مع أننا نرجح أن القسمة لم تكن قائمة على أساس التساوي، لما عرفته العدوتين من تباين شامل بالنسبة

للبنيات العمرانية والأنشطة الاقتصادية والاجتماعية. (المنازل المساجد، الأسواق، الحمامات وغير ذلك...).

إن أسباب هذا الادعاء تبقى غامضة، في ظل سكوت الوثيقة،[61] التي لم تدل بتفاصيل أكثر حول هذا المشكل، وإنما اهتمت فقط بذكر سبب تجدد الصراع في هذه الفترة بالذات. فقد أشار كاتب التقرير إلى أنه منذ حوالي 15 سنة (15 سنة قبل 1715، أي حولي 1700م) عرفت شبكة توزيع ماء واد فاس تغييرات غير شرعية على نظام توزيع المياه، مما تسبب في تسربات ورشوحات هددت أحياء وأسوار المدينة بفعل تحويل مياه الواد، ومرد ذلك أن "**بعض من ورد على فاس العليا (عدوة القرويين) وسكنها من كبار الجيش وأعيانه ممن لا ينازع في مرامه قصد منفعة نفسه وتنمية فلسه، عمد إلى الوادي بمحل الرشوحات المذكورة وفتح منها الوادي، وفجره وأجراه مع السور المذكور إلى ملاح أهل الذمة ونصب عليه رحى ذات مدارين، واستمر ذلك عدة أعوام، وتضررت من ذلك عدو القرويين ضررا فاحشا**."[62]

إذن قد يكون هذا التغيير الحاصل في مجرى الواد عن طريق رفع المياه منه عبر سواقي إضافية من قبل شخص ينتمي إلى جيش دولة المولى إسماعيل، أحد الأمور التي كانت تتسبب في نشوب الصراع وتضرر أحد الأطراف، كما يبدو ذلك من خلال النص، حيث الطرف المتضرر هنا هو عدوة القرويين، مما يعني أن تضرر إحدى العدوتين قد يكون نتاج أمور لا دخل لهما فيها، وإنما بسبب أطراف خارجية أخرى كحالة هذا القائد العسكري الذي سكن حديثا في عدوة القرويين.

فإذا افترضنا أن كلا العدوتين تمثل حلفا منسجما يدافع عن مصالحه في مواجهة الطرف الأخر، بواسطة ممثلين ينوبون عن الساكنة، فإنه من الممكن أن تكون هناك أطراف وشخصيات خارجة عن هذا الإطار تسعى إلى حماية مصالحها في معزل عن الطرفين، كحالة القائد العسكري الذي حسب الوثيقة سعى إلى تحقيق مصلحة اقتصادية من خلال تنصيب رحى كبيرة وتحريكها بواسطة مأخذ مائي جلبه من واد فاس في غفلة أو تواطئ ممن وكلت إليه مصلحة مراقبة المجرى المائي.

إن الضرر الذي لحق عدوة القرويين، تفسره الوثيقة بأسباب أخرى، بالإضافة إلى الضرر الذي تسبب فيه أحد رجالات الجيش، كما بينا ذلك سابقا، فعند تفصيل الوثيقة

لمسار القسمة الواقعة عند ضريح سيدي مجبر، تتم الإشارة إلى بعض التفاصيل التي ساهمت بدورها في الإضرار بقسمة القرويين. حيث تصرح الوثيقة بالقول، بأن قسمة عدوة القرويين المنحدرة من قوسين من ناحية الضريح المذكور، تتخذ شكل منخر ذو فتحتين اثنتين قدر كل فتحة خمسة أشبار، وبينهما جدار من نقرة، وفي حال طغى الواد نتيجة السيول والأمطار الغزيرة، فإن جزء مهم من المياه يذهب لعدوة الأندلس، كزيادة على قسمتهم الأصلية، لأن قسمة الأندلس تجري في فضاء واسع، بخلاف عدوة القرويين فإن قسمتهم تجري تحت الدور والأرحية والحمامات والفنادق وفي مسالك ضيقة لا تحمل أكثر من حقها، فإن زيد عليها ما لا تحمله هلكت الرباع والمساجد ومن فيها.[63]

يبدو أن قسمة عدوة القرويين تعاني من مشكل بنيوي، يتجل في صعوبة المسالك التي تقطعها، حيث تعاني من الضيق وقلة المنافذ، بسبب التوسع العمراني وكثرة المباني الموجودة في مدخل العدوة، على عكس عدوة الأندلس التي تجري فيها مياهها في فضاء واسع، لكونها أقل تعميرا، مما يجعلها تتحمل المياه حتى الزائدة منها في حالة السيول والأمطار الغزيرة. والنتيجة كما توضح ذلك الوثيقة، تهدم السد الذي على شكل منخر بفعل قوة الضغط المائي، " **فتهدم سد المنخر المذكور...وفي بقائه متهدما ضرر عظيم على أهل عدوة القرويين فعلى من علت همته ونفذت في الناس كلمته أن يصرف الوجهة إليه.**"[64]

إذن وكما قلنا ذلك سابقا، فإن الضرر الذي يمكن أن يلحق بأحد الأطراف يمكن أن يكون محصلة أشياء لا دخل للطرف الآخر فيها. وأهم تلك الأسباب، ترجع إلى قلة الماء، الناتجة عن أسباب مختلفة. فمن خلال وثيقة أخرى عبارة عن رسالة[65] من السلطان الحسن الأول إلى باشا مدينة فاس (عبد الله بن أحمد البخاري)[66] والمؤرخة بـ 20 شعبان 28/1297 يوليوز 1880، حول حصول نقص في ماء واد فاس الذاهب لعدوة الأندلس، يتضح لنا أن الرسالة ترجع أسباب النقص الحاصل إلى سببين اثنين، يرجع الأول إلى تصرفات تعسفية من طرف أصحاب الأرحية وملاك البساتين،[67] وثاني الأسباب، وهو الذي يهمنا في الأمر، هو غياب التوازن في مشارب (مآخذ) توزيع الواد، وهو تصريح واضح بوجود خلل في قسمة الواد بين العدوتين، وبذلك أمر السلطان عامله إلى المبادرة رفقة مبعوثين من طرفه ورفقة أرباب البصر[68] من أجل اصلاح الخلل ورد الماء إلى مجاريه، مع تبيان سبب سكوته (العامل) عن هذا الأمر " **فمثله لا ينبغي السكوت عنه والغفلة عن مرتكبيه، حيث**

يتعين زجره وكفه عنه لما فيه من الإضرار بالناس وتعطيل مرافقهم، ولو لم يكن فيه الإضرار بهم إلا تعطيل مساجدهم وحماماتهم التي بها قيام دينهم لكان كافيا بضرورة التدخل."[69]

تؤكد الرسالة وجود تباين في القسمة المائية بين العدوتين، الذي يبدو أنه تضافر مع أمور أخرى نتج عنها نقص موارد مياه عدوة الأندلس، غير أن الرسالة لم توضح هل هذا اللاتوازن أمر حديث أم ناتج عن تقسيم قديم؟ غير أن جواب عامل السلطان سيوضح ذلك، فالرد[70] لم يتأخر، فقد جاء بعد عشر أيام من رسالة السلطان، ومن خلاله يتضح أن اللجنة المكونة لإصلاح الخلل، لما بادرت بذلك حسبما طلب السلطان، فإن أهل عدوة القرويين طلبوا من عامل المدينة عدم القيام بأي تدخل ينتج عنه تغيير في قسمة واد فاس بين العدوتين،[71] لأن في ذلك ضرر عليهم، واستدل هذا الطرف بأن الحالة الراهنة (القسمة الحالية) مبنية على أساس شرعي، تشهد بذلك الرسوم التي بين أيديهم والموقعة من طرف القاضي (مولاي عبد الهادي)،[72]هذا الاحتجاج من طرف عدوة القرويين كان دافعا إلى إحجام عامل فاس عن عدم القيام بأي تدخل إلا بعد استشارة السلطان، ذلك أن الأمر، كما وضحه العامل، أصبح ذو أبعاد كبيرة تتعلق بالقسمة الكبرى بين العدوتين، والمنجزة حسب (الشرع)،[73] حيث من المحتمل أن يؤدي التدخل الغير سليم، إلى تجدد الشحناء والبغضاء الموجبة لقتل السكان بعضهم البعض.

لا نعرف هل كان دافع أهل عدوة الأندلس إلى الشكوى، هو نقص الماء الناتج عن تصرفات أضرت بحصتهم المائية؟ أم أن الأمر له خلفية تاريخية، نابعة من عدم رضاهم بالقسمة الجارية بينهم وبين جيرانهم أهل عدوة القرويين؟ كيف ما كان الحال فإن الطرفين، وحسب روجي لوطورنو،[74] كانا قد عقد صلحا حول القسمة الكبرى الكائنة بالقرب من ضريح سيدي مجبر، وذلك بعدما تكونت لجنة تحكيمية أشرف عليها القاضي (مولاي عبد الهادي)، حيث ضمت اللجنة ستة عشر عضوا، من ضمنهم ممثلَين عن كل عدوة، وذلك بتاريخ 1240هـ/ 1825م، وهو ما أضفى صفة الشرعية على القسمة، لكن لا ندري هل فعلا احترمت قرارات هذا الصلح أم لا؟ فإذا كانت احترمت فما الداعي إلى تجدد النزاع، خصوصا وأن الرسالة السلطانية أشارت إلى وجود عدم توازن في مشارب توزيع الواد، فاللاتوازن مفاده وجود تفاضل في القسمة لصالح طرف دون الآخر، فهل يمكن أن يكون الصلح أغفل

الإنصاف في القسمة؟ وهذا يتناقض مع فكرة الصلح، إذ المفروض في الصلح هو تراضي كلا الطرفين، فكيف يسكت طرف عن ظلم في حقه؟ أم أن الأمر سببه الرئيس هو نقص في الماء بسبب ظروف مناخية[75] تظافرت مع تصرفات تعسفية من طرف أصحاب الأرحية وملاك البساتين، كما أشارت إلى ذلك الرسالة؟ وما يزيد تعتيما وغموضا، غياب رد السلطان حول المسألة، بعد جواب عامل مدينة فاس.

مهما يكن، فإن الخلاف سيكون سببا في تشكل لجان أخرى أوكلت لها مهام تقصي أسباب نقص الموارد المائية الداخلة لمدينة فاس، حيث تكونت لجنتين في أقل من أربع سنوات، الأولى كانت سنة 1881،[76] والثانية كانت سنة 1884.[77]

ما يمكن ملاحظته حول هذا النزاع الحاصل بين العدوتين، هو تكرره بشكل كبير في فترة القرن 19 وخاصة في عهد السلطان الحسن الأول، ورغم أن السبب في تجدد النزاع يكون أحيانا خارج نطاق العدوتين، إلا أن عدد اللجان المكونة في هذه الفترة يوضح مدى حجم التنازع الذي شهدته الموارد المائية لواد فاس.

إذا كان النزاع بين العدوتين على الماء هو الطاغي على باقي النزاعات الأخرى، فإنه في بعض الأحيان يكون داخل نفس العدوة، كما حصل في عدوة القرويين، تشير الوثيقة[78] إلى وجود قسمتين داخل القسمة الواحدة من داخل هذه العدوة، واحدة تجري إلى الجهة الشرقية والتي تسمى جهة الأندلس من عدوة القرويين، والقسمة الأخرى تجري للجهة الشمالية التي تسمى جهة الطالعة واللمطين والدوح. وهي قسمة تعرف وجود خلل يتجلى في كون " **القسمة الشرقية أنزل وأخفض من القسمة الشمالية**"[79] مما يعني أن تلك السفلى تستحوذ على نصيب أكبر لكونها في الأسفل، "**هذا سبب الخلاف والتنازع بين أهل القسمتين.**"[80]

لقد تعددت أسباب النزاعات بين العدوتين داخل مدينة فاس حول الماء، فإذا كان التفاوت الكبير في الموارد المائية المخصصة للطرفين، أمر واضح أثبتته مختلف النصوص الإخبارية التي تطرقت للمسألة المائية في المدينة، منذ عصر البكري (القرن الخامس الهجري) وصولا إلى الوثيقة المؤرخة ب1715م. وهو ما رجحنا أنه كان مدعاة إلى التسبب في صراعات كانت تتطور إلى حد المواجهة الحربية، فإن هناك أسباب أخرى، لا تجعل من عدوة الأندلس المتضرر الوحيد، فقد أثبتنا أن عدوة القرويين كانت أكثر توسعا وأكثر نموا مما جعلها في

حاجة مستمرة لموارد مائية إضافية، مما حتم عليها الدخول في صراعات مع أهل العدوة المجاورة، الأمر الذي توضح من خلال النازلة الفقهية،[81] ومن خلال الوثيقة المؤرخة بالقرن 18.[82]

نعتقد أنه آن الأوان لنطرح السؤال حول غياب السلطات المسؤولة، والتي من شأنها التدخل لحل النزاعات، سواء بين العدوتين أو حتى داخل العدوة الواحدة، فالوثيقة التي تعود إلى فترة القرن 18، لمّحت في غير ما مرة إلى غياب سلطة مسؤولة تتدخل لإزالة الخروقات أو التدخل لفض الصراعات الناشبة بين السكان. فعند الحديث عن الضرر الذي لحق بعدوة القرويين بفعل ما أحدثه أحد أفراد الجيش، ذكرت الوثيقة أن الضرر استمر لعدة أعوام مما أدى إلى ضرر فاحش بأهل العدوة، بل إن السلطة التي تدخلت من أجل ذلك تمثلت في السلطان المولى إسماعيل. والذي تدخل بعد أن رفعت إليه الشكوى، فأمر " **أيده الله بهدم الرحى ورد الماء لمحله**."[83]

أما فيما يخص النزاع الناشب بين سكان عدوة القرويين حول قسمتهم، فقد أشارت الوثيقة،[84] إلى أن الفريقين قد اتفقا على معالجة المشكل نهائيا، وذلك بابتداع حل توافقي يحد من النزاعات بينهما، فرغم استمرار التفاوت في عدد الأنصبة المخصصة لكل طرف، إلا أن المشكل الآخر المتعلق بكون القسمة الشرقية أنزل وأخفض من القسمة الشمالية تم تجاوزه عن طريق بناء "**على كل قسمة نقرة مساوية في الارتفاع لنقرة القسمة الأخرى بالميزان والاعتدال حتى تشرب هذه وهذه شربا واحدا**."[85] وبالتالي تم رفع الضرر عن القسمة الذاهبة إلى الجهة العليا التي كانت لا تستفيد بالقدر الكافي مقارنة مع قسمة الجهة السفلى.

إن غياب سلطات مسؤولة عن تدبير الماء في فترات عديدة يطرح أكثر من علامة استفهام. لكن تساؤلنا يخص هذه الفترة التي تؤرخ لها الوثيقة،[86]والتي قام صاحبها بذكر تفاصيل التقسيم والتوزيع الذي تعرفه مياه واد فاس سواء داخل عدوة الأندلس أو داخل عدوة القرويين، لكنه لم يشر ولو لمرة واحدة إلى وجود هيئة معينة تتدخل لكي يكون تقسيم الماء عادلا بين الفريقين والسهر على احترامه، أو التدخل لحظة نشوب خلاف بين أطراف معينة. وهو أمر مثير للشكوك، ففي الفترات الأخرىنجد مجموعة من المتدخلين في هذا الأمر، يتدخلون كلما قل صبيب ماء واد فاس نتيجة أمر طارئ. ليبقى الافتراض القائم بحدة والذي

يمكن أن يفسر هذا الغياب الواضح للسلطات، هو عرفته المدينة من فوضى نتيجة ضعف الدولة الحاكمة أو دخولها في خلاف مع ساكنة المدينة كذلك الذي ميز عهد المولى إسماعيل (1672-1727م).[87]

فإذا كانت الأمور عرفت نوعا من السلاسة في العلاقات بين المولى الرشيد وسكان فاس،[88]نتج عنه تشييد بعض المنشآت المائية، كقنطرة واد سبو،[89]بالإضافة كذلك إلى ترميمقنطرة الرصيف داخل المدينة.[90]

أما في العهد الإسماعيلي فإن العلاقات ما فتئت أن عرفت تشنجا واضحا بين السلطان وحاضرة فاس، وهي علاقة شابها النفور على حد تعبير لوطرنو،فبمجرد بيعة المولى إسماعيل 1082هـ/ 1672م ثارت فاس وقتلت قائد الجيش وناصرت المولى أحمد بن محرز ابن أخ المولى إسماعيل الذي كان ثائرا على عمه،[91] وقد دامت ثورة سكان فاس، " **أربعة عشر شهروثمانية عشريوما ذاقوا فيها وبال أمرهم**."[92]

أدى سوء العلاقات بين سكان فاس والسلطان المولى إسماعيل إلى تهميش هذا الأخير لفاس،[93]حيث ترجم ذلك في نقل العاصمة إلى مكناس. ونتيجة تجدد الخلاف والمناوشات بين الطرفين سيزيد المولى إسماعيل من التضييق على فاس ومصادرة أملاك سكانها الأغنياء المياسير حتى " **خلت المدينة من ذوي اليسار**"،[94]بل إن الناس سوف تتخلى عن كل أسباب الغنى وجمع الثروة بما أنها ستذهب في النهاية إلى الولاة القساة الذين تكلفوا بقبضها.[95] حيث يشير (الناصري) إلى أن الولاة الذين تم تعيينهم على مدينة فاس قد عاثوا فيها فسادا بكثرة ما استحدثوا على الناس من مغارم وأخذ للأموال،[96]وهو ما انعكس كذلك على الحالة العمرانية للمدينة وعن هذه الحالة يسوق لنا لوطرنو شهادة بليغة لأحد الرحالة الإنجليز اسمه (ويندوس) قائلا: " **بما أن كسب الثروات يتسبب لهم في كثيرمن البؤس، فلا عجب أن يهملوا الوسائل التي تساعدهم على تملكها ويتركوا تجارتهم تنهار، لذلك تردى مجدهم وخربت المباني العمومية**."[97]

إذن يبدو أن هذا الإهمال الذي تعرضت له المدينة كان كنوع من العقاب المفروض عليها، بفعل دعمها للثائرين على السلطان، مما سيكون مدعاةإلى غياب سلطات مسؤولة تتكلف بأمور المدينة ومنها ما يتعلق بتدبير الموارد المائية ومراقبة الواد ومياهه وتقسيماته وفروعه وتدبير النزاعات الناشبة حوله. وما قد يزكي هذا الطرح الذي نقدمه، هو عودة

الأمور إلى مجراها الطبيعي في عهد السلاطين اللاحقين، وبالتالي وجود سلطات ستقوم بدورها المتمثل في حماية المجرى المائي من كل ما يمكن أن يؤدي إلى التأثير عليه وعلى جودة مياهه أو إحداث خلل في تقسيماته المعهودة والمألوفة، وتوضح الوثيقة[98]المؤرخة في سنة 1881، مدى الاهتمام الذي خصته كل الفئات المتدخلة في أمور الماء بالمدينة، فهذه الوثيقة، وهي عبارة عن تقرير كتب بعد القيام بطواف على مجرى مياه واد فاس، شارك فيه أرباب الخبرة والمعرفة والبصر وأهل الرأي والنظر من الفلاحين والبنائين والتجار والقنويين والنظار والعارفين بأحوال الواد،وقد وقف التقرير على كل المخالفات المسجلة حول توزيع مياه واد فاس وعن الأضرار التي لحقت كل المنشآت، موصيا بإصلاحها وإزالة الأضرار التي لحقت بها.[99]

ذلك أن الأسباب التي وضحها التقرير في مقدمته، تروم البحث عن الموجب لقلة وصول ماء واد فاس وانقطاعه عن جل المساجد من القرويين وروضة المولى إدريس،[100]والنظر فيما أحدث من البناءات في الدوح والزيات وكثرة رفع السدود على منبع الواد بصواغة[101]والبناء بالأودية.[102]

خلاصات

تفضح النزاعات التي شهدتها فاس بخصوص قسمة الماء، غياب جهات مسؤولة عن حماية الشبكة المائية ينوط بهاالسهر على احترام التقسيمات والتفريعات التي يخضع لها الواد داخل المدينة، وكذا من أجل التعهد بالعناية الواجبة للقنوات المائية ومختلف الوسائل الموظفة في توزيع الماء سواء بين العدوتين أو داخل كل عدوة، هذه الجهات هي التي كان من المفروض أن يكون من مهامها تدبير هذه النزاعات والحد من تطوراتها.

لقد وضحت بعض الوثائق التي اعتمدنا عليها غياب يكاد يكون شبه تام في بعض الفترات لأي سلطة أو هيئة تتكلف بهذه الأمور التي يمكنها أن تساهم في تفادي النزاع على قسمة الماء، وهذا ما يفصح عنه كاتب التقرير المنشور في الوثيقة المؤرخة بسنة 1715،[103] عندما ناشد ذوي النية الحسنة والمعروف من أجل ترميم الحالة المتدهورة للشبكة المائية داخل عدوة القرويين.[104] هذا الرجاء نجد صداه كذلك من داخل كتب النوازل الفقهية، حيث دعا المفتي النوازلي (التاودي) إلى تدخل من بسط الله يده في البلاد وولاه الحكومة فيها والصلاح ورفع الفساد أن يأمر بسد الخرق الذي أصاب القسمة الكبرى بين العدوتين.[105] إن هذه الدعوة لتعبير صريح عن عدم وجود مؤسسات تنظيمية تتكفل برعاية وتعهد الشبكة

المائية وضمان استمرار عملية تزويد الأحياء بالمياه، وتفادي دخول الساكنة في نزاعات قد تستمر ردحا من الزمن.

إن غياب مؤسسات تنظيمية تتكفل بتدبير ورعاية الشبكة المائية داخل فاس، أمر يدعو إلى الاستغراب، فكيف لمدينة بالمكانة التي عرفتها فاس ألا توجد بها هيئات خاصة وبشكل دائم، تكون وظيفتها مراقبة المجاري المائية والسهر على احترام التقسيمات والتفريعات التي يخضع لها واد فاس؟ حتى أن بعض الأضرار كانت تستمر لسنوات طوال دون أن يتم إصلاحها مما كان يلحق أضرارا بالغة سواء بالفئات المستفيدة أو بالشبكة المائية نفسها.[106]

افتقاد فاس لمؤسسات تنظيمية تسهر على السير العادي لعملية قسمة الماء أثر في أحيانا كثيرة بشكل سلبي على تدبير النزاعات، التي لاحظنا أنها تتفاقم في فترات ضعف السلطة السياسية، فسواء في الفترات السابقة للوجود المرابطي أو في فترات تراجع سلطة بني مرين أو في أثناء الأزمات المتكررة خلال القرن التاسع عشر، أو حتى في الأوقات التي كانت فيها فاس على خلاف مع السلطة السياسية كما حدث في عهد السلطان المولى إسماعيل، فكلها فترات برزت فيها إلى السطح نزاعات على الماء صعب معها إيجاد حلولا لها.

وفي هذا الإطار كانت تبرز الأشكال العرفية لتدبير النزاعات والتي رصدناها خاصة من خلال كتب النوازل الفقهية،[107] فرغم الطابع الشرعي لأحكام النوازل وتأثر الفقهاء والمفتيين بالفكر الديني، إلا أن هذه النوازل بينت بشكل ملموس وجود أشكال عرفية تسعى إلى حل النزاعات على الماء.

لقد عمل الفقهاء على صياغة أحكام مبنية على أساس شرعي عن طريق النسج على منوال قضايا مماثلة من داخل كتب الفقه بشكل عام والنوازل بشكل خاص، والمستمدة من انتاجات نوازلية لفقهاء الغرب الإسلامي المالكية. في تجسيد واضح لتناقل سلسل للأحكام الفقهية داخل هذا المجال الممتد. لكن الفقهاء لم يكونوا منعزلين عن الواقع الذي يعيشون فيه والذي يسفر عن نزاعات متعددة، بل على العكس من ذلك فقد اعتمد هؤلاء في أحيانا كثيرة على احكام عرفية درج الناس على توظيفها في مختلف أشكال تدبير النزاع على الماء.

إن البحث في تدبير النزاعات على الماء يفتح الباب أمام دراسة قضايا مختلفة تعكس بشكل أو بأخر وجها من أوجه حياة المجتمع المغربي في الفترات السابقة للاستعمار،

كما يجعل الباحث يعتمد على نوعية مختلفة من النصوص التاريخية التي من شأن الاعتماد عليها ملئ الفراغ الكبير من داخل النصوص التقليدية بخصوص مثل هذه القضايا.

الهوامش:

[1]- بدأ ملك زناتة المغراويين (الدولة المغراوية) مع زيري بن عطية بن عبد الله بن تبادلت بن محمد بن خزر الزناتي المغراوي بفاس سنة 377هـ، ثم استقام له حكم بلاد المغرب، أنظر ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 102 وما بعدها. وأنظر كذلك ابن خلدون عبد الرحمان، تاريخ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 7، دار الفكر، بيروت، 2000، ص 39.

[2]- يقول ابن أبي زرع الفاسي في كتابه الأنيس المطرب: " فكان بينهما الحرب على الدوام...وكثرت العداوة، فكانا لايزالان يقتتلان ليلا ونهارا. ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، م س،ص111.

[3]- نفس المصدر ونفس الصفحة.

[4]- نفسه، ص42.

[5]- زمامة عبد القادر، وثيقة حضارية عن شبكة توزيع المياه في فاس القديمة، مجلة البحث العلمي، عدد 31، أكتوبر 1980، ص ص141-150، الوثيقة عبارة عن تقرير كتبه محمد العربي بن عبد السلام ابن إبراهيم من أجل النظر في كيفية توزيع الماء داخل مدينة فاس، وذلك سنة 1127هـ/1715م.

[6]- زمامة عبد القادر، وثيقة حضارية عن شبكة توزيع المياه في فاس القديمة، م س، ص144.

[7]- نفس المصدر ونفس الصفحة.

[8]- نشير إلى أننا قد أثبتنا النصوص بأخطائها.

[9]- زمامة عبد القادر، وثيقة حضارية، م س، ص143.

[10]- المتوفي سنة 487هـ/1094م.

[11]- البكري أبوعبيد الله، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ، ص115.

[12]- يقول الإدريسي: " والأندلس ماؤها قليل...أما مدينة القرويين فمياهها كثيرة." الإدريسيالشريف، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002،ص241.

[13]- يقول المجهول صاحب الاستبصار: "وعدوة القرويين من هذه المدينة أكثرها بساتين وأشجار ومياه وعيون من عدوة الأندلس."الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، بدون تاريخ، ص181.

[14]- ابن خلدون عبد الرحمان، تاريخ ابن خلدون، ج 7، م س، ص48. لم يوضح النص الكيفية التي تم بواسطتها قطع الماء على عدوة القرويين دون أن يشمل ذلك عدوة الأندلس.

[15]- البيذق أبي بكر بن علي الصنهاجي، اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1971، ص 61. حيث قال: "وقطع به الوادي ورده الخليفة إلى السور وهدم باب السلسلة."

[16]- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، م س، ص189.

[17]- مزين محمد، فاس وباديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549-1937، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ط1، 1986، ص 277. لم يقم الباحث بنشر الوثيقة بأكملها بل جزء صغير منها، والذي يهمنا هو الآتي: "*أن وادي فاس إنما كان بأجمعه هابطا ما بين باب الجديد وباب الفرج (السلسلة) ولا شيء لعدوة الأندلس إلا للسقي.*"

[18]- مزين محمد، فاس وباديتها، م س، ص 277.

[19]- الفتوح وعجيسةولدي الأمير دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية بن زيري، أنظر تفاصيل أكثر، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م س، ص42؛والجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1991، ص40-41؛ ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص89.

[20]- يسمي البكري هذا المكان (كدية الفول أو باب الفوارة) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، م س، ص116؛ أما ابن أبي زرع فيسميه (كهف الرماد)، ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، م س، ص42؛ ويسميه الجزنائي (كهف الوقادين) الجزنائي، جنى زهرة الآس، م س، ص41. هذا الاختلاف في الأسماء قد لا يعني بالضرورة اختلاف أسماء لمكان واحد حسب الفترات، بل يحيل في الغالب إلى تعدد أماكن اللقاء بين الخصمين، والذي يبدو أن صراعهما كان صراعا شديدا ومستعرا.

[21]- الجزنائي، جنى زهرة الآس، م س، ص41-42.

[22]- مزين محمد، فاس وباديتها، م س، ص277.

[23]- مزين محمد، نفس المرجع ونفس الصفحة.

[24]- الإدريسيالشريف، نزهة المشتاقم س، ص242.

[25]- الإدريسي، نفسه، ص241.

[26]- لوطورنو روجي، فاس قبل الحماية، ج1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص218.

[27]- بروفنصال ليفي، تأسيس فاس، تعريب سعيد النجار وأحمد اليابوري، مجلة البحث العلمي، عدد 31، أكتوبر 1980، صص157-183.

[28]- يفترض ليفي بروفنصال وجود عداء شديد بين إدريس الثاني ومحيطه الأمازيغي، ترجم ذلك في مجموعة من الخلافات تطورت إلى حد قتل زعيم قبيلة أوربة أبو ليلي إسحاق سنة 192هـ، أنظر ليفي بروفنصال،تأسيس فاس، م س، ص175.

[29]- بروفنصال ليفي، تأسيس فاس، م س، ص177.

[30]- Madani,T,L'eau dans le monde musulman médiévale, l'exemple de Fès (Maroc) et de sa région, deuxième partie, thèse pour obtenir le grade de docteur de l'Université Lyon II, 2003, p26.

[31]- Ibid, p31.

[32]- البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيةوالمغرب، م س، ص115.

[33]- الإدريسي، نزهة المشتاق، م س، ص242.

[34]- المقصود بالأنهار هنا السواقي المتفرعة عن واد فاس داخل المدية.

[35]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م س، ص43-44.

[36]- ابن أبي زرع، نفس المصدر، ص38.

[37]- ملولي إدريسي عبد الرحمان، النسق المائي بمدينة فاس إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ 19 ميلادي، دراسة تاريخية ميدانية وثائقية، دراسة مرقونة كلية الآداب ظهر المهراز، فاس، موسم 1997-1998.

[38]- الوزان حسن، وصف إفريقيا، ج1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ص247.

[39]-Madani, T,op cit, p26.

[40]- Ibid

[41]- الوزاني المهدي، النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى المسماة المعيار الجديد الجامع المغرب عن فتاوي المتأخرين من علماء المغرب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1998،ص233-234. نستغرب كيف لم يدرج الونشريسي هذه النازلة، لما عرف عنه من اهتمام بالنوازل المائية وفي مجال فاس بالخصوص.

[42]- يمكن التأريخ لهذه النازلة التي تعالج نزاعا بين العدوتين حول الماء بالقرن السادس الهجري أو ما قبل، لكون المفتي فيها (التاودي) قد عاش خلال هذا القرن.

[43]- أبو عبد الله التاودي المعلم، لأنه كان يعلم الصبيان، ويكنى كذلك بأبي يعلى وهو من أصحاب أبي يعزى، مات في فاس سنة 580هـ، وينسب إلى حصن بني تاودا قرب جبال غمارة على مرحلتين من فاس شمال واد سبو. أنظر ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط 2، 1997، ص272.

[44]- وهذا الوصف للقسمة الواقعة بين العدوتين بنفس المكان وبنفس الطريقة قد أورده التقرير في الوثيقة المنشورة من قبل عبدالقادر زمامة، في مجلة البحث العلمي، م س، ص ص141-150." وصار الوادي كله برمته يدخل لفاس العليا في أقواس أربعة قنانيط تحت الممر الذي بين باب السبع والباب المقابل له الذي بإزاء سقاية ابن هلال من المدينة المذكورة، ويخرج من تحتها في أقواس أربعة إلى الفضاء الواسع بقرب ضريح ولي الله سيدي مجبر القوسان المواليان لسور المدينة المذكورة يجريان لعدوة الأندلس، والقوسان المواليان للضريح يجريان لعدوة القرويين، وبينهما حاجز جدار نقرة".

[45]- الوزاني المهدي، النوازل الجديدة الكبرى، ج8، م س، ص233-234.

[46]- الوزاني المهدي، نفسه، ص233.

[47]- زمامة عبد القادر، وثيقة حضارية، م س، ص144.

[48]- الوزاني المهدي، النوازل الجديدة الكبرى، ج8، م س، ص233-234.

[49]- الوزاني المهدي، نفسه، ص233.

[50]- زمامة عبد القادر، وثيقة حضارية، م س، ص144.

[51]- زمامة عبد القادر، نفس المصدر ونفس الصفحة.

[52]- نفسه.

[53]- الوزاني المهدي، النوازل الجديدة الكبرى، ج8، م س، ص234.

[54]- الوزاني المهدي، نفس المصدر والصفحة.

[55]- ملولي إدريسي، النسق المائي، م س،ص114، يقصد بالتكبيس القاء الأتربة والحجارة في الجهة المنخفضة حتى تستوي مع الجهة المرتفعة.

[56]- زمامة عبد القادر، وثيقة حضارية، م س، ص145.

[57]- زمامة عبد القادر، نفس المصدر.

[58]-نفسه، ص143.

[59]- نفسه، ص144.

[60]- نفسه، ص142.

[61]-نفسه.

[62]- نفسه، ص 143.

[63]- نفسه، ص145.

[64]- نفس المصدر ونفس الصفحة.

[65]- مديرية الوثائق الملكية، المجموعة 10،محفظة فاس، رقم 31.398، وثيقة رقم 1192، ص131-133.

[66]- شغل منصب المشرف على الجيش (العلاف الكبير) في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان، ثم ولاه السلطان الحسن الأول باشا على مدينة فاس بعد أحداث الدباغين بفاس سنة 1873، وظل في هذا المنصب

إلى وفاته سنة 1887. أنظر الخمليشي عبد العزيز، مادة البخاري عبد الله بن أحمد، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والنشر، مطابع سلا، 1989، ص ص1097-1098.

[67]- لم توضح الرسالة من المقصود بأصحاب الأرحاء وملاك البساتين، هل أولئك الموجودين داخل المدينة أم خارجها، مديرية الوثائق الملكية، م س، وثيقة رقم 1192.

[68]- تشكلت بعثة السلطان من وصيفه (البشير الحسني) وكاتبه (الحسين بوعشرين) ومن خلال أفراد هذه البعثة، ومن خلال لهجة الرسالة، تتضح مدى أهمية المأمورية السلطانية، واهتمام السلطان بأمر ماء واد فاس، مديرية الوثائق الملكية، المجموعة 10، م س، وثيقة رقم 1192.

[69]- نص الرسالة السلطانية، مديرية الوثائق الملكية، رقم 31.398، م س، ص132.

[70]- جواب الباشا عامل فاس بتاريخ 30 شعبان 1297 الموافق لـ 7 غشت 1880، وثيقة رقم 1201، مديرية الوثائق الملكية سجل 31.679، محفظة فاس، ص165-167.

[71]- نجهل كيف كان سيكون هذا التغيير، وما هي درجته، غير أنه من الواضح أنه كان سيلقى معارضة من قبل الطرفالآخر، عدوة القرويين.

[72]- المقصود هنا هو قاضي مدينة فاس الشريف مولاي عبد الهادي بن عبد الله الحسني، أحد المصادقين على الوثيقة التي تخص توزيع ماء واد فاس المؤرخة بسنة 1127/ 1715، المنجزة في عهد مولاي إسماعيل العلوي، والتي سبق التطرق لها سابقا، مجلة البحث العلمي، عدد 31، أكتوبر 1980، وأرود ماسينيون نسخ أخرى لها تحمل توقيعات قضاة وعدول آخرين في فترات زمنية أخرى وخاصة خلال القرن 19، ومن ضمنهم هذا القاضي، أنظر دراسة ماسينيون حول الحرف:

Massignon, L, Enquête sur les corporations d'artisans et de commerçants au Maroc, (1923-1924), publication Faculté des Lettres et des sciences humaines, Rabat, p236

[73]- المقصود بالشرع، أن القسمة التي خلقت خلافا بين العدوتين، كانت موضع صلح بين الطرفين، وهو ما أشار إليه روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، ج1، ص347.

[74]- لوطورنو روجي، فاس قبل الحماية، ج1، م س، ص347.

[75]- تشير أحوال المناخ إلى تسجيل نقص واضح في التساقطات خصوصا في منطقة الغرب ومنطقة الريف، وهي مناطق محاذية لمنطقة فاس، أنظر محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و19، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، 1992، ص253.

[76]- زمامةعبد القادر، تقرير عدلي عن مجاري مياه واد فاس وإصلاحها، كتب سنة 1299هـ/ 1881م، مجلة كلية الآداب فاس، عدد 5و6، سنة 1982-1983، ص ص81-96.

[77]- هذه اللجنة نشر تقريرها لويس ماسينيون، أنظر:

Massignon, Louis, Enquête sur les corporations,op cit, p237.

[78]- زمامة عبد القادر، وثيقة حضارية، م س.

[79]- زمامة عبد القادر، نفس المصدر، ص146.

[80]- نفس المصدر ونفس الصفحة.

[81]- الوزاني المهدي، النوازل الجديدة الكبرى، ج8،م س،ص233-234.

[82]- زمامة عبد القادر، وثيقة حضارية، م س.

[83]- زمامة عبد القادر، نفسه، ص143.

[84]- نفسه، ص146.

[85]- نفسه، ص146-147.

[86]- نفسه.

[87]- تاريخ المدينة موشوم قبل الاستعمار بكثرة الصراعات والحروب التي كانت تعرفها المدينة، والتي تنعكس سلبا على كافة مناحي الحياة، لعلى الماء ومنشئاته على رأس القائمة، أنظر الزياني أبو القاسم، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، القسم الأول من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، نشر وزارة الثقافة المغربية، ط1، 1992، م س، ص ص50-53.

[88]- يقدم الناصري رواية عن صفاء الأجواء بين سكان فاس والمولى الرشيد بقوله: "*في اليوم الذي بويع فيه بفاس كان القمح في أول النهار بخمس أواق للمد وصار في أخره بنصف أوقية فتيمن الناس بولايته واغتبطوا بها*". الناصري أحمد، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة العلوية، ج 7، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ص 44.

[89]- الناصري أحمد، الإستقصا ج7، م س، ص39.

[90]- لوطرنو روجي، فاس قبل الحماية، ج1، م س، ص126.

[91]- العلوي أحمد بن عبد العزيز، الأنوار الحسنية، منشورات وزارة الأنباء، بدون تاريخ، ص 85؛الوفراني محمد الصغير بن الحاج، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، طبعة مدينة انجي، 1888، ص 305؛ الناصري أحمد، الإستقصا، ج7، م س، ص47.

[92]- العلوي أحمد بن عبد العزيز، الأنوار الحسنية، م س، ص 85؛ أبو القاسم الزياني، البستان الظريف، م س، ص148؛ الناصري أحمد،الإستقصا، ج7، م س، ص48.

[93]- حسب تعبير أبوالقاسم الزياني فإن مدينة فاس لم تسترح من الحصار والحروب المفروضة عليها إلا خلال فترة عهد السلطان محمد بن عبد الله والسلطان المولى سليمان، نظرا لحسن تدبيرهما وإعراضهما عن جهل سكان فاس. البستان الظريف، مصدر سابق، ص 53.

[94]- أبو القاسم الزياني، البستان الظريف، م س، 186؛ الناصري، ج7، م س، ص 98.

[95]- يقول أبو القاسم الزياني، "*غضب السلطان على أهل فاس ووجه لهم حمدون الروسي وأخاه أبا علي وأمرهما بقبض المال من أهل فاس، فبعثوا (أهل فاس) أشرافهم للشفاعة، فلم يقبل، واشتغلوا بدفع المال، فلم يسلم منه أحد، ولم يعرف له عدد*". أنظر الزياني، البستان الظريف، م س، ص186.

[96]- الناصري أحمد، الإستقصا، ج7، م س، ص48.

[97]- لوطرنو روجي،فاس قبل الحماية، ج1،مس، ص127.

[98]- زمامة عبد القادر، تقرير عدلي عن مجاري مياه وادي فاس،م س، ص ص81-96.

[99]- زمامة عبد القادر، تقرير عدلي، م س.

[100]- نفسه، ص83.

[101]- يقصد زواغة حيث ملتقى عيون مياه واد فاس.

[102]- زمامة عبد القادر، تقرير عدلي،م س، ص84.

[103]- زمامة عبد القادر، وثيقة حضارية، م س.

[104]- زمامة عبد القادر، نفسه، ص145.

[105]- الوزانيالمهدي، النوازل الجديدة الكبرى، ج8، م س، ص234.

[106]- استمر ضرر لحق بأحد التفريعات لواد فاس خمسة عشر سنة، انظر زمامة عبد القادر، وثيقة حضارية، م س، ص143.

[107]- يعتبر الباحث سعيد بنحمادة أن تكرر عبارات مثل (العادة والعرف) و(جرى العمل) وغيرها داخل كتب النوازل دليل واضح على المجهودات التي بذلتها هذه المصنفات في سبيل التوفيق بين الشرع والأعراف والعادات والقبلية. أنظر، سعيد بنحمادة، أثر البنية القبلية في تدبير النزاعات على الماء بالمغرب والاندلس المحددات والتجليات،هيسبريسثمودا، عدد 44، 2009، ص ص41-69.

الكاتب: د/ نبيلة بن عزوز
جامعة بوبكر بلقايد / تلمسان.

عنوان المقال: **المخطوط قواعده وعدته وأهميته في تحقيق التّراث.**

البريد الالكتروني:nabilabenazouz1@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/05/11 **تاريخ القبول:** 2020/09/19 **تاريخ النشر:** 2019/12/31

المخطوط قواعده وعدته وأهميته في تحقيق التّراث

The manuscript rules and its importance in achieving the heritage

الملخص بالعربية:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى كشف الستار عن حيثية هامة في مجال تحقيق المخطوط وما يكتسيه من قيمة بالغة، مع البحث عن آليات تفعيل عملية التحقيق وسبل الاستزادة بعد الإفادة من هذا الإرث الضخم المحفوظ في الرفوف والخزائن وفق أسس عملية ومنهجية أرسى قواعدها العلماء والمختصون، والّذي لا يزال يصارع جملة من الأخطار ما استدعى تكاتف الجهود لحماية هذا الإرث الحضاري.

الكلمات المفتاحية: علم المخطوط، التحقيق، الأصول، القواعد، أهميته.

Abstract :

This paper seeks to unveil an important aspect in the field of the importance of achieving the manuscript , And its value is extremly valuable with the seach for mechanisms Activate the investigation process and way to benefit after benefiting from this huge legacy kept

The shelves and cabinet on the basis of the process and methology laid down by scientists and specialists whitch is still struggling with a number of dangers ,which called for intensified efforts to protect this heritage of civilization .

Key words : Science of the manuscript ,Inverstigation,H eritage,T he rules,Its importance .

مقدمة:الحديث عن المخطوط وتحقيقه موضوع ذو شجون، يحتاج إلى وقت ومساحة أكثر من المسموح به، لأنّه يجسد الأصالة وعراقة المنتوج الفكري والثقافي وثروة عظيمة الّتي تملكها أمتنا، فتحتاج إلى إحيائها من جديد حتى تبث الحياة فيها.

وتحقيق المخطوطات كان هاجس المشتغلين في مشارق الأرض ومغاربها ما دفعهم إلى تأصيل هذا العلم ووضع ضوابط ومنهج علمي خدمة للعلم وللتراث من الأفول والاندثار،لكونه واحد من كنوز الحضارات الإنسانيّة الشامخة ممتدة الجذور،ما دفعنا إلى استنطاق نشأة علم المخطوط، وضبط قواعده، وأصوله وأهميته وهذا ما نسعى إلى الحديث عنه في هذه الورقة البحثية.

01–تعريف المخطوط:هو كل كتاب لم يطبع بعد ومازال بخط صاحبه أو بخط ناسخه[1]، أو أخذت عنه صور فوتوغرافية مُصورا بالميكروفيلم عن المخطوط الأصلي ، وهو دراسة المخطوط بوصفه قطعة مادية، ويراد به عند القدامى مفهوم الوراقة أو كل ما يتعلق بالمخطوطات من كتابة ،ومصطلح المخطوط هو حديث الاستعمال في كل اللّغات وأفرز ظهوره اكتشاف الطباعة.[2]

02- تعريف التحقيق:

أ- **لغة**: التحقيق لغة مأخوذة من الحقّ نقيض الباطل، وحقّ الأمر بحقّه حقا، كان منه على يقين، واحتق القوم قال كل واحد منهم الحقّ، ونقول حققت الأمر وأحققته إذا كنت على يقين منه.[3]

ب- **اصطلاحا**: هو بذل الجهد لغرض الوصول إلى حقيقة معينة أرادها مؤلف النّص، وهو عملية مركبة هدفها إخراج النّص المضبوط على الصورة الّتي قاله عليها صاحبه أو أقرب ما يكون إلى ذلك.[4]

ويعرفه الدكتور "عبد الهادي الفضلي" في كتابه تحقيق التراث: "العلم الّذي يبحث فيه عن قواعد نشر المخطوطات أو دراسة قواعد نشر المخطوطات"، أما "حسين محفوظ "يعرفه: "على أنّه إخراج الكتاب مطابقا لأصل المؤلف أو الأصل الصحيح الموثوق إذا فقدت نسخة المصنف".[5]

03- نشأة علم المخطوط:

ظهر هذا العلم عند الغرب في القرن السابع عشر الميلادي يستمد قوته وأصوله ومقوماته من أعمال الفيلولوجيا الكلاسيكيين*، ويعد علم المخطوط في العصر الحديث

جزءا لا يتجزأ من البيالوغرافيا التطبيقية* أو التاريخية، بالمقابل نجد البحث الفيلولوجي عرف ازدهارا في النصف الأول من هذا القرن إلا أنّ مهمة الباليوغرافيا اقتصرت على دراسة الخطوط القديمة دراسة علمية ومن هذا المنطلق اختلفت ا لفظة الباليوغرافيا عن لفظة الكوديكولوجي* من حيث الهدف ومن حيث المنهج.ومن أهم نقاط الاختلاف بينهما ،ا فالأولى صبت اهتمامها على خبير مادّة الكتابة فوظيفته شبيهة بالمؤرخ الّذي يدرس تطور الظواهر في الزمن، أما الثانية اهتمت بالمادّة المكتوب وطريقته، فهي شبيهة بعمل العالم الأثري الّذي يحاول إعادة بناء القطعة الأثرية المكتشفة، وجاءت المحاولات الأولى في أوروبا محاولات فردية ثم تحولت إلى عمل جماعي[6]، فعمل رجال الدين المسيحيين ابتداء من القرن الخامس الميلادي إلى غاية القرن السابع على مقابلة النّصوص، فشهدت أماكن العبادة في المدن الأوروبية الكبرى بفرنسا وإيطاليا احتكار ثقافة الكتاب وإنتاجه فظهرت فئة من أهل الكنيسة أطلق عليها تسمية النسّاخ الّذين لقوا مكانة مرموقة في مجتمعهم، فانحصر عملهم على كتابة النّصوص الدينيّة والشروح ثم مقابلتها بالنّصوص الأصلية ما يعرف في التراث العربي الإسلامي كتب السيرة والتراجم.

أما المرحلة الثانية عرفت تطورا ملحوظا في مفهوم التحقيق في أوروبا تزامنت مع الإشعاع العلمي في العالم العربي، فاستبدل فيها الأوروبيون لغة العلم من اللّغة اللاتينية إلى العربيّة فانكبت اهتماماتهم على ترجمة الآثار العلمية العربيّة، وفي مستهل القرن الثالث عشر الميلادي بدأ علم التحقيق يعرف انتعاشا تزامن مع حركة الإحياء، وبخاصة بعد انتقال مصانع صناعة الورق الّتي كانت رائجة في الأندلس وشاطبة إلى غاية أن استوى الأمر مع تأسيس الجامعات في أوروبا مثل "السور بون"سنة 1257م و"أكسفورد" سنة 1163م[7]، وكان أول معهد أنشئ في أوروبا لهذا الغرض معهد البحث وتاريخ النصوص في فرنسا التابع للمركز الوطني للبحث العلمي في عام 1937[8].

أما المخطوط في الشرق تشير بعض الدراسات أنّه لم يحظ بالعناية الّتي حظي بها نظيره في الغرب من اهتمام وعناية، فالإشارة إليه في مصادر التراث نادرة جدا، فجلّ الدراسات الحديثة لم تهتم بالمخطوط العربي وفق القواعد الحديثة لعلم المخطوطات.[9]

إلا أن البعض الباحثين يروا أن المسلمين عرفوا ما اصطلح عليه بعلم التحقيق مع فجر التاريخ الإسلامي، وكان لعلماء الحديث اليد الطولى في إرساء قواعد هذا الفنّ في تّراثنا العربيـ وتأثر بمنهجهم أصحاب العلوم المختلفة، فاتبعوا قواعد لإثبات صحة السند وعلم

التجريح والتعديل، وكذلك ما قام به علماء اللّغة والشّعر من توثيق للنّصوص القديمة وتثبت صحة نسب النّص، ويمكن إرجاع ظهور هذا العلم إلى عهد الخليفة أبي بكر الصديق لما طلب جمع وتوثيق القرآن الكريم على يد الصحابي الجليل "زيد بن ثابت"، ولم تتوقف مهمة المسلمين في مجال التحقيق على تمحيص وتوثيق القرآن فوضعوا منهجية وقواعد صارمة في قضية توثيق الحديث*[10] ولقد انطبق هذا المنهج على بقية العلوم عند المسلمين حتى أصبح علما قائما بذاته بهدف جعل العلوم الإسلامية خالية من كلّ ظنّ أو شبهة، وما يمكن قوله أن قواعد تحقيق المخطوط ولدت من بطن علوم الحديث، حتى وصلت بهم المقام إلى تأليف كتب في التحقيق ضمنوها ملاحظات وآراء تحولت مع مرور الزمن إلى قواعد استلهمها المستشرقون في تصديهم لعملية تحقيق ونشر التّراث العربي الإسلامي خلال القرن التاسع عشر الميلادي مثل كتاب تقييد العلم للخطيب البغدادي ت(سنة 463هـ/1071م).[11]

وإذا انتقلنا إلى "عبد الستار الحلوجي" نجد في كتابه يعرض المخطوط العربي منذ نشأته حتى القرن الرابع الهجري الّذي نشره سنة 1978 م ،تناول فيه صناعة المخطوط في عصوره الأولى، إلا أنّ المؤلف ابتعد عن إصدار الأحكام عن المخطوط العربيّ لقلة المخطوط في هذه الفترة.[12]

وبقى المخطوط العربي حقلا بكرا يحتاج إلى الدراسة والبحث باستثناء بعض المحاولات الفردية أو الجماعية الّتي قام بها البعض ،ومع ذلك في السنوات الأخيرة أخذت الجامعات والمراكز العلميّة العربيّة تهتم بجمع المخطوطات وتحقيقها ونشرها، فعملت جامعة الدول العربية بإنشاء معهد المخطوطات العربية في القاهرة، وقامت بإرسال البعثات العلمية إلى شتى أنحاء العالم فعكفت على تصوير آلاف المخطوطات العربية على الميكروفيلم، ووضعت فهارسها بين أيدي الباحثين فأصبح لتحقيق المخطوط ونشره أهمية بالغة لا تقل عن البحث الإبداعي الجديد.[13]

04- صفات المخطط:

يجب أن تتوفر في المحقق مجموعة من الصفات الخلقيّة والفكريّة حتى يكون محققا ناجحا ونذكر منها:

1) **محبة موضوع المخطوط والرغبة بالتحقيق:** على المحقق أن تحدوه الرغبة ومواجهة الصعاب ويهون عليه السهر والتعب حتى يصل إلى مراده.

2) **دقة الملاحظة والخبرة:** تحقيق المخطوط أصعب من تأليفه، فيتوجب على المحقق أن يتمتع بملاحظاته الدقيقة للتميز بين التصحيف والتحريف، وفي تصحيح الأخطاء مع الإلمام بأسماء رجال العصر وواقع الحياة الّذي كتب فيه المخطوط وظروف كتابته.

3) **الصّبر وسعة الصدر:** قدم عهد المخطوطات واهترائها في بعض الأوراق أو فقد بعض صفحاتها يتطلب من المحقق التحلي بالصبر والجلد وسعة الصدر لإيجاد الكلمات الضائعة أو لتفسير عبارات، فيستلزم عليه الصبر وطول النفس للتدقيق والمقارنة والمقابلة حتى يشعر المحقق أنّه توصل إلى الهدف.

4) **الأمانة:** يستوجب على المحقق أن لا يبدل في نص المخطوط أو يعدل فيه أو يزيد أو ينقص من متنه، لأنّ نص المخطوط أمانة لابد من الحفاظ على هذه الوديعة لحرمتها وقدسيتها[14]. وإذا قام بتغيير عليه أن يشير إلى ذلك في الهامش حتى يميز بين عمله من عمل المؤلف الأصلي.

5) **الدراية بفن التحقيق:** على المحقق أن يكون ملما بمنهجية فن تحقيق المخطوط ليختصر الوقت والجهد، ويكون عمله خال من الشوائب.

6) **ثقافة المحقق:** على المحقق أن يكون ملما بجوانب الثقافة الإسلامية وله اطلاع واسع بالدراسات الإسلامية والعربية والتاريخية.[15]

7) **الإلمام بعلوم اللّغة العربيّة:** على المحقق أن يكون ضليعا في علوم اللّغة من نحو وصرف وبلاغة، وخبيرا بالكشف عن المفردات في المعاجم وكتب اللّغة مدركا لتطور دلالة الألفاظ.

8) **معرفة الخطوط العربية الّتي كتب بها المخطوط:** يستلزم على المحقق أن تكون له دراية وإحاطة ومعرفة بأنواع الخطوط وتاريخ كل خط حتى يسهل عليه فك رموز بعض الكلمات الغامضة.[16]

9) **معرفة الرموز وعلامات الضبط الّتي كان العلماء القدامى يستخدمونها في مؤلفاتهم:** من عادة العلماء القدامى استعمال رموز يشيرون بها إلى معان متعارفة بينهم ومن أمثلة عن ذلك:

كلمة (صح) توضع فوق لفظة ما ومعناها أن اللّفظة صحيحة.

(ض) حرف في وسط الكلام إشارة إلى وجود بياض في الأصل المنقول عنه.

(ع) لعله كذا.

(تع) تعالى.

(خ) بخاري **(م)** مسلم.[17]

- أن يكون على دراية كافية بالببليوجرافيا العربيّة وفهارس وقواعد الكتب.[18]

05- شروط تحري المخطوطات وجمعها: حتى يكون المخطوط صالحا للتحقيق لابد من توفر هذه الشروط:

- أن يوجد أكثر من نسخة.
- البحث والتنقيب عن نسخ المخطوط المتناثرة في مختلف مكتبات العالم.
- اختيار النسخ الّتي يحتاج إليها وتصويرها لتكون النسخ مطابقة للأصل.
- اطلاع الباحث على جميع النسخ لما فيه من فائدة في عملية التحقيق.
- ترتيب النسخ وتقييمها وعمله على استثمار المادّة وتوجيهها على حسب أهميتها بعد فحصها فحصا علميّا دقيقا وذلك عن طريق:

* معرفة نوع الورق لكل نسخة حتى يتحقق من عمرها.
* دراسة المواد ليعرف عهد المخطوط.[19]
* معرفة الخط لأنّ كلّ عصر ونظام كتابته وخطوطه.
* يتصفح خاتمة المخطوط لعلّه يستطيع معرفة اسم الناسخ وتاريخ النسخ وتسلسل النسخ حيث إن عادة يذكر فيها العبارة الآتية: **"كتبها العبد الفقير إلى ربّه"**، ويذكر اسمه الصريح واسم أبيه وسنة التأليف.
* إعطاء رموز لكل نسخة من النسخ أما النسخ المتشابهة يرمز لها بحروف أبجدية.[20]

06- مراحل عملية التحقيق:

بعد الجهد الّذي بدله المحقق في جمع النسخ الخاصة بالمخطوط على اختلافها تبدأ المرحلة الثانية وتشتمل على عدّة خطوات:

أ- تقطيع النّص وتوزيعه إلى فقرات:إن تقسيم المخطوط وتبويبه وترتيبه يزيد من الكتاب وضوحا ويشجع القارئ على اطلاع، إلا أنّ جلّ المخطوطات تفتقر إلى ذلك هذا ما يدفع الباحث إلى تقسيمه إلى أبواب، وذلك ووضع عناوين له للفصول وعناوين فرعية للفقرات، ثم ينتقل إلى وضع علامات الحديثة من فواصل ونقط وغيرها وإشارات واستفهام وتعجب.[21]

ب- ضبط النّص وتقويمه: فأول خطوة في ضبط النّص هي رسمه كما وضعه مؤلفه، فيعمل على ضبط الرسم والشكل وإضافة الحركات إلى الكلمات، وضبط أسماء الأعلام مثل سليمن تكتب "سليمان" ويسين تكتب "ياسين".

ج-التخريج: أن يرجع المحقق كلّ نص نقله المؤلف ولم يذكر مصدره إلى مصدره وأصله ويشار في الحاشية إلى ما فيه من زيادة ونقص.[22]

د- التصحيح:على المحقق أن يعالج التحريف والتصحيف بدقة وأمانة ويشير إليها في الهوامش وليس في المتن، فمثلا الأخطاء النّحوية يشار إليها بالعبارة الآتية "**... وفي الأصل كذا وهو سهو**"، وإذا أضاف كلمة أو حرف عليه أن يضعها بين قوسين أو حاضنتين مع إشارة إلى ذلك في الهامش.

ه- ترجيح الرو ايات: عليه أن يشير إلى ما ورد في النسخ الأخرى بالهامش.

و- ضبط العنوان: ضبط المخطوط يكون بالعودة إلى كتب المؤلف الأخرى ليتعرف على العنوان الأصلي للمخطوط مع وضعها بين مزدوجتين للدلالة على أنّها من صنعه.

ز-إعداد الهوامش: إعداد الهوامش جزء مهم من عملية التحقيق حيث يُشار فيه إلى الأخطاء اللّغوية الّتي توصل إليها المحقق، ويذكر فيها الشرح والتفسير وما اختلف عليه في نسخ المخطوط الواحد من خطأ وصواب ويذكر المصادر الّتي ساعدته في إنجاز عمله معتمدا على الأرقام المتسلسلة.[24]

كتابة المقدمة:بعدما تمّ تحقيق النّص ينتقل المحقق إلى المقدمة حتى يقدم للقارئ المعلومات حول المخطوط وأهميته، مقدما البراهين الّتي تؤكد صدق ذلك وصحته ثلاث نقاط: **التعريف بالمؤلف وعصره، التعريف بالمخطوط وأهميته، تبيان المنهاج الّذي استند عليه المحقق في عمله.**[25]

ط- الفهارس الفنّية: وهي مكملات عملية التحقيق وضرورية لا غنى عنها في المخطوطات المحققة، ففي غيابها يتعسر دراسة أي مخطوط، وهي بمثابة مفاتيح الخزانة المقفلة لاستخراج كنوزها[26]، ومن الأمثلة عن ذلك نذكر:

1. **فهرس الآيات القر آنية:** ترتب حسب ترتيب السور في المصحف.
2. **فهرس الأحاديث و آثار الصحابة:** ترتب الأحاديث أبجديا بحسب أوائل أطرافها أما آثار أصحابها ترتب بحسب أصحابها.

3. فهرس الأمثال والحكم: ترتب هجائيا وفق أوائل أطرافها مع الإشارة إلى كل صفحة ورد ذكر المثل أو الحكمة فيها.

بالإضافة إلى **فهرس الأعلام والقبائل والكتب المذكورة في المتن** وكذا **فهرس المصطلحات وفهرس آخر للآراء الّتي تفرد بها المؤلف وخالف فيها غيره.**[27]

07- أهم المشاكل الّتي تواجه المحقق: من أهم التحديات الأساسية الّتي تعترض طريق العمل في تحقيق نصوص المخطوطات على اختلاف أنواعها:

* كثرة أو ندرة نسخ المخطوطات في بعض الأحيان يتحصل المحقق بنسخ كثيرة من المخطوط المراد تحقيقه، فعلى المحقق أن يجتهد في اختيار النسخ الموثقة والمعتمدة ويكون الاختيار على هذا النحو: نسخة المؤلف الأصلية (الأم)، النسخة الموثقة من قبل المؤلف بخط يده، النسخة الّتي أملها على أحد طلابه.[28]

* رداءة خط الناسخ ضعيف الثقافة فتنجر عنه كثرة الأخطاء.

* تلف بعض أوراق المخطوط لما يتعرض إليه من رطوبة تهت البدايات لاستعمال النسّاخ الحبر الملون في بداية الأبواب فيصاب المخطوط بالنقص.

* عدم قدرة المحقق على التفرقة بين الحروف المتشابهة لعجلة الناسخ في رسم بعض الكلمات (التصحيف والتحريف).[29]

* ضآلة الأبحاث وعدم توفر الإحاطة المطلوبة.

* تعرض نسبة كبيرة من المخطوط إلى التلف إما بسبب تعرضه للحرارة أو الغبار أو الرطوبة والحرائق، وعدم القيام بإحصاء المكتبات ومجمعات الأرشيف الّتي لحقها الإتلاف.[30]

* ضياع نسخة المؤلف مع بقاء نسخة واحدة منقولة عنها، فعلى الباحث أن يدرس هذه النسخة ويطلع على خصائصها من ناحية الشكل والنقط والرسم والمعلومات التاريخية.

* نقص المخطوطات مثل خلوها من العنوان أو ناقصة في بدايتها أو نهايتها.[31]

* المخطوطات غير المؤرخة فهناك العديد من المخطوطات لا تحمل تاريخ النسخ في هذه الحالة عليه أن يعتمد على نوع الورق والخط التي تساعده على تحقيق تاريخ المخطوط وكذلك استدراك خلل في ترتيب الصفحات.[32]

08- أهمية تحقيق المخطوط:

المخطوطات جزء هام في التّراث الّذي أبدعته الحضارة العربية الإسلامية في شتى حقول المعرفة الإنسانية من تاريخ وجغرافيا وأدب وطب وكيمياء وسائر العلوم، وتراوح

عددها ما بين خمسة ملايين مخطوط وموزعة على مكتبات العالم إلا أنّها ظلّت نسيا منسيا لم يحقق إلا النزر اليسير، والبعض منها أعيد تحقيقه عدّة مرات لأهميته.[33]

- تكمن أهميته في التفاتة للماضي وفهمه من أجل بناء مستقبل سليم.[34]
- بعث الحياة للنّص القديم ليستفيد منه أكبر عدد من النّاس.
- إخراج المخطوط من عالم النسيان إلى عالم النور على أسس صحيحة.[35]
- المخطوط كائن حي ومرآة عصره لما يحمله من إشارات تاريخية وحضارية.
- هو جزء من الذاكرة الفردية والجماعية للوطن تلعب دورا أساسيا في الحفاظ على الهويّة الثقافيّة.
- أسهم بشكل كبير في توجيه وإرساء قواعد بناء أي دولة معاصرة.

الخاتمــة:

يبقى المخطوط من المسائل المهمة والشائكة، يحتاج إلى خبراء ومفهرسوها ومرمموها وباحثون في مجال التّراث العربي ومحققون وكلّ ما لديه عناية بشأنها، وذلك من أجل الحفاظ على التّراث العربي الإسلامي عموما وإنساني خصوصا المهدد بالضياع والتلف، لما له من أهمية في الحفاظ على الهوية والتاريخ.

الملاحق:

الفيلولوجيا: كلمة مركبة من لفظين إغريقيين أحدهما Philos وتعني الصديق والثاني Logos بمعنى خطبة أو الكلام، والّذي يعني بدراسة النصوص القديمة من حيث القاعدة ومعاني المفردات وما يتصل بذلك من شروح ونقد وإشارات تاريخية. ينظر: أحمد سعيدي باحث مغربي، الفيلولوجيا من فقه اللّغة إلى تحقيق التراث، مجلة الفيصل، نوفمبر، ديسمبر، 2018.

البالوغر افيا: علم المخطوطات كان يعتبر إلى وقت قريب جزء من البالوغرافيا أو علم الخطوط القديمة فعلماء الألمان أطلقوا لفظة الباليوغرافيا التطبيقية أو التاريخية قبل أن يستعملوا لفظة "هند شغيفتين".ينظر: أحمد شوقي بنين، الفهرسة وتحقيق المخطوطات، الخزانة الحسنية، الرباط، مركز الحسو للدراسات الكمية والنوعية.

الكوديكولوجيا: طريقة تشبه طريقة العالم الأثري الذي يحاول إعادة بناء القطعة الأثرية المكتشفة، لهذا اقترح بعض علماء الفيلولوجيا في فرنسا وبلجيكا عبارة أثرية المخطوط

L'archéologie du manuscrit للتعبير عن علم المخطوطات.ينظر: أحمد شوقي بنين، المرجع السابق.

الببيوغرافيا: من الكلمات الإنجليزية التي دخلت إلى اللغة العربية المعربة في العصر الحديث وأصلها يوناني مركبة من كلمتين Bilicon كتيب وهي اسم مصغر لكلمة كتابة وكلمة Graphia وهي اسم فعل تعني ينسخ أو يكتب وظلت من العهد الإغريقي تعني نسخ الكتب حتى القرن السابع عشر.ينظر: محمد فتحي عبد الهادي، مقدمة في علم المعلومات، دار الغريب، القاهرة، 1983، ص06.

فهارس البحث:

1- مسعود فلوسي، محاضرات في تحقيق المخطوط، قسم العلوم الإسلامية جامعة الحاج لخضر باتنة، 2009/2008، ص02.

2- مجلد دعوة الحق، العدد 337، ماي/يونيو، 2004.

3- قاموس المحيط للفيروز آبادي، ص874.

4- مسعود فلوسي، المرجع السابق، ص02.

5-مجبل لازم المالكي، دراسة تحليلية بعنوان تحقيق المخطوطات اليمنية ونشرها، مجلة الإكليل الفصلية الصادرة عن وزارة الثقافة، العددان (29-30) يناير/مارس، 2006، ص19.

6-أحمد شوقي بنسين، المخطوط العربي وعلم المخطوطات الكوديكولوجيا، ص192.

7-محمد صاحبي، إطلالة على علم التحقيق، مجلة أمل، قسم علم المكتبات والعلوم الثقافية، كلية العلوم الإنسانية، أبريل، 2009، وهران، ص144.

8-أحمد شوقي بنسين، المرجع السابق، ص193.

9-المرجع نفسه، ص194.

10-محمد صاحبي، إطلالة على علم التحقيق، ص146.

11-المرجع نفسه، ص148.

12-أحمد شوقي بنيس، المرجع السابق، ص194.

13-فهمي سعد، تحقيق المخطوط بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1923/1413م، ص09.

14-فهمي سعيد، تحقيق المخطوط بين النظرية والتطبيق، ص22.

15-المرجع نفسه، ص23.

16-مسعود فلوسي، محاضرات في تحقيق المخطوط، ص04.

17-مسعود فلوسي ،تحقيق المخطوطات، ص08.

18-محمد صاحبي، المرجع السابق، ص148.

19-فهمي سعيد، تحقيق المخطوط، ص29.

20-المرجع نفسه والصفحة نفسها.

21-المرجع نفسه، ص31.

22-فهمي سعيد ،تحقيق المخطوط، ص34.

23-المرجع نفسه، ص37.

24-المرجع نفسه، ص42.

25-المرجع نفسه، ص44.

26-المرجع نفسه، ص44.

27-مسعود فلوسي، محاضرات في تحقيق المخطوط، ص34.

28-مجلة آفاق الثقافة والتراث تصدر عن قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، الإمارات، لرائد أمير عبد الله الراشد، مشكلات في تحقيق المخطوط التصحيف والتحريف أنموذجا، ص141.

29-مسعود فلوسي، محاضرات في تحقيق المخطوطات، ص34.

30-معجم مصطلحات المخطوط العربي، الخزانة الحسنية، الرباط، أحمد شوقي بنبين، نصطفى طوبي، ط3.

31-أمير عبد الله الراشد، المرجع السابق، ص142.

32-المرجع السابق، ص148.

33-مسعود فلوسي، المرجع السابق، ص06.

34-المرجع نفسه، ص30.

35-ماجي قندوز، كتب مناهج التحقيق عرض وتقييم، مجلة التراث، العدد الثاني عشر، فبراير 2014، جامعة الجلفة.

المصادروالمراجع: المراجع الصادر:

*بنين أحمد شوقي، مصطفى طوبي،معجم مصطلحات المخطوط العربي، الخزانة الحسنية، الرباط، ط3.

*الراشد أمير عبد الله، مشكلات في تحقيق المخطوط التصحيف والتحريف أنموذجا، مجلة آفاق الثقافة والتراث، تصدر عن قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية بمركز جامعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، الإمارات.
*رمضان عبد التواب،مناهج تحقيق التّراث بين القدامى والمحدثين، مكتبة الخانجي ،القاهرة، ط1406،1 ه/1980م.
* سعيدي أحمد باحث مغربي، الفيلولوجيا من فقه اللّغة إلى تحقيق التراث، مجلة الفيصل، نوفمبر، ديسمبر، 2018.
* صاحبي محمد، إطلالة على علم التحقيق، مجلة أمل، قسم علم المكتبات والعلوم الثقافية، كلية العلوم الإنسانية، أبريل 2009، وهران.
* فلوسي مسعود، محاضرات في تحقيق المخطوطات، قسم العلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2009/2008.
* فهمي سعد، تحقيق المخطوط بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1413ه/1993م.

*قندوز ماحي، كتب مناهج التحقيق عرض وتقييم، مجلة التراث، العدد الثاني عشر، فبراير 2014، جامعة الجلفة.
*الكمالي عبد الله، كتابة البحث وتحقيق المخطوطة خطوة خطوة،دار ابن حزم،ط 1422،1ه /2001م.

*المالكي مجبل لازم، دراسة تحليلية بعنوان تحقيق المخطوطات اليمنية ونشرها، مجلة الإكليل الفصلية، الصادرة عن وزارة الثقافة العددان (30/29)، يناير، مارس 2006.
* مجلة الدعوة، العدد 337، مايو، يونيو، 2004.
* المحيط للفيروز آبادي.
*محمد فتحي عبد الهادي، مقدمة في علم المعلومات، دار الغريب، القاهرة، 1983.
*وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،علم المخطوط العربي ، بحوث ودراسات، الوعي الإسلامي، معهد المخطوطات العربية،ط1، 1435ه/2014م.

الكاتب: **د.ادريس اقبوش**

أستاذ بسلك الثانوي التأهيلي وزارة التربية الوطنية-المغرب-.

عنوان المقال: **دور المؤسسات الأمازيغية في تعزيز عملية التسيير ومؤشرات التحول خلال الاستعمار الفرنسي بالمغرب"منطقة زيان نموذجا"**

البريد الالكتروني:akbouchidriss@gmail.com

تاريخ الإرسال: 21/06/2019 **تاريخ القبول**: 2019/10/18 **تاريخ النشر**: 2019/12/31

التحول خلال الاستعمار الفرنسي بالمغرب دور المؤسسات الأمازيغية في تعزيز عملية التسيير ومؤشرات "منطقة زيان نموذجا"

The role of the Amazigh communes in strengthening the process of governance and some indicators of transformation during the French colonialism in Morocco Zayane as a modal

الملخص بالعربية:

شكلت مؤسسة الجماعة عنصر استمرار للتلاحم الذي تقوم عليه القبيلة، بحيث ظلت تعمل منذ ظهورها على ترسيخ الديمقراطية داخل القبائل الأمازيغية، ويتجلى ذلك في توزيع الاختصاص بين مؤسسة الجماعة كسلطة تشريعية قائمة الذات، والسلطة القضائية بيد المحاكم العرفية، لتبقى السلطة التنفيذية من اختصاص أمغار، وقد تتوقف سلطته حيث تبدأ السلطتين التشريعية والقضائية طبقا لمبدأ فصل السلطات. وبناء على هذا الوضع فإننا نستنتج أن الجماعة تشرف على سير الحياة بداخل القبيلة، وفق أعراف تضبط علاقتها بالقبائل المجاورة، حيث كان العرف المرجع الوحيد في النظام القضائي بزيان. غير أن التدخل الاستعماري الفرنسي خلخل هذه المؤسسة، بخلق جهاز إداري مهيمن على اختصاصات الجماعة، بل أدمج هذه المؤسسة في شبكة المراقبة التابعة للسلطة، وأصبح اختيار أعضاء الجماعة خاضعا لتعليمات السلطة الاستعمارية في تجاوز صريح لمبدأ الديمقراطية.

الكلمات المفتاحية: الجماعت، المغرب، زيان، الاستعمار.

Abstract :

Thedjamaa(commune) has always been an important establishment that contributes to the cohesion of the tribe, since its main purpose has always aimed to consolidate democracy

within the Amazigh tribes , this can be illustrated in the distribution of the specialty between the Commune as a self-governing legislature and the judiciary governed by the common-law courts , As for the executive power, it is under the Amghar's jurisdiction, and his authority may cease as the legislative and judicial powers begin in accordance with the principle of separation of powers, so Based on this situation, we conclude that this establishment supervises the life process within the tribe, According to the common-laws that control their relationship with neighboring tribes, where customs were the only reference in the judicial system in Zayane, but the French colonial intervention didn't only dislocate the ordinary process of this djamaa(commune) by creating an administrative system that dominates all the spetialties of this institution, but also ,it incorporated this institution into the Authority's monitoring network. Therefore, the selection of the members of thedjamaa(commune) was subject to the instructions of the colonial authority in a clear violation of the principle of democracy.

key words : djamaa(commune), Morocco, Zayane, colonialism

مقدمة:

الديمقراطية هي شكل من أشكال الحكم يشارك فيها جميع المواطنين المؤهلين على قدم المساواة، وتشمل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تمكن المواطنين من الممارسة الحرة والمتساوية، ولذلك فهي نظام اجتماعي مميز يؤمن ويسير عليه المجتمع ويشير إلى ثقافة سياسية وأخلاقية تتجلى فيها قيم تتعلق بضرورة تداول السلطة سلميا وبصورة دورية. وبناء على ذلك يبقى مفهوم الديمقراطية مفهوما سياسيا، تضاربت بشأنه التعاريف، ويعود هذا التضارب إلى اختلاف المرجعيات تبعا لاختلاف الثقافات. فهناك من يستعملها لوصف نظام الحكم في دولة، بينما هناك من يستعملها لوصف ثقافة المجتمع. انطلاقا من هذا التقديم سنحاول النبش في موضوعنا هذا عما يوحي بوجود قيم ديمقراطية في الثقافة الأمازيغية.

لا أحد ينكر عراقة الثقافة الأمازيغية وإسهامها الحضاري منذ القدم، فهي واحدة من الثقافات المهمة في حوض البحر الأبيض المتوسط، وكانت في احتكاك وتفاعل دائم ومستمر مع الحضارات الكبرى. فالدارس للمجتمع الأمازيغي يلاحظ أن هذا المجتمع لم يتوقف منذ القدم عن إبداع أشكال تنم عن ديمقراطية مميزة، ومنها الفصل بين السلط وهذه سمة أساسية للمجتمع الديمقراطي، فالقبائل الأمازيغية تقوم بانتخابات سنوية، فتنتخب الجماعة وأمغار لتسيير الأمور الدنيوية، بينما يقتصر دور الوظائف الدينية على اكرامن. وقد سبق لشارل دوفوكو عندما أقام بتزنيت وأقا أن رأى بأن هناك قبائل وقرى متميزة تعيش على النظام الديمقراطي، حيث وجد فخذات وقبائل وقرى محكومة بواسطة الجماعة. نستنتج إذن من خلال هذا الرأي لشارل دوفوكو أن النظام الديمقراطي يتجسد في مؤسسة الجماعة، وقد كانت هذه المؤسسة عامة تقريبا في كل ربوع بلاد الأمازيغ[1].

انطلاقا مما سبق يتضح أن الجماعة تتحكم في تدبير القبيلة، بل وتمكنت من المحافظة على تجانس القبيلة ووحدتها وتوحيد قراراتها وعلاقاتها مع الأخر، إلا أن الوضع سيختلف مع دخول الاستعمار، حيث سنلاحظ بداية مأسسة أو إضفاء الطابع الإداري على الجماعة.

ورغبة منا في فهم وتحليل هذه المؤسسات وما لحقها من تحول ، كان لابد من طرح مجموعة من التساؤلات ، ومنها: كيف كانت تشتغل هذه المؤسسات وكيف كانت تعمل للحفاظ على التجانس داخل مجال القبيلة؟ وهل يمكن اعتبارها مؤسسات قائمة الذات؟ وماهي التطورات التي عرفتها خلال فترة الحماية؟

– الجماعة*

فرضت الظروف الطبيعية والسياسية على المجتمع المغربي نظام التجمع، فكان نموذج هذا الفعل التجمعي هو نظام الجماعة القبلي، الذي ظل منظما للحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية والإدارية والقضائية لسكان القبائل المغربية، حيث كانت الجماعة هي المعيار الوحيد لكل مبادرة لا يحيد عنها أي فرد، لأن الإيديولوجية التي تحركها تستمد مشروعيتها من تمجيد سلوك التعاون والتضامن بين الأفراد سواء على المستوى العائلي أو على مستوى القبيلة(2). والجماعة عبارة عن مجلس محلي منتخب يمثل مختلف العشائر داخل القبيلة(3)، فكل أسرة أبوية لها رئيسها وهو الذي يمثلها في جمعية عامة،

تسمى بأجماعة، وهي مكونة من رؤساء جميع العائلات الأصيلة لمختلف الدواوير، وتعتبر هيئة سياسية حقيقية ونشيطة، تجمع بين السلطة الإدارية والتشريعية والتنفيذية[4]، وترتكز أحكامهم على تطبيق قوانين عرفية[5].

تنقسم الجماعة إلى جماعة ثيگمي (الدوار) وجماعة إغص (العظم) وجماعة القبيلة. وجماعة ثيگمي تتألف من كل رؤساء العائلات المكونة للدوار، وتختص في إبرام العقود المحلية بما فيها عقود البيع والزواج. بينما تتألف جماعة إغص من جماعات الدواوير المكونة لإغص، ويبلغ عددها عشرين عضوا[6]، وتمارس أعمالها على صعيد الإغصان (العظام)، ويقتصر دورها الوظيفي في حل المشاكل اليومية للقرية أو المدشر، أما جماعة القبيلة فهي تضم جماعات إغصان الذين يكونون تاقبيلت[7]، وتهتم بالمهام السياسية الداخلية والخارجية، كالعلاقات مع القبائل المجاورة، والقضاء داخل القبيلة[8].

تتكون الجماعة من الأشخاص البالغين[9]، أي عقلاء القوم بغض النظر عن وضعيتهم السوسواقتصادية حيث لا يمثل العامل الاقتصادي أو عامل الملكية المحدد الرئيسي في اختيار هذا المجلس، بل نجد محددات أخرى مرتبطة بالشخص كذات، سنه وكرمه وتقواه، وقدرته على التأثير في الآخرين بنبله وشجاعته[10]. ومن ثم فأعضاء الجماعة يكونون مسنين، وذوي خبرة ومعرفة بأعراف القبيلة، كما يجب أن تتوفر فيهم الكفاءة والصدق والاستقامة والنزاهة...[11]. كما يمكن لمجلس الجماعة أن يضم الشرفاء والغرباء شريطة توفرهم على المواصفات المطلوبة[12]. ورغم ذلك فلوائح الترشيح للزعامة لم تكن مفتوحة في وجه كل من هب أو دب من بسطاء الناس، بل لم تكن إلا تعبيرا عن واقع تمييز قائم على مستوى الجاه والنفوذ داخل القبيلة، الضامن للوصول إلى سدة الحكم الجماعي[13]. وهذا دليل على أن اختيار أعضاء الجماعة يأخذ بعين الاعتبار الجوانب المادية والمعنوية للأعضاء.

يختار أعضاء الجماعة حسب كل قبيلة وما تتوفر عليه من إغصان (العظام)[14]، الأمر الذي يجعل عدد أعضاء الجماعة يختلف من قبيلة لأخرى، حيث لا توجد قواعد دقيقة لضبطه[15]. ولا تعد صفة عضو في الجماعة أمرا وراثيا، كما ترفض تمثيلية النساء كيفما كان سنهن ووضعيتهن الاجتماعية. إلا أنه في بعض الحالات الاستثنائية تأخذ المرأة مكان الرجل على رأس العائلة، وحينئذ تترأس ألمسي، لكن رئاستها لا تقبل إلا بعد إخبار الجماعة

بأنها ستبقى وفية لأبنائها[16]. وهذا ما يدل على أن الجماعة تحاول الحفاظ على التماسك العائلي.

تزاول الجماعة مهام متنوعة، يؤديها الأعضاء بصفة مجانية[17]، وبالمقابل يتمتعون ببعض الامتيازات المادية والمعنوية، يعفون من أداء السخرة للشيخ، ويحظون بتقدير واحترام تامين، وتعد الهبات الصغيرة هدايا مألوفة عند تسوية أية قضية، هم أول من توجه لهم الدعوة أثناء أي حفل عائلي تقيمه القبيلة إلا أن هذه الامتيازات لا تثير عندهم أدنى ازدراء[18].

أما فيما يتعلق باجتماعات الجماعة فهي ليست أسبوعية قارة، بل لا تعقد إلا في حالة الضرورة، كاحتمال حدوث هجوم، ومن ثم فهي غير مضبوطة المكان والزمان، وتجتمع كلما تطلب الأمر ذلك[19]. نظرا لكون القبيلة تعرف تحولات حسب طبيعة المجال والأعراف المتداولة، وكان من الطبيعي أن تراعي الجماعة هذه التغيرات والاستجابة لها عن طريق عقد اجتماع، وهنا نشير إلى أن أمغار هو من يعلن عن عقد اجتماع، ويخبر أعضاء الجماعة ببضعة أيام قبل تاريخ انعقاده، وينبغي أن يلبي الدعوة كل الأعضاء المدعوين، ومن يمتنع عن الحضور بدون عذر مقبول، يلزمه أمغار نحر خروف للجماعة، عقابا له[20]. وأثناء الاجتماع يفتتح أمغار الجلسة بإعلانه موضوع الاجتماع بعد تناول أشهى الذبائح "تمغراس" من ماعز وغنم، وقبل إجراء أي نقاش تلقى العبارة التالية على مسامع المجتمعين «يا جماعة العنوا الشيطان وصلوا على النبي»[21]، وبعد ذلك تفتتح المداولات، حيث يدلي كل فرد برأيه. يتسم الجدال والنقاش بالإنصات والتفاهم، إذ يجادل الإنسان كما يحلو له، وتناقش كل الآراء، وقد تؤدي بعض القضايا إلى جلسات صاخبة[22]، الأمر الذي يجعل الاجتماع يستغرق أكثر من الوقت المخصص له. وفي النهاية تأخذ القرارات بالإجماع لا بأغلبية الأصوات، حيث تدبر الأمور بشكل توافقي حتى تنال رضا الجميع، وهذا هو ما يجسد ديمقراطية المؤسسات الأمازيغية، إذ يتم إشراك الجميع في التسيير. وتعد قرارات الجماعة غير مثبتة كتابة، وفي بعض الحالات تنظم وتملى على فقيه يدونها، وذلك بطلب من شخص أو مجموعة قبلية معينة، ويكون ذلك عندما يتعلق الأمر بتعديل نقطة خلافية في الأعراف، أو لحل نزاع بين

مجموعتين[23]. ويسهر أمغار على التأكد من مدى إنجاز ما نصت عليه الجماعة[24]. ونظرا لتعدد المهام الموكولة لأمغار، يقوم بتعيين مساعدين له، يسهرون على تنفيذ القرارات[25].

للجماعة اختصاصات قضائية وسياسية واجتماعية وإدارية، فهي تتكلف بتوزيع المراعي والأراضي الزراعية على الفخذات، وتفتتح الموسم الفلاحي الذي كان يتم وفق طقوس معروفة، (التبرك ببقرة مثلا من طرف شخص معروف بتقواه)، ولم يكن يسمح لأي كان ليشرع في عملية الحرث دون اتفاق مجلس الجماعة الذي من جهته يعرف متى يحل وقت الزرع "الزريعة" وفق تقويمات وحسابات معروفة لدى الأمازيغ، مستقاة من خبراتهم[26]. كما تسهر الجماعة أيضا على تنظيم المجال، وذلك عن طريق التمييز بين مجالات الزراعة ومجالات الرعي، أما على المستوى الاجتماعي، فالجماعة تسهر على توزيع الأدوار الاجتماعية على العناصر النشيطة المكونة لها (نقصد عناصر العائلات)، وتقسيم الوظائف والمهام[27]، كما تسهر على ترميم المسجد وإقامة الطرق والسواقي والتعاون في الحرث والحصاد، والنظر في السرقات، وتحديد المجال الذي تستقر فيه القبائل أثناء الإنتجاع[28]، إضافة إلى تنظيم التويزة كظاهرة جماعية للعمل، وإقامة المواسم والسهر على تدبيرها وحسن تسييرها[29].

تقوم الجماعة أيضا بتسوية النزاعات مع القبائل الأخرى، وتنظيم الدفاع وتوزيع واجباته على الفخذات، كما تحرص على تطبيق القوانين العرفية والتقاليد القبلية وإبرام المعاهدات مع القبائل الأخرى، أي أن الجماعة هي التي تتحكم في إعلان السلم أو الحرب[30]. واستعدادا لكل طارئ تسهر جماعة القبيلة على تربية الشباب وتدريبه على ركوب الخيل وحمل السلاح وتهيئته للذود عن العرض والأرض وشرف القبيلة، بتشجيع وتحفيز من طرف العلماء والصلحاء وأولي الأمر بالقبيلة[31]. وفي بعض الحالات لا يفلح الصلح الذي تقيمه الجماعة بين القبائل المتنازعة، وتمتد العداوة بين القبائل المجاورة، وفي هذه الحالة تكون الجماعة مضطرة للإحتكام إلى شخصيات ذوي الأصول الشريفة، نظرا لما لهم من بركة، يستطيعون بواسطتها حل الدعاوي المستعصية[32].

كانت اختصاصات مجلس الجماعة على مستوى القبيلة أكثر شمولية وذات طابع سياسي واجتماعي واقتصادي وعسكري وإداري، ويجري ذلك في إطار مسؤولية جماعية منظمة وواعية، الشيء الذي قد يجعل هذه الجماعة تنشطر إلى جماعات أخرى كما سبق

ذكره تبعا للاحتياجات المشتركة والمصالح الموحدة، إذن فالتنظيم الجماعي كان مؤسسا على تصور عقلاني وقواعد منهجية مضبوطة بأعراف محلية، حيث كانت الجماعة تسعى إلى تحقيق التكامل الاقتصادي عن طريق تحقيق التوازن بين الموارد ووسائل الإنتاج والبنية الاجتماعية، ويتجسد ذلك في العمل بنظام التويزة الذي يؤدي إلى تكتل القوى الإنتاجية في كل قرية قصد إنجاز مجموعة من الأعمال الجماعية دون الاحتياج إلى استعمال النقود، كما أن بناء تغرمت (القرية) يخضع هو الآخر لتنظيم هندسي دقيق ومحكم ونسيج متجانس، أي أن البنايات تتخذ شكلا موحدا، بالإضافة إلى استخدام العقل في اختيار مكان تشييد القرية، الذي يجب أن يكون قريبا من منبع المياه.

إذا كانت مؤسسات الجماعة على صعيد القبائل ثم الفخذات، قد قامت بمجموعة من الوظائف، ورسخت الديمقراطية في الحياة السياسية للقبائل، فقد اندثرت تدريجيا تحت ضغط الإكراهات السياسية والإجراءات القانونية والإدارية والتقطيعات الترابية في عهد الاستعمار، واندمجت في شبكة المراقبة والتحكم التابعة للسلطة، بل وأصبح اختيار شيوخ ووجهاء القبيلة خاضعا لتعليمات السلطة. ونورد هنا نموذجا لبعض الشيوخ والوجهاء الذين حكموا قبيلتي آيت كرات وآيت عمر بزيان سنة 1920[33].

القبيلة	الفخذة	الشيوخ	الوجهاء
آيت كرات	-	عمر بن حدو وعلي	عبد السلام بن محمد، بن تهامي بن محمد، حاج بن سي إدريس، حاوري بن جيلالي، بوعزة ولد محمد
آيت عمر	آيت حاتم	حمادي أوسعيد	أحمد ولد حاشي، حمو أوسعيد، بناصر نفتول، بن ميمون، المصطفى ولد عبد السلام، أحيوظ ولد محمد أوعيسى، عقا بن موحا.
	آيت علا	حمادي أوبوعزة	عمر ولد محمد أولحادي، ولد محمد أو علا، الحاج ولد بن قسو، البقال ولد

			محمد، بن عقا ولد حمو
	آيت يشو	مسعود بن سي حدو	مولود أوقسو، البشير الزياني، بن قسو ولد البصري، علا ولد عزيز مولاي أحمد، عمر ولد محمد أولحاج
	آيتزيد شون	محمد أو محمد	الحسناوي ولد حمادي أو سرور، محمد أو عقا، ميمون نعلي بوعزة أولكوش ولد علي، محمد ولد بن لحسن، أحمد ولد محمد أوميلود

وعموما نقول، إنها نماذج فقط لبعض الشيوخ والوجهاء الذين كان القيادة الفرنسية تعتمد عليهم في مراقبتها لمجال زيان، مستغلة في ذلك العلاقات الدموية والتوازنات الاجتماعية التي يحققها هؤلاء ليمارسوا سلطتهم في مجال نفوذهم.

إلى جانب هؤلاء الأعيان، حرصت السلطات الاستعمارية على تعيين عدد من أعضاء الجماعات من أجل مزيد من المراقبة والضبط في المناطق الجبلية لقبائل زيان التي عرفت أشرس المعارك ضد الاحتلال الفرنسي. وفي هذا السياق يحدد لنا "ريمي لوفو" دورا لأعيان بالقول «**إنه بدون دعم من أولئك الأعيان...لن يكون بإمكان الجهاز الإداري إلا أن يظل يدور في الفراغ عبثا. كما أن هؤلاء الأعيان... يمتازون بكونهم لم يكلفون السلطة المركزية شيئا يذكر، إذ دأبت هذه الأخيرة على تركهم يقتطعون استحقاقاتهم المادية من الضرائب القروية، مع غضها الطرف عن بعض التجاوزات الابتزازية الإضافية. وهكذا فكلفة هذا الجهاز الإداري الذي يعمل من أجل الحفاظ على النظام. ومن أجل التبليغ عن القرارات الصادرة عن الإدارة الفرنسية مع العمل على تطبيقها، هي تكلفة إذن على عاتق القطاع الفلاحي التقليدي، بحيث أن الدولة لا تتولى دفع أي أجور لهم وحسب، بل وليس عليها أيضا أن تشغل بالها بشؤون بناء المقرات الإدارية ورعايتها، ما دام أن مساكن أولئك الأعوان، في نفس الوقت، مقام تلك المقرات الإدارية**»[34].

بالإضافة إلى هؤلاء القياد والأعيان، استعانت السلطات الاستعمارية بدور الجماعة في ضبط المجال وتوطيد نفوذها في المنطقة. ومن أجل ذلك أصدرت سلطات الحماية ظهيرا مؤرخا بتاريخ 13 شتنبر 1924، يتعلق بإحداث جماعات للقبائل بفرع آيتسگوگو، والذي جاء في فصوله[35]:

الفصل الأول:

تحدث بمجموعة قبائل إيعامين بناحية الحمام جماعة تتركب من ثلاثة عشر عضوا.

الفصل الثاني:

تحدث بمجموع قبائل المرابطين (آيت سيدي علي وآيت سيدي العربي) بناحية الحمام جماعة تتركب من عشرة أعضاء.

الفصل الثالث:

تحدث بمجموع قبائل المرابطين (آيت سيدي عبد العزيز) بناحية وادي أماسين جماعة تتركب من عشرة أعضاء.

لكن سرعان ما ستعمل سلطات الحماية على إلغاء هذا القرار بإصدار قرار آخر بتاريخ 17 أبريل 1931 يتعلق بإحداث بعض التغييرات في تنظيم جماعات قبائل آيتسگوگو، والذي عرف تعديلا بسيطا على مستوى عدد الأعضاء، جاء في فصوله[36]:

الفصل الأول: تحدث بقبيلة إيعاميين جماعات للفخذات الآتي ذكرها.

- آيت عبد الله 8 أعضاء.
- إيرشكيكن 6 أعضاء.
- آيتعبدوس 8 أعضاء.

الفصل الثاني: تحدث بقبيلة آيت سيدي علي (المرابطين) جماعات للفخذات الآتي ذكرها:

- آيت بلحاج 10 أعضاء.
- آيتهاي 6 أعضاء.
- آيت سيدي يوسف 6 أعضاء.

الفصل الثالث: تحدث بقبيلة آيت سيدي العربي (المرابطين) جماعات للفخذات الآتي ذكرها:

- آيت سيدي العربي 8 أعضاء.
- آيتالحريس 8 أعضاء.
- آيت ادير 8 أعضاء.

وهذا ما يظهر أن الإقامة العامة حرصت على أن تنزع من "الجماعة" صفتها الدائمة ودورها القيادي الذي تمتعت به في السابق، خوفا من اتساع مجال عملهم[37].

- **المحاكم العرفية**

نشر بالجريدة الرسمية في عددها 73 ظهير شريف صدر في 18 شتنبر 1914، يتعلق بإدارة القبائل الأمازيغية، وجاء في الفصل الأول منه. أن القبائل البربرية الموجودة بإيالتنا الشريفة تبقى شؤونها جارية على مقتضى قوانينها وعوايدها الخصوصية تحت مراقبة ولاة الحكومة[38]. إذنخضوع تطبيق هذه الأعراف لمراقبة السلطة، بمعنى نهاية التسيير الذاتي لتلك القبائل، وفقدان استقلاليتها وسيادتها المطلقة على مناطقها، بقبول تدخل السلطة المركزية في شؤونها. وكان هدف تلك السياسة، استقطاب شيوخ القبائل[39]. وتنفيذا لمقتضيات ظهير 12 شتنبر 1914، صدرت عدة قرارات وزارية بإحصاء القبائل ذات الأعراف الأمازيغية[40]، (ومنها قرار وزيري بتاريخ 12 شتنبر 1914، وقرار وزيري آخر بتاريخ 21 شتنبر 1914). وكذا دورية الإقامة العامة في 22 شتنبر 1915 بتنظيم العدالة الأمازيغية، تتضمن تعليمات حول تنظيم المحاكم العرفية وسير شؤونها، حيث تتدخل في اختيار أعضاء المحاكم، وتعيين الكتاب المكلفين بتحرير مداولات المحاكم، والحفاظ على سجلاتها. وضمن هذا السياق صدر قرار وزيري بتاريخ 15 شتنبر 1934، يتعلق بتعيين المحاكم العرفية الابتدائية والاستئنافية، والقاضي بضبط الأمور الراجعة لاختصاص المحاكم العرفية وقواعد المرافعة لديها، جاء في الفصل الأول منه: أن مراكز المحاكم العرفية الابتدائية وتركيبها ومناطق اختصاصها تعين كما هو مبين في الجدول أسفله[41]:

تعيين المحاكم العرفية الابتدائية	مركزها	عدد الأعضاء الرسميين	عدد نواب الأعضاء	القبائل والفخذات التي هي في منطقة الاختصاص
المحكمة العرفية لاعامين	الحمام	7	5	ايعامينلاآيتسگوگو
المحكمة العرفية لآيت سيدي عبد العزيز	الحمام	6	5	آيت سيدي عبد العزيز من آيتسگوگو
المحكمة العرفية لآيت سيدي علي	الحمام	9	5	آيت سيدي علي من آيتسگوگو
المحكمة العرفية لآيت سيدي العربي	الحمام	4	4	آيت سيدي العربي من آيتسگوگو
المحكمة العرفية لآيت عمار	ولماس	5	4	آيت عمار من آيتسگوگو
المحكمة	خنيفرة	10	5	آيت لحسن

العرفية لآيت حركات بخنيفرة				أوسعيدوآيتبوحمادوآيت شارط وآيت لحسن واشراف وآيت حركات
المحكمة العرفية لآيت حركات بكلموس	خنيفرة	10	5	آيت ماي وآيت حدو أو حمو وايكباريين
المحكمة العرفية كآيتبوحدوولآيت سيدي بوعياد	خنيفرة	11	5	آيتبوحدووآيت سيدي بوعباد
المحكمة العرفية لآيت كرات	خنيفرة	10	5	آيت كرات
المحكمة العرفية لأبو حسوسن	مولاي بوعزة	6	5	إبوحسوسن

لقد ساعد هذا التنظيم الاستعماري في تركيز السلطة بيد الرؤساء الأهليين المعينين من طرف السلطة الفرنسية، وفي تجاوز أو تهميش صريح لدور الجماعة. دون أن نغفل المكانة التي أصبحت لدى هؤلاء الأعضاء، الذين يعملون إلى جانب السلطة الفرنسية في التكييف البطيء للناس مع الإجراءات الغربية التي تعتبر نافعة وخيرة(42). هكذا أصبح عدد محدود من الأعضاء الرسميين ونوابهم، يتحكمان في مئات الأفراد. فها نحن نجد مثلا أن 7 أعضاء رسميين و5 نواب يديرون شؤون إيعاميين المتألفة من خمسة قبائل.

إن الهدف من إدراج هذا الجدول، هو تبيان الدقة والتنظيم المحكمين اللذين عملت بهما سلطات الاستعمار في تدبير الشأن الأهلي بالمنطقة. وبالعودة إلى عملية الضبط كانت السلطات الاستعمارية تحذف وتعين أسماء بعض أعضاء بالمحاكم العرفية، وهذا ما جاء في

القرار الوزاري المؤرخ بتاريخ 11 ماي 1946، والقاضي بحذف أسماء بعض أعضاء بالمحاكم العرفية الابتدائية. جاء في الفصل الأول من هذا القرار ما يلي: يصرح بحذف أسماء بعض أعضاء بالمحاكم العرفية الابتدائية، ومنها المحكمة العرفية بآيت سيدي العربي بالحمام، حيث يحذف إسم العضو الرسمي اشاري بن العربي ويعين عضوا رسميا عمر أوبجيل(43). غير أن ما يثير انتباهنا من خلال هذا التتبع للمحاكم العرفية، هو الملاحظة التي أدرجت في القرار الوزيري المؤرخ 23 نونبر 1934، ومفادها أنه «يمكن للمحاكم العرفية الابتدائية أن تعقد جلسات صحيحة قانونيا وذلك في أي مكان كان خارجا عن مراكزها»(44).

ما معنى ذلك؟ نعتقد أن سلطات الحماية، حاولت أن تكسر تلك الحدود الجغرافية بين القبائل التابعة للأعراف الأمازيغية، وهكذا نخلص إلى أن فرنسا استخدمت هذا الأسلوب لإدماج القبائل في الإدارة الحديثة، التي أنشأتها الحماية وتجد سندها القانوني في التشريع الغربي كما يقول جامع جغايمي(45).

كانت النزاعات فيما قبل الحماية، تفصل في غالبية المناطق المغربية من طرف جماعة، وتصدر الأحكام علانية وبدون مقابل، وتحظى برضى الجميع، إلا أن الوضع تغير خلال عهد الحماية، بإعطاء قاعدة قانونية للقضاء العرفي، وفق التشريع الغربي المنظم للهيئات العمومية ببلادنا.

لقد تبنت فرنسا إستراتيجيتها في التدبير الأهلي على اختيارات تؤسسها مصالح الاستعمار في المنطقة أساسا. وإذا كنا قد ركزنا في حديثنا عن المحاكم العرفية في مجال زيان، فإننا نقول أن فرنسا استطاعت إحداث رسوم وصوائر العدلية لدى المحاكم العرفية. وهذا ما تضمنه القرار الوزيري المؤرخ بتاريخ 17 مارس 1954، والذي جاء في الفصل الأول منه «تحدد وفقا لما يلي ابتداءا من فاتح يونيو 1954 تعريفات الرسوم التي تحرر لدى مكاتب المحاكم العرفية»(46).

صوائر الرسوم:

عقد النكاح: 150 فرنكا

عقد الطلاق: 150 فرنكا

رسم التبني بشرط أو بلا شروط: 300 فرنكا

رسم لتحديد البقعة: 100 فرنكا

رسم الأخوة ورسم التنازل عنها: 100 فرنكا

رسم فسخ للبيع: 100 فرنكا

رسم إكراء الدواب: 200 فرنكا

رسم تبرئة الذمة من الدين } 200 فرنكا

رسم الاعتراف بالدين

<u>الصوائر العدلية:</u>

- بطاقة الاستدعاء لحضور الخصوم والشهود: 50 فرنكا.
- الأجرة عن انتقال عضو المحكمة بقصد إجراء البحث في عين المكان أو الحضور للتحديد أو لاستيفاء اليمين عن كل يوم: 600 فرنكا.
- إجراء رقاص المحكمة لكل نصف يوم المقدر بست ساعات: 100 فرنكا.

أصبحت الجماعة مجرد وسيلة لتحجيم دور القبيلة، وحصرها في بضعة أعضاء خاضعين لسلطة مدير الأمور والاستعلامات الأهلية، بينما كانت السلطة الفعلية بيد الإدارة الفرنسية التي هيكلت المحاكم العرفية وحددت اختصاصاتها.

وبذلك نكون قد حاولنا قدر الإمكان، فهم المنطق الذي تبنته الإدارة الاستعمارية في وضع جهازها الإداري، المتمثل في سياسة أهلية في مجال ترابي محدد، تستعين بالقياد والشيوخ والأعيان، مدعمة بدور الجماعة بهدف ضبط المنطقة.

- **أمغار***

يعتبر أمغار (ج إيمغارن) كلمة أمازيغية مأخوذة من فعل إيمقور وتعني الضخم أو الكبير أو العظيم أو المسن من الناس[47]، كما تعني المرء العالي الشأن والقدر والدرجة داخل مجتمعه وتطلق كذلك على الحاكم والرئيس وكل من يمارس سلطة ما في المجتمع ثم اقتصر إطلاقها على شيخ القرية أو الفرقة أو القبيلة[48]. ويطلق على أمغار في الجزائر اسم لامين، حيث أن الوحدة التنظيمية في الجزائر هي القرى[49] (وجود أمين على رأس كل قرية). وباعتبار أمغار شيخ القبيلة فهو بمثابة النائب الذي ينوب عن التجمع القبلي[50].

ينتخب أمغار القبيلة من قبل أعضاء لجماعت من بين وجهاء وأعيان الفخذة التي يحل دورها لتقديمه حسب نظام التناوب المتبع، وهو تناوب يتم بين العائلات النافذة في كل دوار وبين دواوير كل فخذة وبين فخذات القبيلة. وحين يتعلق الأمر بقبيلتين مختلفتين فإن "إيلان" (القرعة) هو الذي يحدد القبيلة التي عليها أن تقدم آمغار[51]. ولكنه ينبغي بالضرورة أن يتصف بالشجاعة والتجربة والكفاءة الدبلوماسية والنزاهة والغنى والشهرة والأمانة والإخلاص والتأهل في القدرات المعرفية، والتمكن من فهم كل الأعراف والعادات والتقاليد التي تكون الإطار الوجودي للقبيلة على كل المستويات السياسية والاجتماعية بصفة خاصة[52].

يتم تعيين أمغار مبدئيا خلال موسم الربيع[53]، ولهذا التوقيت أهمية خاصة، حيث تتسم هذه الفترة بدسامة الماشية، ووفرة مشتقات الحليب، مما يسمح بإقامة احتفال كبير بهذه المناسبة[54]. بالإضافة إلى المهمة الفلاحية المنوطة بمهنة أمغار، حيث تناط به مهام تنظيم السقي وتوزيعه إلى جانب اختيار المراعي الجماعية والمحافظة عليها، كما يسهر على تتبع الإنتاج وتنظيم عمليات الجني[55]، ثم يعين بشكل رسمي بالإجماع في مكان عام بعد جني المحاصيل[56]، لمدة سنة كما يمكن أن تطول هذه المدة بالنظر إلى الصراع الذي يمكن أن ينشب بين القبائل[57]، وربما قد يكون هذا الصراع بالنسبة للقبائل التي بقيت مستقلة عن الجهاز المركزي، وسلوك المخزن تجاه القبائل الخاضعة سببا في ظهور أمغار. ففي بداية الأمر، يتم انتخابه كمقدم للسهر على سير المشاريع التي قررتها الجماعة، وبعد ذلك يتحول المقدم إلى أمغار[58]، الذي يقوم بتعيين مساعدين له (إمساين)[59]. كما يمكن أن يتحول إلى قايد، وهذا ينتج عن كون الصراعات والأزمات المختلفة بين القبائل، اتسمت بالحدة وطول المدة، بحيث لم يحسم في بعض المناطق الجبلية إلا في القرن العشرين، والحسم كان طبعا لصالح إيمغارن الذين أصبح بعضهم قوادا[60].

يتضح مما سبق أن التحول التاريخي لمدلول أمغار، ارتبط بتطور أوضاع المجتمع الأمازيغي، الجبلية منها على الخصوص، حيث كانت في نزاع دائم مع السلطة المركزية، وفي هذا الصدد نجد أن قبائل إشقيرن وقبائل آيتسخمان وبعض قبائل زيان كانوا في صراع مع السلطة المركزية، ولذلك لجأ السلطان مولاي الحسن إلى تعيين موحى حمو الزياني قائدا[61]

على قبائل زيان لتطويع القبائل المشاغبة، ولما انتصر القائد قام بتوسيع نفوذه على نطاق واسع، بل صعد نجمه، ومن أجل الحد من سيطرة القائد موحى وحمو، لجأت السلطات الاستعمارية إلى تعيين القائد أقبلي على قبائل آيتسكوگو من أجل خدمة إستراتيجية عامة هي احتكار السلطة. ولهذا أصبح بعض القياد أداة تواصل بين السلطات الاستعمارية وسكان البوادي[62]، فهم الذين جسدوا رسميا الحضور الفرنسي، وسهروا على خضوع وامتثال القبائل لمختلف المطالب الفرنسية.

إذا كان أمغار يتم اختياره من بين العائلات الأكثر غنا واحتراما، فهذا لم يكن يعفيه من أداء واجباته، كما أنه يتمتع بحقوق، وتتجسد واجباته في شراء جياد وعتاد حربي، كما يقوم بإلقاء القبض على اللصوص وإحالتهم على القائد. إنه بإيجاز يؤدي دور الوسيط بين هذا الأخير وأفراد القبيلة، بل هو أداته المنفدة[63]، أما فيما يتعلق بحقوقه فله الحق في التمتع بالعطلة في نهاية الموسم الفلاحي، أي بعد جني المحاصيل[64]، كما تخول له صلاحية فرض الغرامات على الظالمين أو الذين يتمردون على القوانين العرفية[65].

يؤدي أمغار عدة وظائف إدارية وسياسية وقانونية واقتصادية، ويسهر باسم الجماعة، على وضع القيم المثلى للانتماء الجماعي[66]، كما يعهد إليه حراسة المراعي (أگدال)، ولا يسمح حسب الأعراف المتوارثة هنا لأي كان ممارسة الرعي، إلا بعد الإعلان عن الموعد الجماعي للرعي من طرف الجماعة. وفي حالة ضبط مخالفة في هذا المجال، فإن الجاني يتعرض لغرامة تسمى "إزماز" وتحدد قيمتها من طرف أمغار.

يتحمل أمغار إنجاز بعض الأعمال اليومية ومنها حرث الحقول وسقي البذور وحراسة الخيام[67]، بالإضافة إلى كونه هو المشرف عن الأعمال الجماعية (تيويزي مثلا) المطلوبة والتي تكون القبيلة في حاجة ماسة إليها، بل هو الذي يفتتح اجتماعات الجماعة أثناء اجتماعاتها للتداول والتشاور في قضايا معينة[68]. وبعد خروج الجماعة بقرارات، يتحمل أمغار مسؤولية تنفيذها، وذلك عن طريق إخبار القبائل في السوق، أو بواسطة إمساين الذين يتكلفون بإيصال قرارات الجماعة إلى القبائل[69].

يقوم أمغار بمراقبة السوق، تحت أوامر الجماعة، وكل الإجراءات المتخذة في حق المشوشين (لص-احتيالي...) تفرض من طرف أمغار، بعد الإستماع إلى الأطراف المتنازعة. بل

يتدخل أيضا عندما يقع شجار بين فردين في السوق، وغالبا ما يكلف أحدهم بذبح خروف عقابا له ورد الإعتبار للمظلوم[70].

هذه المهامات المتعددة في إطار المجالات المتنوعة هي التي حدت بالكثير بأن يطلق على أمغار، أمغار السوق، أمغار المراعي، أمغار نترگا (الساقية) وأمغارنتوگا. لكن الملاحظ هو أن سلطاتهم لا تقتصر على مجال واحد، بل يتدخلون في جميع المجالات كلما تطلب الأمر ذلك. ولنأخذ أمغارنتوكا (أمغار الربيع) فسلطاته لا تقتصر دوما على الميدان الفلاحي، بل تمتد إلى ميادين أخرى عندما يتعلق الأمر بالحفاظ على الأمن، وقد تتوسع لتمكن صاحبها أثناء الحروب من رتبة قائد الحرب[71].

وحيث أن الحروب قد تستغرق مدة طويلة، فإن بعض القبائل قد تعين أمغارا خاصا بالعمليات الحربية ويشترط فيه أن يتقن دهاء الحرب وفنونها، فتسند إليه مهام التخطيط للحرب والإعلان عنها وقيادة عملياتها بما في ذلك التفاوض مع العدو وتوزيع الغنائم[72].

تؤلف جماعة القبيلة وأمغاره حكومة ديمقراطية مرتكزة على أسس التوازنات المنبثقة من تعاون مختلف المكونات، سواء على مستوى القبائل التي يشرفون عليها، أو على مستوى علاقاتها مع القبائل الأخرى المجاورة. إذا كان نظام "إيمغارن" حلقة متوسطة بين نظام الجماعات ونظام القواد، فإن ظهوره كان نتيجة للتطورات السياسية المحلية، في حين نلاحظ أن تحوله بعد ذلك إلى نظام القواد، ناتج عن السياسة المخزنية والاستعمارية التي تفضل التعامل مع حكام أقوياء[73]، كما شكلت الثروة والنفوذ والجاه، شروطا لا بد من توفرها للترشح قصد الظفر بمنصب القائد[74]، وهذا ما يدل على أن كلمة القائد وثيقة الصلة بالنظام الاستبدادي على عكس أمغار المرتبطة بالتسيير الجماعي الديمقراطي، وهذا ما دفع بالسلطات المخزنية والاستعمارية إلى دمج مؤسسة أمغار في إطار أجهزة السلطة المركزية.

خلاصة:

لا جدال في أن المجتمع الأمازيغي قد عرف تحولات كبرى في بنياته المؤسساتية، ذلك أن الضوابط وعوامل التشكل التي كانت فاعلة قبل مرحلة الاستعمار، أخذت تتلاشى وبسرعة مذهلة إبان مرحلة الاستعمار. ومنذ ذلك التاريخ يمكن أن نتحدث عن بداية احتضار

الجماعة كمؤسسة قائمة الذات لم تكن التمثيلية فيها عن طريق الاقتراع، بل كانت تتم بالإجماع حول أشخاص يشهد لهم الجميع بكفاءتهم وبتقواهم وبعمق تفكيرهم، لكن بعد ذلك ستصبح الجماعة كمؤسسة غير قائمة الذات، خاصة وأن أفرادها يتم تعيينهم من طرف ممثلي السلطة الاستعمارية، وهذا ما استخلصناه بشكل واضح من خلال متابعة كرونولوجية للتمثيلية السياسية بمنطقة زيان خلال فترة الحماية. وموازاة مع ذلك عرفت المحاكم العرفية تحولا عميقا من جراء السياسة الاستعمارية، فعندما نتأمل في خريطة المحاكم العرفية المتوزعة في المنطقة نجد أن العديد منها أصابها التلف خلال فترة الحماية.

التهميش

[1]- الهروي الهادي، الإقطاع والمخزن، **مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934**، مطبعة إفريقيا الشرق، الدارالبيضاء، 2005، ص،118.

[*]-الجماعة تعني أكراو (ج. إيگراون) من الكلمات الأمازيغية المؤسسية التي لم ترد كثيرا في المصادر المكتوبة، ويبدو أن سبب ذلك كما يقول الأستاذ أزايكو علي صدقي، راجع إلى كونها استبدلت مبكرا بكلمات أخرى من أصل عربي هي جماعة. وأقدم مصدر معروف يشير إلى هذه الكلمة هو كتاب أخبار المهدي بن تومرت حيث ورد في العبارة التالية: "...فعمل لهم الخليفة (عبد المؤمن بن علي) أگراو يعظهم فيه..." ويظهر من السياق أن اللفظ يعني هنا المجمع/المجلس قصد التذاكر والتفاوض والتشاور وتبادل الرأي، وهذا ما ورد عند نفس المؤلف (البيدق) حيث ورد في العبارة التالية "...فخرج الخليفة (عبد المؤمن بن علي) وعمل لهم المجلس ووعظهم..." ويضيف أيضا في عبارة أخرى "...خرج الخليفة عبد المؤمن بن علي من مراكش يوم 15 ربيع الأول عام 558ه ولما وصل إلى رباط الفتح عقد به مجلسا للتشاور في أمر الأندلس..." أنظر، أزايكو (علي صدقي)، **نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2004، ص،112. البيدق (أبي بكر بن علي الصنهاجي)، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرابط، 1971، صص،57، 70، 81.

[2]- الهروي (الهادي)، م.س، ص،102.

[3]- أفا (عمر)، **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن 19 (سوس 1822-1906)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988، ص،101.

[4]- الهروي (الهادي)، م.س، ص،103.

[5]- أفا (عمر)، م.س، ص،101.

[6] -Abés (M), "Monographie d'une tribu berbère : les Aït Ndir(Beni M tir)", **ArchivesBerbères**, Vol 2,Paris,1917, p,192.

[7] -ibidem.

[8]- الهروي (الهادي)، م.س، ص.119.

[9]- أسبينيون روبير، **أعراف قبائل زيان**، ترجمة محمد أوراغ، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، د.ت، ص،18.

[10]- شرقي (محمد)، **التحولات الاجتماعية بالمغرب من التضامن القبلي إلى الفردانية**، مطبعة إفريقيا الشرق، المغرب، 2009، ص،136.

[11] -Taghebalout (Aziz), **L'administration locale chez les beni M'tir (région de Meknès) fin du xix, première moitié du xx siècle**, dans études d'histoire, centre de recherche historique, université saint Etienne, p,115.

[12]- أسبينيون روبير، م.س، ص،18.

[13]- بياض (الطيب)، **المخزن والضريبة والاستعمار: ضريبة الترتيب 1880-1912**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2011، ص،55.

[14] -Taghebalout (Aziz), op. cit, p,115.

[15] -Surdon (G), **Institutions et coutumes des berbères du Maghreb**, deuxième édition, Fès, 2ème édition, 1938, p,182.

[16] -ibidem.

[17] -ibid, p,181.

[18]- أسبينيون روبير، م.س، ص،19.

[19]-Surdon (G), op. cit, p,183.

[20]- أسبينيون روبير، م.س، ص،19.

[21]-نفسه.

[22] -Guillaume (G), **Les berbères Marocains et la pacification de L'Atlas central(1912-1933)**, René Julliard, Paris, p,29

[23]-Surdon (G), op. cit, p,185.

[24]- الهروي (الهادي)، م.س، ص،119.

[25]- أسبينيون روبير، م.س، ص،19.

[26]- شرقي (محمد)، م.س، ص،160.

[27]- الهروي (الهادي)، م.س، ص،104.

[28] -Abés (M), op. cit, p,192.

[29]- الهروي (الهادي)، م.س، ص،104.

[30]-Milliot(L), "Les dejmaa de tribu et la colonisation", **France-Maroc,** n°4, 15 Avril, 1918, p,116.

[31] - الأكحل (المختار)، "قبيلة"، **معلمة المغرب**، الجزء 19، 2004، ص،605.

[32] -Guillaume (G), op. cit, p,30.

[33] -Direction des affaires indigènes et du service des renseignements, le secrétaire général du protectorat, sujet, Arrête viziriel du 22 Avril 1922, Nomment les membres des djemaas de fractions des tribus des AÏt Amar.

[34] - لوفو ريمي، **الفلاح المغربي المدافع عن العرش**، ترجمة محمد بن الشيخ، مراجعة عبد اللطيف حسني، منشورات وجهة نظر، سلسلة أطروحات وبحوث جامعية(2)، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 2011، ص،6.

[35] - الجريدة الرسمية، العدد 596، السنة الحادي عشر، بتاريخ 30 شتنبر 1924، ص،1241.

[36] - الجريدة الرسمية، العدد 964، السنة العشرون، بتاريخ 17 أبريل 1931، صص، 757-758.

[37] - "إن أعضاء الجماعة ليسوا منتخبين ولا معينين من مواطنيهم، فهم يصلون إلى هذه الوظيفة ويأخذون مقاعدهم في مجلس دوارهم عندما تصبح آراؤهم مطلوبة أو مسموعة... وكلما زادت شهرتهم، يتسع مجال عملهم". أنظر:

Guennoun (Said), « L'organisation : les pouvoirs administratif et judicaire », **Renseignements coloniaux,** la haute Mouloya, N°2 et 3, 1939, p,27.

[38] - الجريدة الرسمية، العدد 73، السنة الثانية بتاريخ 18 شتنبر 1914، ص،407.

[39] - جغايمي (جامع)، **التاريخ المغربي بين الو اقع والتزييف**، مطبعة شروق، أكادير، الطبعة الأولى، 2001، ص،35.

[40] - الجريدة الرسمية، العدد 73، السنة الثانية بتاريخ 18 شتنبر 1914، ص،407-408.

[41] - الجريدة الرسمية، العدد 1152، السنة الثالثة والعشرون، بتاريخ 23 نونبر 1934، صص،1686-1690.

[42]-Vignon Louis, **un programme de politique coloniale, les question indigènes**, librairie plon, Paris, 1919, p,296.

[43] - الجريدة الرسمية، العدد 1778، السنة الخامسة والثلاثون، بتاريخ 22 نونبر 1946، ص،1391.

[44] - الجريدة الرسمية، العدد 1152، السنة الثالثة والعشرون، بتاريخ 23 نونبر 1934، صص،1686-1690.

[45] - جغايمي (جامع)، م.س، ص،37.

[46] - الجريدة الرسمية، العدد 2164، السنة الثالثة والأربعين، بتاريخ 16 أبريل 1954، صص،1150-1151.

* - إن أقدم استعمال لكلمة أمغار في المصادر المكتوبة، حسب ما نعلم، ورد في كتاب أخبار المهدي للبيدق، الذي ذكر أن والد الإمام المهدي كان ينعت بها. ويبدو أن إطلاق لقب أمغار على أبيه، يعني أنه كان يمارس وظيفة المشيخة في قومه. والدليل البارز على ذلك هو أن الإمام المهدي كان يلقب في صغره أيضا أمغار. أنظر، البيدق (أبي بكر بن علي الصنهاجي)،م.س، ص،76-77.

- كتاب **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الأولى، 1979، ص،103.

- الناصري (أحمد بن خالد السلاوي)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق أحمد الناصري، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001، ج1، ص،229.

- أزايكو (علي صدقي)، م.س، ص،119.

[47]- شفيق (محمد)، **المعجمالعربيالأمازيغي**، النشر العربي الإفريقي، الرباط،1990، ج1، ص، 549.

[48]- أزايكو (علي صدقي)، م.س، ص،118.

[49] -Abés (M), op. cit, p,192.

[50] -Guennoun (s), op. cit, p,60.

[51] -ibid, p,61.

[52]- الهروي (الهادي)، م.س، ص،120.

[53] -Guennoun (s), op. cit, p,61.

[54]- أسبينيون روبير، م.س، ص،21.

[55]- بلوش (عبد الرحمان)، "قراءة في أزرف الأمازيغي"، **الثقافة الأمازيغية بين التقليد والحداثة**، جمعية الجامعة الصيفية بأكادير، أعمال الدورة الرابعة (29 يوليوز إلى 5 غشت 1991)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996، ص،227.

[56] -Guennoun (s), **la montagne berbères les Ait oumalou et le pays zaian**,Paris,1929, p,61.

[57] -Abés (M), op. cit, p,193.

[58]- الهروي (الهادي)، م.س، ص،212.

[59]- أمساي (ج إمساين)، فهو الضامن والكفيل يقال ضمن الشيء أي يوسي وأمغار هو الذي يتخذ من كل جماعة كفيلا يكون مسؤولا تجاهه، ويحكم بواسطته، وتعج قبائل زيان بالعديد من إمساين في جل الميادين، يتم اختيارهم من طرف أمغار وينحدرون من العائلات الأكثر غنا واحتراما، ويسهرون على تنفيذ قرارات الجماعة، كما يلعبون دور الوسيط أثناء الحرب إذ يسهرون على توزيع الاستدعاءات للمشاركة في أعمال جماعية (تيويزي) أو المشاركة في معركة، وتخول لهم صلاحيات جباية الضرائب وإصدار العقوبات في حق المخالفين للأعراف الجاري بها العمل، ولا زال العمل إلى يومنا هذا جاريا بهذا النظام بالعديد من القبائل الزيانية، حيث نجد أمساي نجامع وأمساي نتركا (الساقية) وأمساي إمزار (المراعي). أنظر:

- شفيق (محمد)، م.س، ص،720.

- أسبينيون روبير، م.س،ص،22.

- Abés, op.cit, p,194.

[60]- أزايكو (علي صدقي)، م.س، ص،119.

[61]- أول قائد عرفته قبائل زيان، أما قبله فكان أمغار هو الرئيس. موحى وحمو الذي كان عمره إثر وفاة أبيه حمو وعقا، رئيس خيمة زيان الأكثر أهمية، لا يتجاوز العشرين ربيعا، اتصف بذكاء خارق وحس سياسي متقد. كان طموحا جدا. رسم كهدف أولي أن يكون رئيس كل قبائل زايان، ثم مد سلطته فيما بعد على كل القبائل المجاورة، آيتمگليدإيشقيرنوآيتابحند، آيت إسحاق...لم يتردد في الالتماس من السلطان مولاي الحسن أن ينصبه لتسهيل مساعيه، وللحصول منه بصورة أساسية على مساعدات مالية وذخيرة، وعلى جيش أيضا، أنظر: روبير أسبينيون، م.س،ص،21.

Bernié (G), **Mohaouhamou,Guerrierberbère**, éditions G-Gauthier, Casablanca,1945, pp, 13-14.

[62]- بياض (الطيب)، م.س، ص،138.

[63]- أسبينيون روبير، م.س،ص،22.

[64] -Surdon (G), op. cit, p,189.

[65] -Abés (M), op. cit, p,193.

[66] -Guennoun (s), la montagne........op. cit, p,138.

[67] -Abés op. cit, op.cit, p,193.

[68] -Guennoun (s), la montagne..........op. cit, p,138.

[69] -ibidem.

[70] -Guennoun (s), la montagne...........op.cit, p,60-61.

[71]- بلوش (عبد الرحمان)، م.س، ص،228.

[72]- نفسه.

[73]- أزايكو (علي صدقي)، م.س، ص،120.

[74]- بياض (الطيب)، م.س، ص،139.

الكاتب: **د/ عبد الطيف أبوريشة**
جامعة ابن طفيل - المغرب

عنوان المقال: **بعض الأساليب الاستعمارية في القضاء على المقاومة المسلحة من 1912 إلى 1936 م بقبائل زيان والريف**

البريد الالكتروني:abourichahafida@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/05/24 **تاريخ القبول:** 2019/07/28 **تاريخ النشر:** 2019/12/31

بعض الأساليب الاستعمارية في القضاء على المقاومة المسلحة من 1912 إلى 1936 م بقبائل زيان والريف.

Some Colonial Methods in Eliminating Armed resistance from 1912 to 1936 in zayan and Rif tribes.

الملخص بالعربية:

تميز القرن العشرون بوقوع المغرب تحت فخ الحماية الفرنسية و الاسبانية، غير أن الدخول الاستعماري و توغله داخل البلاد اعترضته مجموعة من الصعوبات ارتبط بعضها بردة فعل القبائل القوية التي أفشلت المخطط الاستعماري في عدة محطات، و البعض الآخر بموقف السكان من الحماية الفرنسية التي تحولت إلى استعمار مباشر، مما جعل السلطات الفرنسية و الاسبانية أن تلجأ إلى عدة أساليب لإخضاع السكان بتكلفة أقل، فبالإضافة إلى التفوق العسكري الذي كان يمتاز به جيش سلطات الحماية فإن السياسة الاستعمارية بنهجها لسياسة اختطاف نساء القبائل و السيطرة على ممتلكاتها و اعتقال زعماء المقاومة كان أكثر فاعلية في استسلام زعماء المقاومة بالقبائل حفاظا على عرضهم وصيانة كرامتهم، وهي جرائم اقترفها الاستعمار ضد المغاربة وجعلها خطة لإسقاط معاقل المقاومة المسلحة والقضاء عليها.

الكلمات المفتاحية: الحماية - الأساليب الاستعمارية – القبائل – زعماء القبائل – المقاومة المسلحة – سياسة الاختطاف.

Abstract:

The twentieth century was marked by the fall of Morocco in the trap of the French and Spanish protectorate. Nevertheless, the colonial invasion and penetration were encountered by several obstacles, some of whish were related to the tribes' strong reaction which made the colonial plan fail in many phases, And some others with the people's attitude towards the protectorate, which turned into real colonization. This, consequently, pushed the colonial powers to resort to many measures to subdue the locals with less costs. Added to the military superiority of the colonizer, they took over the tribes' properties, kidnapped the women and arrested the resistance leaders. These actions were more effective and pushed the resistance leaders to surrender so as to keep their honor and dignity. Such crimes had been widely used against Moroccans as a systematic plan to bring down the military resistance's camps and get rid of them once for all cheaply inexpensively.

key words : Protectorate - Colonial Methods - Tribes – Tribal leaders - Armed resistance – Abduction policy.

مقدمة:

لا تخفى على أي باحث أو مؤرخ، أهمية دراسة تاريخ المغرب، لاسيما في لحظته المفصلية خلال مطلع القرن 20م والتي تميزت بتوقيع معاهدة الحماية، نظرا لما عرفته هذه الفترة من تحولات عميقة وتغييرات جذرية يجمع معها المؤرخون سواء المغاربة أو الأجانب على أنها كانت حافزا على ظهور المقاومة المسلحة في سائر أنحاء البلاد .

وبالرغم من أهمية دراسة طبيعة المقاومة المغربية، فإن التأريخ لها ما يزال في حاجة إلى بذل المزيد من الجهد والعمل الجاد، لاكتشاف خصوصياتها وتحليل مسارها التاريخي. وهذا المقال محاولة للتعرف على دور اختطاف النساء وعائلات القبائل و أملاكهم و تصفية زعماء المقاومة كإحدى الأساليب المهمة التي لجأت إليها السلطات الاستعمارية الفرنسية والاسبانية للقضاء على المقاومة المسلحة التي تزعمتها القبائل المغربية.

وإذا كانت أغلب الكتابات سواء المغربية[1] أو الأجنبية تتفق على أن اندحار المقاومة المسلحة المغربية أمام الأجانب يعود إلى كونها " كانت انتفاضات عفوية في غالب الأحيان للذود عن العرض والممتلكات بكل من الصحراء والأطلس والريف .... و أن القوات الفرنسية والاسبانية كانت تتمتع بتفوق تقني لا جدال فيه، وكانت تستفيد أيضا من افتقار المقاومة عبر مجموع البلاد إلى التلاحم والتشاور و التنسيق، لتسقط معاقل المقاومة المسلحة تباعا إلى غاية عام 1936"[2]. فإن بعض الدراسات قد أشارت بشكل أو بآخر، إلى دور اختطاف النساء وعائلات القبائل والاستيلاء على ممتلكاتهم كانت من الأسباب الثابتة في استسلام القبائل حفاظا على عرضهم وصيانة كرامتهم، وهي جرائم اقترفها الاستعمار ضد المغاربة، وجعلها خطة لإسقاط معاقل المقاومة المسلحة والتخلص منها بأقل التكاليف[3].

لقد وجد الفرنسيون في مسألة "العرض" وموقف القبائل المتشدد من ذلك، والتي تلخصها القولة الشهيرة " الإنسان يموت على ولادوا ولا على بلادوا" الوسيلة المناسبة لضبط السيطرة على البلاد في وقت وجيز وبتكلفة ضعيفة، وقد ترتب من جملة ما ترتب عن هذا السلوك الاستعماري المتعلق باختطاف النساء إلى إقدام السلطات الأجنبية على فتح دور للبغاء في مختلف المدن المغربية والتي كان يلجأ إليها الجيش الاستعماري، وقد استمر اعتقال النساء على طول المدة الاستعمارية، وكلام مراسل جريدة الأمة كان واضحا بهذا الخصوص لما قال: " منذ مدة و بوليس الآداب في الرباط وغيرها من المدن يلقي القبض بانتظام على النساء ويرسلهن إلى البورديلات العسكرية في الهند الصينية، وقد أكد رئيس البوليس في سلا هذه الحقيقة"[4].

سأتناول الحديث في هذا العرض عن بعض الخطط التي نهجها الاستعمار الفرنسي والاسباني في القضاء على معاقل المقاومة المسلحة، والتي تتمثل في اختطاف النساء وعائلات القبائل وممتلكاتها باعتبارها من الوسائل الناجحة التي مكنت المستعمر من ضبط البلاد، التي و للأسف الشديد لم تتطرق إليها المصادر التاريخية بشكل واضح، وتوقفنا في مناقشة هذا الموضوع في نقطتين تهتم الأولى بدور سياسة اختطاف النساء والعائلات التي نهجها المستعمر ضد القبائل في اندحار المقاومة المسلحة من خلال نموذج قبيلة زيان و قبائل الريف التي كان يتزعمها آنذاك عبد الكريم الخطابي، وتتوخى النقطة الثانية الوقوف عن دور فرض الحصار على القبائل و اعتقال أو قتل زعماء المقاومة في إخماد المقاومة والتحكم في البلاد.

1- **الاستيلاء على ممتلكات القبائل**

تعد المقاومة المسلحة التي تزعمتها قبائل زيان والريف من أشرس مقاومة اندلعت بالقبائل المغربية ضد الاستعمار - الفرنسي والاسباني - والتي حققت عليهما انتصارات مهمة جعلت مهمة الاستيلاء على المنطقة بالمهمة الصعبة، لذلك حاول النظام الاستعماري إحكام سيطرته على زيان و بني مطير و أيت نظير وبني مكيلد والريف ... بوسائل متعددة منها السيطرة على ممتلكات القبائل وضرب مصادر عيشها، فحسب ما جاء على لسان محمد بن الحسن من أجل استسلام قبائل زيان الهائجة أقدم المحتل: " نزع الأراضي من أصحابها ... وضرب القبائل في وسائل عيشها، وأحيانا إحراق القرى والمزروعات[5]، ويضيف أحد المؤرخين الفرنسيين بولون: " لأجل الحصول على استسلام الأهالي كان الكومندار كولومبا يأمر باختطاف ماشيتهم ... فقد اقتنص 120 من الثيران، فلا ترد إليهم حتى يعلنوا استسلامهم "[6] وهو ما كان يجعل القبائل ترفع راية الاستسلام، على أن جزء من سكان هذه القبائل من كان يختار الهجرة وينتقل مباشرة إلى المدينة ومنهم من كان يتقبل الأوضاع الجديدة ويخضع لسلطة المستعمر.

أدرك اليوطي منذ تنصيبه رئيسا على هذه المهمة الصعبة أن رغبة في تحقيق النجاح و القضاء على معاقل المقاومة المسلحة وبسط سيطرته على البلاد كانت رهينة بإتباع هذه السياسة الناجعة، ففي أحد تصريحاته المؤرخة في 13 نونبر 1914م قال: " إن الاعتبار الاقتصادي يتفق والاعتبار الحربي، وحينما أمسك بالسوق ... فسوف أتحكم في البلاد، ويمكنني حسب ما أردت نشر الرخاء أو الجوع "[7]، ولما تمكن من السيطرة على أجود الأراضي ونهب المواشي للقبائل المحاربة و تحكم في مصادر عيشها واقتصادها ومصدر قوتها - ولا شك في ذلك أن الأمر قد تطلب بذل مجهودات كبيرة- تمكن من إخماد الحركة الجهادية التي عمت قبائل الأطلس والريف والتي أقلقت كثيرا المستعمر وجعلته يضاعف من مجهوداته وقوته في القضاء عليها، وهو ما تأتى له بالفعل بعد مسار طويل .

1- **اختطاف النساء**

تعد مسألة اختطاف النساء وسبيهم من بين الوسائل التي لجأت إليها سلطات الحماية لتطويع القبائل المقاومة والثائرة ضد الاستعمار، وقد وجدت سلطات الحماية في هذه الطريقة الوسيلة الناجعة في تكسير أجنحة المقاومة المغربية بأقل تكلفة، إن نساء القبائل كن يعتبرهن رمزا لعرض القبيلة وحرمتها، فكان من واجب زعمائها ورجالها حمايتهن من أية

مكروه، لذلك توجه الاستعمار بكل مكوناته إلى القبض على هؤلاء النساء كرهائن لديهم ولم يكن يتم تسليمهن حتى تستلم القبيلة وتعلن خضوعها المطلق، ففي معركة لهري أقدمت السلطات الفرنسية بعد ما وجدت صعوبة كبيرة في تشتيت مقاومة قبائل زيان على التقتيل الذي زاد رعبا وهلعا في القبائل، وقاموا بتجميع القطيع وتوجيهها إلى خنيفرة ... و استوليا على إثنين من نسائه، (نساء موحا أو حمو الزياني)، وقد استمر في القول ، لقد تم نهب جميع الخيام بدون شفقة، كما تم إفراغها من النساء، وقد استغرق هذا النهب أكثر من ساعة[8].

وحسب صاحب كتاب جوانب مغمورة من المقاومة المسلحة قال: وقد ازدادت عملية النهب والاختطاف استفحالا سنة 1921 حيت أخذت بعدا خطيرا ومفزعا، ففي هذه المرحلة لم يعد المستعمر يكتفي بأساليبه التقليدية لكسر شوكة المقاومة المغربية وتفكيك أوصالها، بل استعمل أسلحة من نوع آخر وهي اختطاف النساء، وقد وصف قائد الحملات العسكرية بزيان بولون Boloune هذا الإخطاف قائلا، " ذات مرة باغت رجالنا أكثر من مائة امرأة يلتقطن الحطب تحت حماية بعض المحاربين فساقوهن إلى الثكنة، وبعد الغارة استقبل كولومب Colompe مبعوثين من جميع أنحاء زيان يفاوضون في شأن تحرير أولئك النسوة، فقبل بإرجاعهن إلى ذويهن بشرط أن يستلم جل الأسلحة التي اختطفت من الفيالق الفرنسية بالجبهة، بمعدل بندقية لكل ثلاثة نساء"[9].

إذا كان المستعمر قدم العديد من التبريرات في استعمار البلاد على أنه كان يروم كثيرا إلى استعمال الأسلوب السلمي في ضبط البلاد والعباد، فإن استهداف النساء كان كبيرا من طرف المستعمر لما أدرك قادة الاحتلال ما كانت تمثله النساء وكذلك الأطفال من مكانة قدسية بالنسبة لرجال القبيلة، فحسب صاحب كتاب معركة لهري قال: " ومهما يكن، فإن هذه التبريرات لم تؤثر على الخطة الحربية التي رسمها Lavendure ونفذها بعناية كبيرة، الشيء الذي جعل الزيانيين وبخاصة العجزة والأطفال والنساء يتعرضون لمجزرة مروعة لم يستطع مؤرخوا الاستعمار إخفائها[10]".

ترتب عن إقدام المستعر عن هذا الفعل الذي رأى فيه سلاحا فتاكا للقضاء على هذه المقاومة الشرسة بالمنطقة، حسب فرانسوا ابيرجي أن تقلص تدريجيا عدد القبائل المشاركة في القتال وقل عدد المقاتلين، خوفا على عرض زوجاتهم بالقبيلة، وهذا الإحباط على كل حال وجدنا له أثر في أغاني نساء الجبل[11] .

3- اختطاف زعماء القبائل و إعدام المقاومون

كانت المقاومة المغربية التي عمت قبائل الأطلس والريف تعتمد بشكل كبير في هزم المستعمر على شخصية وحنكة زعماء القبائل، ففي الريف كان لشخصية عبد الكريم الخطابي بفضل نهجه لأسلوب حربي متميز – حرب العصابات - دورا كبيرا في هزم الإسبان وتكبيدهم لخسائر كبيرة وغير متوقعة، بل نجحت المقاومة الريفية بفعل شخصيته كزعيم ورجل سياسي بامتياز من كسب عطف العديد من المتطوعين والمقاومين وأعطى نفسا قويا لاستمرار المقاومة ضد الاستعمار. وفي قبائل زيان نجح موحى أو حموا الزياني باعتباره أميرا على منطقة الأطلس من بعث المقاومة من مرقدها[12] بعد ما نجح في جمع القبائل وتوحيدها ضد المستعمر، فأصبحت المقاومة في المنطقة تقوم وتتحرك باسمه، بل كانت النجاحات التي حققتها ضد الاستعمار تعود إلى خبرته ومعرفته بظروف المنطقة، ومسألة تكتل القبائل حول "الزعيم" الذي كان بمثابة الأب روحي لهذه القبائل تنبأ إليه إحدى الجنرالات الفرنسيين الذين كانوا يسهرون على ضبط المناطق و وإخضاعها، فتوجهت أنظارهم وسياستهم صوب هؤلاء الزعماء، إذ تبين لهم أن إنهاء المقاومة بمعظم القبائل رهين باستمالة الزعيم أو اختطافه.

وأمام رفض زعماء القبائل الخضوع لسلطات الحماية بعد فشل كل الإجراءات[13]، أصبحت مسألة اختطاف زعماء القبائل أو القضاء عليهم من أولويات سلطات الحماية، فحسب محمد بن لحسن عندما تحدث عن مقاومة الأطلس قال: " إن هذه الحركة الجهادية التي بدأت تعم قبائل الأطلس والهضبة الوسطى هي التي أقلقت حامية خنيفرة الكولونيل la verdure وجعلته يستنتج أن فك الحصار على جنوده يتطلب شن غارة على مخيم لهري واختطاف القائد موحا أوحمو الزياني[14]، وفي هذا الإطار جمع الكولونيل La verdure في يوم 12 نونبر على الساعة التاسعة ليلا ضباط الحامية و رؤساء المصالح وأخطرهم بأنه يعتزم تنفيذ غارة على مخيم موحى أو حمو الزياني بقرية لهري، و أوضح لهم أن المقصود هو اختطاف القائد الزياني ومساعديه الأقربين ونهب الخيام والقطيع[15]. وقد ضن الكولونيل أنه بمجرد القبض على موحى أو حمو وجماعته فإن مشكل زيان قد حل وزعيمهم قد أسر أو قتل[16].

وفي الريف، فقد تعرض زعيمها عبد الكريم الخطابي للعديد من المؤامرات من طرف سلطات الحماية الاسبانية والفرنسية والتي تهدف جميعها إلى اعتقاله أو قتله و إنهاء المقاومة الريفية، و بهذا الخصوص قال علال الفاسي: " حاول المستعمرون القضاء عليه

(عبد الكريم الخطابي) بمختلف الوسائل فلم ينجحوا، وفكروا في قتله غبيلة ولكن إخلاص قومه له كان يحول دون تنفيذ ذلك بصفة من الصفات"[17]، وقد تعرض الأمير كما جاء على لسان علال الفاسي لمؤامرة القتل لما حاولت إسبانيا تعريضه لسم بعد وضعه في قنينة ماء[18]

.

بالرغم من كل المحاولات والمؤامرات التي دبرتها السلطات الإسبانية والفرنسية لزعماء القبائل قصد التخلص من المقاومة إلا أنها فشلت في تحقيق غاياتها ومراميها، وذلك بفعل إخلاص القبائل ووفائها وثباتها وتفانيها لزعيمها. كما أقدم هؤلاء الزعماء على تكوين نواة عسكرية قوية تتكلف بحمايته، فموحى أو حمو الزياني على السبيل المثال لا الحصر قام بتكوين نواة عسكرية قوية من حاشية وأقارب تكلفت بحماية القائد والتي قال في حقها أحد الضباط الفرنسيين M. Laglay : " نحن الذين تخيلنا أن موحى أوحمو يمكن أن يتوفر على جيش نظامي، ... والواقع أن مجموعاته كانت تضم نواة قوية"[19]، تتكلف بحماية الزعيم من الاختطاف أو الاغتيال الذي كانت تهدف إليه السلطات الاستعمارية.

وإذا كانت السلطات الحماية قد نجحت في قتل واغتيال عددا من زعماء المقاومة كأحمد الهيبة سنة 1919م و اغتيال الشريف السملالي سنة 1935م الذي كان يقود المقاومة في تافيلالت و أيت عطا في الجنوب الغربي[20]، فإنها كذلك أقدمت على نفي بعض الزعماء كأسلوب حربي سلمي للقضاء على المقاومة المغربية مثل ما فعلت السلطات الفرنسية والاسبانية مع زعيم الريف عبد الكريم الخطابي الذي نفته إلى جزيرة لاريونيون La réunion جنوب شرق مدغشقر.

استمرت سلطات الحماية في مطاردة كل زعماء الحركات المتمردة التي ظهرت بين الفينة والأخرى في مختلف القبائل على شكل حركات محلية عفوية في مرحلة الثلاثينات كما هو الحال مع " زيد أوحماد" أحد رعاة أيت مرغاد التي توجد شرق جبال الأطلس، الذي ظل يوجه ضربات جريئة للقواعد والجنود الفرنسيين، وقد جاء في تقرير مديرية الشؤون الأهلية عبر مذكراتها السرية خبر هذا الحدث إذ جاء فيه، " ظل إلقاء القبض على زايد أوحماد متعذرا لمدة طويلة نظرا لما كان يتلقاه من تواطىء مضمر في مجموع تلك البلاد .... إن تصفيته ستحسن الوضع الأمني بصفة ملموسة في المناطق الواقعة ما بين زيز ودرعة"[21]، وقد دامت هذه المطاردة من 1934 إلى 1936م حيث تم القبض عليه في قصر تادافالت قرب تنغير. وبفعل أسلوب تصفية هؤلاء الزعماء باغتيالهم أو نفيهم أو القبض عليهم و الذين كانوا

يشكلون بمثابة القوة الفعلية للمقاومة القبلية تقهقرت المقاومة المغربية و عم الأمن بالقبائل.

4- فرض الحصار على القبائل المقاومة للاستعمار

نهجت سلطات الحماية الفرنسية والاسبانية بعدما واجهتما القبائل في معارك كبرى كبدتهم الكثير من الخسائر المادية والبشرية رغم تفوقهما التقني والعسكري سياسة عنيفة اتجاه سكان القبائل الرافضة الخضوع للسيطرة الأجنبية، وقد تجسدت هذه السياسة الاستعمارية في فرض حصار طويل الأمد على القبائل و تجويع سكانها و اخضاع زعمائها بالقوة، وبهذا الصدد كتب أوغوستين كيوم الذي عاين شخصيا بعض حلقات هذه المقاومة فكتب " لم تأت إلينا أي قبيلة بطريقة عفوية ولم تخضع أي قبيلة دون أن تحارب، وأحيانا دون أن تستنفد وسائل المقاومة عن آخرها[22]"، ويعني هذا، أن القبائل المغربية قد استسلمت لأمر الواقع إلا بعدما استنفدت كل الطاقات منها نتيجة سياسة الحصار الذي فرضه الجنود الفرنسيين و الاسبان على القبائل المقاومة، فحسب كتاب صاحب أصول الريف فإن ليوطي اعتمد في اخضاع القبائل الجبلية المقاومة على: "سد منافذ الأودية بواسطة مراكز صغيرة مجهزة بالرشاشات و المدافع"[23] محاولا بذلك المستعمر الفصل بين السهول والجبال ومنع كل الإمدادات التي من المحتمل أن تصل إلى سكان الجبال و المقاومين، وقد استمر جرمان في القول على إثر هذا الحصار: " بذر الشقاق بين القبائل بل وداخل كل منها لإجهاض كل محاولة المقاومة الموحدة وتلك هي المرحلة الضرورية "[24] التي كان يسعى لها المستعر لتشتيت القبائل المتحالفة من جهة و من جهة أخرى القضاء على المقاومة الجبلية و إخضاع القبائل الرافضة للاستعمار.

إن القبائل التي كانت تقف في وجه المستعمر ولم تتمكن جيوشه اختراق حدود القبائل وتصفية المقاومين، كان عمل سلطات الحماية يقوم بتلغيم القبيلة المزمع إخضاعها " يبدأ الأمر بالحصار الذي يقطع المرور بين السهل والجبل حارما بذلك القبيلة من تمويناتها الأساسية، بعد ذلك تصبح نضالات القبيلة وباقي الجبل بأسواقها الموسمية مشلولة كذلك من جراء القصف الموجه انطلاقا من المركز أو عن طريق الطيران، فتتعرض جميع وسائل عيشها للتدمير الواحدة بعد الأخرى .... بينما تمنع المدفعية على قطعانها ارتيادها المراعي ومركز الماء .... فبين مرتفعاتها المكسوة بالثلوج وقوة المدافع، كانت القبيلة التي تعاني من الجوع والعزلة والانشقاق الداخلي تستنزف مقومات عيشها وقد تستسلم ذات يوم"[25] .

والجدير بالإشارة أن السلطات الاستعمارية تمادت في أفعالها ضد القبائل وقصفت منابع عيش القبائل ودمرتها بالكامل، حيث اضطرت قوات الاحتلال – لفرض الاستسلام على القبائل- حسب صاحب كتاب المغرب " إلى اللجوء الى الطيران و إلى القصف المكثف للقرى وقطعان الماشية ومصادر المياه لإخماد المقاومة في بعض الجهات كتافيلالت والريف[26]" .

خلاصة:

إن فشل المقاومة في مختلف القبائل المغربية لم يرجع إلى التفوق التقني والعسكري للسلطات الفرنسية و الاسبانية فقط بل يعود كذلك إلى الأساليب العديدة التي وجدت فيها سلطات الحماية الفرصة المناسبة والناجعة لفرض سيطرتها على القبائل المتحاربة بعد أن تحولت إلى أسطورة محلية مؤقتة وكملحمة وطنية سجلت اسمها في الذاكرة المغربية، وكان لجوء الاستعمار إلى هذه الوسائل شهادة حقيقية عن فشل الخطط الاستعمارية وتفوق المقاومة المحلية في جوانب متعددة، وقد استفادة الأنظمة العربية من هذه الأساليب وصارت روح أنظمتها السياسية لإخضاع مجتمعاتها.

الهوامش

[1] : أنظر بهذا الخصوص:

ندوة **المقاومة المغربية ضد الإستعمار1904 – 1955، الجدور والتجليات**، أعمال الندوة العلمية 13 – 14 – 15- نونبر 1991، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير، الرباط. 1997، 469 ص.

[2] : قبلي محمد ، (اشراف وتقديم)، **تاريخ المغرب: تحيين تركيب**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011، ص 534- 538. وهي نفس الإشارة التي أوردها المختار السوسي، **المعسول**، الجزء الرابع، ص. 148.

[3] : الجدير بالإشارة هنا أن المقيم العام اليوطي وبعد نجاحه من اتمام سيطرته على المغرب ، تم ترقيته من طرف فرنسا إلى درجة المارشال ليست لأنه تمكن من القضاء على المقاومة بل لأنه كذلك تمكن من ضبط البلاد بفعل هذه الجرائم بأقل تكلفة مادية.

[4] : فرنسا تشجع البغاء والرقيق الأبيض بشمال إفريقيا، **جريدة الأمة**، ليوم الإثنين 14 فبراير 1955، السنة الرابعة، العدد 453، ص.2.

[5] : بن الحسن محمد ، **جوانب مغمورة من المقاومة المسلحة في جبال الأطلس**، معركة تافا- ايشعان و البقريت 1920 – 1921، تاريخ المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في المنطقة الوسطى الجنوبية 1908 – 1955، منشورات المندوبية السامية للمقاومة وأعضاء جيش التحرير، الطبعة 2، دارأبي رقراق للطباعة والنشر ، الرباط، 2011. ص . 51 -52.

[6] : **نفسه**. ص. 54.

[7] : **نفسه**. ص. 14.

[8] : **نفسه**، ص. 107.

[9] : **نفسه**، ص. 54.

[10] : **نفسه**، ص. 106.

[11]: إبيرجي فرنسوا، **موحى أوحمو الزياني 1877 – 1921**، ترجمة وتعليق محمد بوستة، مطبعة انفوبرانت، الطبعة الاولى، فاس، 1999. ص. 86. وللمزيد أنظر:

- أعمال ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية (1956 – 1912) شعبة التاريخ، جامعة القاضي عياض مراكش، والمنظمة في قلعة السراغنة يومي 27 – 28 يناير 2000.

[12] : الفاسي علال، **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ص. 116.

[13] : الفاسي علال، **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**، **م.س**، ص. 120.

[14]: بن لحسن محمد ، **معركة لهري 13 نونبر1914**، **م.س**، ص. 69.

أنظر أيضا: المنصوري أحمد، **كبار العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر**، مخطوط الخزانة العامة، تحقيق محمد بن لحسن، رقم 946.

[15] : بن لحسن محمد ، **معركة لهري 13 نونبر1914**، **م.س**، ص. 88.

[16] : **نفسه**، ص. 89.

[17] : الفاسي علال، **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**، **م.س**، ص. 125.

[18] : **نفسه**.

[19] : بن لحسن محمد ، **معركة لهري 13 نونبر1914** ، **م.س**، ص. 92.

[20] : الفاسي علال، **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**، **م.س**، ص. 114.

[21] : قبلي محمد، (اشراف وتقديم)، **تاريخ المغرب: تحيين تركيب**، **م.س**، ص. 538.

[22] : **نفسه**، ص. 534.

[23] : عياش جرمان، **أصول حرب الريف**، ترجمة محمد أمين بزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق، الشركة المغربية المتحدة، الرباط، 1992، ص. 61.

[24] : عياش جرمان، **أصول حرب الريف**، **م.س**، ص. 61.

[25] : **نفسه**، ص. 62.

[26] : قبلي محمد ، (اشراف وتقديم)، **تاريخ المغرب: تحيين تركيب**، **م.س**، ص. 534.

الكاتب: أنس بوسلام
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة الحسن الثاني – الدار البيضاء – المغرب

عنوان المقال: إمبراطورية غانا: دراسة في التاريخ السياسي وبنية الحكم والتنظيمات.

البريد الالكتروني: barisani009@gmail.com

إمبراطورية غانا: دراسة في التاريخ السياسي وبنية الحكم والتنظيمات

The Empire of Ghana: A Study of Political History, Governance Structure, and Organizations

تاريخ الارسال: 2019/08/25 تاريخ القبول: 2019/11/15 تاريخ النشر:2019/12/31

التلخيص

يستهدف المقال رصد التاريخ السياسي لإمبراطورية غانا بدءا بالتأسيس، فعوامل قيام الإمبراطورية، سواء الطبيعية أو الاقتصادية أو الدينية، ثم استعراض مراحل حكمها بدءا بمرحلة حكم البيضان وانتهاء بمرحلة حكم السوننك، مع تسليط الضوء على عاصمة هذه الإمبراطورية، وتحديد هياكل الدولة، سواء من حيث طبيعة النظام السياسي أو التقسيم الإداري أو تقاليد الحكم أو الجيش والشرطة، وأخيرا الختم بالحديث عن ملابسات انهيار هذه الدولة.

يرمي البحث إلى إماطة اللثام عن جانب مهم من تاريخ افريقيا، وهو التاريخ السياسي لافريقيا الغربية وتحديدا امبراطورية غانا، والتي مازال العديد من جوانب تاريخها غامضا، ويطرح العديد من علامات الاستفهام، التي تقتضي البحث والدراسة.

تم الاستناد في البحث على المنهج التاريخي المرتكز على مجموعة من المقومات الأساسية ومن بينها التعريف والتفسير والنقد والتركيب، إضافة إلى الانفتاح على الإسطغرافيا التاريخية المتعلقة بالموضوع.

الكلمات المفتاحية: امبراطورية غانا – تاريخ افريقيا – بلاد السودان الغربي – افريقيا الغربية.

Abstract :

The article aims to monitor the political history of the Empire Ghana, starting with the founding, the factors of the establishment of the empire, whether

natural, economic or religious, and then review the stages of its rule from the period of the rule of bayan to the era of Sonink, highlighting the capital of this empire, and determine the structure of the state in terms of nature The political system, the administrative division, the traditions of governance, the army and the police, and finally the seal of the circumstances of the collapse of this state.

The research aims to reveal an important aspect of the history of Africa, the political history of West Africa, in particular the Empire of Ghana, wich many aspects of its history is still vague, and poses many question marks, which require research and study.

The research was based on the historical methodology based on a set of basic elements, including definition, interpretation, criticism and composition, in addition to openness to the historiography related to the subject.

key words : Empire of Ghana - History of Africa – Western Sudan – West Africa

مقدمة:

تعد مملكة غانا أول مملكة نشأت بإفريقيا السوداء خلال العصر الوسيط، ومحاولة الوقوف على تعريف غانا تمكننا - ولو إلى حد ما - من خصائص هذه القوة السياسية التي شهدتها بلاد السودان الغربي، ويبدو أن هناك آراء مختلفة لتعريف غانا، فاليعقوبي، مثلا، يشير إلى مملكة غانا بقوله: "وملكها عظيم الشأن وفي بلاده معادن الذهب وتحت يده عدة ملوك"[1]، أما الشريف الإدريسي، فقد عرفها بأنها "مدينتان على ضفتي البحر الحلو، وهي أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا، وإليه يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة، ومن سائر بلاد المغرب الأقصى، وأهلها مسلمون وملكها من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب"[2]، و ابن خلدون يعتبر "غانية مدينتان من أعظم مدائن العالم وأكثرها معتمرا"[3].

هذا بخصوص تعريف غانا، أما عن موقعها، فالإدريسي يحدده كالآتي: "وأرض غانة تتصل من غربها ببلاد "مقزارة" ومن شرقها ببلاد "ونقارة" وبشمالها بالصحراء المتصلة التي بين أرض السودان وأرض البربر وتتصل بجنوبها بأرض الكفار اللملمية وغيرها"[4]، وكانت دولة غانا خلال فترة أوجها وعظمتها تشمل الأرض الممتدة في الوقت الحالي جنوب موريتانيا وجزء

من مالي وشرق السنغال، أما ما تعنيه كلمة غانا لدى المصادر المهتمة بالسودان العربي، فيؤكد البكري أن الاسم متخذ من اسم ملك من ملوكها كان اسمه غانا، وقد كان لهذا الملك شأن عظيم ودور كبير في تلك المنطقة، ولذلك سميت المنطقة التي سيطر عليها وبسط نفوذه عليها وغانا سمة لملوكهم واسم البلد أوكار[5]، أما فيما يخص الدراسات الحديثة، فترى بأن اسم الإمبراطورية لم يطلقه السكان المحليون، بل العنصر العربي هو المسؤول عن أصل هذه التسمية[6].

I- تأسيس إمبراطورية غانا : الموقع وإشكالية النشأة:

باستطلاع ومقارنة المعطيات التي توفرها المصادر العربية، استطاع الباحثون تحديد الإطار الجغرافي العام لمنطقة أوكار التي تقوم عليها مملكة غانة، وقد تم توطينها فيما بين روافد نهر السنغال غربا وروافد نهر النيجر شرقا، وعلى حدودها الشمالية كانت تتحرك القبائل البربرية الصحراوية، وفي الفترة التي بلغت فيها مملكة غانة أوج قوتها (القرن 5هـ/ 11م)، تمكنت من بسط نفوذها جنوبا، غير أنها لم تصل إلى مقدمة الغابات الاستوائية.

إن أغلب الروايات التي يستدل بها عن أصل غانا تشير إلى أن بداية نشأتها كانت مع الجنس الأبيض، وفيما يتعلق بالتحديد الزمني لقيام هذه الإمبراطورية، فقد تضاربت الآراء في ذلك، فبوفيل E.W.Bovill يرى أن مملكة غانا القديمة قد وجدت قبل الهجرة، وأنه قد حكمها اثنان وعشرون ملكا قبل التاريخ واثنان وعشرون ملكا بعد ذلك التاريخ وكلهم كانوا من الجنس الأبيض، ومع ذلك، فإن أصلهم لا يعرف على وجه اليقين[7]، في حين أن بارت وديلافوس المتخصصين في التاريخ الإفريقي يتفقان على أن تأسيس هذه الدولة كان عام 300م[8]، أما الباحث المغربي محمد الغربي، فيحدد الفترة التي عمرت خلالها هذه الإمبراطورية، بقوله: "قامت إمبراطورية غانا، وتوسعت خلال ستة قرون من القرن السادس حتى القرن العاشر، وكانت ظاهرة سياسية وحضارية مركزية فريدة في إفريقيا الغربية[9].

وهكذا يظهر من خلال هذه الآراء، مدى الاختلاف الحاصل بين المؤرخين في تحديد زمان قيام هذا الكيان السياسي داخل القارة الإفريقية، ومع ذلك، فيمكن القول أن مملكة غانا قد عمرت طويلا، بيد أن السؤال الذي يطرح نفسه بشدة في هذا الصدد، هو كيف تمكنت مملكة غانا من تحقيق كيان سياسي مستقل؟ وعلى أي أساس استندت في قيامها؟

II- عوامل قيام إمبراطورية غانا :

إن بروز دولة غانا على مسرح الأحداث السياسية في منطقة السودان الغربي، خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين 8 و11م، لم يتم بصورة عشوائية أو عفوية، وإنما تحكمت فيه مجموعة من العوامل: طبيعية واقتصادية ودينية.

1. العوامل الطبيعية :

من خلال إلقاء نظرة خاطفة على خريطة إفريقيا الغربية الطبيعية، يتبين للباحث أن المنطقة أو المجال الذي ظهرت فيه دولة غانا مجال صحراوي يتسم بقلة وهزالة الغطاء النباتي، إن لم نقل انعدامه في بعض الأحيان، إضافة إلى ضعف التساقطات، فبعض الكتاب القدماء أعطوا صورة عن حالة الصحراء في تلك الفترة، مثل هيرودوت، الذي يصف ليبيا بأنها مليئة بالحيوانات البرية، وتليها أرض رملية يندر وجود الماء بها، ولا تمثل شيئا سوء الصحراء[10].

وهذه الظروف الصعبة جعلت الصحراء أقل استقطابا للسكان، ولكن هذا لا يعني أن الصحراء كانت خالية من السكان، "ولكن نسبتهم كانت قليلة تتناسب مع مواردها الهزيلة التي جعلت منهم الصحراء قوما من الرعاة لا يجدون...سوى استخدام التنقل بحثا عن المصادر الشحيحة من الماء والمرعى"[11]، وبذلك كان طبيعيا أن تتعاطى شعوب وأقوام هذه المنطقة للنشاط الرعوي، وأحيانا ممارسة الزراعة التي انحصرت في بعض الواحات، ومادام هؤلاء الرعاة يعتمدون على التنقل، فقد كان لزاما عليهم أن يدخلوا في صراعات ومواجهات مع الأقوام المجاورة لهم خاصة عندما تزداد حدة الجفاف ويقل الكلأ للماشية، "وبالذات عندما لا تكون هناك مراعي كافية وتجف الآبار، فإن ما كانت تدفع به الصحراء من هجرات موسمية معتادة تحول إلى نمط آخر مختلف في الحجم وفي التوقيت، ويتعارض مع مصالح الجيران، مما يخلق نواة للمشاكل وعدم الاستقرار، فما كان هجرة موسمية يصبح، والحالة هكذا، نوعا من الغزو والنهب الذي لا يلبث أن يتحول إلى نوع من الاحتلال يعطي الراعي حق التسلط على المزارع الضعيف[12]، وخلال استطلاعنا لمجموعة من الدراسات التي تطرقت لعوامل قيام دولة غانا، يتضح أنها ركزت أساسا على العوامل الاقتصادية متناسية دور العوامل الطبيعية، فبالرجوع إلى الكتابات الأوربية - مثلا - نجدها تتحدث عن الصحراء كحاجز معيق ينفي الاتصالات التي تمت ما بين الشمال والجنوب، كما ينفي وجود حضارات بهذه المنطقة، فهذه الظروف الطبيعية القاسية هي التي ستفرز دولة غانا ككيان سياسي قائم بذاته، ذلك أن الصحراء لم تكن أبدا حاجزا أو قطرا مجدبا من الحياة.

ومهما يكن من أمر، وبالرغم من سلبية الظروف الطبيعية، فإن الإنسان الإفريقي حاول أن يتكيف معها معتمدا على إمكانياته الذاتية، وهو ما يتفق مع ما ذهب إليه عالم الحضارات أرنولد توينبي A.J.Tymbee ، الذي يرى بأن الحضارات تظهر في البيئة التي تتسم بالمشقة والصعوبة، إذ كلما عظم التحدي اشتد الحافز، إضافة إلى ذلك، فقد استفادت دولة غانا لمدة طويلة من الموقع الجغرافي الذي سمح لها بأن تلعب دور الوساطة في العلاقات التجارية خلال الفترة الوسيطية ما بين شمال البحر المتوسط ومنابع الذهب في الجنوب.

2. العامل الاقتصادي

لقد شكل العامل الاقتصادي أبرز ركيزة استندت إليها دولة غانا في إثبات وجودها، وتتمثل أهمية هذا العامل في توفر دولة غانا على أهم مصدر من مصادر الثروة، ألا وهو معدن الذهب، ذلك " أن ثروة غانا تعتمد على الإتجار بالذهب الذي كان على جانب كبير من الوفرة"[13]، فتوفر دولة غانا على هذا المعدن النفيس قد بوأها مكانة هامة في العلاقات التجارية خلال العصر الوسيط، "ولا يخفى على الدارس مدى أهمية معدن الذهب في تنشيط العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين المغرب والسودان الغربي، أضف إلى ذلك أن جميع الروايات تحدثت عن جودة ذهب غانا اعتبرت ذهب غانا أجود الذهب"[14]، وكل هذا أعطى لدولة غانا دفعة جديدة وأكسبها مجدا، فأصبحت الاسم الشامل لكل غرب إفريقيا، بل إن هناك من تلقب باسمها تيمنا بأمجادها وثروتها السالفة الذكر، وقد اعتبر معدن الذهب خلال الفترة الوسيطية من أهم أسباب الثروة والجاه، حيث ساهم هذا المعدن الأصفر بشكل مكثف في تنمية موارد الدولة، "وفي الفترة الموازية للعصر الإدريسي بلغت غانا حدا من الترف بسبب مواردها من تجارة الذهب"[15].

فإذا كان معدن الذهب – مثلا - قد ساهم في تحقيق الازدهار والرخاء الاقتصاديين لدولة غانا، فإنه طالما جلب لها العديد من الويلات، فالحروب التي دارت مثلا بين الغانيين والملثمين من جهة وبين الغانيين والعرب من جهة أخرى، اعتبرها الدارسون حروبا تجارية وليست حروبا دينية، "وربما كانت تجارة الذهب مع غانا، قد استقرت بعد مجيء العرب إلى حد أن حاستهم التجارية الحادة عملت كثيرا على تطويرها، ولا يمكن الشك فيها أكثر مما تستطيعه الرغبة التجارية القوية الكامنة في صدورهم"[16].

كما أن حملة أحمد المنصور على بلاد السودان كانت لتحقيق أهداف اقتصادية صرفة، وذلك ما ذهب إليه شارل أندري جوليان بقوله: "إن المنصور في حاجة إلى المال"،[17]، وإلى

جانب هذا، لم تقتصر تجارة غانا الخارجية على الذهب فقط، بل استفادت كذلك من تجارة الرقيق، "وقد اشتهر "كومبي" بسوق الرقيق فيها، وقد حصلت غانا على رقيقها من قبائل آكلي لحوم البشر، الذين كان العرب يعرفونهم، لملم أو ذمذم"[18].

3. العامل الديني :

حينما نتحدث عن دور العامل الديني في قيام دولة غانا، فإنه لا يسعنا إنكار دور التجار المسلمين الذين كان أغلبهم علماء يزاوجون بين مهمة التجارة ونشر الإسلام، فعن طريق سلوكهم الشخصي القويم وأمانتهم استطاعوا أن يتعايشوا مع الأهالي وأن يؤثروا فيهم، إضافة إلى اعتناق الإسلام من طرف ملوك غانا ودوره في ازدهار الإمبراطورية، حيث ساهم الإسلام في تجنب المواجهات العسكرية بين المسلمين والغانيين، فانتشار الإسلام في هذه البقاع أتاح ربط علاقات تجارية وثقافية مع البلدان الإسلامية، ذلك أن إسلام ملوك غانا كان له دور كبير في استقرار التجار العرب والبربر بغانا.

فجل المؤلفات الجغرافية أشارت إلى أن المسلمين أصبحت لهم مدينة خاصة في غانا، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على التعايش والتسامح الذي ساد بين المسلمين والغانيين، وبالتالي، فانتشار الإسلام أدى إلى إشاعة قيم ونظم جديدة، كما أن الحماس الديني الذي تميز به الدعاة سيؤدي إلى تغيير العقليات والسلوكات وتصحيح مجموعة من الأفكار التي تهم الخلافة والإدارة، فالإسلام يعد روح الحياة والإنجازات الفكرية والحضارية، ولا يخفى علينا ما حققه الفاتحون المسلمون من أعمال جليلة في البلدان التي حلوا بها، "فقد كان بمدينة من بلاد السودان مما يلي البحر المحيط ملك بني صالح، وقال بعض المؤرخين أنه صالح بن عبد الله بن موسى، وأنه خرج أيام المأمون ولحق بنوه بالمغرب، فكان لهم ملك في غانا"[19].

غير أن هناك من يخالف هذا الرأي، ويوضح أن اعتماد غانا على الدين الإسلامي كان ضعيفا، فالأستاذ محمد الغربي – مثلا - لا يوافق بعض المؤرخين الذين يذهبون إلى حد القول بأن الفكرة الإسلامية كانت هي العامل القوي في بناء إمبراطورية غانا أو بناء الإمبراطورية المغربية للسودان، لأن ارتكاز غانا على العنصر الديني كان ضعيفا جدا بدليل تصديها للمرابطين الذين أرادوا حمل الزنوج بالقوة على اعتناق الإسلام[20].

لكن اختلاف الرؤى هذا، لا يقف حاجزا أمام قولنا أن الحملات الدينية قد لعبت دور المنبه، فأيقظت بذلك الإنسان الغاني من سباته، لينضم إلى مد الحضارة والتقدم ولاسيما بعدما غيرت مسارها وأصبح هدفها استقطاب الطرق التجارية والذهب أكثر من نشرها للإسلام،

فكل الحملات التي تلت عقبة بن نافع الفهري، والتي كانت تنطلق من المغرب الأقصى لم تعد تولي أهمية للعنصر الديني، بل اتخذته كذريعة للوصول إلى أهدافها الخاصة.

صفوة القول، فإن الرواج التجاري الذي اعتبر الذهب والعبيد قطبي قاعدته واعتناق الأمراء السود للإسلام والاحتكاك البشري، كل ذلك كان مسؤولا عن قيام إمبراطورية غانا.

III- مراحل الحكم في غانا:

1. مرحلة حكم البيضان :

أكد مجموعة من المؤرخين أن من حكم غانا كان من البيض المهاجرين من شمال افريقيا ومن برقة بليبيا تحديدا وذلك حوالي القرن الأول الميلادي، وانتهى بها المقام في منطقة أوكار وسط مجموعة من القبائل الزنجية وأغلب هؤلاء من السوننك، ثم أصبحت ذات بأس وشوكة بدءا من القرن الرابع الميلادي، وعن طبيعة وأصل أول من حكم غانا يقول عبد الرحمان السعدي صاحب تاريخ السودان: "وهم بيضان في الأصل"[21]، غير أن ظل الشك يظل قائما حول أصولهم الغامضة: هل هم يهود أم عرب مغاربة؟

ومن جهة أخرى، نجد عبد الرحمان السعدي قد رجح أنهم من العرب المغاربة الذين اختلطوا بالزنوج وصلة العرب المغاربة بقبائل السودان قديمة، وأكد أن أهل غانا أنفسهم يقولون إن أسرة عربية مغربية كانت تحكم بلادهم منذ زمن بعيد، كما سجل أن أول سلطان لها هو "قيمع" ومكان إمارته غانا، وهي مدينة عظيمة في أرض "باغن"، قيل أن حكمهم كان قبل البعثة النبوية[22].

وأطلق محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش على ملكهم "كيمع"، ويقصد في لغة "وعكري" ملك الذهب، وهو من أوائل الملوك الذين حكموا غانا، وقد مات منهم عشرون ملكا قبل ظهور الدعوة المحمدية، وتعرف مدينتهم باسم "قنب" وقد زالت دولتهم في القرن الأول الهجري، وكان آخر ملوكهم هو شخص يدعى "كنسعي"، وكان معاصرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم[23].

وفي السياق ذاته، ينقل الباحث الهادي المبروك الدالي رواية لأحمد بن بابير الأرواني صاحب "الجواهر الحسان في أخبار السودان" يقول فيها: "أما مالي، فإقليم كبير واسع جدا في المغرب، وقيمع هو الذي بدأ السلطنة في تلك الجهة، ودار إمارته غانة، وهي مدينة عظيمة في أرض "باغن"، قيل إن سلطانهم كان قبل البعثة، فتملك، حينئذ اثنان وعشرون ملكا،

وهم بيضان في الأصل، ولكن لا نعلم من ينتمي إليه في الأصل، وعندما انتهت مدتهم، وانقرضت دولتهم، خلفهم في السلطة أهل مالي"[24].
ومن خلال هذه الروايات لكل من السعدي والأرواني، يميل الدالي إلى القول بأن حكام غانا من البيضان، قدموا من الشمال الإفريقي، وبالتحديد من برقة بليبيا، ويعلل ذلك بعدة أسباب[25].

2. مرحلة حكم السوننك :

استطاعت أسرة من السوننك نهاية القرن الثامن الميلادي، وهي أسرة "سيسي" طرد أسرة البيض الحاكمة أو دولة كيمع أو قيمع، وكانت هذه الأسرة الجديدة تتحكم في منطقة "وجادوا"[26]، وصور صاحب "تاريخ الفتاش" نهاية حكم البيضان بقوله: "ثم أفتى الله ملكهم وسلط أراذلهم على كبرائهم من قومهم واستئصالهم وقتلوا جميع أولاد ملوكهم، حتى يبقروا بطون نسائهم ويخرجون الأجنة ويقتلونهم"[27]، وقد تمكن السوننك خلال فترة حكمهم من الاستيلاء على مناطق هامة، من ضمنها أودغشت سنة 990م، واتخذوها عاصمة لهم كما سيطروا على "ولاتة أو "ولاتا" و"أبنار" و"كوغة" و"الوكن" و"سامة"[28].

وصلت غانا قمة اتساعها خلال القرن العاشر إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي نفوذها إلى الشمال، وخضعت لها رقاب جل قبائل الصحراء الجنوبية من العرب إلى أعالي السنغال وحدود مملكة التكاررة، ومن الشرق إلى قرب تنبكتو[29]، ولما كانت قبيلة السوننك هي مؤسسة امبراطورية غانا، وأن الملكية في بعض عشائرها، امتازت هذه العشيرة عن غيرها من عناصر سكان غانا، فكان منها أغلب جيش الامبراطورية وكثير من كبار أعوان الملك[30].

IV- عاصمة غانا

لقد كان أول مشكل استلزم حله من طرف الدارسين والباحثين في تاريخ غرب افريقيا، هو مسألة عاصمة غانا الشهيرة، إذ نعلم من خلال البكري أن لفظ غانا لقب حمله الملوك واسم لعاصمة، غير أن علماء الآثار الفرنسيين أثبتوا، بشكل لا يرقى إليه الشك، أن الأطلال الواسعة على بعد 500 كيلومتر تقريبا في الجنوب الغربي من مدينة تنبكتو، تبين موقع عاصمة غانا القديمة وهي مدينة "كومبي صالح"، ويرجع تأسيسها إلى عهد حكم البيض الأول، ويقال إنها بنيت عام 300م، وظلت تنمو تدريجيا[31]، وقد ترك لنا البكري بعض الأخبار عن عاصمة غانا استقاها من تجار البربر، منها أنها كانت تتألف من مدينتين منفصلتين تبعد

الواحدة عن الأخرى قرابة ستة كيلومترات إحداهما كانت مخصصة للمسلمين، وكانت تشمل على نحو اثني عشر مسجدا يجتمع فيها الفقهاء البارزون، والبلدة الثانية التي تعرف بالغابة كانت وثنية، وإلى جانب ذلك كانت كومبي قبلة للتجار المسلمين، إذ يشير الإدريسي إلى أن العاصمة كومبي "كانت أكبر أسواق السودان، حيث اعتاد التجار من جميع أنحاء المغرب أن يتجمعوا فيها وكانت مصدر ثروة غانا"[32]، وقد نالت مجدها التاريخي والاقتصادي والحضاري بفضل موقعها الاستراتيجي الهام، وذلك ما عبر عنه الباحث المغربي مصطفى ناعمي بقوله: "وامتاز هذا الموقع بقربه من مناجم الذهب، وبتوسطه لمنطقة اقتصادية بالغة الحيوية تراقب مختلف المسالك المائية والبرية القريبة من الصحراء"[33].

V- هياكل الدولة

1. النظام السياسي ووراثة العرش :

تميز نظام الحكم السائد في غانا بكونه نظاما ملكيا استبداديا كباقي أنظمة الحكم في باقي مماليك السودان الغربي في عصرها الوثني والإسلامي كذلك، وهذا ما تتفق عليه مختلف المصادر والدراسات المعاصرة.

وتتمثل آلية وراثة العرش في إمبراطورية غانا في توريث الحكم لإبن الأخت، وذلك ما نفهمه من قول البكري: "وسنتهم أن الملك لا يكون إلا في ابن الأخت، لأنه لا يشك فيه، أنه ابن أخته، وهو يشك في ابنه"[34]، وقوله : أيضا : "ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره، وغير ولي عهده وهو ابن أخته"[35]، ويبرر البكري هذه الآلية باعتبار أن المولود ابن أمه وهو أمر مقطوع بصحته خلافا لابن الأب، وهو أمر مشكوك فيه، كما يفسر الباحث الهادي المبروك الدالي هذا الأمر بالتقاليد الوثنية القديمة، التي ترفع من شأن المرأة عند أغلب القبائل الإفريقية الوثنية[36].

وانطلاقا من نهاية القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، أي زمن انتشار الإسلام بشكل قوي في منطقة السودان الغربي، زالت آلية توريث العرش المذكورة سلفا، وبالمقابل أصبح الملك يورث للإبن.

وكان ملك غانا يبث في مختلف شؤون الإمبراطورية مهما كانت صحته ومقدرته ولياقته، وقد أورد البكري خبرا عن الملك "بسي"، الذي أورث عرشه لإبن أخته مفاده أنه ولي العرش، وهو ابن 58 سنة، وأن بصره قد كف في أواخر أيامه، غير أنه كتم ذلك عن أهل

مملكته ويوهمهم أنه يبصر، فتوضع بين يديه أمور الحكم والسياسة، فيقول: هذا أحسن وهذا قبيح، وكان وزراؤه يلبسون ذلك على الناس"[37].

2. التقسيم الإداري في إمبراطورية غانا :

تم تقسيم الإمبراطورية إلى ولايات أو ممالك، وكان لكل ولاية أو مملكة حاكم أو وال يدير شؤونها، ومن أبرز الولايات، نذكر "أودغشت" و"أوكار" وهي في الوسط وممالك عرب المغاربة في الشمال، و"ديارا" و"تاكانت" و"باسيكورو" في الشرق، و"واجاو" و"كانياجا" و"باغن" في الجنوب والجنوب الشرقي.

قام نظام الحكم في هذه الولايات على أساس المركزية، اللهم في بعض الولايات التي ظل الحكم فيها وراثيا في عائلات محددة، ولم تكن محاولات الإنفصال عن السلطة المركزية في كومبي صالح لتحدث إلا إذا شعرت هذه الولايات أو إحداها بقوتها أو ضعف المركز، ولنا في ما حدث بعد دخول المرابطين "كومبي صالح" عام 469هـ/1076م خير مثال على هذا، حيث انفصلت كل من "ديارا" و"كانياجا" و و"جالام"، وبالمقابل اقتصر حكم السلطة المركزية على مناطق بعينها مثل "أوكار"وباسيكورو"، ومثلث "كومبي صالح" مقر موظفي الملك ومستشاريه من المسلمين هؤلاء الذين شكلوا النخبة المثقفة آنذاك، حتى في العصر الوثني بغانا، وينطبق هذا على المسلمين من الوطنيين السوننك، وعلى من هاجر من العرب والبربر واستقر في غانا وولايتها[38]، وتأكيدا على أهمية هذه النخبة أو الفئة، يقول البكري: "وتراجمة الملك من المسلمين، وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه"[39].

3. تقاليد الحكم في إمبراطورية غانا :

تعتبر المجالس التي يعقدها الملك للبت بنفسه في الشكاوي وأمور الحكم في العاصمة "كومبي صالح" من أبرز تقاليد الحكم في الإمبراطورية، سواء في العصر الوثني أو في العصر الإسلامي والتأثير الشرقي واضح فيها، والبكري يصف هيئة جلوس الملك في هذه المجالس بقوله: "وهو- أبي ملك غانا الوثني- يجلس للناس والمظالم في قبة، وحوله عشرة أفراس بثياب مذهبة ووراءه عشرة من الغلمان، يحملون الحجف (أي الدروع) والسيوف المحلاة بالذهب، وعن يمينه أولاد ملوك بلده (أي ملوك الولايات الخاضعة له)، قد ضفروا رؤوسهم على الذهب وعليهم الثياب الرفيعة ووالي المدينة (أي حاكم العاصمة) بين يدي الملك جالس على الأرض، وحواليه الوزراء جلوسا على الأرض، وعلى باب القبة كلاب منسوبة (أي أصلية) لا تكاد تفارق موضع الملك تحرسه، في أعناقها سواجير (أطواق) الذهب

والفضة، يكون في الساجور عدد رمانات ذهب وفضة وهم ينذرون بجلوسه بطبل يقال له "دبا" (تعني الطبل عند السوننك)، وهو خشبة طويلة منقورة، فيجتمع الناس"[40].

ويضيف البكري، أنه إذا ما تناهى صوت الطبل إلى أسماع الناس هرعوا إلى قبة الملك، "فإذا دنا أهل دينه منه، جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم، فتلك تحيتهم له، وأما المسلمون، فإنما سلامهم عليه تصفيقا باليدين"[41].

أما عن هيأة ركوب الملك المسلم للبث في الظالم، فيصف ذلك الإدريسي بقوله: "أعدل الناس فيما يحكى عنه ومن سيرته قربه من الناس وعدله فيهم، له جملة قادة يركبون إلى قصره كل يوم، ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه، فإذا اجتمعت إليه جميع قادته ركب وسار يقدمهم ويمشي في أزقة المدينة ودائر البلد، فمن كانت له مظلمة أو نابه أمر تصدى له، فلا يزال حاضرا بين يديه حتى يقضي مظلمته، ثم يرجع إلى قصره، ويتفرق قادته، فإذا كان بعد العصر، وسكن حر الشمس، ركب مرة ثانية، وخرج وحوله أجناده فلا يقدر أحد على قربه، ولا على الوصول إليه، وركوبه في كل يوم سيرة معلومة"[42]، ويقصد الإدريسي بهذا الوصف ملكا حكم خلال القرن الثاني عشر الميلادي، إذ وصف قصره، والذي بني عام 510هـ/ 1116م.

ومن خلال هذه الروايات حول تقاليد الحكم في غانا، يمكن الخروج بالخلاصات التالية:

أ – كان لملوك غانا مكان مخصص للنظر في المظالم، وهي قبة السلطان، والقبة توحي أن الطرز المعمارية في غانا طرز إسلامية.

ب – العادات والطقوس الملوكية بالقصر، مثل عادة ضرب الطبل لغرض التجمع، مستمدة من الشمال الإفريقي.

ج – الطريقة التي كان يحيى بها أبناء المملكة ملكهم تعبر عن الإذلال والخضوع.

د – احترام ملوك غانا للمسلمين.

هـ – التنظيم الإداري الذي كانت عليه الإمبراطورية نظام الوزارات.

و – عدل ملوك غانا ونزولهم إلى شوارع المدينة للفصل في المنازعات، دليل على تأثرهم بنظم الحكم الإسلامي وعلى تغلغل الإسلام في نفوسهم، وإن لم يعتنقوه.

4. الجيش والشرطة:

عرفت إمبراطورية غانا بقوة جيشها وكثرة أعداده وعدته، وفي هذا الشأن يقول ابن الوردي: "ولها (أي غانا) ملك ضخم في جنود وعَدد وعُدد"[43]، أما عن بنيته، فيتألف من القبيلة التي

تنتسب إليها الأسرة المالكة[44]، ويؤكد البكري من جهة أخرى على قوة فرسان هذا الجيش، رغم أن خيول هذا الجيش قصيرة الطول، ذلك أنه إذا احتفل ملك غانا ينتهي جيشه إلى مائتي ألف، منهم رماة أزيد من أربعين ألفا، وخيل غانا قصار جدا"[45]، ومن جهة أخرى يؤكد الباحث المغربي أحمد الشكري، أن تقدير عدد الجند هذا مبالغ فيه، وبالمقابل يرى أن هذه القوة العسكرية كانت كافية لاستيفاء الغرض منها خاصة في العاصمة والمراكز التجارية والطرق الرابطة بينهما، والمحطة الجنوبية (غيارو) التي كانت تستقبل الذهب، أما المناطق الهامشية أو القليلة الأهمية اقتصاديا، فلم تكن تهم ملك غانا بنفس القدر، ويستدل الباحث نفسه على طرحه المذكور بالسياسة العسكرية لمملكة غانا، وهي في عز أوجها، إذ في الوقت الذي نجدها تسيطر على أودغشت (بعد سنة 360هـ/971م) في الشمال وعلى بعض مناجم الذهب في الجنوب، في نفس الوقت، نلاحظ عدم التفاتها للعمليات الجهادية التي كانت تقوم بها مدينة "سلي" المسلمة على الحدود الغربية[46]، وفيما يخص أسلحة هذا الجيش، فكانت حديدية ومتفوقة تقنيا على أسلحة الدول المجاورة، ومن تلك الأسلحة السيوف والرماح والخناجر والسهام، في حين حاربت الدول المجاورة بقضبان الأبنوس[47].

أما جهاز الشرطة، فكانت مهمته الحفاظ على الأمن الداخلي العام، ويذكر الباحث الهادي المبروك الدالي، أن التعذيب هو الوسيلة التي كانت متاحة في استخلاص المعلومات من المجرمين، والذي يقوم على هذا الجهاز يعرف بالأمين[48].

يتضح، إذن، أن إمبراطورية غانا كانت تعرف تنظيما سياسيا وإداريا محكما، وهو ما ضمن لها الاستمرارية والبقاء عدة قرون من الزمن.

VI- انهيار إمبراطورية غانا:

لقد كان انهيار هذه الإمبراطورية نتيجة تراكم مجموعة من العوامل، بشكل تدريجي زمنيا، أولاها الجفاف الذي حل بالمناطق الممتدة شمال حوض السنغال بدء من القرن العاشر الميلادي مما حمل الناس على الهجرة والتفرق[49]، وثانيها حملات المرابطين على المنطقة أواسط القرن 11م، غير أن هذا العام لم يسقط هذا الكيان السياسي بشكل نهائي، وإنما حول نظامه إلى الإسلام، وبالتالي، فقد كان فتحا أكثر منه غزوا، لكن الأهم من هذا، هو تداعيات هذا الغزو أو الفتح على اختلاف التوصيفات، هذه التداعيات تمثلت في خروج مجموعة من الممالك الخاضعة للإمبراطورية وإعلان استقلالها، بحيث لم تعد سلطة ملوك غانا المسلمين قائمة إلا في "كالر" و"باسيكورو" و"ديارا"، وفي مطلع القرن الثالث عشر جاءت

الضربة القاصمة لهذه الإمبراطورية، حيث استولى أقوى أباطرة "الصوصو"[50]، وهو "سومانجور" وعلى العاصمة "كومبي صالح" سنة 1203م، وهكذا أنهى الصوصو سيادة الملوك الغانيين المسلمين، غير أن العاصمة "كومبي صالح" ظلت محافظة على معمارها ومرافقها ودورها إلى أن قام أحد أباطرة مالي يدعى "ماري جاطة"[51] بتدمير ما تبقى منها سنة 1240م بعد معركة حاسمة مع إمبراطورية الصوصو سنة 1235م. ضم بعدها جميع ممتلكات هذه الإمبراطورية وبتدمير العاصمة "كومبي صالح" تطوى صفحة إمبراطورية غانا بشكل نهائي.

خاتمة:

تأسيسا على ما سلف، نستخلص أن قيام إمبراطورية غانا كان إفرازا لتظافر مجموعة من العوامل: طبيعية واقتصادية ودينية، وليست نتاجا لعامل واحد بذاته كما ذهبت إلى ذلك بعض الدراسات الحديثة، إضافة إلى الغموض الذي مازال يلف زمن تأسيس هذه الإمبراطورية، كما يتضح أن هذه الإمبراطورية قد عرفت مرحلتين من الحكم: أولاهما، سادت فيها عناصر خارجية (البيضان)، وثانيهما، سادت فيها عناصر محلية (السوننك)، وقد تأثرت بالمد الحضاري الإسلامي، وعلى صعيد آخر، شهدت هذه الدولة تنظيما سياسيا وإداريا وعسكريا حاول أن يجد لنفسه معالم الحكم المنظم، وأخيرا، فانهيار هذه الإمبراطورية لم يكن فجائيا وانكساريا، وإنما كان تدريجيا وتراكميا.

[1]- اليعقوبي، أبو العباس أحمد، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، د.ت، المجلد الأول، ص 194.

[2] - الإدريسي الشريف، أبو عبد الله محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الأولى، السنة 1989، الجزء الأول، ص 23.

[3] - ابن خلدون، عبد الرحمان، تاريخ ابن خلدون، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، الجزء السادس، ص 66

[4] - الإدريسي الشريف، المصدر السابق، ص 23.

[5] - البكري أبو عبيد الله، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك، باريس، ميزونوف، 1965، ص 184.

[6] - خاصة تلك التي ألفت انطلاقا من الثمانينات.

[7] - بوفيل .Bvill, E.W، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة د.الهادي أبولقمة ود. محمد عزيز، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، ، الطبعة 2، السنة 1988، ص 39.

[8] - محمود، حسن أحمد، الإسلام والثقافة العربية في افريقيا، القاهرة، دار الفكر العربي، 1986، ص 26

[9] - الغربي، محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1982، ص 30

[10] - انظر تفاصيل أكثر عند هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، مراجعة د.أحمد السقاف ود. حمد بن صراي، أبوظبي، المجمع الثقافي، 2001، الكتاب الرابع، ص 293 - 372

[11] - بوفيل، المرجع السابق، ص 42.

[12] - المرجع نفسه، ص 43.

[13] - المرجع نفسه، ص 150.

[14] - حركات، إبراهيم، طبيعة العلاقات المغربية مع افريقيا الغربية في العصر الوسيط، ضمن كتاب العلاقات بين المغرب وافريقيا الغربية، الرباط، منشورات جمعية موظفي كلية الآداب بالرباط، 1992، ص 34.

[15] - المرجع نفسه، ص 33.

[16] - زاهر، رياض، الممالك الإسلامية في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968، ص 93.

[17] - جوليان، شارل أندري، تاريخ افريقيا الشمالية، الطبعة 4، الجزء 2، ص 264.

[18] - زاهر رياض، المرجع السابق، ص 93.

[19] - ابن خلدون، عبد الرحمان، المرجع السابق، الجزء 4، ص 127.

[20] - الغربي محمد، المرجع السابق، ص .32

[21] - السعدي عبد الرحمان، تاريخ السودان، باريس، نشر هوداس وبنوا، 1964، ص 9.

[22] - المرجع نفسه، ص 9.

[23] - كعت، محمود، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، باريس، ميزونوف، 1984، وقف على طبعه السيدان هوداس ودولافوس، ص 41

[24] - الدالي، الهادي المبروك، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 1999، ص 24.

[25] - المرجع نفسه، ص 25.

[26] - المرجع نفسه، ص 26.

[27] - كعت، محمود، المصدر السابق، ص 42.

[28] - ابن خلدون، عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 26.

[29] - الدالي الهادي المبروك، المرجع السابق، ص 26.

[30] - طرخان، إبراهيم علي، إمبراطورية غانة الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص 63.

[31]- Thomassy, Paul et Mauny, raymand, Compagne de Fouilles à Koumbi salah, bulletin de l'institut française d'Afrique Noire, AXIII 195, N°2, P 438 – 468.

[32] - زاهر رياض، المرجع السابق ، ص 109.

[33] - ناعمي، مصطفى، الصحراء من خلال بلاد تكنة : تاريخ العلاقات التجارية السياسية، الرباط، منشورات عكاظ، 1988، ص 53.

[34] - البكري، المصدر السابق، ص 75.

[35] - المصدر نفسه، ص 75.

[36] - الدالي الهادي المبروك، المرجع السابق، ص 31.

[37] - البكري، المصدر السابق، ص 75.

[38] - بوفيل، المرجع السابق، ص 84.

[39] - البكري، المصدر السابق، ص 175.

[40] - المصدر نفسه، ص 175- 176.

[41] - المصدر نفسه، ص 176

[42] - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، الجزء 1، ص ص 23 – 24.

[43] - ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر، تاريخ ابن الوردي، لندن، نشر S.Hylander، 1823، 158

[44] - قداح، نعيم، افريقيا الغربية في ظل الإسلام، مراجعة عمر الحكم، كوناكري، 1969، ص 37

[45] - البكري، المصدر السابق، ص 177.

[46] - الشكري، أحمد، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1997، ص23.

[47] - بوفيل، المرجع السابق، ص 82.

[48] - الدالي الهادي المبروك، المرجع السابق، ص 35.

[49] - Spitz, Georges, l'Ouest Africain Français, Paris, 1947, P

[50] - الصوصو قبائل وثنية، وهم فرع من الفولانيين، هاجر من بلاد التكرور، ويشكل طبقة حاكمة في ولاية كانياجا التابع لإمبراطورية غانا، حيث داوموا على دفع الجزية للسلطة المركزية لمدة طويلة، وبعد فتح المرابطين لغانا عام 1076، أعلن الصوصو استقلالهم وشرعوا في التوسع حتى انتزعوا ولاية ديارا من غانا في نهاية القرن 12م، ليدخلوا عاصمة إمبراطورية غانا سنة 1203م.

[51] - ماري جاطة ابن الملك الماندجي "ناري فانغان" (1218م-1230م) من أسرة كيتا، وقد قتل سومانجورو" إمبراطور الصوصو أفراد عائلته الإحدى عشر، في حين أنه نجا وهو أصغرهم، وقد تولى أمر إمبراطورية الماندجو بعد مقتل أبيه.

قائمة المصادروالمراجع

I- المصادر:

- البكري، عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك، باريس، ميزونوف، 1965.
- ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد، تاريخ ابن خلدون، بيروت، دار الرشاد الحديثة، 1981، الجزء 4-5.
- السعدي، عبد الرحمان بن عبد الله التنبكي، تاريخ السودان، باريس، نشر هوداس وبنوا، 1964.
- الشريف الإدريسي، محمد بن عبد الله الحسني السبتي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الأولى 1989.
- كعت، محمود، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، باريس، ميزونوف، 1981، وقف على طبعه السيدان هوداس ودولافوس.
- هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، مراجعة د. أحمد السقاف ود. حمد بن صراي، أبوظبي، المجمع الثقافي، 2001
- ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر، تاريخ ابن الوردي، لندن، نشر S.Hylander، 1823
- اليعقوبي، أبو العباس أحمد، تاريخ اليعقوبي، المجلد الأول، صدر عن بيروت، بدون تاريخ.

II-المراجع:

- بوفيل .Bovill, E.W، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة د.الهادي أبولقمة ود. محمد عزيز، بنغازي منشورات جامعة قاريونس ، الطبعة الثانية، 1988.
- جوليان، شارل أندري، تاريخ افريقيا الشمالية، ط 4، ج 2.
- حركات، إبراهيم، طبيعة العلاقات المغربية مع افريقيا الغربية في العصر الوسيط، مجلة العلاقات بين المغرب وافريقيا الغربية، 1992.
- الدالي، الهادي المبروك، التاريخ السياسي والاقتصاد لإفريقيا، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1999.
- زاهر، رياض، الممالك الإسلامية في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968.
- الشكري، أحمد، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة؟)، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1997.
- طرخان، إبراهيم علي، إمبراطورية غانة الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.

- الغربي، محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1982.
- قداح، نعيم، افريقيا الغربية في ظل الإسلام، كوناكري، 1960
- محمود، حسن أحمد، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، القاهرة، دار الفكر العربي، 1986.
- ناعمي، مصطفى، الصحراء من خلال بلاد تكنة: تاريخ العلاقات التجارية السياسية، الرباط، منشورات عكاظ، 1988.

- Spitz, C, l'Ouest Africain Français, Paris, 1947
- Thomassy, Paul et Mauy, raymand, Compagne de Fouilles à Koumbi salah, bulletin de l'institut française d'Afrique Noire, AXIII 195, N°2.

الكاتب: جمال برجي
جامعة قسنطينة 2- عبد الحميد مهري

عنوان المقال: الفكر الاستقلالي في الحركة الوطنية الجزائرية من البداية ولغاية سنة 1951 وردود الفعل الاستعمارية

البريد الالكتروني:bordji13djamel@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/08/30 تاريخ القبول: 2019/11/16 تاريخ النشر:2019/12/31

الفكر الاستقلالي في الحركة الوطنية الجزائرية من البداية ولغاية سنة 1951 وردود الفعل الاستعمارية

The liberal thought in the national Algerian movement from the beginning until 1951 and the colonial reactions

الملخص بالعربية:

ظهر الفكر الاستقلالي في الجزائر باكرا مقارنة ببلدان شمال إفريقيا (تونس والمغرب) وكانت الأحزاب الوطنية في هذين البلدين حينها تنادي بالإصلاح حين كان نجم شمال إفريقيا الذي تأسس سنة 1926 وحزب الشعب الجزائري الذي خلف النجم في 11مارس1937 يناديان باستقلال الجزائر خاصة وبلدان شمال إفريقيا عامة، وتجسدت مبادئ الفكر الاستقلالي عبر عدة وسائل من خلال النشاطات السياسية التي قام بها النجم وحزب الشعب الجزائري مثل تنظيم المظاهرات الشعبية في الجزائر وفرنسا التي كانت بالاستقلال التام للجزائر ولبلدان شمال إفريقيا ، وتأسيس الجرائد الوطنية التي عبرت عن أفكار التيار الاستقلالي في الجزائر ، وتكوين تحالفات وطنية لدعم النضال الوطني ومواجهة السياسة الاستعمارية ، ومن أهم المحطات النضالية التي تعتبر منعطفا حاسما في تاريخ الحركة الاستقلالية في الجزائر تمثلت في الدور المهم الذي لعبه قادة حزب الشعب الجزائري في تعبئة الجماهير الجزائرية للخروج في مظاهرات ماي 1945 المنادية بالاستقلال، وظهر بعدها الجيل الثاني من الوطنيين المؤمنين بالفكر الثوري بحيث تم تأسيس حركة الانتصار للحريات الديمقراطية سنة 1946 والتي جسدت هذا التوجه على أرض الواقع على مختلف المستويات النضالية بشقيها السياسي والعسكري فتم تنظيم مظاهرات جماهيرية حاشدة وتقديم بيانات تنديد بالسياسة الاستعمارية والمشاركة في الانتخابات البلدية والبرلمانية وتأسيس المنظمة الخاصة سنة 1947 وانشاء تحالفات وطنية على غرار الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها سنة 1951 .

الكلمات المفتاحية: المظاهرات، الانتخابات، الاستقلال، الجرائد الوطنية

Abstract :

The liberal thought has appeared early in Algeria in comparison with the Northern African countries (Tunisia and Morocco). The national political parties in these two countries were calling for reforms while (the star of North Africa) which was established in 1926 and the Algerian Population Party which succeeded it in March 11th, 1937 called for the liberation of

Algeria in particular and the Northern African countries in general. The principals of the liberal thought have been embodied through several means via the political activities which (the star of North Africa) and the Algerian Population Party have done, such as organizing popular demonstrations in Algeria and France that called for the full independence of Algeria and the Northern African countries, founding the national newspapers that expressed the thoughts of the liberal current in Algeria, and forming national alliances to support the national struggle and to confront the colonial policy. Also, one of the most important events in the struggle, which was considered as a turning point in the history of the liberation movement in Algeria, was the essential role played by the leaders of the Algerian Population Party in the mobilization of the Algerian people to participate in the demonstrations of May 1945 which called for independence. After that, the second generation of nationalists who believed in the revolutionary thought has appeared, so that the Victory Movement of the Democratic Liberties has been established in 1946, which embodied that thought in reality on different levels of struggle both politically and militarily. Thus, they organized huge popular demonstrations, presented petitions against the colonial politics, participated in the elections of the municipality and the parliament, founded the special organization in 1947, and established national alliances like the Algerian Front to defend freedom and respect it in 1951.

key words : Demonstrations, elections, independence, national newspapers

مقدمة:

في هذا المقال الموسوم ب: "الفكر الاستقلالي في الحركة الوطنية الجزائرية من البداية ولغاية سنة 1951 وردود الفعل الاستعمارية "، سأتطرق الى دراسة بعض المحطات الهامة في تاريخ الحركة الاستقلالية منذ نشأتها الى سنوات المخاض التي عرفتها الحركة، ويرجع سبب اختياري لهذا الموضوع الى إثراء الرصيد التاريخي بالاعتماد على الدراسات الأكاديمية كالأطروحات والرسائل الجامعية والمذكرات الشخصية والمصادر المتخصصة والمذكرات الشخصية

ومن هنا نطرح إشكالية رئيسية: كيف تجسد الفكر الاستقلالي في الميدان؟ و من هنا نقسم الإشكالية إلى عدة تساؤلات فنقول ما هي أهم المطالب السياسية التي أتى بها الفكر الاستقلالي؟ وكيف تجسدت هذه المطالب من خلال نشاطات التيار الاستقلالي؟ وما هي أهم النشاطات التي جسدت مبادئ وأفكار التوجه الاستقلالي على المستوى المغاربي والدولي؟ وماهي أهم

مراحل التيار الاستقلالي؟

وهذا ما سنحاول الإجابة عنه بالاعتماد على، المنهج الوصفي والمنهج التحليلي .

1 نجم شمال إفريقيا :

مرحلة التأسيس:

يوجد اختلاف حول تاريخ تأسيس نجم شمال إفريقيا فبعض الكتابات تقول أن النجم تأسس سنة 1924

برئاسة الأمير خالد وتعيين جفال سي محمد رئيس اللجنة المركزية[1] وانتشرت أفكار النجم في أوساط العمال بباريس سنتي 1923و1924[2] وهناك طرح ثاني يرى أن نجم شمال إفريقيا تأسس في 20جوان 1926[3]

بمركز الجمعية 3نهج مارشي دي باطرياش بباريس [4]ويؤكد هذا الطرح العديد من الشهادات كشهادة بانون آكلي والتقارير الفرنسية مثل تقرير فيفري 1927وتقرير نوفمبر 1927 وتقارير سنة 1933و1934 والتي تؤكد أن سنة 1926 هي سنة تأسيس نجم شمال إفريقيا [5] .

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن سنة 1924تعتبر تمهيدا للتأسيس الفعلي للنجم الذي تأسس بصفة رسمية سنة 1926 .

مطالب نجم شمال افريقيا :

أهم المطالب التي جاء بها نجم شمال إفريقيا تمثلت في إلغاء قانون الأهالي وجميع القوانين الاستثنائية وإلغاء المحاكم الزجرية والمراقبة الإدارية والمطالبة بنفس الحقوق بين الفرنسيين والمغاربة كحق الانتخاب والترشح لكل المجالس البلدية والبرلمان وإجبارية التعليم وحرية الصحافة والترخيص لنشاط الجمعيات [6]ومجمل هذه المطالب هي مطالب اجتماعية إصلاحية ومع بداية سنة 1927تم إضافة مطلب سياسي للقوانين الأساسية الأولى للنجم ممثلا في مطلب الاستقلال لبلدان المغرب العربي (تونس- الجزائر – المغرب الأقصى) مما زاد في القاعدة الجماهيرية لنجم شمال إفريقيا [7]

نشاط نجم شمال إفريقيا على المستوى الوطني 1927-1937:

بعد تحول جمعية نجم شمال إفريقيا من تيار وطني مغاربي إلى حزب جزائري قام هذا الأخير بتوسيع القاعدة النضالية وذلك بتشجيع الجزائريين بالانضمام إلى الحزب لتكوين تيار وطني باستطاعته استرجاع السيادة الوطنية [8]وطالب النجم في 27 ديسمبر 1927 بإلغاء قانون الأنديجينا المطبق في الجزائر والدفاع عن حقوق العمال المغاربة والمطالبة بالاستقلال التام

للجزائر [9] وبعد النشاط المتواصل لمصالي الحاج قائد الحزب قامت فرنسا بحل الحزب في 20 نوفمبر 1929 واعتبرت نشاط النجم بأنه يمس بالسيادة الوطنية لفرنسا ولجأ مصالي وزملاؤه في النضال إلى العمل في السر لغاية 1933 [10] وأعيد تأسيس الحزب سنة 1933 تحت اسم نجم شمال إفريقيا المجيد وفي هذه الفترة تم التأكيد على البعد القومي العربي والإسلامي نتيجة تخلي الحزب الشيوعي عن النجم، مع التأكيد على مبدأ الاستقلال التام للجزائر [11] وفي المؤتمر العام للحزب الجديد الذي عقد في 28 ماي 1933 بفرنسا تم تحديد النقاط الأساسية التي يحتوي عليها برنامج الحزب [12] وتم اعتقال أعضاء الحزب الجديد في مطلع سنة 1934 والحكم على مصالي الحاج بالسجن لمدة ستة أشهر وزملائه في النضال عميش بأربعة أشهر وراجف بلقاسم بثلاثة أشهر في أبريل سنة 1934 بحجة النشاط في حزب محظور [13] وفي 04جويلية 1934 تم السماح للحزب الأول بمواصلة نشاطه بقرار من محكمة فرنسية ،لكن بقيت الاعتقالات مستمرة في حق أعضاء حزب نجم شمال إفريقيا ،وأنشأ مصالي الحاج في السجن حزبا يحمل اسم الاتحاد الوطني لمسلمي شمال إفريقيا في 06فبراير 1935 وبعد خروجه من السجن قام بتنظيم عقد المؤتمر الأول للحزب الجديد الاتحاد الوطني لمسلمي شمال إفريقيا في 09 جوان 1935 قبل أن يعود النشاط لحزب نجم شمال إفريقيا بقرار من المحكمة الفرنسية في 03جويلية 1935 التي ألغت الأحكام السابقة [14] وأصبح نشاط النجم أكثر حيوية وفي 14 جويلية 1935 تم رفع علم حزب نجم شمال إفريقيا المتكون من الأخضر والأبيض ونجمة وهلال في الوسط في استعراض بمناسبة العيد الوطني لفرنسا وذلك لإبراز الوطنية لأبناء شمال إفريقيا [15] وفي الفترة الممتدة بين نوفمبر 1936 ومارس 1937 غير مصالي الحاج من سياسته ولجأ إلى الاعتدال في مطالبه والتخلي عن مطلب الاستقلال مؤقتا والمطالبة بمنح الحريات الديمقراطية [16]

نشاط نجم شمال إفريقيا على المستوى المغاربي:

كان النجم يركز نشاطه في إطار النضال المغاربي من خلال المنشورات والصحافة كصحيفة الإقدام والشمال الإفريقي وإقدام نجم شمال إفريقيا بين 1926و1928 وجريدة الأمة 1930-1939 [17] وفي القوانين الأساسية لنجم شمال إفريقيا التي صدرت بتاريخ 28ماي 1933 نذكر أهم نقطة التي جاءت صيغتها في المادة الثانية معبرة عن الهدف الأساسي للنجم في إطار النضال المغاربي المشترك لبلدان (تونس – الجزائر – المغرب الأقصى) والمتمثل في الاستقلال التام لهذه البلدان والعمل من أجل وحدتها [18] .وتعتبر الفترة الممتدة بين 1926-

1937 لنجم شمال افريقيا فترة مهمة في النضال المغاربي المشترك والتنسيق بين الحركات الوطنية المغاربية الثلاث[19].

إن نشاط حزب نجم شمال إفريقيا في الفترة الممتدة بين 1927-1937 كان يطالب بمطالب إصلاحية كالحق في التعليم الانتخاب في المجالس بمختلف أصنافها إلغاء القوانين الاستثنائية، لكن الجديد يكمن في المطلب السياسي المتمثل في التأكيد على الاستقلال التام للجزائر ،وعلى المستوى المغاربي عمل النجم على توحيد النضال بين البلدان المغاربية والمطالبة باستقلالها .

2 حزب الشعب الجزائري :

مرحلة التأسيس:

في 11مارس1937 تأسس حزب الشعب الجزائري من قبل مصالي الحاج ورفاقه في النضال مبارك الفيلالي ،معاوية عبد الكريم ،قراندي بسبب عدم القدرة على مواصلة النشاط باسم حزب نجم شمال إفريقيا وتعرضه للمضايقات وقمع أعضائه، فقد لجأ الحزب الجديد إلى بعض التعديلات وإدخالها في برنامج حزب الشعب كإدراج ميثاق اقتصادي في البرنامج والاهتمام بالتجارة والفلاحة والتركيز على الهوية الإسلامية ويرجع ذلك من أجل كسب دعم التجار والبرجوازيين وترك الفرصة لجميع الفئات التي تريد الانضمام إلى الحزب بغرض توسيع القاعدة الشعبية للحزب ومنافسة جمعية العلماء المسلمين[20].

نشاطات حزب الشعب : 1937-1939

على المستوى الوطني :

منذ تأسيس حزب الشعب الجزائري في 11 مارس1937 بدأ التركيز على النضال الوطني أكثر بعد أن كان هدف النجم يدعوا إلى استقلال شمال إفريقيا وأصبح حزب الشعب يدعوا إلى استقلال الجزائر [21] وحاول حزب الشعب تدعيم قاعدته النضالية حيث شارك في الانتخابات الجزئية التي جرت في جوان 1937[22] ولم يمض شهر على الانتخابات حتى بدأت المواجهات بين حزب الشعب الجزائري والحزب الشيوعي الجزائري وأحزاب الجبهة الشعبية عندما قرر هؤلاء المشاركة في احتفالات 14 جويلية 1937 حيث قام مصالي الحاج بتنظيم مظاهرة باسم حزب الشعب وتم تجنيد ثلاثة آلاف مناضل للمتشاركة في احتفالات 14 جويلية 1937 ورفع العلم الجزائري من قبل المتظاهرين وبدأوا ينشدون نشيد فداء الجزائر وحمل لافتات تحمل شعارات " برلمان جزائري "، " احترموا الإسلام "، " الأرض للفلاحين "، " المدارس للعرب " [23] وحاول مصالي الحاج المشاركة في المؤتمر الثاني الإسلامي لكن لم يتسنى له ذلك

حيث رفض طلبه في جويلية 1937 بسبب الاختلاف في التوجهات والمطالب بين حزب الشعب الجزائري والأحزاب الوطنية الأخرى، وبعدها بشهر تم اعتقال مصالي الحاج في 27 أوت 1937 مع بعض رفاقه [24] ومع ظهور بوادر الحرب العالمية الثانية اتخذ راجف بلقاسم وبعض رفاقه موقف مؤيد لألمانيا من خلال جريدة الأمة الصادرة باسم حزب الشعب في باريس ورد عليه مصالي الحاج بتأكيد موقفه المساند للحلفاء وشجب موقف راجف بلقاسم من خلال جريدة البرلمان الجزائري ، وفي سنة 1939 واجه حزب الشعب صعوبات في مواصلة نشاطه، حيث توفي أرزقي كيحل نائب مصالي وإلقاء القبض على بعض الناشطين في الحزب مثل محمد خيضر ، وفي 27أوت 1939 تم منع جريدة الأمة وجريدة البرلمان الجزائري من الصدور وفي 26 سبتمبر 1939 قامت السلطات الفرنسية بحل حزب الشعب الجزائري [25].

على المستوى المغاربي :

رغم تأكيد حزب الشعب الجزائري على نشاطه الوطني وعدم إدراج اهتماماته بالقضايا الوطنية المغاربية في برنامجه السياسي إلا أنه لم يتخلى عن قضيته المغاربية وبقي محافظا على علاقته بالوطنيين المغاربة في تونس والمغرب الأقصى والتأكيد على المشاريع الوحدوية قبيل الحرب العالمية الثانية [26].

على المستوى الدولي :

قام حزب الشعب الجزائري بتأسيس تجمع المنظمات المستعمرة في ماي 1937 وكان الهدف من ذلك الدفاع عن المصالح العامة لأهالي المستعمرات الفرنسية وتنسيق العمل بين هذه المنظمات لكي تبلغ كل منظمة أهدافها ، وفي هذا الصدد ندد حزب الشعب الجزائري بتصرفات السلطات الاستعمارية كالقمع ومصادرة الصحف واعتقال الهنود الصينيين ، وبالمقابل كان لتجمع المنضمات المستعمرة دور مهم في مساندة حزب الشعب الجزائري [27].

نلاحظ التغير في سياسة حزب الشعب الجزائري أولا من خلال التسمية من نجم شمال إفريقيا إلى حزب الشعب الجزائري وتحول النشاط من الإطار المغاربي نحو النشاط الوطني ، نتيجة الاختلاف في التوجهات بين قادة الأحزاب الوطنية المغاربية والتركيز على القطرية ، ومن جهة أخرى عمل حزب الشعب الجزائري على تمتين قاعدته النضالية بالمشاركة في الانتخابات الجزئية بالإضافة إلى توسيع قاعدته الشعبية وذلك يفسح المجال لمختلف شرائح المجتمع المشاركة في الحزب لغرض إحياء النشاط الوطني وكسب الدعم الشرعي من الشعب

نشاط حزب الشعب أثناء الحرب العالمية الثانية :

المرحلة الأولى (المرحلة السرية) 1940-1942 :

جناح مصالي :عرفت سنوات 1940-1942 فتور في النشاط السياسي العلني للأحزاب الوطنية بسبب قرارات حل هذه الأحزاب ومنعها من ممارسة مهامها ومعاقبة كل من يجرؤ على تقديم مطالب للإدارة الفرنسية تنافي مصالحها السياسية خاصة في ضل الظروف التي انهزمت فيها فرنسا أمام قوات الجيش الألماني لكن هذا لم يمنع قادة حزب الشعب من مواصلة نشاطه مع تغيير طريقة النضال من النضال العلني إلى النضال السري [28] وقد أفادت تقارير الشرطة الفرنسية أن حزب الشعب الجزائري قام بعدة مبادرات على غرار الإعلانات المكتوبة باليد ، والكتابات الحائطية والدعاية الشفهية وتأسيس جمعيات رياضية [29] والتزم بقية المناضلين في حزب الشعب الذين أفلتوا من الاعتقال على غرار الأمين دباغين ، أحمد مزغنة، محمد طالب ، أحمد بودة ، مقري حسين ، حسين عسلة بمبادئ النضال التي جاء بها حزب الشعب الجزائري ورفضوا التجنيد في الجيش الفرنسي تنفيذا لموقف مصالي الحاج الذي عبر عنه وهو بداخل السجن بما يلي " إن الجزائر ليست ملحقة بفرنسا بمقتضى أي شعور ، إن لم يكن شعور الكراهية التي غرستها في قلوبنا مائة سنة وأكثر وباسم الجمهورية الفرنسية يعاني الآلاف من الأهالي العبودية منحطة، إن وطننا هو المغرب العربي ونحن مخلصون له حتى الموت "[30].

جناح المنشقين : بعد انهزام فرنسا أمام قوات الجيش الألماني قام أعضاء من حزب الشعب الجزائري بالتمعن على غرار عمار مسعودي ، علي زاوي، لخضر مقيدش، رشيد بوعمرة ومحمد زهوال وتم تأسيس " لجنة النشاط الثوري لشمال إفريقيا " وحاولت هذه الأخيرة الاتصال بالنازيين بغرض الحصول على مساعدات عسكرية وتكوين عسكري في مجال حرب العصابات وصنع القبائل[31] وقام أعضاء لجنة الكارنا (CARNA) بزيارة إلى ألمانيا وتم تحديد لقاء بين الألمان وأعضاء اللجنة في الجزائر العاصمة (حصن 15 بالعاصمة حديقة صوفيا) لكن لم يتم هذا اللقاء ، وفي 20 أوت 1940 اتصل طالب محمد ورشيد عمارة وعبدون محمد وهني المدعو دقي بأعضاء لجنة وقف القتال يتساءلون عن الموعد الذي حددته ألمانيا بالجزائر وجاء رد الألمان بالمماطلة والتسويف [32] .

وفي يوم 25 يناير 1941 اتسعت رقعة الانشقاق في صفوف حزب الشغب الجزائري حيث قامت فرقة الرماة التابعة لفيلق المشرق بإعلان التمرد وتنظيم تظاهرات بالحراش [33] وفي نفس السنة عاود أعضاء اللجنة المنشقة عن حزب الشعب الاتصال بالألمان من أجل

الحصول على الأسلحة لكن طلبهم لم يلقى الاستجابة باستثناء الدعم المالي وهذا مار فضه أعضاء اللجنة [34]

وقد أثارت هذه التصرفات المنعزلة عن قرارات حزب الشعب حفيظة القادة في الحزب وقام مصالي الحاج بفصل المنشقين عن الحزب[35].

إعادة تنظيم الحزب :

قام حزب الشعب الجزائري في أبريل 1941 بشن حملة دعائية عبر الكتابات الحائطية تحمل شعارات " النصر لحزب الشعب الجزائري "، " الجزائر للجزائريين "، " الشعب يساند مصالي" ورغم القمع الذي تعرض له قادة حزب الشعب الجزائري إلا أن الحملة واصلت نشاطها وفي 11 ماي 1941 قام أعضاء حزب الشعب بحملة أخرى عن طريق الكتابات الحائطية وحملت شعارات "عاشت الحرية "، " النصر لحزب الشعب الجزائري "، " الشعب يساند مصالي "، " مصالي هو القائد الاعلى للجزائر "، " الجزائر للجزائريين " وتواصلت نشاطات الحزب عبر باقي مناطق وفي 24 أوت 1942 حملت الكتابات الحائطية شعارات تنادي بحياة حزب الشعب والنصر [36].

في الفترة الأولى من الحرب العالمية الثانية 1940-1942 تميز النشاط السياسي لحزب الشعب الجزائري بالسرية التامة ويرجع ذلك للظروف التي رافقت الحرب كصدور القوانين الاستثنائية التي ضيقت الخناق على الوطنيين باعتقالهم وتمثلت نشاطات الحزب في الكتابات الجدارية التي حملت شعار الاستقلال ، أما فئة المنشقين واتصالهم بالنازيين والمعروفين بلجنة النشاط الثوري لشمال إفريقيا المعروفة بالكارنا (CARNA) لم تنجح مساعيهم بسبب تخلي مصالي الحاج عنهم وفصلهم عن الحزب لأن مصالي كان يرى أن الاتصال بالألمان هو خسارة لقضيته لأنه كان يمتلك حنكة سياسية وتكوين مكتمل عكس المنشقين الذين تحكمت فيهم الحماسة الزائدة .

المرحلة الثانية 1943-1945:

بيان الشعب الجزائري 10 فبراير 1943:

بعد نزول قوات التحالف الأمريكية والبريطانية في مدن الدار البيضاء ووهران والجزائر في نوفمبر 1942 تم استعادة بلدان شمال إفريقيا من قوات فيشي وألحقت هزائم بهذه الأخيرة، وحينها ازدادت آمال الوطنيين في الجزائر وفي شهر ديسمبر 1942 وجه فرحات عباس رسالة

باسم الممثلين الجزائريين إلى قوات التحالف (فرنسا –انجلترا –الو م أ) وتضمنت الرسالة تحديد نظام قانوني جديد مستمد من ميثاق الأطلسي [37] لكن رسالة فرحات عباس لم تلق أي استجابة ولقيت نفس المصير الذي عرفته المذكرة السابقة التي تقدم بها سنة 1940[38] وبررت السلطات الفرنسية عدم الاستجابة لرسالة فرحات عباس بأنه وجه الرسالة إلى السلطات غير المسؤولة (قوات التحالف) بدلا من السلطات الفرنسية وأعاد فرحات عباس توجيه رسالة أخرى إلى السلطات الفرنسية لكن الرسالة لم تلق أي رد فهي مجر ذريعة اتخذتها السلطات الفرنسية[39] .

وفي 10 فبراير 1943 وقع عدد من المناضلين في مختلف الأحزاب الوطنية على نص البيان [40] ويعتبر بيان الشعب الجزائري أهم وثيقة سياسية في تاريخ الحركة الوطنية وفي تحديد مصير الشعب الجزائري وقد وجهت هذه الوثيقة إلى الإدارة الفرنسية في حين كانت تعاني من الضعف بسبب الحرب العالمية الثانية التي أثقلت كاهلها، ويعتبر بيان مختلف عن أي وثيقة سياسية سابقة كونه يطرح قضية نضال الشعب الجزائري نحو نضال عادل يليق به ، وبناء على هذا اعتبر البيان أول وثيقة إيديولوجية سياسية في تاريخ الجزائر المستعمرة [41] ومن أهم النقاط التي تطرق لها البيان أيضا نذكر المطالبة بتطبيق تقرير مصير الشعوب وإدانة الاستعمار والقضاء عليه ومنح دستور خاص بالجزائر [42] وتم تقديم نص بيان الشعب الجزائري الى الحاكم العام مارسيل بيروتون تحديدا بتاريخ 31 مارس 1943 من قبل الوفد المتكون من ابن جلول، وفرحات عباس وتامزالي و أورابح ، والأخضري، وابن علي الشريف وفي اليوم الموالي تم تقديم نص البيان إلى ممثلي الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا من طرف نفس الوفد وقام فرحات عباس بإرسال نسخ إلى لندن والى الحكومة المصرية بالقاهرة والى الجنرال ديغول [43] .

ملحق البيان :

وفي 26 ماي 1943 صدر ملحق البيان الجزائري الذي نص على المطالبة بإصلاحات اقتصادية واجتماعية على غرار مشاركة الجزائريين في الحكم واستبدال الولاية العامة بحكومة جزائرية ، بالإضافة إلى مطالب لمرحلة ما بعد الاستقلال التي تنص على إنشاء مجلس جزائري تأسيسي وإنشاء دستور خاص بالجزائر وأغلب المطالب لقيت رفضا قاطعا من الرئيس الفرنسي ديغول ومن الحاكم العام الجديد بالجزائر الجنرال كاترو واللذان اعتبرا مسألة الاستقلال خارج حسابات فرنسا وتم فرض الإقامة الجبرية على فرحات عباس[44] .

التداعيات :

انتهز قادة حزب الشعب الجزائري الفرصة جراء مواقف الإدارة الاستعمارية الرافضة لمطالب ملحق البيان واعتقال قادة الحزب واحتقان الشعب الجزائري من سياسة الاعتقالات التي مست شخصيات بارزة مثل فرحات عباس والسايح عبدا لقادر في تكثيف نشاطهم ، وتم إعلان بيانات تندد بالتجنيد الإجباري كما قام قادة حزب الشعب باستعطاف الجمعيات مثل جمعية الكشافة الإسلامية وتوزيع المناشير وتنظيم المظاهرات إضافة إلى الكتابات الجدارية وتأسيس جرائد سرية باللغة العربية مثل جريدة صوت الأحرار التي كانت تصدر بشكل غير منتظم ابتداء من شهر جوان 1943 إلى غاية يناير 1944 وجريدة الوطن هي الأخرى كانت غير منتظمة ، وإنشاء جريدة العمل الجزائرية وهي جريدة شهرية حيث تعتبر الجهاز السري للشبيبة المعادية للإمبريالية و صدرت من مارس 1944 إلى مارس 1945 وكانت تطبع 5000 نسخة شهريا ويتم توزيعها عبر مختلف أرجاء الجزائر مديرها العام محمد طالب عضو اللجنة المركزية السرية [45].

أمرية مارس 1944 :

في 07 مارس 1944 صدر أمر أوردنس من مدينة الجزائر القاضي بإصلاحات، ونص البند الأول من هذه الإصلاحات على المساواة في الحقوق والواجبات بين الجزائريين والفرنسيين وجاء في البند الثاني التأكيد على المساواة بين الجزائريين والفرنسيين أمام القانون وإلغاء القوانين الاستثنائية [46] إضافة إلى منح الجنسية الفرنسية ل 60ألف جزائري وإعطاء الفرصة لمليون ونصف مليون جزائري حق الانتخاب والتصويت على المترشحين المسلمين، لكن أعضاء حزب الشعب رفضوا هذه المقترحات الفرنسية وفكروا في إيجاد تحالف سياسي حقيقي [47] .

حركة أحباب البيان والحرية :

في 14 مارس 1944 تم إنشاء تحالف سياسي بين الأحزاب الوطنية تحت اسم حركة أحباب البيان والحرية في مدينة سطيف ونصت الأهداف الأساسية للحركة على عدة نقاط أبرزها الدفاع عن مبادئ البيان، والتنديد بالسياسة الاستعمارية القمعية والترويج للأفكار الوطنية الجديدة كما حددت الحركة برنامجا لتفعيل نشاطاتها حيث ركزت على مساعدة ضحايا القوانين الخاصة وضحايا القمع ، وإقناع الشعب بالالتفاف حول الحركة[48] والترويج لمبادئ الحركة التي تمحورت حول تأسيس جمهورية جزائرية مستقلة مرتبطة بجمهورية فرنسا عن طريق الخطابات الشعبية والصحف التي تم إنشائها مثل صحيفة « l'action » السرية

وصحيفة المساواة « l'égalité » ونتج عن هذا الزخم في النشاط السياسي تفاعل الشعب الجزائري واستجابته لمطالب الحركة حيث بلغ عدد المنخرطين فيها حوالي 500ألف حسب ما أدلى به فرحات عباس وتم إنشاء 160 قسمة عبر مختلف أرجاء الوطن [49]، مع نهاية 1944 بدأت تختلف الرؤى بين قادة التحالف السياسي وأراد قادة حزب الشعب الجزائري فرض أفكارهم باعتماد أساليب التصعيد ضد الإدارة الاستعمارية التي رآها بقية الوطنيين مثل فرحات عباس وغيره لا تليق بالنضال[50] وقام أفراد حزب الشعب الجزائري بالتصعيد ضد الإدارة الاستعمارية باسم حركة أحباب البيان والحرية وحاولوا بسط نفوذهم في أوساط الشعب بغرض احتواء التوجهات الأخرى التي تدعوا إلى الاعتدال مثل جماعة المنتخبين والعلماء [51]

وفي 2أبريل 1945 انعقد مؤتمر الحركة (AML) وأكد أفراد حزب الشعب على ضرورة مطالبه الاستقلالية المتمثلة في إقامة دولة جزائرية وحث بقية الأحزاب على إتباع هذه الأفكار لكن مطالب حزب الشعب لم تلق القبول عند بقية الوطنيين، وتوسع نفوذ حزب الشعب في صفوف الجماهير وقام بالتأثير عليه وتعبئته [52] وكان رد السلطات الاستعمارية سريعا حيث قامت بنفي مصالي الحاج إلى برازافيل بتاريخ 13أبريل 1945وبعد شهر من ذلك عند خروج الشعب الجزائري إلى الشارع مطالبين بالاستقلال جاء الرد عنيفا حيث قمعت هذه الحركة بارتكاب مجازر في حق الشعب الجزائري واعتقال أغلب قادة الحزب باعتبارهم المسؤولون الأوائل عن خروج الشعب إلى الشارع [53] .

تميزت الفترة الممتدة من سنة 1943 إلى 1945 بنشاط وطني كثيف حيث صدر بيان فبراير 1943 الذي التقت فيه مختلف التيارات الوطنية ويرجع ذلك الى اكتمال الوعي السياسي عند الوطنيين وتم تأسيس جرائد وطنية سرية ،وبعد تعنت السلطات الاستعمارية ورفضها لمطالب البيان وإصدارها أمرية مارس 1944 التي لم ترق لطموح الوطنيين رد هؤلاء بتأسيس حركة أحباب البيان والحرية وذلك تجسيدا لبيان فبراير على أرض الواقع وتمثلت المبادئ الأساسية لهذه الحركة في المطالبة بالاستقلال التام للجزائر لكن فكرة الاستقلال التي أراد حزب الشعب تفعيلها على أرض الواقع تحفظ عليها بقية الوطنيين مثل فرحات عباس وأفراد جمعية العلماء ،ونلاحظ انفراد حزب الشعب بحركة أحباب البيان والحرية وانتشار أفكاره في أوساط الجماهير ،ويمكن تفسير هذا النفوذ في استجابة الشعب الجزائري إلى مطالب حزب الشعب بالخروج إلى الشوارع ومطالبة الإدارة الاستعمارية بالاستقلال في شهر ماي 1945 يمكن القول

أن أفراد حزب الشعب الجزائري كانوا عمليين في نضالهم عكس الأحزاب الأخرى ومن هنا نقول كيف ستكون المرحلة اللاحقة في النضال بعد المجازر التي ارتكبتها الإدارة الاستعمارية في حق الشعب الجزائري ؟

3 بروز الجيل الثاني من النضال الوطني في الجزائر(مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية):

الظروف التي واكبت تأسيس حركة الانتصار للحريات الديمقراطية:

داخليا: بعد انتهاء ح ع 2 تأكد للشعب الجزائري أنه لا بد من استرجاع الاستقلال و تطبيق مبادئ ميثاق الأطلسي التي تنص على حق الشعوب في تقرير مصيرها [54] و خرج الشعب الجزائري بتوجيه من الحركة الوطنية في مظاهرات حاشدة يوم 08ماي 1945 ليشاركوا فرنسا و الحلفاء بالانتصار على القوات الألمانية و في نفس الوقت المطالبة بالاستقلال لكن فرنسا واجهت المظاهرات بالقمع و العنف والتي خلفت آلاف القتلى من الجزائريين [55] و نتيجة لهذه الأحداث اقتنع قادة حزب الشعب الجزائري بضرورة الكفاح المسلح و ما أخد بالقوة لا يسترد إلا بالقوة [56] .

خارجيا: كان لتأسيس هيئة الأمم المتحدة دور مهم في تطور الوعي السياسي لدى النخبة الوطنية الجزائرية ، و المطالبة بالاستقلال يكون مطلب سياسي بالدرجة الأولى و شرعي تطبيقا لما جاء في مبادئ و أسس المنظمة الدولية [57].

تأسيس حركة الانتصار للحريات الديمقراطية: يوجد اختلاف في تحديد اسم التنظيم السياسي الجديد فبعض الكتابات تطلق عليه اسم حركة انتصار الحريات الديمقراطية و كتابات أخرى تسمية حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، والعربي الزبيري يرجع اسم: الحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية التي تتناسب عبارتها مع ترجمة العبارة الفرنسية الأصلية:Mouvement pour triomphe des libertés démocratiques [58] وقد ظهرت فكرة حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في 10 أكتوبر 1946 بعد عودة مصالي الحاج إلى الجزائر و تأسست الحركة رسميا في بداية شهر نوفمبر عام 1946 [59] وهي غطاء قانوني لحزب الشعب الجزائري [60].

إن الجرائم التي ارتكبتها السلطات الاستعمارية في مظاهرات ماي تعتبر منعطف هام في تاريخ الحركة الوطنية إضافة إلى الظروف الخارجية التي ساعدت قادة النضال في اتخاذ القرارات اللازمة والتي تجسدت في تأسيس حركة الانتصار للحريات الديمقراطية التي أعطت صبغة قانونية للحركة ونشاطها فكيف سيكون نشاط الحركة ؟

نشاط حركة الانتصار للحريات الديمقراطية : (1946-1951):

المشاركة في الانتخابات: قرر حزب الشعب الجزائري المشاركة في الانتخابات التشريعية في نوفمبر 1946 وقدم قوائم باسم حركة الانتصار للحريات الديمقراطية (61) لكن تم رفض المرشحين البارزين مثل مصالي الحاج مرشح الجزائر العاصمة ورفضت قائمة مرشحي الحركة في وهران و سطيف مما أثر على نتائج الانتخابات بالإضافة إلى عمليات التزوير و تحصلت الحركة على خمسة مقاعد ثلاثة مقاعد في قسنطينة انتخبت لها الأمين دباغين، و دردور جمال، و بوقدورة مسعود و مقعدان في الجزائر العاصمة فاز بهما أحمد مزغنة و محمد خيضر (62).

المؤتمر التأسيسي للحركة MTLD: انعقد المؤتمر الأول لحركة الانتصار الحريات الديمقراطية في 15 فبراير 1947 وبرزت من خلاله ثلاثة مجموعات فالمجموعة الأولى تمثلت أهدافها في الاتفاق على إنشاء حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية كي يتسنى لها العمل بصفة قانونية و المشاركة في الانتخابات التي تجري بالجزائر ومن أتباع هذا التوجه عمراني سعيد و مصطفاي شوقي و الحاج شرشالي قائد الحزب مصالي الحاج، والمجموعة فكانت تنادي بالعمل الثوري وذلك عن طريق تكوين المنظمة الخاصة والمجموعة الثالثة فضلت السير على النهج السابق و اعتماد العمل السري كوسيلة من وسائل النضال الفعال و كان بودة ضمن هذه المجموعة وهي مجموعة حزب الشعب الجزائري (63).

اجتماع 07 سبتمبر 1947: تمثلت أهداف الاجتماع في التأكيد على التخلص من الاستعمار الفرنسي وتأسيس دولة جزائرية كاملة السيادة بجميع مؤسساتها وتم التركيز في هذا الاجتماع على ضرورة اتحاد الأحزاب الوطنية (64).

موقف الوطنيين من قانون 20 سبتمبر 1947: تم عرض قانون سبتمبر 1947 على البرلمان الفرنسي الذي ينص على بعض الإصلاحات كحق التعبير والتعليم و الاقتصاد و إلغاء الحكم العسكري في الصحراء و اعتبار اللغة العربية رسمية وانتخاب مجلس للأوروبيين يضم 60 عضوا مجلس للمسلمين يضم 60 عضوا لكن أعضاء حركة الانتصار رفضوا التصويت على القانون (65).

المشاركة في الانتخابات البلدية أكتوبر 1947: دخلت الحركة الانتخابات ببرنامج سياسي تم عرضه على الشعب الجزائري و أبرز ما حمله البرنامج هو الاستفتاء على النظام الاستعماري بصوت الموافقة أو الرفض، و الاستفتاء على انتخاب جمعية تأسيسية ذات سيادة وطنية......

إلخ ودخل أعضاء الحركة الانتخابات، والقوا خطابات حماسية أثيرت فيها عدة نقاط كالتمسك بالقضية الوطنية و المطالبة بالاستقلال التام للجزائر و الاعتراف بالسيادة الجزائرية وقد لقيت هذه الكلمات صدى كبير عند الشعب الجزائري [66] وقد أفرزت النتائج فوز حركة انتصار للحريات الديمقراطية بـ 110 بلدية في أغلب المدن الكبرى باستثناء بعض المدن مثل سيدي بلعباس و خنشلة التي لم تحض بتشكيل القوائم الممثلة للحركة [67].

انتخابات أبريل 1948: تم الإعلان عن إجراء الانتخابات لنواب المجلس الجزائري الأول في 4 و 11 أبريل 1948 طبقا لقانون النظام العضوي الصادر في 1947/09/20 ويتم من خلاله انتخاب 60 نائب أوروبي من الفئة الأولى ممثلين لـ1,3 مليون ناخب جزائري من مجموع ثمانية ملايين من السكان الجزائريين وتتمثل مهام المجلس الجزائري في التسيير و المصادقة على الميزانية بالتنسيق مع الحاكم العام.[68] وتزامنت هذه الانتخابات تعيين نايجلان حاكما عاما في الجزائر المعروف بتزوير الانتخابات وقام بتوقيف حسين الأحول والحاج شرشالي في 03 أبريل 1948 أثناء التجمع الشعبي الذي كان يلقبانه في البليدة[69] وتم اعتقال 33 مرشحا من مجموع 59 مرشح [70] وتم منع ممثلي MTLP في الانتخابات من حضور عملية فرز الأصوات [71].

الوسائل:

إنشاء جرائد وطنية: قام أعضاء حركة الانتصار للحريات الديمقراطية بإنشاء جرائد وطنية وتعيين أشخاص مستقلين يقومون بمهمة تسيير هذه الجرائد وإدارتها على غرار صحيفة "المغرب العربي" التي صدرت في جوان 1947 وهي جريدة أسبوعية ولسانها عربي، وصدر عنها إعداد باللغة الفرنسية ومدير هذه الجريدة "الشيخ سعيد الزاهري" عضو سابق في جمعية العلماء المسلمين، وقامت الحركة بإنشاء نشريات خاصة بها مثل نشرية " LA NATION ALGERIENNE" ووزعت هذه المنشورات في سرية تامة وعملت إلى غاية أكتوبر 1948، وكانت تحرر باللغة الفرنسية بالإضافة إلى نشرية باللغة العربية باسم "صوت الأحرار"، وفي مارس 1951 تأسست جريدة المنار اليومية وهي جريدة ناطقة باللغة العربية بدعم من MTLD وعملت هذه الجريدة تحت إشراف "محمود بوزوز" والذي كان يديرها وقد ساهمت هذه الجرائد في الترويج للقضية الوطنية والتعريف بسياسة الحزب أمام الرأي العام المحلي والدولي رغم الصعوبات التي واجهتها من قبل إدارة الاستعمار [72].

إعادة تنظيم الحركة MTLD: قامت حركة الانتصار للحريات الديمقراطية بإعادة ترتيب صفوفها بعد القضاء على الحركة البرية أو ما تعرف (بالأزمة البربرية) وتم تعيين عبان رمضان

على رأس حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في ناحية قسنطينة وعمل هذا الأخير على الترويج لسياسة الحركة وقام بهيكلة مؤوسساتها [73] وترتب عن الأزمة البربرية اتحاد حزب الشعب الجزائري مع حركة الانتصار للحريات الديمقراطية باستثناء المنظمة الخاصة التي بقيت تعمل في السر [74].

تنظيم مظاهرات بفرنسا: بعدا لقضاء على الحركة البربرية بفرنسا واسترجاع سلطة اللجنة الفدرالية المسلوبة من أنصار البربرية قام أعضاؤها الجدد بإبراز كفاءتهم وتكثيف النشاطات وفي أول ماي 1950 تم تنظيم مظاهرة شعبية حاشدة التي فاقت مظاهرة الكونفدرالية العامة للشغل الشرعية من حيث التنظيم والعدد وكان المهاجرون الجزائريون في هذه المظاهرة يطالبون بالاستقلال، وصل عدد المتظاهرين في باريس إلى 40 ألف متظاهر ومائة ألف متظاهر غير مختلف أرجاء فرنسا [75].

تأسيس الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها: بعد الأعمال القمعية التي تعرضت لها الأحزاب الوطنية بمختلف ترجماتها وتزوير الانتخابات والمصادرة حق النواب الوطنيين المنتخبين في الدفاع عن القضية الوطنية، فكر الوطنيون في تشكيل تحالف وطني يجمع الأحزاب الوطنية من أجل مواجهة السياسة الاستعمارية وفي تاريخ 25 جويلية اجتمع قادة الأحزاب الوطنية فمثل جمعية العلماء المسلمين الشيخ العربي التبسي والشيخ خير الدين ومثل الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري الدكتور "فرنسيس" والمحامي "ساتور" أما أحمد مزغنة ومصطفى فروقي مثلا حركة الانتصار للحريات الديمقراطية والحزب الشيوعي ناب عنه بول كيليرو وأحمد محمودي [76] ونتج عن الاجتماع تأسيس الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها بتاريخ 27 جويلية 1951 [77].

تميز نشاط حركة الانتصار للحريات الديمقراطية الجزائرية من الفترة الممتدة ما بين 1946 إلى 1951 بعدة خصائص حيث اعتمد في نشاطه بالدرجة الأولى المشاركة في الانتخابات البرلمانية والبلدية التي لعب فيها الوطنيون دورا مهما في الدفاع عن القضية والوطنية والتصدي للقوانين الاستعمارية المجحفة في حق الشعب الجزائري، والمؤامرات، و البحث عن إيجاد سبل للتعريف بقضية الحركة (MTLD) من خلال إنشاء صحف وطنية، وإنشاء فرع سياسي تابع للحركة، كما تم إعادة ترتيب صفوف الحزب وتقوية جهازه بعد الأزمة البربرية لتفادي أي اختراقات في المستقبل وأول رسالة قام بها الحزب بعد الأزمة تنظيم مظاهرة سياسية حاشدة بفرنسا سنة 1950، والتركيز على عقد المؤتمرات التي انبثق عنها الموافقة على

إنشاء منظمة عسكرية سنة 1947 بالإضافة إلى توحيد النضال الذي طالب به قادة حركة الانتصار للحريات الديمقراطية نتيجة القمع الذي تعرض له الوطنيون وتزوير الانتخابات وذلك بتأسيس الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية سنة 1951.

خــاتمـــة :

من خلال هذه الدراسة نلاحظ أن الفكر الاستقلالي جاء مع بداية النضال السياسي في الجزائر وتحديدا في منتصف العشرينيات من القرن الماضي، وتجسدت مبادئ الفكر الاستقلالي من خلال نجم شمال إفريقيا وحزب الشعب الجزائري، ويمكن اعتبار الحزبين مدرسة في النضال الوطني الفعال بحكم المطالب السياسية التي تمثلت في المطالبة بالاستقلال التام للجزائر ولبلدان شمال إفريقيا (تونس – الجزائر – المغرب الأقصى) إضافة إلى المطالب الاجتماعية والإصلاحية وتجسدت هذه المطالب من خلال النشاطات الكثيفة للنجم وحزب الشعب مثل تنظيم المظاهرات الجماهيرية المنادية بالاستقلال، وعقد لقاءات ومؤتمرات بين القادة والأعضاء لدراسة القضية الوطنية، والمشاركة في الانتخابات لتسهيل مهمة الدفاع عن مبادئ النجم وحزب الشعب، وانشاء جرائد وطنية تقوم بالترويج للفكر الاستقلالي، وتكوين تحالفات سياسية بين الأحزاب الوطنية على غرار حركة أحباب البيان والحرية في 14مارس 1944 التي جاءت تنفيذا لقرارات بيان الشعب الجزائري الصادر في فبراير 1943 كما جاء هذا التحالف كرد فعل سياسي على أمرية 7مارس1944 اضافة الى الدور الذي لعبه قادة حزب الشعب الجزائري في تعبئة الجماهير للخروج في مظاهرات شعبية حاشدة بالجزائر في ماي 1945 للمطالبة بالاستقلال، والذي نتج عنه رد عنيف من قبل الاستعمار الذي ارتكب مجازر بحق الشعب الجزائري راح ضحيتها آلاف من الجزائريين. وبعد هذه الأحداث الدامية في حق الشعب الجزائري برزت حركة الانتصار للحريات الديمقراطية سنة 1946 التي اعتمدت على نهج جديد في النضال وفعال بحيث جرب قادة الحركة جميع الأساليب كالمشاركة في الانتخابات البلدية والبرلمانية من أجل التعريف بالقضية الوطنية دوليا وكسب طابع شرعي في النضال أمام سلطات الادارة الفرنسية وتدعيم الحركة الاستقلالية بجناح عسكري تمثل في تأسيس المنظمة الخاصة سنة 1947 عقب المؤتمر التأسيسي للحركة اضافة الى تنظيم مظاهرات شعبية وانشاء جرائد وطنية من أجل التعريف بالقضية الوطنية على المستويين الوطني والدولي وتأسيس تحالفات وطنية على غرار الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها سنة 1951.

الهـوامـش :

(1)Mafoud Kaddache , histoire du nationalisme algérien , 1919-1939 , T 1 , édition méditerranée , paris , 2003 , p 167 .

(2)عبد الحميد زوزو، الدور السياسي للهجرة إلى فرنسا بين الحربين (1914-1939)، نجم شمال إفريقيا وحزب الشعب، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 2010، ص 55

(3) محمد قنانش، آفاق مغاربية المسيرة الوطنية وأحداث 08 ماي 1945، منشورات دحلب، الجزائر، 2009 ، ص 25 .

(4) محمد قنانش، محفوظ قداش، نجم الشمال الإفريقي 1926-1937 وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1984، ص 40 .

(5)Kamel Bouguessa , Aux sources du nationalisme algérien les pionnier du populisme révolutionnaire en marche , casbah édition , Alger , 2006 , p300

(6) محمد بلقاسم، وحدة المغرب العربي فكرة وواقعا : الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي 1910-1954، ج1، ط1، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص327 .

(7) نفسه، ص327 .

(8) عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت – لبنان، 1997، ص288 .

(9) محمد بلقاسم، المرجع السابق، ج1، ص ص 331- 332 .

(10) عمار بوحوش، المرجع السابق، ص ص 289 - 290 .

(11) Kamel Bouguessa , op cit , p 354 .

(12) عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 290 .

(13) نفسه، ص 291 .

(14) نفسه، ص 292 .

(15) نفسه، ص 293 .

(16) نفسه، ص ص 295 – 296 .

(17) محمد بلقاسم، المرجع السابق، ج 2، ص 99 .

(18) مومن العمري، شعار الوحدة ومضامينه في المغرب العربي أثناء فترة الكفاح الوطني، أطروحة دكتوراه، جامعة قسنطينة، 2009- 2010 .

(19) أمحمد مالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، ط2، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، 1994، ص 296 .

(20) عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 301 .

(21) محمد بلقاسم، المرجع السابق، ج2، ص 101 .

(22) عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 302 .

(23) نفسه، ص 303 .

(24) نفسه، ص 304 .

(25) عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 305 .

(26) محمد بلقاسم، المرجع السابق، ج2، ص 102 .

(27) عبد الحميد زوزو، الدور السياسي للهجرة الى فرنسا بين الحربين 1914 – 1939 نجم شمال افريقيا وحزب الشعب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص ص 148-149 .

(28) عامر رخيلة، 8ماي 1945 المنعطف الحاسم في مسار الحركة الوطنية ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت)، ص36 .

(29) Mahfoud Kaddache , histoire du nationalisme algérien 1939 -1951 ,T 2 ,op cit , p 575 .

(30) محمد شبوب، الجزائر في الحرب العالمية الثانية (1939-1945) دراسة سياسية اقتصادية واجتماعية، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف بلقاسمي بوعلام، جامعة وهران 1، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، 2014-2015، ص86 .

(31) نفسه، ص 86 .

(32) Mahfoud Kaddache , histoire du nationalisme algérien 1939 -1951 ,T 2 ,op cit , pp 577-578 .

(33) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص ص 181 – 182 .

(34) Mahfoud Kaddache, histoire du nationalisme algérien 1939 -1951 ,T 2 ,op cit , p578.

(35) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 3، ص 182 .

(36)) Mahfoud Kaddache , histoire du nationalisme algérien 1939 -1951 ,T 2 ,op cit , p578.

(37) بنيامين سطورا، ميصالي الحاج رائد الوطنية الجزائرية 1898- 1974 ، تر: صادق عماري ومصطفى ماضي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 1998 ، ص185 .

(38) جمال خرشي، الاستعمار وسياسة الاستيعاب في الجزائر 1830 – 1962، تر : عبد السلام عزيزي، دار القصبة للنشر ، الجزائر، 2009، ص409.

(39) عامر رخيلة، المرجع السابق، ص 39 .

(40) نفسه، ص 42 .

(41) نور الدين ثنيو، اشكالية الدولة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2015، ص 451 .

(42) فرحات عباس، ليل الاستعمار، تر:أبو بكر رحال، منشورات ANEP، الجزائر، 2010، ص ص 150 – 151

(43) نفسه، ص155 .

(44) سليمان قريري، تطور الاتجاه الثوري والوحدوي في الحركة الوطنية الجزائرية 1940 – 1954، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف يوسف مناصرية، جامعة باتنة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم التاريخ ، 2010 – 2011 ، ص 81 .

(45) مصطفى أوعامري، المقاومة السياسية بالقطاع الوهراني خلال الحرب العالمية الثانية 1939 -1945، دار القدس العربي، الجزائر، 2013، ص ص 156 – 157 .

(46) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 3، ص 219 .

(47) عمار بوحوش، المرجع السابق، ص307 .

(48) عامر رخيلة، المرجع السابق، ص 52 .

(49) عبد الحميد زوزو، محطات في تاريخ الجزائر : دراسات في الحركة الوطنية والثورة التحريرية على ضوء وثائق جديدة، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص 225 .

(50) عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 308 .

(51) سليمان الشيخ، الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة، تر: محمد حافظ الجمالي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2003، ص 59.

(52) عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 308.

(53) سليمان الشيخ، المرجع السابق، ص 60.

(54)عبدالقادر جيلالي بلوفة، الحركة الوطنية الاستقلالية خلال الحرب العالمية الثانية في عمالة وهران 1939-1945، ط1، الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2011، ص121

(55) أبو القاسم سعد الله، ج3، المرجع السابق، ص 247

(56) Mahfoud Kaddache, T2, op-cit, p675

(57) نورالدين ثنيو، المرجع السابق، ص ص 257-258

(58) محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص 154

(59) رابح بلعيد، الحركة الوطنية الجزائرية1945-1954: دراسة ووثائق غير منشورة، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2016، ص 57

(60)Mahfoud Kaddache et Djillali Sari, L'Algérie pérennité et résistances(1830-1962), office des publications universitaires, Alger, 2009, p 99

(61) Mahfoud Kaddache, l'Algérie des algériens : de la pré histoire à1954, ENAG , réghia – Algérie, 2009, p760

(62) Ahmed Mahsas, le mouvement révolutionnaire en Algérie de la 1er guerre mondiale à 1954, l'harmattan, Paris, 1979, p231

(63) عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 313

(64) عبد الرحمان بن براهيم بن العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر الفترة الثالثة 1947-1954، ج3 ، ط2، منشورات السائحي، الجزائر،2008، ص 9-10-11

(65) عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ من العصور القديمة وحتى سنة 1954، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص 726

(66) Mahfoud Kaddache, T2، op .cit، p738

(67) Abderrahmane Kiouane , aux sources immédiates du 1er novembre 1954 :trois textes fondamentaux du ppa-mtld، édition dahlab, Alger, 2009, p25

(68) عثمان سعدي، المرجع السابق، ص 726

(69) محمد حربي، جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع 1954-1962، تر:كميل قيصر دانمر، دار الكلمة لبنان، 1983، ص 51

(70) Abderrahmane Kiouane, op.cit., p25

(71) محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ج1، ص126

(72) Mahfoud Kaddache , histoire du nationalisme algérien 1939-1951 ,T2 ,op.cit. ,p756

(73) عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 319

(74) محمد حربي، المرجع السابق، ص 67

(75) بن يوسف بن خدة، جدور أول نوفمبر 1954، ط3، تر: مسعود حاج مسعود، دار الشاطبية للنشر والتوزيع، الجزائر 2012 ص 243

(76) محمد يوسفي، الجزائر في ظل المسيرة النضالية: المنظمة الخاصة، ط2، منشورات ثالة، الأبيار –الجزائر، 2010، ص ص 179-180

(77) محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ج1، ص 137

الكاتب: د/ **ميلود عرنيبة**
كليةالآداب/مراكش

عنوان المقال: **من التحقيق إلى القراءة، قراءة في منهج تحقيق الشيخ شاكرللتراث (دلائل الإعجازنوذجا)**

البريد الالكتروني:molodarniba@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/04/20 **تاريخ القبول**: 2019/09/16 **تاريخ النشر**: 2019/12/31

من التحقيق إلى القراءة، قراءة في منهج تحقيق الشيخ شاكرللتراث (دلائل الإعجاز نموذجا)

From the annotation to the reading, a reading of Sheikh Shaker's approach in heritage's annotation (Dalai'l li'jaz examples)

الملخص بالعربية:

يرتبط هذا البحث بموضوع تحقيق التراث العربي الإسلامي، ويحاول استقصاء ملامح منهج التحقيق الذي وظفه واحد من أعلام هذا المجال هو الشيخ محمود محد شاكر في تحقيقه لكتاب دلائل الإعجاز للجرجاني. انطلاقا من ملاحظتين: الأولى هي مخالفة شاكر لغيره من المحققين في اختيار عبارة "قرأه" بدل عبارة "حققه" في بعض تصديرات الكتب التي حققها، والثانية اعتراف الشيخ شاكر، نفسه، بتطبيق منهجه في كل ماحققه من كتب، لنصوغ فرضية مفادها أن شاكر يتميز في تحقيقه للتراث عن بقية المحققين الآخرين، وذلك من خلال اعتماده منهجا هو أقرب للقراءة وإعادة الكتابة منها إلى التحقيق بمعناه العام. وهو اتجاه يستمد أسسه من المنهج الذوقي الذي شرعه الرجل لنفسه في قراءة التراث عموما، محاولين توضيح أهمية هذا المنهج في بعث كنوز التراث.

مسترشدين في كل ذلك بالأسئلة الآتية: ما حدود عملية تحقيق التراث؟ وإلى أي حد التزم محمود شاكر بهذه الحدود؟ وما الذي يميز قراءته لكتب التراث؟

الكلمات المفاتيح: التراث- التحقيق- المنهج الذوقي- القراءة- إعادة الكتابة

Abstract :

This research is related to the Arab Islamic heritageand it tries to follow the features of the literary tasting methodology, which is invented by Mahmoud Mohamed Chaker in his "Dali'l li'jaz's" annotation. We have led to this by two

remarks: The first one is that Chaker replaced the word "annotation" which is used by other annotators, with the word "read" or "explained". The second one is that he is admitting himself that he is applying his mentioned methodology in all of his processors for heritage books. Based on these two remarks we formulated the following hypothesis: Chaker's annotation of heritage is characterized by being out of the general meaning of "annotation" to another meaning, which is "reading"or "rewriting". Trying to explain the importance of this approach in the revival of heritage treasures. So, what are the limits of the heritage's annotation? To what extent did Mahmoud Shaker commit himself to these limits? What distinguishes his reading of heritage books?

Keywords: Heritage - Annotation - tasting methodology - Reading – Rewriting.

توطئة

وقفت عدة اعتبارات وراء اختيارنا لهذا الموضوع، وهي اعتبارات ذات طابع إشكالي و أبعاد مختلفة، يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي، ويمكن تلخيصها فيما يأتي:

1-أهمية التراث العربي:

فمعلوم أن تراث الأمة جزء لا يتجزأ من كينونتها، والرجوع إليه قراءة، وتحليلا ونقدا، ضرورة لا يمكن إغفالها، في ظل زمان تهيمن فيها ثقافات تحاول إلغاء الخصوصيات الثقافية الأخرى حتى يخلو لها المجال لتغزو العالم.

2-مكانة الشيخ شاكر في تحقيق التراث العربي:

فمن المعلوم أن الشيخ محمود شاكر يحتلمكانة الريادة -إضافة إلى أفذاذ آخرين- في تحقيق و قراءة كتب التراث العربي، وقد قدموا خدمة كبيرة لهذه الأمة في تعريفها بكنوز تراثها الثمينة.

3-التعرف على المنهج الذوقي لمحمود محمد شاكر:

ما دام الشيخ قد رفض هذه المناهج المتداولة في قراءة الأدب العربي وتحليله، باعتبار أنها تغفل خصوصية الأدب التراثي العربي، واستحدث منهجا جديدا نعته بـ" المنهج الذوقي"، فإن هذا الأمر يثير الفضول للتعرف على معالم هذا المنهج. وترّسم حدوده وآليات اشتغاله، ولا سيما في مجال التحقيق.

4-فرضية الموضوع:

انطلق هذا البحث من ملاحظتين: الأولى مخالفة شاكر لغيره من المحققين في اختيار عبارة "قرأه" بدل عبارة "حققه" في بعض تصديرات الكتب التي حققها، والثانية اعتراف الشيخ شاكر، نفسه، بتطبيق منهجه في كل ما حققه من كتب. وبناء على هاتين الملاحظتين بنيت فرضية البحث؛ إذ نرى أن منهج شاكر في تحقيقاته مخالف لمناهج الآخرين، وأن لمنهجه الذوقي الذي ابتدعه في قراءته أثرا في تمييز تحقيقاته.

فما حدود عملية تحقيق التراث؟ وإلى أي حد التزم محمود شاكر بهذه الحدود؟ وما الذي يميز قراءته لكتب التراث؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها، قسمنا هذا البحث إلى مقدمة، وفصلين. تحدثنا في المقدمة عن دواعي اختيار الموضوع، وفرضياته وإشكاليته كما سلف. وأما الفصل الأول فيتضمن تمهيدا في أهمية العناية بالتراث، وترجمة للشيخ محمود محمد شاكر، ثم محاولة لتحديد الفروق بين التحقيق والقراءة، مع التركيز على معالم القراءة عند شاكر، و خصائصها المميزة وأصولها.

و في الفصل الثاني تم تناول الحديث عن أثر القراءة الخاصة لشاكر في كتاب "دلائل الإعجاز"، من خلال مقدمته، ثم ختمنا ببعض الخلاصات.

وقد اقتصر البحث على قراءة في مقدمة المحقق لكتاب "دلائل الإعجاز" للجرجاني دون الدخول إلى متن الكتاب لأن عملية قراءته واستقصاء معالم وتجليات قراءة شاكر فيه عملية تحتاج إلى جهد أكبر، ووقت أطول، وربما كانت مناسبة لرسالة جامعية.

الفصل الأل: الشيخ شاكرومفهوم القراءة في تحقيقاته.

1-تمهيد : أهمية العناية بالتراث

من أهم ما تستند إليه هذه الأمة في الاعتزاز بسبقها الحضاري، وماضيها المشرق الذي كانت تحتل فيه مكانة ريادة الأمم تراثها الفكري؛ هذا الكنز الثمين والميراث العظيم الذي خلفه أسلافنا من العلماء -الذين يرجع لهم الفضل في هندسة فسيفساء الثقافة العربية الإسلامية- جدير بأن نقف له وقفة إجلال واعتزاز.

فكنز بهذا الحجم، و بهذه القيمة العلمية، لحري بأن يُنفض عنه الغبار الذي كسا واجهات بعض مخطوطاته القيّمة في رفوف الخزانات والمتاحف لا سيما ونحن في زمن ثورة العلم، هذا السلاح الذي أصبح من أهم المؤشرات التي تقاس به درجة أي أمة وتقدمها بين

باقي الأمم. يقول أبو فهر مجليا هذه الأهمية: "إن في هذا الشرق لميراثا نبيلا من الأعمال والأخلاق والآداب والسياسات."[1]، ولكن، للأسف، سحب النسيان ذيوله بلا هوادة على هذا الميراث، بسبب تقاعس الباحثين العرب، وتكاسلهم عن إعادة نبشه وبعثه من جديد، من أجل اكتشاف معالم حضارتهم التاريخية من جهة، ومن أجل الاستفادة من منجزات هذه الحضارة في حاضرهم واستشراف مستقبلهم، من جهة أخرى، في إطار قراءة تمشي في الاتجاهين من وإلى الماضي والحاضر، في حركة دائبة، وعلاقة جدلية، تنطلق من الحاضر إلى الماضي ثم ترتد إلى الحاضر دون توقف، لأن هذه الحركة، كما يقول أحد الدارسين العرب، هي "التي تؤكد الحياة وتنفي سكون الموت"[2].

وميراث منسي مهمللايجديمنخيرعلىأمة في أمس الحاجة إليه؛ لذلك فإن مطلب الاهتمام بالتراث، بجميع مجالاته، مطلب ملح في العصر الحالي، يقول الشيخ موضحا ذلك: "هذاالميراث المجهول في حاجةإلى من ينفض عنه غبار القدم، وأتربة الإهمال، ويزيل عنه أردان الجهل والخمول، ويجلوه مرةأخرى على أعين الناس مضيئا مشرقا يتوهج بأنواره كأحسن ما يتوهج"[3].

إن عودة الأمة العربية إلى تراثها هي عودة إلى ماضيها الذي، ينبغي، ألا يُفصل بأي حال عن حاضرها ومستقبلها معا، لأن هذه العودة هي التي ستمكنها من أن تفهم الحاضر، و تستشرف المستقبل بعد أن تعرف حق المعرفة المكانة التي أرادها الله لها بين الأمم والخيرية التي اصطفاها بها سبحانه و تعالى إذ يقول: {**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِوَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه** }[4].

و ليس منا من لا يتقطع قلبه كمدا على الكم الكبير الذي ضاع من تراثنا الفكري نتيجة النكبات العظيمة التي أصابته على مر العصور، فهذه أخبار التاريخ تصور فعلة هولاكو الشنيعة وجنوده؛ إذ اتخذوا من الكتب العربية جسرا عبروا عليه نهر دجلة، أضف إلى ذلك ما أحرقه الصليبيون في حملاتهم المسعورة على البلاد الإسلامية، و ذلك حسدا من عند أنفسهم.

و في ظل تزايد بسط العولمة لهيمنتها على العالم، و التي تسعى إلى خلق النموذج الوحيد الذي لا يعترف بغير الثقافة الغربية، يزداد الإحساس عندنا بقيمة هذا التراث، ويصبح رد الاعتبار إليه ضرورة ملحة، وذلك من خلال جمعه وتحقيقه، ونشره وتوزيعه، وقراءته قراءة تحليلية واعية وناقدة، بقصد الاستفادة منه، دون الوقوف أمامه وقفة المعتد به الذي ينأى

عن التفاعل معه، ومن أجل محاورته لاستخلاص الدروس والعبر منه، باعتباره معطى حضاريا كان له الأثر الكبير في تقدم الأمة العربية في زمن من الأزمان السالفة، ينبغي تحيينه وترهينه.

و قد تصدى لهذه المهمة الجليلة عدد من المفكرين والكتاب المعاصرين، فنذروا حياتهم لمسؤولية تحقيق التراث وجمعه وترتيبه في صورة تقربه من القراء وتساعدهم على فهمه. و من بين هؤلاء الأفذاذ العلامة أبو فهر محمود محمد شاكر. فمن يكون هذا العلامة؟

2-ترجمة محمود محمد شاكر[5]

محمود بن العلامة الشيخ محمد شاكر بن أحمد، من آل أبي علياء، أشراف مدينة جرجا إحدى مدن صعيد مصر. ولد في محافظة الإسكندرية عام 1327 هـ - 1909 م، ومع 1922 أتم حفظ القرآن، وبدأ بالتتلمذ على يد الشيخ العلامة سيد بن علي المرصفي (ت. 1931 م)، فقرأ عليه كتاب "الكامل" للمبرد، وحماسة أبي تمام، وشيئا من أمالي القالي... تعرف على الدكتور طه حسين، الذي كان أيضا يتردد على الشيخ المرصفي للقراءة عليه.

في عام 1926 حصل على شهادة الباكالوريا قسم العلوم، فقرر الالتحاق بكلية الآداب بقسم اللغة العربية، و كان مديرها آنذاك يرى أن لا حق لحامل الباكالوريا العلمية في الالتحاق بالكليات الأدبية، فتوسط لديه طه حسين مزكيا، فكان وراء قبوله بالكلية.

ظل في الكلية حتى نشب بينه وبين أستاذه ذلك الخلاف الشهير في مسألة الشعر الجاهلي، موقنا أن ما توصل إليه أستاذه ليس من البحث العلمي النزيه المجرد... فاشتد الأمر واحتدم، فسقطت صورة الجامعة المثالية من صدره فقرر تركها مغادرا مصر سنة 1928.

وفي ما بين سنة 1929 و 1932 انصرف إلى قضية الشعر الجاهلي، فأعاد قراءة التراث الإسلامي قراءة شاقة صبور، طالبا اليقين فيها لنفسه.

اختير عضوا مراسلا لمجمع اللغة العربية بدمشق منذ سنة 1980، و في سنة 1981 منح جائزة الدولة التقديرية في الآداب، و في أواخر عام 1983 نال جائزة الملك فيصل العالمية.

توفي رحمه الله سنة 1997، عن ثمان وثمانين سنة مخلفا وراءه مجموعة من المؤلفات و التحقيقات.

ومن أهم الكتب التراثية التي حققها محمود شاكر:

-"رسالة فضل العطاء على العسر" لأبي هلال العسكري، المطبعة السلفية، 1934، وهي من أوائل ما أخرج من التراث، و لم يكن تجاوز الخامسة و العشرين؛

-"طبقات فحول الشعراء" لمحمد بن سلام الجمحي، دار المعارف، 1952، ثم أعاد تحقيقه وطبعه بمطبعة المدني سنة 1974؛

-" تفسير الطبري" صدر منه 16 مجلدا، ولم يتممه، دار المعارف، 1969؛

-"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني، مكتبة الخانجي، 1984.

3-بين التحقيق والقراءة، فروق في المصطلح والإجراء

عندما نتناول بين أيدينا كتابا من كتب التراث التي (حققها) الشيخ شاكر – نضع الكلمة بين قوسين لأن التحقيق عنده قد لا يعني ما يعنيه عند محققين آخرين- فإن أول ما يثير انتباهنا هو تعويضه العبارة "تحقيق" - التي يكتبها المحققون في كتبهم- بعبارة أخرى، وهي : إما "حققه وشرحه" أو "قرأه و شرحه". فما الفرق بين القراءة و التحقيق؟

1-3-التحقيق:

أ-التحقيق لغة:

التحقيق مصدر من الفعل حقق يحقق تحقيقا، وأصله هو الفعل المضعف العين (حقّ). "وحقه يحقه وأحقه كلاهما اثبته وصارعنده حقا لا شك فيه، وحقّ الأمر يحقه حقا وأحقه. كان منه على يقين. تقول: حققت الأمر وأحققته إذا كنت على يقين منه"[6]. و ذكر ابن فارس أن "الحاء و القاف أصل واحد، و هو يدل على إحكام الشيء و صحته"[7] . و إذا جُعل صفة للكلام فـ"كلام محقق: محكم الصنعة رصين"[8].

من خلال هذه المعاني اللغوية يتضح أن كلمة "التحقيق" تدور في فلك إحكام الشيء وصحته، بل إثباته. فهل لهذه المعاني ارتباط بالمدلول الاصطلاحي للكلمة؟

ب-التحقيق اصطلاحا:

لا شك أن المدلول اللغوي لكلمة "التحقيق" له أثره في تشكل المعنى الاصطلاحي لهذا المفهوم والذي يتمثل في "إخراج الكتاب على أسس صحيحة محكمة من التحقيق العلمي في عنوانه، و اسم مؤلفه، ونسبته إليه، وتحريره من التصحيف والتحريف، والخطإ، والنقص والزيادة"[9]. إن عملا مثل هذا لجدير بأن يسفر عن قراءة صحيحة خالية من الأخطاء بصورة تقرب المخطوط من القارئ كما لو أن العملية تمت بيد مؤلفه. وهذا المعنى يؤكده قول عبد السلام هارون –و هو أحد أعمدة المحققين للتراث العربي*- إذ يرى أن تحقيق متن كتاب هو "أن يؤدى أداء صادقا كما وضعه مؤلفه كما وكيفا بقدر الإمكان"[10].

بناء على هذين التعريفين نستخلص بعض الآداب والشروط التي يجب على المحقق الالتزام بها على النحو الآتي:

- عدم تغيير أسلوب المؤلف؛
- عدم تأويل متن النص؛
- عدم الزيادة في متن النص المحقق؛
- عدم تعويض كلمات الكتاب بكلمات أخرى على وجه الاستحسان؛
- عدم التغيير في الكيفية التي رتّب بها المؤلف فقرات كتابه.

فهل هذه الشروط – التي يلخصها مبدأ الأمانة العلمية. هي نفسها التي تقتضيها عملية القراءة؟!

2-3-القراءة

أ-لغة

جاء في لسان العرب: "قرأة يقرأه (الأخيرة عن الزجاج) قرأ وقراءة وقرآنا (الأولى عن اللحياني) فهو مقروء... ومعنى القرآن الجمع، وسمي قرآنا لأنه يجمع السور، فيضمها... وقرأت الشيء قرآنا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض. ومعنى قرأت القرآن لفظت به مجموعا"[11]. وعندما يتعلق الأمر بالكتاب المكتوب فإن القراءة والقرآن معا يعنيان "تتبع كلماته نظرا و نطقا بها"[12].

من خلال هذه التعاريف نستشف أن القراءة بالمعنى اللغوي تعني ما يأتي:

-عملية التعرف على الحروف وطريقة تركيبها، وربط المكتوب بالمقول؛

-أنها إذاعة نص مكتوب(حروف و كلمات) بصوت مسموع؛

-انتقال من المكتوب عبر فك شفراته إلى المنطوق وفق قواعد وقوانين معلومة.

إن هذه الدلالة اللغوية تشير إلى معنى عام لفعل القراءة يندرج ضمن إطار تعليمي محض، هدفه هو فهم النص المقروء، من خلال الانتقال من الدوال (الكلمات المرسومة خطا) إلى المدلولات المعنوية (التصورات، والمفاهيم). إنه معنى يطال كل الكتب والمؤلفات باختلاف أشكالها، ويعنى بقارئ عام. فهل للدلالة الاصطلاحية لكلمة "القراءة" معنى غير هذا؟

ب-اصطلاحا

تعني القراءة ملاحظة مجموع العلامات المكونة لأي نص بغرض فهمها والكشف عن معناها الذي يتوارى خلف أساليبها وكلماتها، ولقد أولت السيميائيات اهتماما كبيرا لعملية القراءة باعتبارها نشاطا يهدف إلى بناء دلالة النص المقروء، وتعرفها السيميائيات الأدبية "بأنها تشغيل مجموعة من عمليات التحليل وتطبيقها على نص معين وتقدم هذه القراءة نفسها كإنتاج مقابل للوصف أو الشرح الكلاسيكي للنص الأدبي. إنها قراءة لاشتغال النص أي للعمليات التي تؤسسه كنص من النصوص؛ أو هي قراءة لإنتاجيته، وتتسم بكونها قراءة غير منتهية ما دامت تظل مفتوحة أبدا على قراءات أخرى"[13].

يتضح مما سبق أن القراءة اصطلاحا تتضمن القراءة لغة، إنهما عمليتان مختلفتان؛ تهتم الأولى منهما بفك رموز المكتوب، أما الثانية فتحفر في الدلالات الكامنة وراء سطور الكتاب والمتوارية خلف ثناياه.

3-3-القراءة عند الباحثين المعاصرين ومحمود شاكر

أ-القراءة في الدراسات الأدبية

قد يتطور مصطلح "القراءة"، في الدراسات الأدبية فيشير إلى ما يقصد به عادة بالنقد – وإن وجدت بعض الاختلافات- فالنقد هو أيضا قراءة، لكنها قراءة من نوع خاص، تحاور النصوص مستندة إلى منهج معين يتأسس على خلفية أو خلفيات معينة[14]. وهذا هو المعنى الذي يميل إليه الباحثون المعاصرون، فالقراءة عندهم "ليست ذلك الفعل البسيط الذي يمر به البصر على السطور، و ليست هي أيضا بالقراءة التقبلية التي نكتفي فيها عادة، بتلقي الخطاب تلقيا سلبيا، اعتقادا منا، أن معنى النص قد صيغ نهائيا وحدد فلم يبق إلا العثور عليه كما هو، أو كما كان نيةفي ذهن الكاتب. إن القراءة [...] فعل خلاّق يقرب الرمز من الرمز، و يضم العلامة إلى العلامة، و يسير في دروب ملتوية جدا من الدلالات"[15].

ب-اختلاف القراءات

ما يميز القراءات المعاصرة هو اختلاف مشاربها وتعدد فلسفاتها ومنطلقاتها، ولكن يوحدها جميعا شيء واحد و هو اعتماد كل منها على منهج معين بغض النظر عن خصائص هذا المنهج. إن هذا الاختلاف هو اختلاف استراتيجي وهو الذي يميز تصور كل ناقد/قارئ عن غيره. وهذا الاختلاف في التصور هو الذي يرقى بالقراءة وينأى بها عن درجة الوصفية الاستنساخية للعمل الأدبي، مما ينتج تفسيرات وتأويلات متباينة للنص الواحد تختلف

باختلاف قرائه "على اعتبار أن زوايا النظر عند هؤلاء غالبا ما تكون مختلفة من جهة، كما يعود اختلافهم في تفسير العمل الأدبي إلى الخصوصيات التكوينية والثقافية التي تنوء بحملها رؤيتهم التحليلية"[16]. فما معالم منهج القراءة عند محمود شاكر؟

ج-القراءة الذوقية عند شاكر:

لقد انكب محمود شاكر – كما رأينا في ترجمته- على قراءة كتب التراث، وإعادة قراءتها، حتى اكتملت لديه -حسب قوله- أسس منهج نقدي خاص، بعدما وقف على باقي المناهج الموجودة و لم يجد فيها ملاءمة لقراءة التراث العربي. وقد تشكلت أسس منهجه بعد إطالة نظر في كتب العرب القدمى، يقول واصفا هذا المسار: "فأقدمت إقدام الشاب الجريء على كل ما يقع تحت يدي من كتب أسلافنا"[17]، من التفسير إلى كتب اللغة والتاريخ، سالكا طريق الأقدم فالأقدم.

إنها قراءة متعمقة تتجه إلى مفاصل النصوص الداخلية وتهتم بامتداداتها معززة العلاقة بين القارئ والنص، الشيء الذي مكنه من العثور "على فيض غزير من مساجلات خفية كالهمس، ومساجلات ناطقة جهيرة الصوت، غير أن جميعها إبانة صادقة عن هذه الأنفس والعقول"[18].

و كان همه في ذلك كله أن يستطيع النفوذ إلى أعماق النصوص العربية ويتمكن من تذوقها تذوقا يسعفه في فهم خبايا النفوس التي أنتجتها، لأنه كان يرى فيما ألفه القدماء كشفا عما تموج به النفوس، وتنبض به العقول. واستمر يشق طريقه الصعب هذا إلى أن تمكن من أن يمهد لفكره طريقا خاصا يسير فيه على بصيرة، وهو الذي صار فيما بعد منهجا يلتزمه فيما يقرأ ويكتب. ولم يكن هذا بالأمر الهين عليه؛ يقول موضحا معاناته مع فهم أقوال السلف :"ولقيت العنت وما فوق العنت في التردد ما بين الخطأ والصواب في فهم ما يقولون، فأسلمني ذلك إلى حالة من الشك تأخذ بأكظامي، وأنا أقرأ بعض كلامهم حتى ما أطيق أن أتنفس، وأظل حائرا متهيبا أن أقول برأي قاطع في فهم ما أقرأ، وتغلبني غمرة طاغية من قلة الثقة بفهمي وبمعرفتي"[19].

و يشرح أحد اهم منطلقات منهجه فيقول: "في نظم كل كلام وفي ألفاظه ولا بد، أثر ظاهر أو وسم خفي من نفس قائله وما تنطوي عليه من دفين العواطف والنوازع والأهواء من خير وشر أو صدق وكذب، ومن عقل قائله وما يكمن فيه من حنين الفكر(أي مستوره) من نظر دقيق، ومعان جلية أو خفية"[20]. هذه هو منهج "تذوق الكلام" الذي يعنى بالتنقيب عن

دفائن النصوص، وتسليط الضوء على الجوانب المظللة منها، وإماطة الحجاب عن أسرارها الخفية. كل ذلك من خلال التريث في تتبع معاني ألفاظ اللغة العربية، وطرق دلالاتها المباشرة والمجازية، ويوضح النص الآتي هذا المسار الصعب: "ومعنى ذلك أن ألجأ إلى تحليل الألفاظ ثم الجمل تحليلا دقيقا، من خلال النص كله، طال أو قصر، ثم أعيد تركيبه بعد أن يزول كل غموض يكتنف الألفاظ، وكل تشقيق يسري في الجمل، وكل انتشار يبعثر مقاصد كاتبه على أنظارنا نحن المحدثين من أهل العربية"[21].

وهناك منطلق آخر استلهمه، كما ذكر، من الأئمة والعلماء والشيوخ يتمثل في كونهم "يردُّون الكلام المنقول المكتوب إلى العقل – بعدالتحرِّي للفظه المكتوب – اتِّقاءً لما عَرَفوه من تحريف الناسخين، وانتحال المبطِلين وغفلة الجاهلين"[22].

هذا المنهج القرائي شبيه بما يطلق عليه في النقد الحديث "التحليل النصي" "الذي يفتح الطريق ليصبح النص الأدبي هو بؤرة التحليل، دون إقصاء كلي للكاتب أو القارئ أو السياق"[23]، وهو يقوم على شقين: الشك الداعي إلى التنقيب والبحث المتأني لقطعه باليقين، والتحليل القائم على تفصيل مقاطع النص وتفتيتها ثم إعادة تركيبها وصياغتها وفق ما أنتجته سيرورة الفهم.

د-أصول القراءة الذوقية عند شاكر:

لا يزعم الشيخ أنه ابتدع منهجه من عند نفسه، ولكنه يعترف في تواضع ذكي أنه إنما استنبطه من المناهج المبثوثة في كتب رواد التراث العربي، بعد جهد جهيد، وتعب مضن، ومعاناة في التفتيش. فتكلف عناء تقصي مبادئ هذا المنهج بين ركام الكتب، ويلخص تجربته العلمية هذه قائلا: "وكل ما وقفت عليه من ذلك كان خفيا فاستشففته، ودفينا فاستنبطته، ومشتتا فجمعته، ومفككا فلاءمت بين أوصاله"[24].

و قد كان يزعم أنه سبّاق إلى منهجه هذا إلى أن اكتشف سنة 1935 أصالة هذا المنهج عند أحد أعلام التراث العربي، وهو عبد القاهر الجرجاني، وقد حصل ذلك في تلك السنة التي طبع فيها كتاب "الرسالة الشافية" للجرجاني. إنه اعترف بالتأثر بالمفاهيم النقدية التي أسسها عبد القاهر الجرجاني في رسم معالم منهج التذوق، لا سيما في قضية إعجاز القرآن التي عالجها في نظرية النظم التي يمكن من خلالها –حسب الجرجاني- تحليل الألفاظ والجمل والتراكيب في جمعها من أجل الوصول إلى كشف اللثام عن أسرارالمعاني الموجودة في ضمائر منشئيها.

و يوافق القدماء على نهجهم في التأليف إذ يعتبر أنه ليس من الواجب على الكاتب أن يبدأ بشرح مستفيض لمنهجه في القراءة والكتابة، وكأنه يقول هذا منهجي، ثم يأتي في متن كتابه فيقول وهذا تطبيقي له؛ بل يرى أن عكس هذا المنحى هو الصحيح المعقول، "وهو أن يكتب الكاتب مطبقا منهجه، وعلى القارئ والناقد أن يستشف المنهج ويتبّينه"[25].

ه-هل وظف شاكر منهجه الذوقي في تحقيقاته؟

كما مر معنا، فشاكر كان من ثمرة إقباله على كتب التراث بالقراءة والتأمل أن ابتكر لنفسه منهجا ذوقيا، استطاع أن يقيمه على أسس استنبطها من المناهج المتفرقة في كتب القدامى، وأكثر تأثره كان بكتابات شيخه عبد القاهر الجرجاني.

لقد صرح شاكر في أكثر من موضع بأن اقتناعه بجدوى منهجه الذوقي كان كبيرا جدا، إلى حد جعله يطبقه في كل ما يقرأ ويكتب، يقول: "مطبقا هذا المنهج في مقالاتي التي نشرتها في الصحف والمجلات قديما وحديثا، سواء كان ما كتبته بحثا أو نقدا أو تعبيرا عن ذات نفسي في كل منحى من مناحي القول والبيان أو تعليقا على أصول الكتب القديمة التي نشرتها وتخريجها للناس"[26]. ومما يستدل به في هذا الباب، أيضا، قوله معلقا على كتاب "طبقات فحول الشعراء" للجمحي الذي حققه: "وحتى عنوان هذا الكتاب نفسه لم يسلم عندي من الشك والتحليل"[27].

الفصل الثاني: تجليات القراءة في تحقيق شاكر لدلائل الإعجاز

1-صفحة الغلاف الأولى:

تتضمن صفحة العنوان ثلاثة عناصر، لا يكاد يخلو واحد منها من إشارة إلى خصوصية القراءة عند محمود شاكر.

1-1-العنوان:

"**دلائلالإعجاز**" عبارة كتبت بخط أكبر بكثير من الذي كتبت به كلمة "كتاب"، ثم أتبعه بعبارة –خطها أصغر- كتب فيها: "تأليف الشيخ الإمام أبي بكر، عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني النحوي تغمده الله بغفرانه المتوفى سنة 471= أو سنة 474هـ (الأعداد كتبها بكتابة المشارقة).

كان أمام محمود شاكر عدة مصطلحات يمكن أن يصف بها عبد القاهر، من مثل "اللغوي"، و"العلامة"، و"البلاغي"، وغيرها، لكنه آثر صفة النحوي على غيرها، واختيار هذه الصفة لم يكن عبثا، وإنما هو نتاج القراءة التذوقية لكتاب "دلائل الإعجاز"، فمعلوم أن

الفكرة الأساس التي يدور حولها مضمون الكتاب هي فكرة النظم، والنظم كما يقول الجرجاني ليس "إلا أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه "علم النحو" وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"[28].

2-1-عبارة "قرأه و علق عليه" أبو فهر محمود شاكر

هذه العبارة، تدل على خصوصية العمل الذي يقوم به الشيخ شاكر، واختلافه عن عمل المحققين الآخرين، وقد سبق تفصيل القول في الفرق بين التحقيق والقراءة، وخصوصية القراءة عند شاكر.

3-1-المقتبسة / التصدير

هي عبارة عن بيتين لأبي العلاء المعري هما:

مِنَ الناسِ مَن لَفظُهُ لُؤلُؤٌ   يُبادِرُهُااللَقطُ إِذ يُلفَظُ

وَبَعضُ هُمُ قَولُ هُكَالحَصى   يُقالُفَيُلغىوَلايُحفَظُ

و أشار إلى قائلهما بعبارة "شيخ المعرة". ومن المعلوم أن المقتبسة عبارة عن جملة أو عبارة توجيهية، تنطوي على فكرة أو حكمة، يوظفها المؤلف في الصفحات الأولى من كتابه، وذلك في إشارة إلى القصد العام من الكتاب، و قد عرفها جيرار جيننيت بقوله "إن التصدير لحظة صامتة، وحده التأويل من يخضعها للقراءة لينطق صمتها"[29].

ويبدو أن هذه المقتبسة تضمر إشارات غير مباشرة نلخصها فيما يأتي:

أ-إشارة إلى أهمية المنهج الذوقي في سبر أغوار نصوص التراث، إذ أن تمييز اللفظ الجزل والعذب الشبيه باللؤلؤ عن نقيضه المبتذل المستكره لا يتأتى إلا لمن له قدرة على تذوق كلام العرب القدامى.

ب-إشادة بالقدامى، وبالتراث العربي، وبالخصوص الجرجاني الذي تأثر الكاتب كثيرا بأسلوبه في التذوق، وهي دعوة ضمنية إلى العودة إلى التراث والاهتمام به جمعا وقراءة وتحقيقا.

إن هذه المقتبسة توجه القارئ إلى نوع القراءة التي يريد شاكر أن ينهجها كل قارئ لكتاب دلائل الإعجاز.

2-المقدمة[30]

1-2-تقليد القدامى في افتتاحاتهم

على عادة القدامى يفتتح شاكر مقدمته بتمجيد الله تعالى وحده، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يفته في هذا الافتتاح أن يشيد باللغة العربية - التي ندب نفسه في كل أعماله للاهتمام بها- رابطا قيمتها بعظمة القرآن الذي نزل بها.

2-2-نتائج قراءة شاكر التذوقية لـ "دلائل الإعجاز"

يصرح شاكر بأن كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني كان أول الكتب التي تذوقها حين شق طريقه إلى تذوق الكلام المكتوب منظومه ومنثوره، ويمكن تلخيص نتائج قراءته في أربعة أمور:

الأول: أن عبد القاهر كان يريد أن يؤسس بكتابه هذا علما جديدا استدراكا على الأئمة الذين كتبوا من قبله في البلاغة وفي إعجاز القرآن. غير أنه استغرب من أن عبد القاهر لم يسر سيرة من يؤسس علما جديدا كما فعل سيبويه (ت. 180 ه) في كتابه وابن جني (392ه) في خصائصه، وقد خالف منهجه نفسه الذي سار عليه في "أسرار البلاغة"، وفسر هذا الاضطراب بأن عمل عبد القاهر في الدلائل كانت تشوبه حمية جارفة لذلك لم يتأن في تبويب الكتاب وتقسيمه وتصنيفه، وكأن منازعا كان ينازعه كل فكرة يريد أن يبنيها.

الثاني: أنه لاحظ أن بعض الأقوال رددها الجرجاني في كتابه أكثر من مرة، ولم ينسبها لقارئ معين، ويربط موضوع الكتاب كله بالرد على هذين القولين لإبطال معناهما، والقولان هما: "إن المعاني لا تتزايد، وإنما تتزايد الألفاظ" و"إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، ولكن تظهر بالضم على طريقة مخصوصة".

الثالث: هو أن عبد القاهر عرّض في مواقف متفرقة من كتابه بأصحاب اللفظ، وبالذين يقولون "بالضم على طريقة مخصوصة"، وأوهموا أنه النظم الذي ذكره الجاحظ في صفة القرآن.

الرابع: أن عبد القاهر جمع بين القولين السابقين وبين أصحاب "الصرفة"[31] من المعتزلة، مما جعله يشكك في أن هناك علاقة بين هذين القولين وأصحاب "الصرفة".

3-2-اكتشاف الإجابة عن السِؤال المحيّر

اعترف شاكر بأنه منذ ذلك الشك الذي ساوره ظل حائرا، طيلة ثلاثين سنة حتى كاد ينسى الأمر، ولكن صدور الجزء السادس عشر من كتاب "المغني" للقاضي عبد الجبار، هتك له الحجاب، وأزال له النقاب عن الخصم الذي كان يستهدفه الجرجاني، و يكني عنه دون التصريح به.

لقد ألفى أن تلك الأقوال التي رددها الجرجاني موجودة بلفظها في كتاب "المغني" بالإضافة إلى أقوال أخرى، خصوصا تلك التي ذكرها القاضي في موضع حديثه عن "إعجاز القرآن".

ولا يخفى ما في هذا البحث والتقصي من استحضار قوي لسياق تأليف الجرجاني لكتابه، وهو ما فتح له العديد من مغاليق هذا النص الذي يمثل أبر ركائز البلاغة العربية.

3-ما بعد الاكتشاف

3-1-أثر معرفة خصم الجرجاني في قراءة شاكر للدلائل

لقد كان اكتشاف هذه العلاقة بين كلام عبد القاهر وكلام القاضي الجرجاني بمثابة الكنز الثمين الذي ظل شاكر ينقب عنه ردحا طويلا من الزمن، فتولد لديه الدافع إلى إعادة قراءة كتاب "دلائل الإعجاز"، قراءة تستحضر السياق الذي أنتج فيه الجرجاني خطابه هذا. و يعتبر أنه لا ينبغي لكل قارئ للدلائل أن يغفل هذه العلاقة، أو يتهاون فيها أثناء قراءته لهذا الكتاب؛ إذ أن المقصدية العامة من تأليفه إنما هي نقض كلام القاضي عبد جبار في "الفصاحة"، والكشف عن فساد أقواله في مسألة اللفظ.

و يشير إلى خطورة إغفال هذا السياق المبني أساسا على هذه العلاقة، لأن إغفاله –في رأيه- أدى ويؤدي إلى غلط فاحش في فهم مسألة "اللفظ" و"المعنى" عند عبد القاهر في دلائله، فكلاهما -حسب تعبير شاكر- لم يفهم على حقيقته التي أرادها عبد القاهر.

3-2-تحقيق الدلائل أم قراءته وإعادة كتابته؟

في خاتمة مقدمته، وبعد أن يحمد الله على ما من عليه من تولي قراءة هذا السفر الجليل

و التعليق عليه، يسأله تعالى أن يعنيه على ما أقحم نفسه فيه من عمل يريد به وجهه سبحانه وتعالى، مبينا أن غايته في ذلك كله هي خدمة هذه اللغة الشريفة النبيلة.

لقد حاول الشيخ شاكر أن يلتمس العذر لنفسه فيما قام به من ترتيب لعناصر كتاب الدلائل، وإعادة تصنيف فقراته وفق قراءته الخاصة، إذ يرى أن هذا العمل كان نية عبد القاهر، ولولا أنه كتب الكتاب في أواخر حياته، لفعل، إذ اخترمته المنية قبل أن يبلغ مراده. هذا إضافة إلى أن شغله الشاغل إنما كان هو الرد على خصومه الذين تأثروا بأقوال القاضي عبد الجبار، مما حال بينه و بين إعادة النظر في كتابه.

إن هذا التدخل الذي أذن به شاكر لنفسه ينأى بتصوره للتحقيق إلى بعد أكثر عمقا أساسه القراءة العميقة التي لا تكتفي باستنساخ النص المحقق ولكنها تقوم على إعادة إنتاجه، وتترجم عن نية المؤلف التي لم يتمكن من بلورتها في حياته نظرا لظروف خاصة حالت بينه وبين هذا المراد. وهو إجراء أباحه لنفسه في تعامله مع كتب التراث عموما، مبررا ذلك بأنه ليس من اختراعه الخاص، ولكن استلهاما من شيوخه القدامى، يقول : "ونحن إنما نمضي على سُنَّتهم - إنشاءالله – ولانقف عند القول نخرُّ عليه تعبُّدً الِحَرْفِه، وخضوعًا لنصِّه،ولئنفعلن المَحَق الله منَّا نصف العقل وبقي النصف الآخر متردِّدًا بين قال فلان وكَتَبَ فلان"[32].

3-3-الطابع التوجيهي في قراءة شاكر

يلخص شاكر غايته من هذا التقديم الذي صدر به كتاب "دلائل الإعجاز" قائلا: "هذا ما أردت أنبه إليه، ليعيد الدارسون النظر في كتاب عبد القاهر، وفي قضية "اللفظ" و"المعنى" التي اختلط الأمر فيها اختلاطا شديدا أدى إلى فساد كبير في زماننا هذا"[33].

إنها دعوة صريحة إلى قراءة موجهة، تستحضر سياق إنتاج الخطاب الجرجاني، وبالتالي فنتيجة هذه القراءة محسومة بشكل كبير، إذ كلما كانت الانطلاقة واحدة، والمسير في طريق معلوم دون التفات كلما كانت نسبة تشابه النتائج أكبر.

بهذه التوصية يكون الشيخ يوجه النص ويبين معناه على نحو يجعله نصا ميسرا لطلاب المعرفة، وذلك لأن قراءته ترفد عن خبرة عالية وموسوعية عميقة بطريقة كتابة العرب القدامى، من حيث منطقها، وأساليبها. ألبس المؤلف من تفسيراته وتأويلاته الخاصة الناجمة عن فعل القراءة ما جعل منه يصبح وكأنه هو صاحبه ومبدعه.

وعموما فإن الخلاصة التي يمكن الخروج بها من تصور الشيخ شاكر لمفهوم التحقيق هي أنه عملية تتجاوز نسخ الكتاب على النحو الذي وضعه عليه صاحبه إلى قراءته القائمة على التحليل وإعادة التركيب، وهو فعل أقرب ما يكون إلى مفهوم آخر هو مفهوم إعادة الكتابة، الذي ظهر في السنوات الأخير.

خلاصات

1-اتضح أن اختيار محمود شاكر لعبارة "قرأه" بدل عبارة "حققه"، لم يكن عبثا، بل كان فعلا مقصودا، ناتجا عن قناعة شخصية لشيخنا بأن التعامل مع كتب التراث يحتاج إلى قراءة بالمعنى الذي يحدده. إنه يضع بذلك حدا فاصلا بين عمله، وعمل غيره من أعلام التحقيق.

2-آمن الشيخ شاكر بخصوصية التراث العربي في الثقافة العربية مما جعله يختلق منهجا جديدا يراه بأنه المنهج الأنسب للتعامل مع كل الكتب التي ورثناها عن أجدادنا.

3-لم يبتدع الشيخ شاكر منهجه الذوقي ابتداعا من عند نفسه، وإنما وجد أسسه نتفا متفرقة في كتب القدامى، فثابر على استقصائها وجمعها إلى أن صيّر منها منهجا مستقلا، متأثرا في ذلك بشكل خاص بشيخه عبد القاهر الجرجاني.

4-يشدد الشيخ شاكر على ضرورة استحضار تفاصيل سياق إنتاج الخطاب، في قراءة كتب التراث، مما جعله يقرأ كتاب الدلائل قراءة جديدة بعد أن اكتشف أن مدار الكتاب كله كان على الرد على أقوال القاضي عبد الجبار.

5-تحقيق شاكر لكتاب الدلائل يتخذ صورة قراءة توجيهية-إرشادية، تسعى إلى توجيه القارئ إلى نقاط معينة في الكتاب، أي أنها قراءة في خط معلوم دون تعثر أو التفات، وهذا المسعى هو الكفيل بالتوصل إلى المعنى أو المعاني التي كان الجرجاني يقصدها.

6- إنه يجعل من نفسه قارئا يسند إلى نفسه مهمة النيابة عن القراء الآخرين في اختيار منطلقات القراءة.

7-يبيح الشيخ شاكر لنفسه في عملية القراءة لكتب التراث ما لا يبيحه المحققون لأنفسهم،

و يطبع الكتاب بطابعه الخاص مما يظهر معه هذا الكتاب وكأنه من تأليف شاكر الخاص.

8-إن أي قراءة إنما هي حصيلة عملية تأويلية يقوم بها القارئ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تطابق تماما قراءة المؤلف الحقيقي، مما يطرح معه السؤال الآتي: من أين تستمد قراءة لتراث من هذا النوع مشروعيتها في ظل مطلب الأمانة العلمية في نقل التراث؟

لا شك أن الشيخ شاكر كان صادقا في هذه القراءة التي أنجزها، ولا يمكن، في اعتقادنا الجزم بصدقيتها تمام، إلا في ظل وجود قراءات أخرى تحاورها وتناقشها؛ تبين مكامن القوة والضعف فيها، وهذا هو المسعى الصائب للنهوض بفعل القراءة، الذي يتعدى فعل النسخ

بآفاته كما وضحها الجاحظ بقوله: "ثم يصيرُهذاالكتاب بعد ذلك نسخةًلإنسان آخَرَ،فيسير فيه الورَّاقُ الثاني سيرَةَ الوَرَّاق الأوَّل، ولاتزال تتداوله الأيدي الجانية، والأعْرَاض المفسِدة، حتَّى يصير غَلَطًا صِرفًا وكذِبًا مُصمتًا، فما ظنُّك مبكتا بِيتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخُطَّاطُ بشرٍّ من ذلك أو بمثله، كتاب متقادِم الميلاد،دُهْرِيالصَّنعة"[34].

الهوامش

[1] عادل سليمان جمال: جمهرة مقالات الأستاذ محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي ، القاهرة، (د.ت)، ص. 201.

[2] نصر حامد أبو زيد :إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط9، 2012، ص. 9.

[3] جمهرة مقالات الأستاذ شاكر، ص. 201.

[4] آل عمران، جزء من الآية 110.

[5] اعتمدنا في هذه الترجمة على ما ذكره منذر أبو شعر في معجم محمود محمد شاكر، الكتبة الإسلامية، بيروت، ط2، 2007 م، ص 2 و ما بعدها.

[6] ابن منظور: لسان العرب،دار المعارف، تحقيق عبد الله علي الكبير و محمد أحمد حسب الله و هاشم محمد الشاذلي، مادة حقق، م11،940/2.

[7] أحمد بن فارس: مقاييس اللغة،تحقيق و ضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 16/2 و ما بعدها.

[8] إبراهيم مصطفى و آخرون: المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، اسطانبول، 188/1.

[9]عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان: تحقيق المطبوعات بين الواقع و المنهج الأمثل، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط 1415 هـ ، ص36.

[*]من أشهر المحققين العرب: أحمد زكي باشا، و محمد محي الدين عبد الحميد، أحمد محمد شاكر، محمود محمد شاكر، و عبد السلام هارون.

[10] عبد السلام هارون: تحقيق النصوص و نشرها، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط6,1415 هـ، ص 46.

[11] ابن منظور: لسان العرب، مادة قرأ، 3563/40

[12] المعجم الوسيط، 726/2.

[13] محمد حمود: تدريس الأدب: استراتيجية القراءة و الإقراء، منشورات ديداكتيكا، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1993، ص. 18.

[14] تتعدد مناهج النقد الأدبي، فمنها التاريخي، و الاجتماعي، و النفسي، و البنيوي، و التكويني، و السيميائي، و التفكيكي و منها ما يجمع بين منهجين أو أكثر، و غيرها من مناهج النقد الحديث.

[15] حسن الواد: في مناهج الدراسة الأدبية، منشورات الجامعة، يناير 1984، ص. 86.

[16] محمد حمود: تدريس الأدب، مذكور، ص. 19.

[17] محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، دار المدني بجدة، 1407هـ = 1987 م، ص. 7.

[18] نفسه، ص. 8.

[19] محمود محمد شاكر: قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، مطبعة المدني، القاهرة، (د.ت)، ص. 22.

[20] رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، ص. 15.

[21] قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، ص. 22.

[22] محمود محمد شاكر: الرسالة، السنة الثامنة، العدد 350، 1940.

[23] حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي، منشورات الاختلاف، ط1، 2009، ص. 7.

[24] محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مذكور، ص. 8.

[25] نفسه، ص. 20-21.

[26] محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا،مذكور، ص. 18.

[27] قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، ص. 22.

[28] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، قرأه و علق عليه محممود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص. 80.

[29] عبد الحق بلعابد: عتبات ج. جينيت من النص إلى المناص، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1429 هـ - 2008 م، ص. 111.

[30] لم يرقم شاكر مقدمته بأرقام و لكن رقمها بحروف من الحرف (أ) إلى الحرف (ب).

[31] هو القول بأن سبب إعجاز القرآن الكريم هو صرف همم العرب عن معارضته،

[32] الرسالة،السنةالثامنة،العدد 350، 1940.

[33] مقدمة دلائل الإعجاز، مذكور، ص: ز.

[34] الجاحظ: كتاب الحيوان، تحقيق هارون عبد السلام، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، (د.ت)، 79/1.

المصادر و المراجع

القرآن الكريم: برواية حفص عن عاصم

إبراهيم مصطفى و آخرون: المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، اسطانبول، (د.ت).

أحمد بن فارس: مقاييس اللغة،تحقيق و ضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر(د.ت).

ابن منظور: لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف.(د.ت).

بلعايد عبد الحق: عتبات ج. جينيت من النص إلى المناص، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1429 هـ - 2008 م.

الجاحظ أبو عثمان: كتابالحيوان،تحقيقهارونعبدالسلام،المجمعالعلميالعربيالإسلامي،بيروت، (د.ت)

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قرأه و علق عليه محممود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة1، 2009.

حسين الواد: في مناهج الدراسة الأدبية، منشورات الجامعة، يناير 1984.

حمود محمد: تدريس الأدب: استراتيجية القراءة و الإقراء، منشورات ديداكتيكا، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1993.

شاكر محمود محمد: معجم محمود محمد شاكر، إعداد: منذر محمد سعيد أبو شعر، المكتب الإسلامي، بيروت،ط2، 1428 هـ.2007م.

ـ: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، دار المدني بجدة، 1407هـ= 1987 م.

ـ: قضيةالشعرالجاهليفيكتابابنسلام،مطبعةالمدني،القاهرة، (د.ت)

عادلسليمانجمال: جمهرةمقالاتالأستاذمحمدمحمودشاكر،مكتبةالخانجي،القاهرة، (د.ت).

ـ: الرسالة،السنةالثامنة،العدد 350، 1940.

عسيلان عبد الله بن عبد الرحيم: تحقيق المطبوعات بين الواقع و المنهج الأمثل، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط 1415 هـ

نصرحامدأبوزيد : إشكاليةالقراءةوآلياتالتأويل،المركزالثقافيالعربي،الطبعة 9، 2012.

هارون عبد السلام: تحقيق النصوص و نشرها، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط6، 1415هـ

-TODOROVE et autres , *Qu'est-ce que structuralisme* , ed seuil , 1976 .

الكاتب: ط.د/ محمدي محمد
قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف المسيلة

عنوان المقال: **نظرات حول الأدوار الاصلاحية لشيوخ وعلماء جمعية العلماء المسلمين في منطقة الحضنة (المسيلة) قبيل اندلاع الثورة الجزائرية 1951-1954**

البريد الالكتروني: Mohamed.mhamdi@univ-msila.dz

تاريخ الإرسال: 2019/09/03 **تاريخ القبول:** 2019/11/23 **تاريخ النشر:** 2019/12/31

نظرات حول الأدوار الإصلاحية لشيوخ وعلماء جمعية العلماء المسلمين في منطقة الحضنة (المسيلة) قبيل اندلاع الثورة الجزائرية 1951-1954

Views on the reformist roles of the leaders and academics of the Association of Muslim Scholars in the area of Hodna (M'sila) before the Algerian revolution 1951-1954 "Cheikh Naim al-Nuaimi as an example"

الملخص بالعربية:

سنحاول من خلال هذه الدراسة التاريخيةالمتواضعة، تسليط الضوء البحثيحول الأدوار الاصلاحية والتعليمية لشيوخ وعلماء الحركة الاصلاحية الجزائرية من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في منطقة هامة من مناطق الجزائر، ويتعلق الأمر هنا بإماطة اللثام عن الجهود الاصلاحية لعلماء الاصلاح بمنطقة الحضنة عامة ومدينة المسيلة خاصة، وذلك خلال الفترة التي سبقت اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية 1951-1954، إذ يدور موضوع هذه الدراسة حول الجهود الاصلاحيةوالتعليمية للشيخ نعيم النعيمي في منطقة المسيلة.

الكلمات المفتاحية:

الحركة الاصلاحية، نعيم النعيمي، المسيلة، الحضنة، التعليم، الثقافة.

Abstract :

The following historical study tries to highlight the reformist roles of the leaders and scholars of the Association of Algerian Muslim Scholars in the region of Hodna generally and in M'sila in particular, during the period which preceded the official beginning of the

Algerian liberation revolution 1951-1954, by highlighting the reformist roles of Cheikh Naeem al-Nuaimi in this Region.

Keywords:

Reform movement, Naeem al-Nuaimi, M'sila, Hodna, education, culture.

منذ البدايات الأولى للقرن العشرين، بدأتملامح الكفاح التحرري والنضالي المعلن من قبل الشعب الجزائري ضد النظام الاستعماري الفرنسي المغتصب لأرض الجزائر وحرية أهاليها، بعد الاحتلال الاستيطاني للبلاد في الـ05 جويلية 1830، على إثر الحادثة الشهيرة المعروفة بحادثة المروحة تأخذ أشكالاً جديدة، فبعد أن كان الكفاح الجزائري مقتصراً على المقاومة المسلحة المباشرة ضد الاعتداء الفرنسي لأرض الجزائر طيلة سبعين عاماً متتالية من القرن التاسع عشر، فقد أهل القرن الجديد على شعوب الدول المستعمرة بأشكال وأنواع جديدة من الكفاح التحرري ضد الأنظمة الاستعمارية التي استباحت الواقع الأمني والسلمي المعاش في هذه البلدان الضعيفة.

وتزامناً مع بروز هذه الأنماط المختلفة، من أشكال النضال التحرري في هذه البلدان المستعمرة التي تعتبر الجزائر أهم حلقة في معادلتها بحكم عاملي الموقع الجغرافي والفترة الزمنية للاستعمار فيها، فقد ظهرت في الجزائر بالموازاة مع هذا النضال التحرري نهضة فكرية وثقافية، استهدفت احداث ثورة في المسلمات الفكرية والثقافية وحتى الدينية التي حاول الاستعمار الفرنسي، عن طريق مؤسساته وأجهزته العسكرية والدعائية القضاء عليها وتعويضها بأخرى مسيحية أوربية وافدة، تهدف إلى معالم الهوية العربية الاسلامية للساكنة الجزائريين، ومن أجل التصدي لهذه الأساليب الاستعمارية فقد كان تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الـ05 ماي 1931، مشروعاً نهضوياً لمجابهة السياسات الاستعمارية الفرنسية في الشق المتعلق بالهوية الجزائرية وثوابتها الرئيسية، وسعياً للحفاظ على هذه المقومات الهوياتية للشخصية الجزائرية الضاربة بجذورها في أعماق الحضارة العربية الاسلامية بهذه البلاد، فقد انبرى وتجند لهذه المهمة العديد من العلماء ورجال الاصلاح الجزائريين الذين تشبعوا بالعلم الشرعي والديني، سعياً من هؤلاء في الحفاظ على المقومات والثوابت الحضارية والدينية للشعب الجزائري على أرض الجزائر شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً.

وبناء على ذلك، فقد حاولت دراستنا هذه تسليط الضوء التاريخي على واحد من هؤلاء المصلحين الجزائريين، والذي نهض بمهام الاصلاح وترميم الهوية والشخصية الجزائرية بعدما لحقها من التشويه الثقافي والدعائي الاستعماري الفرنسي تجاهها، ويتعلق الأمر هنا بجهود العلامة "النعيم النعيمي" المصطلح الجزائري الذي حمل على عاتقه مهمة الاصلاح التربوي والثقافي في العديد من مناطق البلاد، والتي اخترنا منها كعينة جهوده الاصلاحية بمنطقة الحضنة عامة والمسيلة بصفة خاصة، وأملاً في تحقيق ولو جزء بسيط من أهداف هذه الدراسة وغاياتها، فقد طرحنا الاشكالية الآتي ذكرها: "**من هو الشيخ نعيم النعيمي**"؟ "**وما هي أهم جهوده الاصلاحية في منطقة الحضنة عامة والمسيلة خاصة**"؟

وللاجابة على هذه الاشكالية، فقد فككنا متغيرات هذه الدراسة إلى مجموعة من العناصر والتساؤلات الرئيسية الآتي ذكرها:

1- التعريف بشخصية الشيخ الاصلاحي "**نعيم النعيمي**"؟

2-ما هي تجليات النشاط الاصلاحي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في منطقة الحضنة (المسيلة)؟

3-ما هي حيثياتتأسيس شعبة جمعية العلماء المسلمين بمنطقة الحضنة؟

4-ما هي أهم الصور والأشكال المختلفة للجهود الاصلاحية المقدمة من طرف الشيخ النعيمي بمنطقة الحضنة؟

1-التعريف بشخصية الشيخ"نعيم النعيمي":

هو الشيخ "نعيم" بن أحمد بن علي بن صالح النعيمي القسنطيني[1]، من مواليد 1327هـ/ 1909م بمنطقة سيدي خالد ولاية بسكرة حالياً، ويتنسب النعيمي إلى عرش "**أولاد حركات**" ذي الأصول العربية، والتي تنتمي بدورها إلى قبيلة "أولاد زكري" القاطنة في مناطق "**الزيبان الغربي**" وهي بطن من بطون "أولاد نائل"[2]، وبمسقط رأسه تلقى أولى المعارف اللغوية والدينية أين حفظ جزءاً كبيراً من القرآن الكريم في "**زاوية الشيخ المختار بأولاد جلال**"، ليلتحق سنة 1924 بجامع الزيتونة مثله مثل باقي أترابه من الجزائريين، الذين قرر الكثير منهم التوجه نحو الشرق والغرب لمواصلة تحصيلهم العلمي والمعرفي، والذي اعتبرت الدراسات التاريخية أن جامع الزيتونة بتونس يعد أحد هذه الأقطاب والمعالم العلمية والدينية الكبيرة في العالمين العربي والاسلامي بشقيه الشرقي والغربي[3]، وبه مكث النعيمي ينهل

من المعارف والعلوم الأدبية والشرعية الأساسية، إلى الوقت الذي قرر فيه التوقف عن مواصلة مسيرته الدراسية لظروف وأسباب مادية صعبة، كانت حائلاً أمام هذا الأخير من أجل مواصلة دراسته بالجامع الكبير وهو ما كان قد تعرض له الكثير من أتراب النعيمي خلال هذه المرحلة التي كانت تعيش فيها البلاد تحت نير الاضطهاد الاستعماري الذي استباح الأرض والعرض والممتلكات.[4]

وبالرغم من الانقطاع المبكر للطالب نعيم النعيمي عن التعلم بجامع الزيتونة في مراحل متقدمة من مشواره التعليمي والتحصيلي، إلا أن ذلك لم يمنع هذا الأخير من الاجتهاد بواسطة الأساليب الفردية والعصامية لتحصيل العلوم والمعارف المختلفة، إذ نجد أن النعيمي قد اجتهد في حفظ المتون والمصنفات المتعلقة بعلوم النحو والصرف، الفقه، العقائد، التجويد...وغيرها، كما أبان النعيمي عن نبوغ واضح في علمي الأصول والفروع على مذهب الإمام مالك رحمه الله، كما زادت في شأنه الدراسات والأبحاث في أنه كان أديباً ملماً بأسرار لغة الضاد ومكنوناتها، وكان من المجيدين لنظم الشعر وكتابة النثر الميالين نحو أسلوب الزجر في كتابة هذين الفنين الأدبيين كما نقلت عنه ذلك الكثير من الأبحاث[5]، وتلك هي المؤهلات العلمية والثقافية التي كانت سبباً مباشراً في انضمام شخص النعيمي إلى الحركة الاصلاحية الجزائرية منذ بدايات تأسيسها في مطلع الثلاثينات من القرن العشرين، والتي من خلالها تمكن النعيمي من التنقل عبر العديد من المدن الجزائرية لممارسة رسالتي الوعظ والتعليم ضمن المهام الاصلاحية التي نهض بها أفراد جمعية العلماء الجزائريين منذ تأسيسها في الـ05 ماي1931[6]، ليلتحق النعيمي بعد هذه الجولات العلمية العديدة بمهنة التدريس في معهد ابن باديس بقسنطينة العاصمة العلمية في الجزائر خلال هذه المرحلة.[7]

2-تجليات النشاط الاصلاحي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمنطقة الحضنة (المسيلة):

تكاد تتفق الدراسات والأبحاث التاريخية المهتمة بالنضال السياسي والاصلاحي في منطقة الحضنة عامة والمسيلة بصفة خاصة، حول الجذور التاريخية والبدايات الأولى لنشاط الحركة الاصلاحية الجزائرية بمنطقة الحضنة (المسيلة)، وحول الجهود التي بذلها أعلامها من العلماء المنتسبين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين غداة تأسيسها في ثلاثينيات القرن العشرين في هذه المنطقة، إذ يرى البعض من هؤلاء الباحثين أن حضور

الفعل الاصلاحي في المنطقة لم يكن بذلك الزخم والهالة الدعائية، التي واكبت تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الـ05 ماي 1930، بل إن حضور هذه الأخيرة في المجتمع الحضني والمسيلي بصفة خاصة، قد تأجل إلى ما بعد فترة نهاية الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد إلى غاية إلى ما بعد سنة 1944 (أي تأسيس حزب حركة أحباب البيان والحرية)، وهي المرحلة التي وصفها الباحثون بمرحلة الانكماش في المطالب السياسية والاصلاحية والتي تميزت بالتشتت في المطالب والفردية في العمل والتحرك النضالي لمجابهة التجاوزات اللاإنسانية للاستعمار الفرنسي[8]، وهو نفس الطرح الذي ذهب إليه مؤرخ المنطقة والباحث في تاريخها الدكتور "بيرم كمال" والذي بالرغم من إقراره بأن جذور الحركة الاصلاحية في منطقة الحضنة عامة، موضوع سابق لهذا التاريخ بل إن انتشار العمل الاصلاحي والتربوي عبر كافة أنحاء البلاد، وهوَ مسألة وقضية محوريةواكبتالتأسيس الفعليللجمعيةالاصلاحية لعامة الجزائريين ويتعلق الأمر بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 05 ماي 1931 وامتدادها عبر ربوع الوطن، إذ يذكر الباحث بأن العديد من الشخصيات الوطنية والمحلية ذات التوجه الاصلاحي قد حملت على عاتقها مهمة النهوض بالوضع الثقافي والتربوي التعليمي في المنطقة، ومن هؤلاء نذكر: موسى الأحمدي نويوات، أبو القاسم الحفناوي، عبد الرحمن الديسي، علي بوديلمي، محمد العدوي، محمود أرسلان...الخ، والعديد من الأسماء الأخرى التي برزت في المجال الثقافي والأدبي والتي كان لها الفضل الكبير في النهوض بالعمل الاصلاحي والسياسي بالمنطقة.[9]

إلا أن الباحث؛ يقر بدوره أن هذه الفترة 1931-1944، كانت مرحلة للغموض النضالي في صفوف الحركة الاصلاحية بمنطقة الحضنة عامة والمسيلة بصفة خاصة[10]، إلى غاية الزيارة التي قام بها المناضل والسياسي فرحات عباس إلى منطقة الحضنة في سنة 1944، أين أحدثت هذه الزيارة تحولاً جذرياً في طبيعة النضالي التحرري بهذه المنطقة، حتى أن كثيرا من الباحثين من يعتبر أن هذه الزيارة قد أخرجت الكفاح النضالي للوطنيين الجزائريين بمنطقة المسيلة، من مرحلة التواري والسرية غير الفاعلة إلى مرحلة أخرى هامة تتسم بالنشاط والفعالية في العمل النضالي ضد الاستعمار الفرنسي، ويظهر ذلك بصورة واضحة بعد انضمام العديد من الشخصيات السياسية للمنطقة إلى صفوف العمل النضالي رفضا منهم للسياسة الفرنسية المطبقة تجاه الأهالي والسكان في منطقة الحضنة، وفي هذا

الصدد فقد ذكر الباحث "**كمال بيرم**" ما نصه:" **لقد استحقت شخصية فرحات عباس تقدير واحترام سكان الحضنة، فبقدر ما كان لنائبه في المنطقة بن سالم عيسى خلال الثلاثينيات من سمعة ونجاح، فقد استقطب فرحات عباس الشخصيات المحلية على اختلاف اتجاهاتها الفكرية والسياسية...".**[11]

وبناء على ذلك فقد كان هذا التاريخ (أي سنة 1944)، محطة تحول حقيقية في العلاقات الشعبية والاجتماعية التي تربط بين الأهالي الجزائريين في منطقة الحضنة، إذ نجد أن هذه الزيارة النضالية لشخص فرحات عباس قد دفعت بالسكان إلى التآزر والتضامن والتوحد تصديا منهم للأوضاع اللاإنسانية التي خلفتها السياسة الاستعمارية الفرنسية ضد الجزائريين، كما أنها قد ساهمت كذلك في بلورة وتجديد العمل النضالي التشاركي لدى الجزائريين في إطار الحركة الوطنية والسياسية الجزائرية، بما فيهم أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين نذكر منهم على سبيل المثال: محمد الطاهر لطرش، الاحمدي نويوات، مشتي السعيد، عيسى المعتوقي، محمد الدراجي العدوي، نعيم النعيمي...الخ، وهم الذين بعثوا بجهودهم الحركة العلمية والثقافية والفكرية بالمنطقة.[12]

3-تأسيس شعبة جمعية العلماء المسلمين بمنطقة المسيلة:

منذ تأسيس الحركة الاصلاحية بالجزائر وجهودها منصبة حول الاهتمام بالسبل التي تكفل النهوض بالأوضاع الفكرية والثقافية التي تعاني الجمود والتراجع بفعل السياسة المعتمدة في البلاد من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية منذ أن وطأت أقدامها أرض الجزائر سنة 1830، وفي هذا الاطار فقد اجتهدت الجمعية ومنذ تأسيسها سنة 1931، في تعميم علمائها شيوخها عبر كافة أنحاء البلاد لمواجهة هذه الأوضاع الثقافية التي فرضها الواقع الاستعماري تجاه الجزائريين، وفي ذلك كتبت جريدة الشهاب عن الأدوار الهامة التي نهض بها أعضاء الجمعية في مناطق عديدة من البلاد، والتي نذكر منها: المسيلة، قسنطينة، البرج، الجزائر، شرشال...الخ.[13]

أما في ما تعلق ببداية النشاط الاصلاحي الرسمي بمنطقة المسيلة، فتذكر الدراسات التاريخية أن الغياب شبه الكلي للوثائق الرسمية حول المسألة يعد السمة السائدة على هذا الموضوع الحساس، إذ كتبت الدراسات أن أول تقرير فرنسي ورد في شأن نشاط أعضاء الحركة الاصلاحية بالمنطقة، يعود تاريخه إلى: 1950/01/14 والذي ورد ضمن

فقراته الاشارة إلى وجود ما يزيد عن 41 شخصاً من الأعضاء المنتسبين للحركة الاصلاحية الجزائرية بمنطقة المسيلة، وأن تأسيس الشعبة بصفة رسمية بالبلدة كان بمناسبة زيارة السيد السعيد بولكجات (**المدعو الشيخ البيباني**) وهو مدير مدرسة التهذيب بمنطقة باتنة، إذ اتفق معه أعيان المدينة على تأسيس شعبة للجمعية بالمنطقة، وقد كانت النية على ذلك واضحة بجمع أعيان البلدة[14] لمبلغ 7000 فرنك مساهمة مادية لتأسيس هذه الشعبة بالمنطقة.[15]

كما أشارت الدراسات أن أول مكتب لشعبة العلماء المسلمين بمنطقة المسيلة قد تكون من الأعضاء الآتية أسماؤهم:

- بن يحي مصطفى: **رئيساً**

-مشتي السعيد: **نائباً**

-كبوية عيسى: **كاتب عام**

-بلحسين محمد: **نائب الكاتب العام**

-لطرش الحاج الطاهر: **أمين المال**

-حجاب أحمد: **نائب أمين المال**

-**الأعضاءالمراقبون:** عكة المسعود، ابن يحي ابراهيم، ابن خليل العمري، لدغم شيكوش محمد، عمرون ساعد، داوود ابراهيم.[16]

وفي هذا الاتجاه نجد أن الجمعية قد قامت بتعيين العديد من علمائها وشيوخها عبر العديد من مناطق البلاد، وفي هذا السياقفقد كانتالتنقلات الكبيرة للشيخ نعيم النعيمي عبر كثير من المناطق المختلفة في البلاد الجزائرية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا[17]، في اطار العمل الاصلاحي الثقافي والتربوي الذي نهضت به الجمعية الاصلاحية الجزائرية ممثلة في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من الاحتكاك بالعديد من الشخصيات الوطنية الجزائرية ذات التوجهات الفكرية والسياسية المختلفة، وفي إطار التنقلات التي كانت تخصصها الجمعية لأعضائها في مهام التوعية الفكرية والثقافية للأهالي الجزائريين، كان إيفاد الشيخ النعيمي إلى مدينة المسيلة في إطار ذات المهام الارشادية والاصلاحية سنة 1952م من قبل الجمعية.[18]

4- صور وأشكال الجهود الاصلاحية المبذولة من الشيخ نعيم النعيمي في منطقة الحضنة:

مثله مثل العديد من رجال الاصلاح والعلماء من الطلبة والشيوخ المنتسبين إلى الحركة الاصلاحية الجزائرية (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، التي تأسست سنة 1931 بهدف التصدي والرد على الأطروحات الاستعمارية، الرامية للقضاء على معالم الشخصية الجزائرية ومحاولة طمس مقوماتها الهوياتية، يعتبر الشيخ **"نعيمالنعيمي"** أحد رجالات الجمعية الذين نهضوا بالكثير من الأدوار الاصلاحية العديدة في المجتمع الجزائري قاطبة، وذلك من خلال المهام التي أوكلت لهم عبر العديد من مناطق البلاد، لأجل مجابهة السياسة الاستعمارية الفرنسية وغرس قيم الدين والوطنية في نفوس هؤلاء الجزائريين، ومن المهام العديدة التي نهض بها أمثال الشيخ النعيمي نذكر: الارشاد، التعليم، التربية، الاصلاح، الشورى...وغيرها من المهام الاصلاحية الأخرى، وهو ما اجتهد الشيخ النعيمي النهوض به في بلدة المسيلة من خلال عديد الجهود التي بذلها في المنطقة، والتي حاولنا حصرها في المهام الآتية:

أ-التوعية والإرشاد:

يلاحظ الدارس للمسيرة الاصلاحية في منطقة الحضنة بصفة عامة والمسيلة بصفة خاصة، بأن أشكال وأنماط الإصلاح في المنطقة قد تباينت واختلفت بين عديد الأدوار والمهام الاصلاحية المتعددة، والتي نهض بها مجموعة من الشيوخ والعلماء الجزائريين المنضووين تحت لواء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومن بين هؤلاء العلماء نجد الشيخ "نعيم النعيمي" الذي حمل على عاتقه العديد من المهام الاصلاحية والارشادية بمنطقة المسيلة، والتي كان على رأس هذه الأدوار مهام التوعية والارشاد بين الأوساط الشعبية والسكانية، التي استسلمت خلال هذه الفترات (نهاية ق19 وبداية ق20) للعديد من المظاهر الدخيلة عن المجتمع والتي لقيت تشجيعاً ومساندة من قبل السلطات الاستعمارية، وذلك مثل: انتشار الجهل، الخرافة، الزردة...الخ، وهي المظاهر التي لقيت رواجاً واحتواءً من قبل بعض الطرق الصوفية المنحرفة في المنطقة.[19]

وفي ظل هذه الأوضاع الاجتماعية والثقافية المتدهورة، كان وصول الشيخ النعيمي إلى مدينة المسيلة في نهاية الأربعينيات من القرن العشرين، موفداً إليها من قبل جمعية

العلماء المسلمين الجزائريين من أجل النهوض بمهام التوعية والإرشاد الديني والاجتماعي، أين كانت مهامه موزعة بين إلقاء الخطب في مساجد المدينة (رأس الحارة، الشتاوة، خربة تليس) والارشاد الديني والتوعية الاجتماعية والثقافية، كما كان الشيخ النعيمي ومنذ وصول إلى منطقة الحضنة في تنقل دائم طيلة أيام السنة بين مساجد المسيلة وبوسعادة لإلقاء الخطب وإرشاد العامة من الناس في أمور دينهم ودنياهم.[20]

وخلال هذه الفترة التي قدرت بثلاث سنوات كاملة قبيل اندلاع الثورة التحريرية، تمكن الشيخ نعيم النعيمي من ربط علاقات عديدة مع أعلام وأعيان مدينة المسيلة من رجال الدين والمثقفين الوطنيين، الذين كان لهم إسهام كبير في دفع وتيرة الإصلاح الثقافي والارشادي في المدينة، ومن بين هؤلاء الأعلام الذين كانت لهم علاقة وطيدة مع الشيخ نعيم النعيمي، ومن هؤلاء نذكر: الشيخ لطرش الطاهر، فلوسية علي، بن عيسى محمد بن النذير من تلاميذ جمعية العلماء المسلمين، وكل من: ميلي أحمد، مشتي السعيد، برة عبد الرحمن من حزب الشعب الجزائري، بالإضافة إلى كل من: كبوية ابراهيم، كبوية المداني، شيكوش الحاج عيسى، نوي مهيدي من أنصار حزب البيان الديمقراطي.[21]

وبناء عليه، فإن جهود الشيخ "نعيم النعيمي" في مهام التوعية والارشاد الديني والاجتماعي في مدينة المسيلة، كانت كبيرة وجبارة في ظل التفشي الكبير لمظاهر الجهل والخرافات المتجذرة في أوساط المجتمع من جهة، كما كانت محفوفة بالمخاطر في ظل الرقابة الصارمة التي ما فتئت تسلطها الادارة الاستعمارية تجاه الشخصيات الدينية في المنطقة والذين نعتبر أن الشيخ النعيمي أهمهم جميعا في الفترة التي سبقت اندلاع الثورة التحريرية، وبالرغم من ذلك فقد استطاع الشيخ أن يكون ويصنع العديد من الرجال والمناضلين الوطنيين في هذه المدينة وهم الذين حملوا على عاتقهم مهام العمل الثوري بالمنطقة غداة اندلاع الثورة التحريرية في الفاتح نوفمبر 1954.

ب-التعليم:

وبالاضافة إلى الدور الاصلاحي والارشادي الذي نهض به الشيخ نعيم النعيمي، في مدينة المسيلة قبيل اندلاع الثورة التحريرية وبعد وصوله إليها موفداً من قبل الجمعية سنة 1951[22]، فإن لهذا الأخير أدواراً هامة أخرى في المجالين التربوي والتعليمي للناشئة بهذه المنطقة، إذ وبالرغم من أن أول مشروع لتأسيس أول مدرسة أهلية مخصصة للجزائريين

وتكون ذات طابع عربي إسلامي (المدارس الحرة)، تعود جذور طلب تأسيسها إلى مرحلة الحرب العالمية الثانية وتحديداً سنة 1944، والتي كان في هذه السنة تقديم طلب رسمي من أعيان المدينة للسلطات الفرنسية من أجل الموافقة على طلب إنشاء مدرسة حرة بالمدينة[23]، وهو ما يعني من الناحية النظرية عدم مشاركته في طلب التأسيس المودع من طرف أعيان المدينة.

إلا أن جهود الشيخ نعيم النعيمي في تجسيد مشروع المدرسة الحرة بمدينة المسيلة، قد كانت واضحة وكبيرة وهو ما تأكد من خلال عديد الجهود المبذولة من قبله في هذا المجال، ومن صور ذلك المحاضرات التي كان يلقيها بمساجد المدينة ومن أهمها محاضرته بمسجد حي الكوش خلال شهر رمضان الموافق لـ(08-16 جوان 1952)، وهي المحاضرات الرمضانية التي أكد من خلالها عزمه على ضرورة بناء مدرسة قرآنية على النهج الباديسي في المدينة، وهو ما كان يلقى تجاوباً كبيرا من قبل سكان المدينة الذين أبدوا حماساً ةقبولاً منقطع النظير لهذه الفكرة، وقد تجلى ذلك في السرعة التي تم فيها جمع الأموال والتبرعات لبناء هذه المدرسة[24]، كما تجلى ذلك أيضا في السهولة التي تمت بها تأسيس اللجنة المكلفة ببنائها والتي شكلت من مختلف التيارات الوطنية بالمنطقة، ونذكر منها: كبوية المدني (رئيساً)، الأعضاء هم: مهدي علي، عريوة مبارك، خوجة بوبكر، دريد ابراهيم، شيكوش الحاج عيسى، زغلاش البشير.[25]

وفي هذا الصدد تذكر الروايات التاريخية؛ أنه وبعد جهود الحصول على الأرضية المناسبة لبناء هذه المدرسة، فقد كانت عملية جمع التبرعات قائمة على قدم وساق عبر مساجد المدينة، أين لوحظ على سكان المدينة وأهاليها صور من التجاوب والحماس الواضح لتجسيد مشروع هذه المدرسة على أرض الواقع لكي تكون صرحا علميا وثقافياً تستفيد منه الأجيال المستقبلية، أما في ما تعلق بدور المرأة المسيلية واسهامها في بناء هذه المدرسة الباديسية فيذكر الشيخ نعيم النعيمي قائلاً: "...**وقد كان حظ المرأة المسيلية من هذه المبادرة عظيماً، إذ ساهم فيها النساء بنحو نصف مليون، فأعربن بذلك عن حيوية المرأة المسلمة واستعدادها لفعل الصالحات، وإنها لا تقل غيرةً وحماساً وحباً لدينها عن الرجل**".[26]

وفي ذات السياق فتنبغي الإشارة إلى أن جهود أهالي مدينة المسيلة، قد كانت كبيرة وفعالة من النساء والرجال، من أجل تجسيد حلم بناء المدرسة العربية الاسلامية الخاصة بالأهالي المسلمين إلى أن تحقق لهم هذا المراد سنة 1953، وذلك بالرغم من الوسائل المتواضعة التي جهزت بها وقلة المعلمين فيها[27]، إلا أن ذلك لم يمنع الشيخ النعيمي من الاقرار بحقيقة عظمة الانجاز المحقق لفائدة سكان المدينة، حاثاً إياهم على مواصلة المسيرة الاصلاحية والتعليمية بخطى ثابتة في قوله: "**...وإننا نهيب بالأمة المسيلية أن تتابع العمل وتوحد الجهود، ولا تصغي إلى شيطان التفرقة الذي يحاول جهده أن يحدث ثغرة في صف الأمة المتراص البنيان، ولتستعذ بالله ولتستعذ به من النكوص على الأعقاب والركود بعد الهبة، فإن ذلك شر ما يبتلى به العاملون**".[28]

ج-إصلاح ذات البين:

وبالإضافة إلى كل هذه الأدوار الاصلاحية (الارشادية، التوعوية، التربوية، التعليمية)، والتي نهض بها الشيخ "نعيم النعيمي" بمنطقة المسيلة قبيل اندلاع الثورة التحريرية أي خلال الفترة الممتدة بين 1951-1954، فإن لهذا الأخير العديد من المهام والأدوار الاصلاحية العديدة الأخرى والتي نذكر منها على سبيل المثال: إصلاح ذات البين، الوساطة بين المتخاصمين، فض النزاعات بين أهالي المدينة، عقد مجالس الصلح، لم الشمل ورأب الصدع بين أهالي المدينة[29]، كما نجد كذلك بأن الشيخ النعيمي قد ساهم في العديد من المواقف الخيرية الأخرى بهذه المدينة، والتي كانت تهدف في مجملها إلى خدمة وتطوير مشاريع الخير بهذه المدينة وذلك مثل: الاصلاح، جمع الفرقاء، عمل الخير، مساعدة المحتاجين والفقراء...الخ، وذلك من خلال تأسيس العديد من الوسائط والمؤسسات التي تسهل وتساهم في نجاح مثل هذه الأعمال الخيرية بالمدينة، كبناء المدارس وإنشاء الجمعيات الخيرية[30]...وغيرها من الجهود المبذولة من قبل الشيخ نعيم النعيمي وأمثاله للنهوض بالأوضاع اللاإنسانية التي فرضها الواقع الاستعماري الفرنسي على الأهالي الجزائريين في مدينة المسيلة وفي غيرها من المناطق الأخرى للبلاد.

خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة، فإننا نخلص إلى مجموع من النتائج والاستنتاجات نوجزها في النقاط الآتي ذكرها:

-السياسة الاستعمارية الفرنسية في الشق الثقافي والعقائدي إزاء الشخصية الجزائرية ومقوماتها الهوياتية، لم تكن بمعزل عن المشروع الاستعماري والاستيطاني الفرنسي الصليبي الهادف إلى القضاء الكامل على الشخصية الجزائرية بشقيها المادي والمعنوي.

-الوقوف عند حقيقة الجهود المبذولة من قبل الحركة الاصلاحية الجزائرية (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) بعد تأسيسها سنة 1931، من أجل تعميم ونشر شيوخها وعلمائها عبر كافة ربوع وأنحاء البلاد، استهدافاً منها للتصدي للسياسة الاستعمارية الفرنسية في شقها الثقافي والهوياتي ومحاولة الحفاظ على مقومات الهوية الجزائرية مثل: الدين، اللغة، الثقافة، التاريخ، الاعتزاز بالهوية والانتماء...الخ.

-الوقوف عند حقيقة الجهود الاصلاحية المختلفة التي نهض بها الشيخ نعيم النعيمي في مدينة المسيلة قبيل اندلاع الثورة التحريرية 1951-1954، والتي تباينت بين مهام مختلفة مثل: الارشاد، التوعية، التربية، التعليم، الاصلاح، فض النزاعات، عقد الصلح...وغيرها من المهام الاخرى، التي نهض بها شيوخ الحركة الاصلاحية في مدينة المسيلة وفي غيرها من باقي مناطق البلاد خلال المرحلة الاستعمارية استهدافا منهم لأجل الحفاظ على ثوابت ومقومات الهوية الوطنية الجزائرية العربية المسلمة.

الهوامش:

[1]-ابراهيم رزاق لبزة، محمد علال: **النشاط الاصلاحي للشيخين الطيب العقبي ونعيم النعيمي 1920-1956 دراسة مقارنة**، رسالة ماستر، قسم العلوم الانسانية، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، الجزائر، 2017-2018، ص 28.

[2]-**نعيم بن أحمد النعيمي البسكري القسنطيني، الموقع الالكتروني:** *https://ar.wikipedia.org*، **التاريخ:** 10/07/ 2019، **التوقيت:** 17:15**سا.**

[3]- خير الدين شترة: **الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956**، ج01، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 249.

[4]- عبد الله مقلاتي: **قاموس أعلام شهداء وأبطال الثورة الجزائرية**، ط1، دار بلوتو للنشر، الجزائر، 2009، ص 522.

[5]- محمد يعيش: الشيخ نعيم النعيمي ودوره الاصلاحي بمنطقة المسيلة، **مجلة البحوث التاريخية**، ع02، مخبر الدراسات والبحث في تاريخ الثورة الجزائرية، جامعة محمد بوضياف المسيلة، الجزائر، ماي 2017، ص67.

[6]- رابح عمامرة تركي: **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية 1931-1956 ورؤساؤها الثلاثة**، ط1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص60.

[7]- عبد الله مقلاتي: **أعلام و ابطال الثورة الجزائرية**، الكتاب الخامس، دار شمس الزيبان، الجزائر، 2013، ص 377.

[8]- نور الدين مقدر: الحركة الاصلاحية بمنطقة الحضنة 1931-1954، **مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية**، ع12، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، الجزائر، د.ت، ص 218.

[9]- كمال بيرم: **الكفاح السياسي بإقليم المسيلة 1900-1954**، دار الكوثر، الجزائر، 2013، ص 69.

[10]- كمال بيرم: **المرجع نفسه**، ص 177.

[11]- كمال بيرم : **الحركة الوطنية بمنطقة المسيلة (دراسة وثائقية في النشاط السياسي 1900-1954)**، دار الأوطان، الجزائر، 2012، ص91.

[12]- نور الدين مقدر: **المرجع السابق**، ص 219.

[13]- محمد يعيش: **المرجع السابق**، ص 66.

[14]- لقد ذكرت الدراسات والأبحاث التاريخية أن التعليم ضمن إطار الحركة الاصلاحية الجزائرية بعد تأسيس الجمعية في 05 ماي 1931، أو حتى بالنسبة لفترات سابقة لها كان يعتمد في موارده المالية بصورة أساسية على التمويل الذاتي أو المحلي، إذ أن التمويل في هذه الحالية يكون من طرف الجمعيات المحلية أو اشتراكات الأعضاء أو حتى من بعض المتطوعين وأنصار الاصلاح والمحسنين بالمنطقة، ينظر. أبوبكر الصديق حميدي: **دراسات وأعلام في الحركة الاصلاحية الجزائرية**، دار المتعلم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص 65.

[15]- نور الدين مقدر: **المرجع السابق**، ص220.

[16]- نور الدين مقدر: **المرجع نفسه**، ص221.

[17]- في إطار التنقلات التي قام بها الشيخ نعيم النعيمي عبر مناطق البلاد، يذكر الباحث الدكتور كمال بيرم أن من بين المناطق التي زارها الشيخ في إطار نشاطه الارشادي والاصلاحي نجد المناطق الآتية: المدية، الجلفة، الأغواط، تيارت، معسكر، غليزان، قصر البخاري، والمسيلة التي حل بها موفداً من قبل الجمعية سنة 1952، ينظر. كمال بيرم: الحركة الوطنية بمنطقة المسيلة...، **المرجع السابق**، ص 117.

[18]- كمال بيرم: الحركة الوطنية بمنطقة المسيلة...، **المرجع نفسه**، ص 117.

[19]- محمد يعيش: **المرجع السابق**، ص 67.

[20]- عبد الكامل جويبة، خضراء هجرسي: مظاهر الحركة الاصلاحية بإقليم الحضنة من 1919إلى 1954، **مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية**، ع 01، م09، الجزائر، جوان 2018، ص 289.

[21]- نور الدين مقدر: **المرجع السابق**، ص226.

[22]- تجدر الإشارة إلى أن هناك بعض الاختلاف بين الدراسات التاريخية حول أول سنة لوصول الشيخ نعيم النعيمي إلى مدينة المسيلة، ففي الوقت الذي يرى الباحث المؤرخ "كمال بيرم" وصوله إليها سنة 1952، فإن الباحث"محمد يعيش" يرى بأن وصول هذا الأخير إلى مدينة المسيلة كان سنة 1951، وهو الرأي الراجح على اعتبار أن دراسة أخرى قد أثبتت أن وصول النعيمي إلى مدينة المسيلة قد كان قبل ثلاثة سنوات من اندلاع الثورة التحريرية سنة 1954، وهو ما يؤكد وصوله إليها سنة 1951، إلا أن هناك ما يثبت أن الشيخ النعيمي قد وصل إلى المدينة سنة1951 وغادرها بعد ذلك ليعود إليها سنة 1952 وهو ما يرجح كذلك الطرح الذي ذهب إليه مؤرخ منطقة الحضنة "كمال بيرم"؛ ينظر. كمال بيرم: الكفاح السياسي بإقليم المسيلة...، **المرجع السابق**، ص 184، محمد يعيش: **المرجع السابق**، ص 70، نور الدين مقدر: **المرجع السابق**، ص 226.

[23]- محمد يعيش: **المرجع السابق**، ص 70.

[24]- نور الدين مقدر: **المرجع السابق**، ص 228.

[25]- عبد الكامل جويبة، خضراء هجرسي: **المرجع السابق**، ص 289.

[26]- محمد يعيش: **المرجع السابق**، ص 71.

[27]- نور الدين مقدر: **المرجع السابق** ، ص 229.

[28]- محمد يعيش: **المرجع السابق**، ص 71.

[29]- نور الدين مقدر: **المرجع السابق** ، ص 227.

[30]- محمد يعيش: **المرجع السابق**، ص 69.

الكاتب: د. محمد أبوراوي العماري
جامعة المرقب/ ليبيا

عنوان المقال: **الصراع الانجليزي الفرنسي في طرابلس 1832-1835م**

البريد الالكتروني Elamari.dr@gmail.com

تاريخ الارسال: 2019/05/22**تاريخ القبول**:2019/10/14**تاريخ النشر**: 2019/12/31

الصراع الانجليزي الفرنسي في طرابلس 1832-1835م

ملخص المقال :

هدف هذا البحث إلى دراسة تأثير صراع الدول الكبرى على الأوضاع السياسية في أواخر العهد القرمانلي، وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج السردي التحليلي، ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث أن التنافس الانجليزي- الفرنسي على طرابلس خلال هذه المرحلة اتخذ شكل الصراع المسلح المباشر، وإن استخدم فيه الطرفين بعض المتصارعين من أبناء القرمانلي على حكم طرابلس.

الكلمات المفتاحية: الباب العالي، الباشا، الصراع القرمانلية، القنصل

Summary:

the main aim of this study was to analyze the impact of the conflict of the great powers on the political situation in the late Karamanli era.

in order to achieve its objectives the study has used the narrative analytical approach.

The main findings of the study have indicated that the English-French competition related to Tripoli during this stage has taken the form of direct armed conflict. in addition in the one hand. and has used some of the conflicting sons Karamanli to rule Tripoli in the other hand.

Keywords: Albab elaly. Albasha. The Karamanli conflict

مقـدمـة:

وفر الصراع الذي اندلع بين أبناء الأسرة القرمانلية ساحة جديدة لتصفية حساب قديم بين أكبر المتنافسين على حيازة مناطق النفوذ والثروة في العالم، فما أن جهر محمد بك القرمانلي بالسوء في وجه جده يوسف، ونازع عمه عرش طرابلس، حتى انحازت بريطانيا إلى جانبه، فيما قررت فرنسا أن تجعل من حراب جنودها سنداً ورافداً لبلاط علي باشا القرمانلي[1]، في مشهد يعكس حجم الخصومة الممتد من الهند وأمريكا إلى البحر المتوسط[2].

إن هذا البحث هو محاولة متواضعة لإلقاء مزيد من الضوء على هذه الفترة من تاريخ الصراع على الحكم داخل البيت القرمانلي، وما رافقها من تدخل لبعض القوى الخارجية، والتي لا يمكن فهمها وتصورها إلا في إطار استمرار حالة المفعول به، والتي مثلت السمة الأبرز في تاريخ البلاد التي ظلت مشرعة أمام الغزاة ومداساً لسنابك خيولهم، في تجلي واضح للضعف والوهن وانعدام الوجود بالفعل أو حتى بالقوة، وهي ذات الإشكالية التي نسعى لاختزال بعض جوانبها في الأسئلة التالية: ما الذي دفع بريطانيا وفرنسا للتدخل في الصراع القرمانلي؟ وما هو حجم مساهمتهما في الاحتراب الأهلي الدائر في الولاية؟ وهل كان موقفهما مؤثراً في إطالة أمده، والمآلات التي انتهى إليها. مجموعة من الاستفسارات نحاول الإجابة عليها هنا، اعتماداً على المنهج السردي التحليلي.

تضارب المصالح البريطانية والفرنسية في طرابلس و أثره على موقفهما من طرفي النزاع:

يعتقد بعض المؤرخين، بأن الكراهية الشخصية التي يكنها قنصلي الدولتان في طرابلس لبعضهما، كانت بالغة الأثر في اشتداد النزاع بين دولتيهما، وهي التي حددت موقع تموضع كلاً منهما[3]، وهو ما لا يمكن أن يصمد أمام أي تحليل منطقي، فما بلغته الإمبراطوريتان من اتساع وتمدد طال مشارق الأرض ومغاربها، لا يمكن أن يكون موجهه ومحدد أهدافه أهواء ومشاعر شخصين، يمكن أن يستشف وببساطة من مكان عملهما، حجمهما ودورهما السياسي في صناعة أمجاد أكبر الكيانات الاستعمارية في العالم، ولذلك فالأرجح أن عداء القنصلان لبعضهما لا يعدو عن كونه انعكاس لصراع دولتيهما على علاقتهما الشخصية لا أكثر.

لم يكن الاحتكاك الأنجلو – فرنسي في طرابلس، خلال هذه المرحلة، إلا استمراراً لتنافس قديم، قدم مصالحهما فيها، ولكنه أصبح أكثر حدة في تلك الآونة[4]، متأثراً بالتحولات الداخلية، التي شهدتها الولاية، فقد رأت فرنسا إن حالة عدم الاستقرار والقلاقل التي تعيشها،

ستلقى بظلالها على التجارة الفرنسية، وتحد من رواجها[5]، وأخطر من ذلك ستقود حتماً إلى عودة الحكم العثماني المباشر لها، الأمر الذي سيعرض مشاريعها في المنطقة إلى انتكاسة حقيقية، بالنظر إلى ما يمكن أن يضعه الباب العالي من معوقات في وجه مخططاتها التوسعية[6]، وهو ما دفعها لعدم التردد في الاعتراف علناً بعلي باشا القرمانلي حاكماً شرعياً لها، ودعمه بكل الوسائل المتاحة لإنهاء الحرب، وعودة الاستقرار في أسرع وقت، دراءً لأي تدخل عثماني بحجة القضاء على الفوضى وفرض الأمن في ربوع لا يزال يعتقد أنها جزء من ممتلكاته[7]، فيما كانت الرؤية البريطانية لحرب أبناء القرمانلي متأثرة بالتوجهات الاستعمارية الطموحة لغريمتها في الشمال الأفريقي بأسره، والتي لم تترك لها خياراً آخر غير العمل على الحيلولة وبجميع السبل دون أن يمسى فرنسياً بأكمله، حتى لو اقتضى الأمر عودتها للسلطان العثماني من جديد، من خلال إطالة أمد الصراع الأهلي المستعر فيها، فبقاء طرابلس ضعيفة أمراً يروق لها أكثر من خضوعها للدولة العليا، إلا أنه يظل أهون عليها بكثير من وقوعها في قبضة الفرنسيين[8]، بل أن أحد المراجع يؤكد بأن بسط السيطرة الفرنسية عليها من خلال تثبيت أركان حكم صنيعتها، أو من يدين لها بالولاء، كان أقسى من أن تتحمله دوائر الحكم في لندن، ولذلك لم تتردد في الإيعاز للباب العالي بضرورة العمل على احتلالها، والذي لم يكن إقدامه على ذلك فيما بعد إلا استجابة للضغوط التي مارستها عليه[9]، وهو ما يذهب إليه أيضاً لوتشانوصوما Lochanosomai القنصل النابوليتاني في طرابلس، والذي أبلغ حكومته في 1835/05/10م بوصول البارجة الإنجليزية انديليوني EndeLuonea إلى ميناء المدينة قادمة من مالطا، وقد أُرسلت خصيصاً لاستقبال طلائع القوات العثمانية القادمة لاحتلالها، وعندما لم تجدها هناك تداول قائدها مع قنصل دولته في حاضرة الولاية لمدة ساعة كاملة، أبحر بعدها شرقاً لملاقاتها ومرافقتها إلى طرابلس[10].

طبيعة الدور البريطاني والفرنسي في الصراع القرمانلي:

لقد رأى وارنجتون Warrington، القنصل البريطاني في طرابلس، إن احتلال فرنسا للجزائر لن يكون آخر مشاريعها في المنطقة، وإن ما يقوم به قنصلها في الولاية لا يجب أن يفهم إلا في إطار المقدمات، التي لن تكون خواتيمها إلا مشاهدة مستعمرة فرنسية أخرى في شمال أفريقيا، وهو ما دفعه إلى تحدير حكومته في شهر سبتمبر سنة 1832م[11].

إن نجاح علي باشا في تدعيم أركان ملكه في طرابلس سيجعل منها أكثر من مستعمرة فرنسية، ذلك أنها ستحصل على امتيازات كبيرة، دون أن تتكلف أي ثمن. بهذه العبارات خاطب القنصل البريطاني حكومته، ثم عاود خطابه في أوائل عام 1833م، رافعاً سقف ادعاءاته بأن الباشا الجديد قد تنازل لها عن ملكه نظير أجرٍ سنوي يقبضه منها مدى حياته، وإن كان يقر بأن ما يملكه من أدلة لا ترقى إلى التأكيد القاطع لهذه المعلومات[12].

إن مغادرة وارنجتون لمالطا– التي استقر بها عقب خلافه مع يوسف باشا، وقطعه لعلاقات دولته معه– عائداً للإقامة في المنشية مركز الخارجين عن السلطة[13]، وتشجيعه لرعايا بلاده على نقل مصالحهم، وأعمالهم التجارية إليها[14]، وأكثر من ذلك قيامه بإنشاء مرفأ صغير لاستقبال السفن في بستان القنصلية البريطانية، وتدشينه لمركز جمارك بداخله، يتولى الإشراف على العمليات التجارية، وتحصيل الرسوم المستحقة عليها، والتي خصصها لمحمد بك القرمانلي، وغدت مصدر دخله الرئيسي[15]. لم يكن فقط كل الدعم الذي قدمه لخصوم الباشا، ذلك إنه اجتهد في التسويق لمحمد بك القرمانلي بين سكان الدواخل، ونجح في استمالت عدد من المؤثرين منهم إليه، كما عمل بتفاني على امداده بالسلاح والعتاد من المستعمرة البريطانية مالطا، وتحديداً بواسطة شركة هنترو روسي Hanteroraci التي يمتلك عدداً من أسهمها، وليضمن استمرار تدفق الدعم له بشكل منتظم، رفض الاعتراف بالحصار المعلن من سلطات طرابلس في 1832/09/05م، بحجة مخالفته للاتفاقية المبرمة بين البلدين، فكانت السفن المحملة بالسلاح والذخيرة، تفرغ حمولتها في المنشية تحت حماية بوارج الأسطول الإنجليزي[16].

وفيما فشل علي باشا في احتواء واستقطاب أحد أهم رجالات والده، وهو محمد شلابي بيت المال والذي كان قد اعتزل الصراع في بدايته، وغادر بنغازي إلى مالطا[17]، نجح قنصل بريطانيا بعد إلحاح وجهد كبير في إقناعه بالالتحاق بالثأرين[18]، فأضحى يمدهم بالمؤمن والسلاح والعتاد سراً، مجتهداً في توفير كل ما يطلبونه من المدافع الثقيلة، والقذائف الكبيرة لدك تحصينات المدينة، هذا علاوة على تسخير خبراته السياسية والقيادية ونفوذه وعلاقاته المتشاعبة بين سكان الدواخل في خدمتهم[19]، ثم ما لبث أن قفل راجعاً إلى المنشية في ديسمبر سنة 1835م، ترافقه ثلاثة مراكب حربية استئجرهابمساعدة الإنجليز، تحمل على متنها كل ما تتطلبه الحرب[20]، والتي كان يستدين ثمنها من التجار المالطيين[21]، الذين كان لبريطانيا

الفضل الكبير في إقناعهم بالتعامل معه[22]، كما حوّل وارنجتون سطح منزله إلى مرصد يستخدمه محمد بك ورجاله لمراقبة جنود وسفن عمه، دون أن يجرؤ الأخير على قصفه تحاشياً لسخط بريطانيا[23].

وعلى الجانب المقابل كان الارتياب الفرنسي، فيما يضمره الإنجليز لطرابلس، أكبر من أن يبدده نفيهم له، وقد جاء رسو عدد من قطعهم البحرية، قبالة سواحلها بدريعة حماية امتيازاتهم ومصالحهم، ليؤكد ما تواتر لديهم من أخبار مفادها تنفيذهم لمخطط سري يقوم على خلق حالة من الفوضى والنزاع فيها، تتيح لهم فرصة احتلالها عسكرياً، وهو ما دفع القنصل الفرنسي شوبيل Schwebel للعمل على أكثر من واجهة لإفشال المساعي تلك، متخذاً من صحف عدد من العواصم الأوروبية منبراً للترويج لعلي القرمانلي، واصفاً إياه بأنه رجل دولة من طينة الكبار، ويحمل مشاريع إصلاحية للنهوض ببلاده في فترة وجيزة، كما استخدمها لشجب ومهاجمة المخطط البريطاني، الذي يقوده واريختون في طرابلس، ومنه كشفه لصفقات السلاح، التي كان يديرها لصالح زعماء المنشية[24]، ناهيك عن الضباط الفرنسيين الذين تولوا إدارة معارك الدفاع عن طرابلس، ومساهمتهم الفاعلة في رد الصائلين[25].

وسعياً منها لإنهاء الحرب، وتأكيداً لانحيازها الكامل والواضح لعلي القرمانلي، وبأوامر ملكية صارمة، باشر شوبيل في 1833/04/12م، بتقديم مقترح سلام مشروط، إلى سكان الأراضي الخارجة عن سلطة المدعوم من قبلها، تقوم على عفواً شامل عنهم، وإعادة جميع امتيازاتهم وحقوقهم السابقة لهم، في مقابل اعترافهم به واذعانهم له[26]، إضافةً إلى قيامه بتكليف غومة المحمودي، أحد أهم الزعماء المحليين، بمهمة إقناع محمد بك القرمانلي، بالقبول بشروط الصلح، وتحديره من عواقب الرفض الذي سيضطر دولته إلى عدمالتردد في استخدام السلاح، لإرغامه على الخضوع والانصياع لإرادتها، وتصميمها على سحق كل من يحاول الوقوف إلى جانب المناوئين له[27]، في تهديد يبدو واضحاً إنه تجاوز قادة الثأرين، إلى من لايزال يقف على الحياد، أو يشوب موقفه من الأحداث الجارية بعض التردد.

ولم يغفل الفرنسيون عن أهمية حشد الدعم الشعبي، لمن وقع عليه اختيارهم ليكون رجلهم في الولاية، فتكفلوا في 1833/06/25م، بتخصيص سفينة حربية، نقلت على ظهرها إلى مدينة الزاوية رئيس وزراء الباشا محمد الدغيس، وجمع من رجاله، يرافقهم نائب القنصل الفرنسي، وعدد من ضباط بحرية بلاده، وأثناء اجتماعهم مع ممثلي قبائل المنطقة، أعلن القادة

الفرنسيون، بأنهم يضمنون تنفيذ جميع الوعود التي قدمها لهم الباشا، مقابل الوقوف معه ضد خصومه، وبأن حكومتهم لن تتخل عنه، وستمضي في دعمه بالمال والسلاح حتى النهاية، الأمر الذي كان له بالغ الأثر في إذعان وولاء جل زعماء عشائر المنطقة له[28].

لقد أقنع القنصل الفرنسي، المبعوث العثماني، الذي جاء إلى طرابلس، في أغسطس عام 1833م، لتقصي حقائق القتال الدائر فيها، بعدالة قضية علي القرمانلي، وأهليته للحكم، وبغي ابن أخيه عليه[29]، ما جعل السلطان يقره باشا للبلاد، في سنة 1834م[30]، إضافة لعمله مع قنصلي النمسا وفرنسا في اسطنبول للدعاية له في دوائر السلطة هناك[31].

تطور الخلاف البريطاني الفرنسي وتداعياته على الصراع في طرابلس:

كان للتقارب العثماني الروسي، أثره على الصراع، الأنجلو – فرنسي، والذي اضطر كليهما إلى تنحيه خلافاتهما جانباً، والتفرغ لتدعيم نفوذهما في الاستانة، والحيلولة دون التفرد الروسي بها، وفي محاولة منهما لإزالة أي أسباب للتوتر بينهما في طرابلس، اتفقتا على استبدال سفيريهما فيها، وفيما التزمت فرنسا بذلك، وأرسلت دي بوربلونDe Borbloun بديلاً لشوبيل، أبقت بريطانيا على وارنجتون في منصبه، والذي عاد إلى طرابلس ورفع علم بلاده على مبنى قنصليتها في اعتراف صريح بشريعة حاكمها، وإن كان قد ربط وقف دعم حكومته للخارجين عليه، بمنح دولته مزيداً من الامتيازت والنفوذ، وتحجيم المصالح الفرنسية[32].

لقد أتاح تصاعد الخلاف بين الغريمتين، المجال واسعاً أمام أبناء القرمانلي، لمواصلة القتال، اعتماداً على ما كان يلاقيانه منهما من دعم، وعلى الصعد كافة، والذي جعل إحداهما وهو محمد بك يتطاول على سفن بعض الدول الأوروبية، ويأمر بحارته باستهدافها، فيما كانت قذائف مدافعه المتساقطة على المدينة، لا تستثني قنصليتها، وهو ما يوثقه عمه، والذي يبدو إنه اكتفى من الحكم وأعبائه، بوصف ما يجري داخل ولايته، دون أن يقوى على درء جموح من نعتهم بالمتمردين في رسالته الموجهة إلى القنصل التوسكاني، والتي يبلغه فيها بقيامهم بإغراق مركب تابع لدولته، بعد أن استولوا على ما به من أسلحة وذخائر، مبرراً عجزه عن حمايته بالأحوال الجوية السيئة، التي لا يمكن معها حسب رأيه إخراج بعضاً من بحارته لإنقاذه، في حين لم تمنع الأجواء ذاتها مركباً يحمل ثلاثون مسلحاً من الإبحار صوبه ومهاجمته، والاستيلاء عليه، ومن ثم إغراقه[33].

إن ما يورده، لوتشانوصوما في تقريره الموجه إلى حكومته، بخصوص ما حل بالمركب التسوكاني، يرسم صورة جلية الوضوح إلى حجم الصراع الدائر، والأطراف المتداخلة فيه، فعلى الرغم من أنه يؤكد، بأنها حادثة لا تعدو عن كونها مؤامرة دبر لها، وحاك خيوطها القنصل الإنجليزي، بالتعاون مع زميله التوسكاني، وقبطان السفينة، وأحد التجار، لإقناع الحكومة البريطانية بأنه لا يملك القوة الكافية لسحق خصومه، ولا حتى تشديد الحصار عليهم، كما أعلن سابقاً، إلا أن ما يسرده من وقائع، لا يشئ بغير ذلك، ومنها تأكيده على وجود قناصل وضعت تحت تصرفهم مراكب حربية، لحماية رعاياهم، وأعلام بلدانهم، ولضمان التجارة الأوروبية في المنطقة[34].

لقد بلغ استهتار وارنجتون بحاكم الولاية، حداً جعله يشمل بحمايته، بعضاً من الأهالي[35]، وتشكف إحدى الوثائق عن قيامه بالعمل على منع السلطات من القبض على تاجر طرابلسي، من الداعمين للخارجين عليها، وتوفير الملاذ الآمن له، مردفاً ذلك برفض الاعتراف مجدداً بالحصار المعلن على معقل الثائرين[36]، كما إنه لم يعد يقيم وزناً لأية أعراف دبلوماسية، متجاوزاً كل ما من شأنه أن يضبط سلوكه داخل الولاية، لدرجة اضطرت حكومته لإرسال محقق من لندن للنظر في كل ما تناقلته الأخبار عنه[37].

إن تصرفات القنصل الإنجليزي، مع علي القرماني، لم تكن على ما يبدو التزاماً حرفياً بتوجيهات خارجيته، أو أنه وهو الأرجح قد أفرط في إهانته وتحديه، وذهب أبعد مما هو مطلوب منه لتحقيق أهداف دولته، ذلك أن ما دونه قنصل نابولي في رسالته إلى خارجيته، يكشف عن تلقيه إنذاراً صارماً، واستياءً كبيراً من سلوكه، حد دفعه لمعاودة تودده إليه، في صبيحة اليوم التالي لاستلامه تعليمات مسؤوليه[38]، غير أن الوثيقة ذاتها تؤكد على عدم انقطاع اتصالاته مع المنشية، واستمرار علاقاته – هو القبطان مونديMonde ربان البارجة البريطانية الموضوعة تحت امرته، والمرابطة هناك – مع زعمائها، استمرار تساقط القنابل على المدينة وساكنيها، بل أن ذات المصدر يشير إلى أنه في يوم 1835/01/18م، وفور وصول سفينة فرنسية، تحمل على متنها القنصل الفرنسي العام الجديد في طرابلس، السيد بوربولون، قام المتربصون بالمدينة بتوجيه مدافعهم صوبها، وباشروا بقصف الميناء ومبنى الممثلية الفرنسية بعدة قذائف، سقطت جميعها تقريباً على الرصيف وبجوار القنصلية[39]، في إشارة منه على ما يبدو إلى التنسيق القائم بين وارنجتون وخصوم الباشا، وإلى الحد الذي بلغه تصادم

المشروعان البريطاني والفرنسي في الولاية والذي ساهم في استمرار الصراع، بين أبناء العائلة الواحدة، حيث يؤكد القنصل النابوليتاني، في تقريره الموجه إلى خارجيته، استمرار تساقط قنابل المدافع على المدينة بوتيرة متصاعدة، بلغت في يوم 1835/02/02م خمس عشر قذيفة، فيما تتداول أخبار والحديث لايزال لنفس المصدر، إن قذائف أكبر عياراً قادمة من مالطا في طريقها للمنشقين، الذين يؤكد استلامهم لحمولة عشرين برميل من البارود من الجهة ذاتها[40].

وفي استجابة واضحة للتحدي البريطاني، واصلت فرنسا دعمها لعلي باشا، وأكدت لسفيرها لديه بأن المهمة المكلف بها، تقوم أساساً على رفده، والشد من أزره، وعدم التقعسعن القيام بأي جهد، من شأنه أن يضع حد لهذه الحرب، ويكفل بقاءه حاكماً للولاية، وخاصةً بعد أن حاز اعتراف الباب العالي، وتمضي وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية في إسداء تعليماتها لقنصلها، بأن لا يتوانى عن الترحيب بكل ما تعتزم الحكومة العثمانية اتخاذه من إجراءات لفرض احترام قرارها الخاص بالاعتراف به حاكماً للبلاد، وأن يساندها في كل ما تقوم به لإنهاء الاضطرابات فيها[41].

لقد كان الدعم البريطاني الفرنسي للمتحاربين أكبر على ما يظهر، من أن يجعل مبعوث السلطان العثماني، يصيب قدراً من النجاح في إنهاء الصراع، ورأب الصدع بين أبناء القرمانلي، فما أن غادر طرابلس، بعد أن جوبه بتصلب مواقف المتنازعين، حتى عاودت مدفعية المنشية قصف المدينة، وبضراوة أشد، وعلىنطاق واسع، يشهد بهلوتشانوصوما، والذي يدعي أنها في السابق لم تكن تستهدف سوى القصر، إلا أنها أصبحت توجه أيضاً إلى مقرات إقامة رعايا الدول الأوروبية بعد رحيله[42].

كان الذهاب بعيداً في حرب طرابلس، القرارالذي انتهت إليه دوائر الحكم في فرنسا، وهو ما يستشف من قيام فيرمون Vermone، قبطان بارجتها الحربيةباليمورBalemor، المرابطة فيها، بالرد على الخارجين على سلطة الباشا، أثناء محاولتهم منع سفينة الشحن التجارية النمساوية، من الدخول إلى الميناء، وتفريغ حمولتها فيه[43]، بإسكات مصادر النيران، وذلك المنشية وما جاورها بأكثر من مائتي قذيفة مدفعية، وكان من الممكن أن تكون الحصيلة أكبر، لولا مناشدات الاعتذار والرجاء الواصلة من قادتها، لأنه كان مصمماً على الاستمرار في الهجوم، والذي بلغ من القسوة والحزم، حد جعل مبعوث السلطان العثماني الذي شهد

الواقعة، والقنصل الدنماركي، ونظيره الإنجليزي، يعتقدون إنه أكثر من ردة فعل، على ما اعتبره استفزازاً وتحدياً له، مرجحين لدرجة التأكيد بأنه كان ينفذ أوامر من دولته، مفادها استغلال أية دريعة، مهما كان صغر حجمها لاجتياح البلاد[44].وأياً كان الأمر، فإن ما حدث وبعيداً عن التخمين أو الركون لشهادات لا يؤمن جانب أصحابها كونهم ممثلين لمصالح متضاربة– يشئ بحجم الدعم الذي يلاقيه علي باشا من فرنسا، فهي عدى كونها رسالة شديدة اللهجة إلى خصومه، محاولة لدعم اقتصاده المترنح، والذي يصفه القنصل النابوليتاني بهذه الألفاظ تحديداً "أثناء شهري يناير وفبراير لم تصل إلى هذا الميناء أية سفينة من أي دولة، وإن الظروف الحالية التي تجتازها الولاية قد شلت بها الأمور التجارية، لدرجة أن الفاقة أصبحت مخيفة جداً، علاوة على ما يعانيه السكان بسبب الغلاء في أسعار المواد الغذائية، وفقدان الضروري منها[45]، كما يؤكد قنصل الصقليتين، أن الضائقة المالية التي يعانيها الباشا ما لبث تشتد، وتزداد سوءً كل يوم، بسبب ما يتوجب عليه مواجهته من مصروفات للدفاع عن العاصمة، وإنه اضطر لاستدانة مبلغ ثلاثون ألف دولار يفترض أن تنفق في هذا الغرض[46].

لقد عملت فرنسا بكل جد عن طريق قنصلها في طرابلس على حشد عدد من ممثلي الدول الأوروبية، وإقناعهم بتوجيه مذكرة احتجاج شديد اللهجة، إلى محمد بك القرمانلي، يطالبونه فيها بضرورة إيقاف الحرب فوراً، لما قد يترتب عليها من أضرار تلحق برعاياهم، وإنهم لن يفقوا مكتوفي الأيدي بعد ذلك.

ويظهر جلياً من العبارات التي صيغت بها الرسالة، عدم اعترافهم بشرعية نزاعه مع دعمه، وتحميله مسؤولية ما ألت إليه الأمور، واعتباره الطرف المعتدي، كما لا تخلوا العريضة من عبارات التهديد، ومن بينها التلويح باستخدام القوة ضده[47]، "هذا مع العلم بأن قادة السفن الحربية المرابطة هنا، قد دعوا لتقديم المساعدة والتعاون بغية الوصول وبجميع الوسائل المقنعة لتحقيق المقاصد التي يستهدفها الموقعون أدناه"[48].

ويكشف رد محمد بك القرمانلي، على مراسلة قناصل الدول الأوروبية على إن الاحتجاج كان مشروعاً فرنسيا بامتياز، أو بتبني ورعاية فرنسية على أقل تقدير، ذلك أنه يشير في جوابه عليه بأنه وصله أو تلقاه عن طريق ضابط فرنسي، أو بهذه الألفاظ حصراً "إن رسالتكم المؤرخة في 14 مارس الموجهة إلينا بواسطة ضابط فرنسي"[49]، هذا فضلاً عن قيام فيدال

لابيير قائد السفينة الحربية الفرنسية بالتوقيع على العريضة نيابة عن قنصل السويد في طرابلس وتحت اسمه[50].

ويتكفل القنصل النابوليتاني في طرابلس، بشرح أسباب وجود إمضاء القنصل البريطاني على العريضة، فيقول إنها كانت باقتراح منه شخصياً، وقام بتحريرها وصياغة مضامينها القنصل الفرنسي السيد بوربولون، والذي قام بعرضها على قناصل الدول الأوروبية لنيل موافقتهم عليها.

ويمضي المصدر ذاته واصفاً الموقف البريطاني المريب، بأنه وقناصل دول إسبانيا وهولندا وسردينيا، قد وافقوا عليها على مضض، وكان الرأي عندهم، بعدم التدخل في هذا الصراع، لأن الغرض من تحريرها لم يكن يتعدى تأييد وجهات نظر وأغراض القنصل الإنجليزي، كما يشير إلىتحايل وارنجتون على نظيره الفرنسي، الذي لم يكن حذراً في التعامل معه، كما كان سابقه، وانساق وراء خدعه وألاعيبه التي ما انفك يمارسها عليه، ليجعله من المؤيدين له في رواه ومبادئه[51]، مبدياً أسفه – والكلام دائماً لنفس المصدر – لعدم انتباهه بعد بأنه استخدام كآلة لتحقيق مآربه.

ويعلل لوتشانوصوما، استخدام هذه العبارات القاسية، في حق القنصل الفرنسي، بأنه عمل سراً مع وارنجتون على إرسال مبعوثيهما إلى المنشية، لإقناع محمد بك، بضرورة الوصول إلى تسوية تنهي الحرب، فكان أن عادا بوثيقة سوف يحيلها القنصل البريطاني لحكومته، كإثبات لتعاونه في إقرار السلام في الولاية، وليُشاع في المنشية بأن خصمهم أمسى في حالة من الشدة والوهن، اضطرته لاستجداء وساطة القناصل الأجانب، ما يوحي بأن مقاومته لن تطول، ولتشجيع التأرين وتحريضهم على الاستبسال في القتال[52].

وعلى الرغم من قناعة الجميع تقريباً، بعجز كلى الطرفين على حسم الحرب لصالحه، فقد استمر وارنجتون في دعمه لمحمد بك، رافضاً الاعتراف مجدداً بالحصار المفروض من قبل الباشا على السواحل التي يسيطر عليها الخارجين عليه، متخذاً من التسويف والمماطلة وسيلة لكسب الوقت اللازم لمواصلة إمداده بكل ما يسعر الحرب[53]، ويدعم موقفه الذي بات مترنحاً في هذه الأثناء، بسبب الملل الذي أصبح يجتاح نفوس مناصريه، وانشغال بعضهم بالخلافات الشخصية[54]، ولم تجد مناشدات علي القرمانلي، بخصوص توضيح موقف دولته من الأحداث الجارية، أي صد لديه، وواصل إقامته في المنشية دون الالتفات لدعوته له للعودة

للإقامة في المدينة، متجاهلاً كل عبارات الود والمجاملة التي صاغ بها خطابه إليه، والتي نورد منها "كما سوف يسري جداً أن أراكم تعودون للمدينة مع جميع رعايا سيادة الملك البريطاني الذين يقيمون الآن في المنطقة التي يسيطر عليها المتمردون"[55].

كما أعلن القنصل البريطاني، في مرات عدة بأنه لا يستطيع الاعتراف بحصار غير قائم فعلاً[56]، وطلب في مرات أخرى من الباشا مهلة من الوقت، كي يتسنى له تعميم قراره على السفن البريطانية، العاملة بالتجارة مع الشطوط المناوئة له[57]، الأمر الذي اضطر حاكم طرابلس، إلى مراجعة المسؤول البريطاني في مالطا مباشرة، مرفقاً مع خطابه صورة من المراسلات التي دارت بينه وبين قنصله بالخصوص.

لقد كان الرد البريطاني الذي تلقاه الباشا وحمله إليه قائد البارجة البريطانية، العاملة قبالة سواحل الولاية والموكل إليها حماية التجارة الإنجليزية فيها، خالياً من أي عبارات دبلوماسية، وبجمل لا تحتمل التأويل، وبلهجة شديدة الصرامة والحدة، ونورد منها هنا، "إن حكومة سيادة الملك وافقت بالكامل على سلوك القنصل العام بخصوص الحصار المفروض من سموكم، وإنها سوف لن تعترف بأي حصار ما لم يكن فعالاً، وإني قد أمرت القبطان موندي بالذهاب إلى طرابلس مع هذه الرسالة، وأعطيته تعليمات أثناء وجوده مرابطاً في هذه المحطة، كي يعمل كل جهده لأجل حماية التجارة الإنجليزية، في المنطقة.وعليه أن لا يسمح بمنع الرعايا البريطانيين من إتمام عملياتهم التجارية، بالنسبة لحصار لا أثر له، وعليه أن يدعم في كل مناسبة الأمن والتأييد للعلم الإنجليزي خارج مرمى مدفعية المدينة والقصر"[58].

وفي استمرار للمساعي الفرنسية الرامية لتدعيم موقف الباشا، قبلت قواتها البحرية المرابطة في ميناء طرابلس، أن تتولى حماية السفن التجارية البريطانية، العاملة مع الشطوط الخارجة عن سلطته، في مقابل أن تبحر البارجة الإنجليزية القائمة على رعاية المصالح البريطانية في المنطقة إلى مالطا، ويجتهد قائدها في العودة باعتراف ملكي بالحصار المفروض على المرابطين في المنشية، إلا أنها رجعت تحمل ما نصه، إن الباشا لا يملك القوة الكافية والفعالة لمحاصرة السواحل التي شق قاطنيها عصا الطاعة عليه[59]، وهو ما يفنده القنصل النابوليتاني في شهادته التي يوثقها في تقريره الموجه إلى حكومته، والذي يحصى فيه بالأرقام ما تمتلكه طرابلس من قطع بحرية مسلحة، وأعداد ما عليها من مدافع، وأنواع أعيرتها، مردفاً ذلك بقوله، إنها أكثر من كافية، في اعتقاد جميع المراقبين، ويضيف لوتشانوصوما، واصفاً التعامل الإنجليزي

مع عاهل البلاد، بالإجحاف والاستهتار بشرعيته حتى إنهم داسوا كل حقوقه بأعذار واهية، واستخفاف كان أبرز آياته عدم تواني وارنجتون في الإعلان عن نصره المظفر على الملأ، وقيامه بتعليق إعلان رفض الاعتراف بالحصار على باب قنصلية دولته، وتكليف أحد معاونيه بالتجوال بين دكاكين الأوروبيين في المدينة، وإبلاغهم بأن التجارة مع الثائرين لا تزال حرّة ومستمرة، وهو ما تلقفه زعماء المنشية بسرور بالغ، عبروا عنه بقصف المدينة بأحد عشر قنبلة، فور سماعهم الخبر[60].

وتجدر الإشارة أخيراً في هذا السياق إلى أن لهفة محمد بك القرمانلي وتعطشه للسلطة، دفعته لطرق كل الأبواب، وكان آخرها ما أحاط به القنصل الإنجليزي حكومته، في 1834/6/7م من أنه كان عازماً رفقة عدد من المشايخ المؤيدين له، والممثلين لسكان الولاية– وهو الوصف الذي استخدمه تحديداً– أن يكتبوا له رسالة، يقترحون فيها وضع أنفسهم تحت الحكومة البريطانية، وأن يقبلوا بجميع الوجوه رغبات صاحب الجلالة، شريطة أن ينهي جلالته هذا الصراع لصالحهم[61]، الأمر الذي دفع دولته لمراسلته طالبة المزيد من الإيضاح والتفاصيل الإضافية، والتي وافاها بها في 8/27 من ذات العام، مؤكداً أن الأهالي يرغبون طواعية في أن يصبحوا مستعمرة إنجليزية[62].

إن ما يرويه المؤرخون عن الأحداث التي صاحبت انتقال السلطة داخل أبناء البيت القرمانلي، وما رافقها من غدر ودسائس يجعل ادعاء القنصل البريطاني غير مستبعد بنسبة كبيرة، بالرغم من التزامنا الحذر في التعاطي معه، خاصة وأنه كان دائماً يدفع في هذا الاتجاه، فقد سبق له أن اقترح على دولته التدخل المباشرة واستخدام القوة ضد علي القرمانلي، لتمكين خصمه من الاستيلاء على العرش، والذي إذا ما حدث سيجعلها مهيمنة لمدة تصل إلى مئة سنة، ليس على طرابلس فحسب، وإنما على كامل الشمال الأفريقي، والذي سيصبح حسب قوله تحت سيطرة التاج البريطاني الذي يسعى لإنجاز مشاريعه الرامية إلى التوسع الجغرافي، وتنمية وتطوير خطوط التجارة الداخلية، إلا أنها وتحاشياً للتعقيدات الدولية المرتبطة بمستقبل الدولة العثمانية ذاتها، واستقراء لما يمكن أن يستتبع تقويض أركانها، من صراع بين الدول الكبرى على اقتسام تركتها، فقد قررت صرف النظر، عن ذلك، والاكتفاء بالمضي في النهج الذي اتخذته منذ البداية، ومثلها ولذات الأسباب تقريباً، اختارت فرنسا الموقف نفسه، عندما دعاها السيد شوبيل ممثلها في طرابلس، للتدخل صراحة ودون مواربة، لتنصيب علي

القرماني حاكماً على الولاية، وإخضاعها له بقوة السلاح، والذي لم يكن يرى طريقاً غيره يضمن التجارة الفرنسية فيها، ويحول دون دمارها، أو احتلالها من قبل الباب العالي[63]، إلا أنها فضلت عوضاً عن ذلك تبنيه والاستمرار في دعمه، وقد ظلت متمسكة به إلى اللحظات الأخيرة[64].

ولم يكن أمام الدولة العثمانية وهي تراقب الحرب القرمانلية المستعرة، إلا أن تكتشف أخيراً وكعادتها دائماً، أن انتصار أحد الفريقين يعني سيطرة الدولة الداعمة له على طرابلس، ولأنها لم تعد ترغب في فقدان المزيد من مستعمراتها بعد اليونان والجزائر، فقد قرّرت معاودة احتلالها من جديد، وهو ما تم في 1835/5/28م، وليأخذ بعدها الصراع الإنجليزي الفرنسي فيها أشكال وأبعاد أخرى، مهدت له بريطانيا بإعادة محمد بيت المال القائد الفعلي للمنشقين على متن أحد سفنها من المنشية إلى المدينة[65]، أين استقبله حاكمها الجديد بحفاوة كبيرة وأسند إليه منصباً في حكومته العتيدة، نزولاً عند رغبتها والتي لم تكن لترضى لرجلها بأن يشغل أقل من مقعد كخيا القصر، وهو المقام الأعلى في الولاية بعد الباشا[66].

الخاتمة:

لقد كانت أحداث طرابلس فيما بين عامي 1832-1835م، أكبر من صراع على الحكم بين أبناء الأسرة الواحدة، فلم يكن باستطاعة محمد بك الاستمرار في القتال كل هذا الوقت بدون الدعم البريطاني، وما كان لعمه أن يصمد خلف أسوار مدينته طيلة تلك الفترة لو أزاحت فرنسا بوجهها عنه، وهو ما يدفعنا للاستنتاج بكثير من الارتياح وبقليل من المجازفة إن حرباً إنجليزية فرنسية قد دارت رحاها في ولاية طرابلس، حتى وإن تنكر طرفاها في أزياء أهل البلد، أو تدثروا بعباءات باشاواتها، فشروط الاقتتال ومتطلباته كانت متوفرة لدى الجانبان، ذلك أن أسباب الصدام أوضح من أن تخطئها الأعين، أما ما يقيم أود الحرب فقد اجتهد كليهما في توفيره، فلم ينقطع الدعم بالمال والسلاح عن المنشية وأصحابها، ناهيك عن العمل على استقطاب المؤيدين والأنصار لهم وبكل السبل، وأكثر من ذلك استقدامها لشخصية متمرسة وذات نفوذ شعبي واسع لتولي القيادة الفعلية، بعد أن تأكد لها عجز حفيد القرمانلي عن تحقيق تطلعاتها ومآربها، في حين كان أعرق وأعتى أساطيل العالم البحرية يوفر الحماية للمراكب القادمة من مستعمرتها مالطا وهي تفرغ حمولتها من العتاد بكل صنوفه أمام مرآى ومسمع من الجميع، فيما لم تتردد فرنسا بالزج بضباطها في أتون معارك الدفاع عن أهم معقل

لصنيعتها، بالإضافة لإمداده بكل ما يحتاجه للاستمرار، علاوة على التهديد الصريح والمباشر الذي وجهته إلى الزعماء المحليين في حال تقعسهم عن الوقوف إلى جانبه، وكذلك بالنسبة للمقاتلين فلا اعتقد أنها المرّة الأولى التي يلجأ فيها الفريقان لاستخدام من ينوب عنهم في حروبهم، فلم يكن أبناء القرمانلي وجل من تشيع لهم أكثر من أدوات استُغلت لتحقيق أهداف الآخرين في الولاية.

أما عن عودة البلاد للحكم العثماني مجدداً، فلا أجزم بأنها خرجت منه أصلاً لتعود إليه، فلم يكن الحكام من أبناء هذه الأسرة أكثر من شظايا بشرية ناجمة عن كل ما قدف به المحتلون على المدينة وأهلها أثناء قدومهم الأول، أو في أحسن الأحوال مقاولون بالباطن، أو حتى جباة ضرائب ومصادري لأرزاق السكان بالوكالة.

المصادروالمراجع

أولاً/ الوثائق:

وثائق مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، وثائق نابولي، المجموعة السابعة والعشرون.
رسالة من علي القرمانلي إلى القنصل البريطاني في طرابلس، بتاريخ 1835/1/11م.
رسالة من علي القرمانلي إلى القنصل التوسكاني في طرابلس، بتاريخ 1835/1/19م.
تقرير من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/1/26م.
تقرير من موندي قائد السفينة الحربية البريطانية المرابطة في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/1/26م.
تقرير من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/1/27م.
تقرير من المحقق البريطاني صامويل روبرتس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/1/28م.
تقرير من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته بتاريخ 1835/2/7م.
رسالة من دي ريتي مسؤول الدائرة السياسية في وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية إلى القنصل الفرنسي في طرابلس، بتاريخ 1835/3/4م.
رسالة من علي باشا القرمانلي إلى القنصل البريطاني في طرابلس، بتاريخ 1835/3/5م.
رسالة من وارنجتون القنصل البريطاني في طرابلس إلى علي القرمانلي، بتاريخ 1835/3/6م.
رسالة من وارنجتون القنصل البريطاني في طرابلس إلى علي القرمانلي، بتاريخ 1835/3/7م.
رسالة منوارنجتون القنصل البريطاني في طرابلس إلى علي القرمانلي، بتاريخ 1835/3/10م.
خطاب من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته بتاريخ 1835/3/10م.
رسالة من خارجية نابولي غلى قنصلها في طرابلس، بتاريخ 1835م.
مذكرة من دي مارتينو قنصل الصقليتين في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/3/11م.
رسالة من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/3/12م.
رسالة من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/3/12م.
مذكرة من ممثلي الدول الأوروبية في طرابلس إلى زعماء المنشية، بتاريخ 1835/3/13م.
بيان من محمد بك القرمانلي إلى قناصل أوروبا في طرابلس، بتاريخ 1835/3/21م.
رسالة من وارنجتون القنصل البريطاني في طرابلس إلى السلطات البريطانية في مالطا، بتاريخ 1835/3/25م.

رسالة من المسؤول البريطاني في مالطا إلى علي القرماني، بتاريخ 1835/4/18م.
رسالة من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/4/18م.
رسالة من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/4/25م.
رسالة من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/5/19م.
رسالة من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/6/2م.
رسالة من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/8/11م.
رسالة من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/9/21م.

ثانياً: الكتب:

أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ج1، ط2، مكتبة الفرجاني، طرابلس (د/ت).

إثوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة خليفة التليسي، دار الثقافة، بيروت، 1974م.

رودلفوميكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي، ترجمة طه فوزي، معهد الدراسات العربية العالية، 1961م.

شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، ط4، جامعة قاريونس، بنغازي، 1998م.

شوقي الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980م.

عبد الرحمن تشايجي، الصراع التركي – الفرنسي في الصحراء الكبرى، ترجمة: علي اعزازي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1982م.

عبد المنعم الدسوقي، العالم الأوروبي في التاريخ الحديث والمعاصر، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، 1991م.

عمر علي بن إسماعيل، انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا، ط2، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2012م.

كاماللومنفروني، إيطاليا في الأحادث البحرية الطرابسية، ترجمة عمر الباروني، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1988م.

كوستانزيوبرنيا، طرابلس من 1510 إلى 1850م، ترجمة خليفة التليسي، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1969م.

كولافولايان، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القرمانلي، ترجمة عبد القادر المحيشي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1988م.

مصطفى بعيو، المختار في مراجع تاريخ ليبيا، ج3، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1975م.

نيكولاي بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، ترجمة عماد حاتم، ط2، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2001م.

الهوامش:

(1)عبد الرحمن تشايجي، الصراع التركي – الفرنسي في الصحراء الكبرى، ترجمة: علي عزازي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1982م، ص35 – 37.

(2)للمزيد في هذا الجانب يمكن الرجوع إلى أغلب الكتب التي تبحث في تاريخ الاستعمار البريطاني والفرنسي للعالم، ومنها شوقي الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، ط2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1980م، ص230 وما بعدها، كذلك عبد المنعم الدسوقي، العالم الأوروبي في التاريخ الحديث والمعاصر، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، 1991م، ص90، 91.

(3)هناك شبه إجماع بين كل من تناولوا هذه الفترة بالبحث، على ارتباط موقف الدولتين من الصراع القرمانلي، بالكراهية التي يكنها قنصليهما في طرابلس لبعضهما، ومنهم كولافولايان، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القرمانلي، ترجمة عبد القادر المحيشي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1998م، ص190.

(4)مصطفى بعيو، المختار في مراجع تاريخ ليبيا، ج3، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1975م، ص89.

(5)كوستانزيوبرنيا، طرابلس من 1510 إلى 1850م، ترجمة: خليفة التليسي، دار الفرجاني، طرابلس، 1969م، ص327.

(6)كاماللومنفروني، إيطاليا في الأهداف البحرية الطرابلسية، ترجمة: عمر الباروني، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1988م، ص89.

[7]نيكولاي بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، ترجمة: عماد حاتم، ط2، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2001م، ص247.

[8]إثوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترجمة: خليفة التليسي، دار الثقافة، بيروت، 1974م، ص348.

[9]ردولفوميكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي، ترجمة: طه فوزي، معهد الدراسات العربية العالية، 1961م، ص303.

[10]تقرير: من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/05/19م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص226.

[11]كولافولايان، المرجع السابق، ص190، 191.

[12]المرجع نفسه، ص191.

[13]نيكولاي بروشين، المرجع السابق، ص243، 244، 248.

[14]كولا فولايان، المرجع السابق، ص193.

[15]شارل فيرور، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة: محمد عبد الكريم الوافي، ط4، جامعة قاريونس، بنغازي، 1998م.

[16]كولا فولايان، المرجع السابق، ص193، 194، 195.

[17] عمر علي بن إسماعيل، انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا، ط2، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2012م، ص270، 271، 272.

[18]إثوري روس، المرجع السابق، ص346.

[19]رواد لفوميكاكي، المرجع السابق، ص246، 247.

[20]نيكولاي بروشين، المرجع السابق، ص252.

[21]عمر علي بن إسماعيل، المرجع السابق، ص273.

[22]نيكولاي بروشين، المرجع السابق، ص252.

[23]شارل فيرو، المرجع السابق، ص427.

[24]كولا فولايان، المرجع السابق، ص191، 195.

[25]إثوري روسي، المرجع السابق، ص345.

[26]نيكولاي بروشين، المرجع السابق، ص250، 251.

[27]عمر علي بن إسماعيل، المرجع السابق، ص279.

[28]كولافولايان، المرجع السابق، ص197، 198.

[29]نيكولاي بروشين، المرجع السابق، ص253.

[30]أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ج1، ط2، مكتبة الفرجاني، طرابلس، (د/ت)، ص354.

(31)كولافولايان، المرجع السابق، ص196.

(32)نيوكولايبرويش، المرجع السابق، ص254.

(33)رسالة من علي القرمانلي إلى القنصل التوسكاني في طرابلس، بتاريخ 1835/01/19م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص23.

(34)تقرير من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/01/26م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص25، 26.

(35)كولافولايان، المرجع السابق، ص144.

(36)تقرير من مونـدي قائد السفينة الحربية البريطانية المرابطة في ميناء طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/01/26م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص38 – 41.

(37)تقرير من المحقق البريطاني صامويل روبرتس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/01/28م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص66 – 68.

(38)تقرير من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/01/27م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص61.

(39)المصدر نفسه، ص62.

(40)تقرير من قنصل نابولي إلى خارجيته، بتاريخ 1835/02/07م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص93، 94.

(41)رسالة من دي ريتي مسؤول الدائرة السياسية في وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية إلى القنصل الفرنسي في طرابلس، بتاريخ 1835/03/04م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص105، 106.

(42)خطاب من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته بتاريخ 1835/03/10م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين،طرابلس،2001م،المجموعة 27، ص111، كذلك رسالة من خارجية نابولي إلى قنصلها في طرابلس، بتاريخ 1835م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27م، ص250.

(43)رسالة من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/03/12م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص116، 117.

(44)كولافولايان، المرجع السابق، ص209.

(45)رسالة من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/03/12م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص121.

(46)مذكرة من دي مارتينو قنصل الصقليتين في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/03/11م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص160.

(47)مذكرة من ممثلي الدول الأوروبية في طرابلس إلى زعماء المنشية، بتاريخ 1835/03/13م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص127، 128.

[48]يورد عمر علي بن إسماعيل في كتابه: انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا في الصفحة 284، 285، بأن هذه المذكرة وجهت من قبل قناصل الدول الأوروبية إلى طرفيالنزاع، تنذرهما بوقف الحرب، وعند الرجوع إلى النص الأصلي لها اتضح أنها مرسلة للمنشية دون غيرها، وهذه بعض الفقرات الدالة على ذلك "هناك قنابل قذفها سكان المنشية ضد المدنية سقطت على الأماكن المسكونة من الأوربيين ... وإن إطلاق النار على تلك المحلة من المدينة يعتبر استخفافاً كبيراً بأعلام جميع الملوك ... فالموقعين أدناه يطالبون من المنشية ... وإنهم يطالبون الذين هم في حالة حرب مع المدنية بالتخلي عن كل عملية تكون نتائجها الإضرار بالأوروبيين"، كما يذكر بن إسماعيل كذلك بأن أول الموقعين عليها كان القنصل الإنجليزي، وهذا أيضاً مجافي للحقيقة، فإمضاءه كان الأخير في ترتيب من مهروها بأسمائهم، وعن عدم توقيع القنصل الفرنسي عليها لعدم علمه بها لتعمد نظيره البريطاني إخفاء أمرها عنه، فهذا لوحده يؤكد أن المؤلف قد جانبه الصواب، ذلك إن إمضاء القنصل الفرنسي موجود على نص المذكرة ويتقدم على توقيع القنصل البريطاني بأسماء كثيرة، وليس كما يدعي صاحب الكتاب، وأكثر من ذلك يحفل الاحتجاج بتوقيع الضابط الفرنسي لا يبير قائد البارجة الفرنسية المرابطة في ميناء طرابلس نيابة عن قنصل السويد وتحت اسمه، أما ما يدونه من تحليل سطحي أثناء محاولته تفسير ما يعتقد أنها أسباب عدم دعوة القنصل الإنجليزي لزميله الفرنسي للتوقيع على المذكرة، فسنترك لقنصل نابولي مهمة الرد عليه في متن البحث، ومن كل ما تقدم يتضح جلياً بأن بن إسماعيل لم يطلع على نص الوثيقة، بالرغم من أنه ينشر في الملحق رقم (58) ص479، 480 من كتابه ما يزعم إنه نصها، وهي في الحقيقة عبارة عن مدونة عربية بطباعة حديثة، دون أن يرفقها بالنص الأصلي، وبلغته التي كتب بها في الجهة المقابلة للترجمة العربية، ولذلك فالأرجح أنه نقلها من متن أحد المراجع التي سبقته إلى استخدامها فوقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه سابقه.

[49]بيان من محمد باشا القرمانلي إلى قناصل أوروبا في طرابلس، بتاريخ 1835/03/21م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص146.

[50]مذكرة من ممثلي الدول الأوروبية في طرابلس إلى زعماء المنشية، بتاريخ 1833/03/13م، المصدر السابق، ص128.

[51]رسالة من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/04/25م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص225، 226.

[52]المصدر نفسه، ص226.

[53]رسالة من علي القرمانلي إلى القنصل البريطاني في طرابلس، بتاريخ 1835/3/5م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001، المجموعة 27، ص207.

[54]رسالة من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/4/25م، المصدر السابق، ص226، 227.

[55]رسالة من علي باشا القرمانلي إلى وارنجتون القنصل البريطاني في طرابلس، بتاريخ 1835/1/11م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص305.

(56)رسالة من وارنجتون القنصل البريطاني في طرابلس إلى على القرمانلي، بتاريخ 1835/3/10م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص317.

(57)رسالة من وارنجتون القنصل البريطاني في طرابلس إلى على القرمانلي، بتاريخ 1835/3/6م، وثائق نابوي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص208.

كذلك رسالة من وارنجتون القنصل البريطاني في طرابلس إلى علي القرمانلي، بتاريخ 1835/3/7م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001، المجموعة 27، ص209، أيضاً رسالة من وارتجتون القنصل البريطاني في طرابلس إلى السلطات البريطانية في مالطا، بتاريخ 1835/3/25م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص153.

(58)رسالة من المسؤول البريطاني في مالطا إلى علي القرمانلي، بتاريخ 1835/4/18م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001، المجموعة 27، ص201.

(59)رسالة من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/4/18م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م،المجموعة 27، ص204، 205.

(60)المصدر نفسه، ص205، 206.

(61) Warrington to Hay, 7 June, 1834 نقلاً عن: كولا فولايان، المرجع السابق، ص202.

(62)Warrington to Hay, 27 August 1834 نقلاً عن: المرجع نفسه، ص202.

(63)كولا فولايان، المرجع السابق، ص192، 193، 196، 197.

(64)تقرير من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/5/19م، المصدر السابق، ص266، 267.

(65)تقرير عن قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/6/2م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001، المجموعة 27، ص288، 289.

(66)تقرير عن قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/8/11م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001، المجموعة 27، ص370. كذلك: تقرير من قنصل نابولي في طرابلس إلى خارجيته، بتاريخ 1835/9/21م، وثائق نابولي، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 2001م، المجموعة 27، ص453، 454.

الكاتب: ا / نادية الرياحي فارح
أستاذة مساعدة في العلوم الثقافية
جامعة تونس

عنوان المقال: **البحر الداخلي الإفريقي يوتوبيا سان سيمونية بالصحراء المغاربية (دراسة في الأبعاد الإنسانية والإستراتيجية للمشروع)**

البريد الالكتروني:riahinadia2020@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/00/00 **تاريخ القبول**: 2020/00/00 **تاريخ النشر**: 2020/00/00

البحر الداخلي الإفريقي يوتوبيا سان سيمونية بالصحراء المغاربية (دراسة في الأبعاد الإنسانية والإستراتيجية للمشروع)

الملخص بالعربية:

ترصد هذه الدراسة مراحل تخطيط وإعداد مشروع البحر الداخلي الإفريقي، المشروع السان سيموني، الذي اقترنت فيه الأبعاد الإنسانية من قبيل صنع الوحدة العالمية، كما حلم بها السان سيمونيون، بالأبعاد الإستراتيجية والاستعمارية. ارتبط مشروع البحر الداخلي الإفريقي بالقائد العسكري والجغرافي الفرنسي السان سيموني فرانسوا إلي رودار، الذي اشترك في التخطيط لتنفيذ مشروع قناة السويس، في مصر جنبا إلى جنب مع فرديناند ديليسبس وفي الجزائر أصدر مجموعة من الدراسات والأبحاث الكرتوغرافية والطبوغرافية تهدف إلى الكشف عن ثروات الجهة وإقامة شبكة من الطرقات لاستغلال البلاد وإحكام السيطرة عليها. ويبقى مشروع البحر الداخلي الإفريقي من أهم المشاريع التي اشتغل عليها روادر أثناء إقامته بالجزائر وبمدينة بسكرة على وجه الخصوص.

الكلمات المفتاحية: السان سيمونية، البحر الداخلي الإفريقي، الصحراء، الوحدة العالمية، الاستعمار.

Abstract :

This study examines the stages of planning and preparation of the inland African sea project, the saint simonian' s project , in which the human dimensions such as the creation of global unity, as envisioned by saint simon, were associated with the strategic and colonial dimensions. The Inland African sea, in the name of the French military and geographic leader was associated with François Elie Roudaire, who was involved in the planning of Suez Canal project in Egypt along with Ferdinand de Lesseps. In Algeria, he issued a series of studies, researches, cartographic and topographical, aiming at revealing the wealth of the

region and establishing a network of roads to exploit the country and tighten its control. The African Inland Sea Project remains one of the most important Roudaire's projects worked on during his stay in Algeria and in the city of Biskra in particular.

Keywords: Saint simonism, African Inland Sea, Desert, Global Unity, Colonialism

المقدمة

اجتمعت جملة من العوامل التي حالت دون انجاز البحر الداخلي الإفريقي[1]، الذي ظلّ مشروعا غير منجز، خلاف بقية المشاريع التي خطّط لها السان سيمونيون ووضعوا تصميماتها مثل قنوات السويس وبناما والمانش وأنبارتيدو وغيرها من مشاريع السكك الحديدية داخل أوروبا وخارجها[2]. تبرز راهنية هذا المشروع في الرهانات التنموية التي يطرحها في ظلّ التحولات السياسية بالمنطقة والتي ألقت بظلالها على الواقع الاقتصادي ومن ثمة يقدم هذا المشروع بدائل تنموية جديدة لمنطقة مهمّشة على جميع الأصعدة.

عرفت الفترة التي تلت نجاح شقّ قناة السويس في مصر وافتتاحها سنة 1869، رواج التخطيط للعديد من المشاريع لشقّ عدد من القنوات الملاحية في العالم. فألّف مكسيم هيلين Maxime Hélène كتابا بعنوان **الطرق الجديدة في العالم** يدور حول قناة السويس وقناة بناما والطرق التي تختزل جبال الألب والنفق الذي سيربط فرنسا بأنقلترا عبر بحر المانش ومضيق مالقا بالإضافة إلى مشروع البحر الداخلي الإفريقي[3]. وتظلّ كتابات السان سيمونيين من أهم الأدبيات التي تحدّثت عن هذه اليوتوبيا الكونية القائمة على فلسفة الشبكات في إطار مقاربة عالمية لربط العالم بشبكات اتصالية مختلفة وخاصة منها الطرق الملاحية التي ستتيح التعارف والحوار بين الشعوب ونبذ الصراع ليصبح هذا العمل المشترك من أكثر انتصارات السلام العالمي[4]. لقد اعتبر السان سيمونيون أنّ المجتمع الصناعي العالمي، الذي بشّر به سان سيمون، يجب أن يقوم على حركة واسعة للتبادل التجاري بين كل أرجاء الكون حتى يتيسرّ الحصول على المواد الأولية اللازمة وحتى تدور عجلة المصانع ويتم تصريف المنتجات والسلع في الأسواق العالمية.

شجّع نجاح شركة قناة السويس على التخطيط لمشاريع جديدة لحوالي خمس وعشرين قناة ملاحية في العالم لاسيما وأنّ قناة السويس اعتبرت من أهم المشاريع

الإنسانية، في القرن التاسع عشر، وكانت بمثابة المثال أو النموذج الذي ألهم عديد المفكرين والمهندسين وخاصة من السان سيمونيين الذين كانت تحدوهم الآمال في تكرار هذا الانجاز في مناطق مختلفة من العالم، فقد نشر السان سيموني جورج لافيني Georges Lavigne أياما قليلة بعد تدشين قناة السويس، في 17 نوفمبر سنة 1869[5]، مقالا حول شقّ قناة جديدة في الصحراء المغاربية تكون لها نفس أدوار قناة السويس في المتوسط أو قناة انبارتيدو في المكسيك أو قناة بناما في المحيط الهادي كما نظّر لها سان سيمون في مختلف كتاباته[6]. وقد ارتبط هذا المشروع بالمهندس السان سيموني فرانسوا إلي روادار (1836-1885) الذي كتب عديد الدراسات حول البحر الإفريقي.

الملاحظ أنّ هذه المنطقة قد ورد ذكرها سابقا على يد العديد من الرحالة والمؤرخين العرب والغربيين على حدّ السواء، وحلم الكثيرون بإمكانية إعادة البحر إلى مكانه عن طريق حفر قنال يربط قابس بشط الفجيج ومن ثمة بالبحر المتوسط، إلا أنّ هذه المشاريع ظلّت مجرد يوتوبيا ولم تتحقّق على أرض الواقع، بل أسطورة أو حلما علميا واقتصاديا وسياسيا مستقبليا وظفها كاتب روايات الخيال العلمي الفرنسي جيل فارن **Jules Verne** (1828-1905) وجعل منها واقعا مستقبليا[7].

حاول **جيل فارن** إعادة إطلاق هذه الفكرة ودعا إلى انجازها في روايته الشهيرة بعنوان: **عشرون ألف فرسخ تحت البحر Vingt mille lieux sous les mers** الصادرة سنة 1870 وفي عدد من الدراسات أهمها مقاله الصادر في جويلية 1876 والموسوم بالعنوان التالي: " **مؤسسات كبرى، إنشاء بحر داخلي بالجزائر": « Grandes entreprises, création d'une mer intérieure en Algérie»**.أحيا جيل فارن في هذا الدراسات الحلم السان سيموني القديم بشقّ بحر داخلي بالصحراء المغاربية وكثيرا ما حمل إحالات على مشروع رودار ورفاقه السان سيمونيين. فقد طرح فارن مشروع رودار، خاصة في القسم الرابع من هذا المؤلف الذي عنونه: **البحر الصحراوي**. يقول جيل فارن: "... إنّ حمل الماء من البحر إلى هذه الشطوط سيعيد تشكيل هذا البحر الداخلي الذي سيسهل التواصل مع مقاطعاتنا الإفريقية، كما سيلطف من قساوة الصحراء... هذا هو المشروع الذي حلم به السيد رودار..."[8]. ظلّ جيل فارن طوال حياته مدافعا عن هذا المشروع وذلك عبر دعم الاستعمار الأوروبي لبلاد المغرب بدمج ثنائية تطور العلوم والتقنيات الحديثة ودفع المهمة الحضارية لشعوب الشرق وهي فكرة دافع عنها كل دعاة الاستعمار الأوروبي[9]. فقد كان المهم

بالنسبة إلى جيل فارن هو تحويل الحلم إلى واقع وكل الوسائل في نظره كانت مشروعة لتحقيق ذلك الهدف[10].

ترصد هذه الدراسة مراحل تخطيط وإعداد لمشروع البحر الداخلي الإفريقي كمشروع سان سيموني، اقترنت فيه الأبعاد الإنسانية من قبيل صنع الوحدة العالمية، كما حلم بها السان سيمونيون، بالأبعاد الإستراتيجية والاستعمارية لرصد الإمكانات الفعلية لشقّ هذه القناة، فقد كانت المنطقة من الناحية الاقتصادية والسياسية ذات أهمية إستراتيجية مرتبطة أساسا بالمشروع الاستعماري في الصحراء المغاربية الهادف إلى إقامة شبكة من الطرق الإستراتيجية وغيرها لتنشيط التجارة الداخلية والخارجية[11]. كان اهتمام الفرنسيين منصبّا على المواصلات وطرق القوافل القديمة بهدف تسهيل عمليات نقل قواتهم العسكرية الغازية وربط مستعمراتهم المختلفة ببعضها البعض في الشمال والغرب والوسط لتشكيل شبكة إستراتيجية من المراكز العسكرية. كما تسعى هذه الدراسة إلى البحث في عدد من الإشكالات حول الأبعاد التاريخية والطبوغرافية التي رافقت مراحل التخطيط لانجاز هذا المشروع. فأي أهمية إستراتيجية للمشروع؟ وأي بدائل يقدّمها وإلى أي مدى تداخلت الأبعاد الإنسانية والحضارية الهادفة إلى تنمية المنطقة وفكّ عزلة الصحراء بالأبعاد الإستراتيجية للإمبراطوريات الاستعمارية بعد اقتران المشروع بالحركة الاستعمارية الفرنسية لشمال إفريقيا في القرن التاسع عشر؟

1- الأبعاد التاريخية والجغرافية لمشروع البحر الداخلي الإفريقي

يتقاطع البعدان الجغرافي والتاريخي لتحليل أبعاد المشروع الذي كان مجال دراسة عديد الباحثين في القرن التاسع عشر، ولا يزال يداعب أحلام العديدين راهنا. لقد وقعت الإشارة إلى منطقة الشطوط التي كان يطلق عليها مسميات عديدة في القديم في عديد الكتابات، ولا سيما أدب الرحلة فهي بحيرة تريتون عند هيرودوت وهي سبخة تاكمرت أو شطّ فرعون في العهد الإسلامي. من أشهر الرحالة العرب الذين تحدثوا عن هذه المنطقة، في الصحراء المغاربية، يمكن الإشارة إلى الإدريسي[12] والبكري[13] والتيجاني[14] والتوزري[15] وذلك منذ القرن الحادي عشر. فقد وصف التيجاني رحلته إلى نفزاوة والجريد في بداية القرن الثامن هجري/ القرن الرابع عشر ميلادي ذاكرا أنّه تفصل بينهما سبخة تاكمرت، وهي عبارة عن "أرض ملحة هشة لا تثبت عليها رجل... سطحها كاللجين المسبوك أو المرمر المحكوك يكاد

ينفذه البصر لصفائه وكأنما هو غدير جمد ماؤه ... ومن العجب أنّ هذه السبخة لا يمكن أن تشرب بها ماء عذب فإنّ المرء إذا استصحب فيها عاد بهوائها ملحا أجاجا على طبعها"[16].

أما الرحالة الغربيون القدامى مثل هيرودوت Hérodote وسكيلاكس Scylax وبومبونيوس ميلا Pomponius Mêla فقد وصفوا رحلاتهم، عبر البحر المتوسط، التي تعيش على ضفافه شعوب مختلفة والتي كانت تحتلّ المكان الذي تنتشر منه حاليا السباخ والشطوط، دون أن يبقى لها من رابط مع سرت الصغرى إلا من خلال قناة ضيقة. وقد لاحظ بومبونيوس ميلا، العالم الجغرافي في الإمبراطورية الرومانية في بداية العهد المسيحي، وجود هذه البحيرة الكبيرة تريتون، التي كانت تتصل بخليج قابس، عن طريق قناة اندثرت اليوم على إثر هبوط مستوى المياه الناتج عن التبخر. أما بطليموس فقد اعتبر أنّ المستوى تابع هبوطه حتى انحصرت المياه في أربع منخفضات بحيرات تريتون وبالاس وليبيا والسلاحف وهي الشطوط الجزائرية ملغيغ والغرسة والشطوط التونسية الجريد والفجيج وكثيرا ما جمعت هذه الأخيرة تحت تسمية سبخة فرعون.

أما في الفترة الحديثة فيمكن الإشارة إلى الرحلة التي قام بها الرحالة الانكليزي **توماس شوو Thomas Shaw** (1692- 1751)[17] ، إلى منطقتي نفطة وتوزر في القرن الثامن عشر وتحديدا سنة 1740، واعتبر أنّ شطّ الجريد هو عبارة عن طبقة باطنية يكفي إزالتها للإبحار فيها. ومؤكدا أنّ لها ثلاثة منافذ إلى البحار المجاورة واحد إلى البحر المتوسط شمالا عبر نهر الشلف والثاني إلى المحيط الأطلسي غربا عبر ممرّ تازة والثالث إلى خليج قابس بشرق تونس عبر شط الفجيج[18]. هكذا إذن دعم الوجود المفترض للشطوط آراء السان سيمونيين فبادروا بتحديد معالم البحر الداخلي الإفريقي، باعتباره منطقة محصورة بين خليج قابس شرقا وجبال أولاد نايل وهضبة ميزاب غربا وجبال الأوراس والنمامشة وتبسة والظهر التونسي شمالا وجبال مطماطة والهفار جنوبا. لقد اعتبر هؤلاء أنّ هذه المنطقة بمثابة حوض داخلي واسع يدعى بالعرق الشرقي الكبير ويشتمل على عدد من الأحواض والشطوط الداخلية المالحة خاصة في الشمال الشرقي أهمها منخفض الجريد بتونس الذي يشتمل على شط الفجيج وشط الجريد وشط الغرسة ولا يبعد كثيرا عن خليج قابس ومنخفض ملغيغ بالجزائر، الذي يشتمل على شط عسلوج وشط ملغيغ وشط مروان غرب منخفض الجريد. وإلى الشمال الغربي من منخفض ملغيغ توجد في الهضاب العليا مجموعة من الأحواض والشطوط الداخلية المالحة في حوض شبه مستقيم من الشرق إلى الغرب، أهمها شط

الحضنة والزاغر الشرقي والزاغر الغربي والشط الشرقي الكبير مفصولة عن حوض ملغيغ بمرتفعات جبال الزاب والزيبان بين بسكرة وباتنة وحوض الحضنة[19].

هذا وقد أكدّت بعض النظريات الجغرافية أنّ البحر الداخلي قد جفّت بعض أجزائه وبقي البعض الآخر على شكل أحواض وشطوط أهمها مجموعة أحواض منخفض الجريد ومجموعة أحواض منخفض ملغيغ ومجموعة أحواض الهضاب العليا. وتقع أحواض منخفض ملغيغ على انخفاض خمسة وعشرين مترا من مستوى سطح البحر وحولها مناطق سهلية واسعة ذات تربة رسوبية التكوين تنتشر بها مجموعة كبيرة من القرى العمرانية، ذات كثافة سكانية عالية خاصة منطقة وادي سوف. ويسود هذه المنخفضات مناخ صحراوي قاس جاف وحار صيفا وبارد شتاء ومن أجل ذلك يعاني السكان باستمرار كوارث الجفاف وتضطرب أوضاعهم الاقتصادية. تدعم هذه النظريات أفكار السان سيمونيين لإعادة الحياة والازدهار إلى هذه المناطق التي أصبحت قاحلة بعد التحولات الجيولوجية التي عرفتها[20]. كما تتماهى هذه الأفكار مع الفلسفة الاجتماعية للمدرسة السان سيمونية التي تقوم على توظيف التقدم التقني لإضفاء صبغة حضارية إنسانية على المشاريع الاستعمارية الفرنسية، لا سيما من خلال التخطيط لإنجاز مشروع بحر داخلي بالصحراء المغاربية. أراد السان سيمونيون أن يجعلوا من الصحراء فضاء كبيرا للتبادل التجاري داخل القارة الإفريقية[21]. وكانوا يعتبرون أنّ القوافل وسيلة بدائية ولا تصلح لازدهار ونجاح المشاريع الصناعية الكبرى، ولذلك عملوا على التخطيط لربط الصحراء بشبكة من الطرق المائية فضلا عن مدّ شبكة من السكك الحديدية لفك عزلتها وتسهيل اتصالها بالعالم الخارجي[22].

المؤكد أنّ التخطيط لانجاز مشروع البحر الداخلي الإفريقي ليكون بمثابة بحيرة صناعية تفتح الطريق لتوغل النفوذ الفرنسي في شمال إفريقيا ووسط القارة الإفريقية ومن ثمّ مراقبة الطرق التجارية بالمنطقة. تمهيدا للمشروع زار عدد من السان سيمونيين، سنوات بعد احتلال الجزائر سنة 1830، منطقة الشطوط ومن أبرزهم **هنري فورنال Henri Fournel**، (1799-1876), سنة 1844، أبرز قادة المدرسة السان سيمونية والمهندس الذي أشرف على وضع الخرائط التفصيلية لمشروع قناة السويس في مصر، والذي عمل على إعداد عدد من الرسوم الهندسية في إطار البحث عن المياه الجوفية، التي اعتبرها الهدف الأساسي لكل عمل جيولوجي في إفريقيا الشمالية[23]. بالإضافة إلى جون رينو **Jean Reynaud**

[24] (1863 - 1806)، ولويس براكس [25] Louis **Prax** (1807- 1859)[26]، اللذان قاما بعدد من المهمات العلمية في الجزائر وتونس. كما يمكن الإشارة إلى رحلة هنري ديفرييه Henri Duveyrier[27]، (1840 - 1892) مندوب الجمعية الجغرافية لدى بعثة رودار، من الواد إلى توزر في شتاء وربيع 1859 و1860، الذي درس مستوى الشطوط عن سطح البحر وهندستها الجغرافية وكان أوّل من أكدّ أنّ الشطوط توجد في مستوى منخفض في الخارطة البحرية للمنطقة، عندما وضع عددا من الخرائط التفصيلية للمشروع[28].

كان هاجس السان سيمونيين هو ربط الشعوب الصحراوية بشعوب السواحل وتسهيل الاستغلال الاقتصادي لمقدرات الصحراء المادية والبشرية[29]. فقد دافع رودار عن ضرورة اشتغال الإنسان على تهيئة الطبيعة لخدمة الإنسانية وتعد هذه الأفكار جوهر الفلسفة السان سيمونية الحالمة بمستقبل أفضل للإنسانية عبر توظيف جيوش صناعية سلمية بدلا من الجيوش النظامية التقليدية القائمة على الحروب وذلك بهدف تحسين مستوى عيش السكان المحليين[30]. ومن ثمّ اختصار المسافات وضمان انفتاح هذه المناطق على بعضها البعض وعلى العالم بما يتيح تعارف الحضارات والشعوب بعد القضاء على الحدود الجغرافية الطبيعية. ولكن المتمعنّ في الخطاب السان سيموني بالجزائر يلحظ أنّ هذه المشاريع الصناعية كانت تتقاطع مع استراتيجيات الخطاب الاستعماري الهادف إلى السيطرة على المنطقة[31].

2- مشروع البحر الداخلي بين الهواجس الاستعمارية والرهانات الإنسانية

اقترن مشروع البحر الداخلي الإفريقي باسم القائد العسكري والجغرافي الفرنسي السان سيموني فرانسوا إلي رودار François Élie Roudaire، الذي ارتاد مدرسة سان سير العسكريةSaint Syr وتخرج منها سنة 1855، ووقع كالكثير من أبناء جيله، من التلامذة الضباط تحت تأثير مباشر للسان سيمونية. وقد كان انخراطه في الجيش الفرنسي، كجغرافي سنة 1864 وانتقاله إلى الجزائر فرصة للدعوة إلى الأفكار السان سيمونية وتطبيق مبادئها الاجتماعية[32]. عرف رودار بحنكته العسكرية وتجربته في تجميع المعلومات والأخبار، منذ اشتراكه في التخطيط لتنفيذ مشروع قناة السويس، في مصر جنبا إلى جنب مع فرديناند ديليسبس، وخلال تواجده بالجزائر منذ سنة 1872. بتكليف من وزارة الحربية الفرنسية

على رأس اللجنة العلمية للاكتشافات الجيولوجية والأعمال المائية بالجزائر، أين عمل على إعداد خارطة المواقع والجبال والسهول والشطوط ذات الأبعاد الإستراتيجية.

أصدر رودار مجموعة من الدراسات والأبحاث الكرتوغرافية والطبوغرافية في سنوات 1870-1873 تهدف إلى الكشف عن ثروات الجهة وإقامة شبكة من الطرقات لاستغلال البلاد وإحكام السيطرة عليها[33]. ويبقى **مشروع البحر الداخلي الإفريقي** من أهم المشاريع التي اشتغل عليها رودار أثناء إقامته بالجزائر وبمدينة بسكرة على وجه الخصوص[34]. كان رودار أول من قاس ارتفاع شط ملغيغ عندما كلف بمهمة المسح الطوبوغرافي لمنطقة بسكرة، منذ سنة 1873 من طرف الجمعية الوطنية الفرنسية[35]، حيث اعتبر أنّ الشط هو بحر تعرض للجفاف بسبب التصحّر وأنه نفس حوض تريتون، الذي ذكره المؤرخ اليوناني هيرودوت. بعد الدراسات الأولى التي أنجزها رودار، قام وزير التعليم العمومي بتعيينه رسميا على رأس عدّة بعثات علمية مختلفة الاختصاص للتعرف على المنطقة. كما خصصت الجمعية الوطنية الفرنسية مبلغا ماليا لدراسة منطقة الشطوط دراسة علمية وسافر رودار من قسنطينة إلى بسكرة ثم إلى أحواض ملغيغ ودرس تاريخها وجغرافيتها الطبيعية والفلكية ومناخها وتضاريسها ومستواها عن البحر وتربتها وسكانها وإمكانياتها الاقتصادية بهدف اختبار أهمية هذا البحر المقترح في إحداث التغيير المنشود والمناطق التي سيغمرها وطولها وعرضها وارتفاعها والنتائج التي ستنجر عن إحداثه ومواقف سكان المنطقة ووضع عددا من الخرائط والأشكال والمقاييس[36]. وهو ما فعله أيضا دوليستر E. Delestre مهندس المصلحة الطبوغرافية[37]. وتحدث أوكتاف ساشو Octave Sachot عن فيضانات الصحراء وبحر الجزائر والسكة الحديدية التي ستربط سكيكدة إلى تمبكتو متأثرا في ذلك بمشروع المهندس الانكليزي دونالك ماكينزي Donald Makenzei سنة 1877 حيث كان يرغب في تحويل "حوض الجوف" الذي يمتد على طول الشمال الشرقي لموريتانيا والشمال الغربي لمالي إلى بحر صحراوي داخلي، مؤكدا أنّه يمكن إغراق الصحراء بمياه المحيط الأطلسي عندما ينجز مثل هذا البحر الداخلي[38].

بدأت في تونس مهمة رودار الاستكشافية في شطّ الجريد يوم 13 فيفري سنة 1876 بعد أن استقبل الوزير الأكبر خير الدين باشا[39] هذه البعثة بنفسه[40] وعزّز المجموعة بمترجم ووضع على ذمتها كل التسهيلات لتيسير عملها[41]. وتشير بعض الوثائق الأرشيفية بالأرشيف الوطني التونسي وهي عبارة عن عدد من المراسلات بين الوزير الكبر وعماله في الجنوب

التونسي حول قدوم ديليسبس ورودار مع عدد من المهندسين إلى قابس وقيامهم بقياس ارتفاع سطح البحر[42] فضلا عن تعزيز هذه البعثة بعدد من الصبايحية والفرسان يتولون حمايتها وسبعة من الخيل المسرجة للركوب وعدد من الجمال لحمل الأثقال وأناسا لمباشرة الخدمة معه فضلا عن المؤونة وذلك على امتداد فترة الرحلة إلى الجنوب [43].

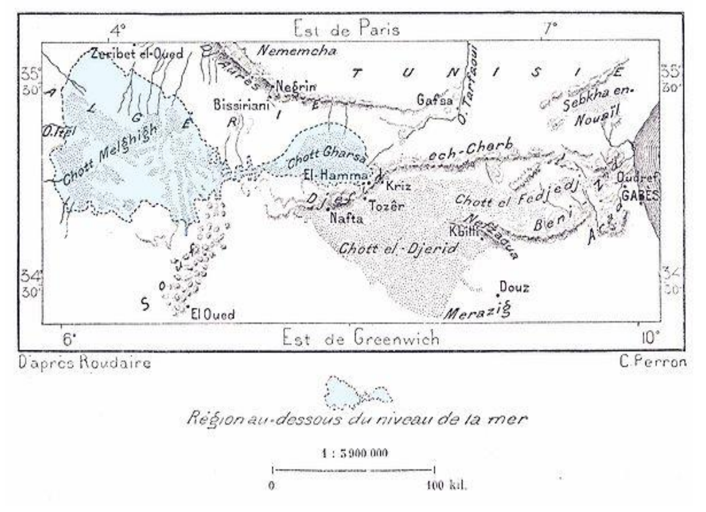
وصلت البعثة عن طريق البحر إلى قابس يوم 26 فيفري 1876[44]. أثمرت أعمال هذه البعثة الميدانية والمسح الدقيق الذي قامت به للمنطقة من ضبط تضاريس هذه الناحية من بلاد الجريد، وقد نشر بعدها رودار عددا من التقارير حول شطّ الجريد وشط ملغيغ بين سنوات 1877 و1881[45]. تتضمن هذه التقارير عددا من الملفات المصورة عن المنطقة وخارطة مبدئية لعمليات الحفر من قابس إلى غاية منطقة الشطوط. اعتبر رودار أنّ نواة البحر الداخلي ستكون في البداية أحواض شط الجريد وشط الغرسة وشط فجيج التي ستوصل بخليج قابس شرقا عبر شط فجيج الذي يمثل الذراع الشرقي لمنخفض الجريد الكبير ولا يبعد عن الخليج إلا بحوالي خمسة عشر كلم وذلك عبر حفر قناة بحرية إليه حسب خط مستقيم لجعل المياه في نفس مستوى الشطوط اعتمادا على الإمكانيات التقنية الحديثة وخاصة بعد نجاح فرديناند ديليسبس في شقّ قناة السويس سنة 1869[46]. ثم بعد ذلك يوصل هذا البحر في مرحلته الثانية بأحواض منخفض ملغيغ بوادي ريغ في الغرب وبمنخفض حوض ملغيغ في الجنوب عبر وادي سوف. واعتبر رودار هذا المشروع عملا يسيرا نسبيا، إذ يتمثل في نقل وتحريك كمية من الأتربة توازي حوالي 30 مليون متر مكعب بعد أن أثبتت الدراسات أنّ طبيعة الأرض بالمنطقة رمال وطين ولا تحتوي على الأحجار والصخور[47]. وحدّدت تقديرات رودار المساحة الجملية التي يمكن أن تغمرها المياه من شطوط الغرسة وملغيغ حتى قابس بثمانية آلاف كيلومتر.

اعتمد رودار في اختبار صحة هذه الفرضيات، أي تصور هذا المشروع والإعداد له، على عدد من خريجي المدرسة الهندسية بباريس من السان سيمونيين وعلى عدد من المعطيات العلمية الثابتة لتأكيد إمكانية انجاز هذه المشاريع وهي كالتالي:

- توفر المياه على طبقات ذات نسب ملوحة عالية بهذه المناطق.
- اكتشاف أصداف بحرية في منطقة الشطوط والسبخ.
- انخفاض نقاط كثيرة في منطقة الشطوط على مستوى سطح البحر وخاصة في المنطقة الشمالية الصحراوية.

من الضروري الإشارة إلى أنّ هذه الفرضيات العلمية قد دافع عنها عدد من المختصين مثل علماء الجيولوجيا فيرلي داست Virlet d'Aoust (1800-1894)[48] وشارل ديبوك Charles Dubocq (1820- 1873) وأوكتاف ساشو Octave Sachot ودليستر Delestre وخاصة المهندس أرنست كاريت Ernest Carette (1808-1889)[49]. كما أكدّها المهندس السان سيموني مارتينيز Martinez سنة 1864، بعد عودته من رحلة استطلاعية، قادته إلى الصحراء الجزائرية التونسية، من خلال قوله: "... توجد مجموعة من الشطوط والبحيرات المالحة في مستوى منخفض ببعض الأمتار عن مستوى سطح البحر المتوسط وهي بقايا البحر الداخلي، وآخر هذه الشطوط، بحيرة الفجيج الكبيرة على بعد 16 كيلومترا من البحر... يجب أن تشقّ هذه القناة لتعود الصحراء بحرا من جديد..."[50]. وفي ما يلي رسم توضيحي لمنطقة الشطوط كما صمّمها رودار ووضعها في كتابه حول **البحر الإفريقي الداخلي**[51].

المسح الذي أجراه القائد رودار حول البحر الداخلي الافريقي



رغم اكتشاف رودار أنّ شطّ الجريد يقع فوق مستوى سطح البحر على عكس أحواض ملغيغ وشطّ الحضنة إلا أنّه لم يفقد الأمل في انجاز المشروع واعتمد حماسه على النتائج الايجابية التي سيحققها هذا البحر من مختلف النواحي والمجالات، فمن الناحية

الإنسانية يتيح هذا البحر إنهاء عزلة هذه المناطق الصحراوية جغرافيا أو التقليص منها عبر خلق وسائل اتصال مع الشعوب الساحلية لأنّ البحر الداخلي يختصر المسافة التي تفصل البحر عن الصحراء مؤكدا أن حضارة جديدة ستولد نتيجة الاحتكاك بين أهل البحر وأهل الصحراء[52].

ومن الناحية الاقتصادية يسمح هذا البحر برفع منسوب المياه الجوفية في الشمال وخلق مساحات واسعة خصبة للاستغلال الزراعي بالصحراء. فضلا عن رفع نسبة الرطوبة في الجو بفضل تبخر مياه هذا البحر، مع زيادة منسوب الأمطار النازلة سنويا وبالتالي خلق حاجز طبيعي قوي ضد جو الصحراء القاسي وتلطيف المناخ الصحراوي لهذه المنطقة بتونس والجزائر. كان رودار يعتقد أنّ شقّ هذا البحر الداخلي قادر على "... تغيير بيئة وطبيعة المنطقة الجافة التي ستصبح شبيهة بالطبيعة الفرنسية لأنّ المناخ المتوسطي الرطب سيحل محلّ المناخ الصحراوي وسوف يكون بالإمكان تثبيت الرمال بزراعة أشجار الصنوبر كما ستنتشر الينابيع وتصبح الأرض أكثر خصوبة..."[53]. اعتقد رودار أنّ من شأن هذا البحر أن يقلّص من ملوحة المياه فهو يخلق رطوبة جديدة وهذه الرطوبة يمكن أن تتحول إلى مياه عذبة وسيؤدي ارتفاع الرطوبة والحرارة إلى تنويع المنتجات الفلاحية وخاصة زراعة القطن[54]. وزراعة ملايين من أشجار النخيل على شواطئ هذه البحيرة الإفريقية الداخلية مثل تلك الأشجار الهائلة التي تحيط ببحيرة المنزلة في مصر حسب ديليسبس[55]. كما سيؤدي تدفق المياه إلى قيام ملاحة بحرية وتشجيع استقرار عدد كبير من السكان حول شواطئ هذه البحيرات وهو ما سيؤدي إلى خلق نمط جديد من الحياة والعمران. ومن ثمّ يمكن إنشاء موانئ بهذه المنطقة تكون بمثابة مرافئ للقوافل التجارية السودانية القادمة من وسط القارة الإفريقية لأنّها ستجد موانئ أكثر قربا من الموانئ المراكشية وتستقبل هذه الموانئ المنتجات الإفريقية مثل البلح والمطاط والجلود والنعام... بالإضافة إلى قيام صناعات جديدة وخاصة صناعة الملح التي ستلقى رواجا كبيرا في أسواق إفريقيا حيث يصل سعر كيلو جرام الملح إلى 150 فرنكا[56].

ومن الناحية العسكرية يسمح هذا المشروع بنقل القوات الفرنسية بسهولة إلى جنوب الجزائر وتونس ومنع السكان من الثورة ضد السيطرة الفرنسية وهي إستراتيجية استعمارية بحتة. حيث ستشكل هذه البحيرات حدودا طبيعية ممتازة لكل من تونس والجزائر في

الجنوب وعندئذ يصبح من الصعب على البدو شن غارات داخل البلاد وجنوبها ومن ثمّ وضع حدّ لسيطرة البدو على الصحراء.

قدّم رودار خلاصة هذه التقارير إلى المجلس العلمي بالأكاديمية الفرنسية في باريس فحوّله الذي أحاله بدوره إلى ديليسبس[57]، بدعوته من مصر إثر تدشين قناة السويس فاستحسنه وشجّعه وتحمّس له كثيرا. خاصة بعد خضوع شركة قناة السويس للنفوذ البريطاني بعد الاحتلال وهو ما جعل ديليسبس يوجه اهتمامه نحو مشروعات أخرى مثل البحر الداخلي الإفريقي وقناة باناما في محاولة لبسط النفوذ الفرنسي في أماكن أخرى من العالم وضرب النفوذ البريطاني. وقد وافق البرلمان الفرنسي على اعتماد مالي جديد سنة 1878 للقيام بدراسات جيولوجية جديدة في المنطقة يشترك فيها ديليسبس نفسه. وتألّفت لجنة رسمية سنتي 1881 و1882 لدراسة الأعباء المالية للمشروع ترأسها دوفريسيني De Frecyinetالذي أكدّ أنّ التكاليف تزيد على ثلاثة مليارات وأنّ ما سيحفر من التربة يزيد ستّة أضعاف ما تمّ حفره في قناة السويس[58].

وقد اهتمت الحكومة الفرنسية بهذا المشروع بعد رفع فريستيه، وزير خارجية فرنسا آنذاك، تقريرا إلى رئيس الجمهورية الفرنسية في 27 أفريل 1882 عن مشروع البحر الداخلي الإفريقي أوضح فيه اهتمام الرأي العام الفرنسي بهذا المشروع الذي سيخلق بحيرة واسعة تزيد مساحتها 70 مرة عن مساحة بحيرة جنيف وستمتدّ مياه هذه القناة غرب خليج قابس لمسافة 240 كيلومتر. أكدّ فريستيه في تقريره على الأهمية السياسية والاقتصادية للقناة المقترحة التي ستكون بمثابة ملجأ للأسطول الفرنسي التجاري والحربي على حدّ السواء وذلك ضدّ أي طارئ أو أخطار قد يتعرض إليها. بالإضافة إلى تدعيم النفوذ العسكري والبحري في المنطقة بعد افتتاح الطريق البحري الجديد للتجارة والصناعة. حيث يمكن إرساء الدوريات العسكرية جنوب بسكرة مؤمنة التنقل وباسطة النفوذ الفرنسي على هذا الجزء من إفريقيا. وهو ما سيتيح للبحرية التجارية الوصول إلى كامل تلك المناطق التي كانت المنخفضات تقف عائقا دونها[59]. وقد اقترح وزير الخارجية الفرنسية تشكيل لجنة كبيرة لدراسة المشروع الذي قدّمه رودار من كافة جوانبه وطلب أن تضمّ هذه اللجنة ممثلين عن كافة الوزارات: الخارجية والحربية والبحرية والتجارة والزراعة ومن العلماء وأعضاء الحكومة الجزائرية لأهمية هذا المشروع[60].

الملاحظ أنّ الهدف الاستراتيجي قد طغا في هذه المرحلة على الأهداف الإنسانية، فقد اعتبر عديد المؤرخين أنّ دراسات رودار لشقّ البحر الإفريقي كانت تشير بالقول الصريح والتلميح إلى أنّ البلاد التونسية عمق استراتيجي للبلاد الجزائرية التي أصبحت مستعمرة فرنسية منذ سنة 1830[61]. كما أبدت الصحافة والرأي العام الفرنسي اهتمامها البالغ بهذا المشروع ورأت فيه ازدهارا وتوسعا للنفوذ الفرنسي في القارة الإفريقية. غير أنّ المعارضة القوية للمشروع برزت من طرف أعضاء الجمعية الفرنسية لتقدم العلوم وعلى رأسهم المهندس أوفرست بوميل[62] A . Pomel الذي يعرف تونس والجزائر جيدا والذي أكدّ عدم وجود أية صلة بين البحر وهذه الشطوط في القديم كما عارض كوسون[63] E. Cosson الذي قضى حوالي اثنين وثلاثين سنة في استكشاف الجزائر وتونس، هذا المشروع. بالإضافة إلى الدكتور روير Rouire الذي قام برحلة دراسية إلى المنطقة وحاول التعرّف على الجذور التاريخية لبحر تريتون ووضع عددا من الدراسات المتعلقة بهذه الشطوط نافيا صلتها بالمتوسط[64]. كما طرحت آراء حول عدم جدواه الاقتصادية وتكاليفه المادية الباهظة.

غير أنّ رودار حاول جلب التأييد لمشروعه بإنشاء **جمعية دراسات البحر الداخلي الإفريقي** **la Société de la Mer intérieure africaine** بالاشتراك مع فرديناند ديليسبس Ferdinand De Lesseps في ديسمبر 1882 على غرار **جمعية الدراسات حول قناة السويس**. ومن ثمة غادر ديلسبس باريس في 11 مارس 1883، ترافقه لجنة من المقاولين إلى تونس والجزائر لدراسة تكاليف وجدوى المشروع في هذه المنطقة التي سيتدفق عبرها مياه البحر المتوسط لتكون أضخم بحيرة داخلية افريقية. ووصل ديلسبس واللجنة المرافقة له إلى منطقة توزر في 22 مارس ومكث في المنطقة حتى 10 أفريل 1883 وهناك استقبل مشايخ وزعماء المنطقة وألقى خطابا عن أهمية شقّ القناة المقترحة لاقتصاد المنطقة[65]. وقد عبّر الأمير عبد القادر الجزائري[66] عن تأييده للمشروع من منفاه بدمشق. فكاتب ديليسبس، مهنئا ومشجعا وكاتب سكان قابس والمناطق المجاورة يحثّهم على تأييد المشروع، الذي سيغمر الكثير من أراضيهم وقراهم وختم ومشجعا على قبول تعويضات من السلطات عن أراضيهم التي ستغمرها المياه ونخيلهم الذي سيتضرر بتغير المناخ. وأوضح لهم الأهمية التي ستنجم عن انجاز هذا البحر مدعما أفكاره بآيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية. ففي خطابه لسكان قابس، والمناطق المجاورة، صاغ الأمير رسالته بصيغة دينية: "الله خلق العالم كلّه، فوقه وتحته، لفائدة الإنسان ورفاهيته، ووضعه تحت تصرفه". مضيفا "أنّ الخلق لم

ينته، وان الله له حرية مواصلته أو تغييره عن طريق العلماء والمهندسين والمقاولين وفي حالة البحر الداخلي إذا نتج عنه بعض الأضرار فإنّ منافعه تطغى على ذلك. وبهذا، فكل رجل عاقل، بالقول أو بالفعل، سرّا أو علانية، يجب أن يساعد على تحقيقه[67] .

هكذا إذن مهّد الأمير عبد القادر الطريق لديليسبس عندما وجّه خطابا إلى الزعماء الدينيين والعسكريين للمديريات التونسية والجزائرية التي ستقوم اللجنة بزيارتها يدعوهم فيها إلى مساندة الشركة واللجنة الفرنسيتان التي ستقوم بزيارة الأراضي الواقعة في المنطقة، لدراسة شق قناة عبر برزخ قابس وطلب منهم إظهار حسن النية واستقبالهم استقبالا حسنا وتسهيل عملهم وتقديم المساعدة الفعلية لهم، طالبا منهم نبذ العنف والتعصب لأهمية القناة التي ستعود على البلاد بنفع كبير. كما ستجني البلاد ثمارها مثلما جنت البشرية ثمار قناة السويس[68]. وقد جاءت هذه الرسالة بعد مهمة تنقيب بشط الجريد، في الأراضي التونسية، حيث عبّر السكان المحليون عن رفضهم لمشروع البحر الداخلي الإفريقي وتهجموا على البعثة العلمية. وقد اعتبر ديليسبس تأييد الأمير عبد القادر بمثابة جواز مرور لانجاز المشروع وإنجاحه[69].

عقب عودته إلى فرنسا أكدّ ديليسبس في خطاب بجامعة السوربون على أهمية هذه القناة المقترحة والتي ستخلق بحيرة افريقية داخلية كبيرة تقع على الحدود الجنوبية لتونس والجزائر وتمثل حاجزا طبيعيا ضدّ أي غزو خارجي منوّها بدور فرنسا المساند لباي تونس ومؤكدا على دور فرنسا الحضاري بالمنطقة في إيصال مرافق الحضارة إلى سكان هذه المناطق عبر تيسير الاتصال بين أعماق الصحراء والعالم الخارجي.

لكن مع كل هذه المحاولات فشل رودار وديليسبس، في حشد التأييد بسبب معارضة الكثيرين للمشروع وخاصة من الجغرافيين الذين اعتبروه دون جدوى، فاختفت جمعية **الدراسات حول البحر الداخلي الإفريقي** في سنة 1892 بعد موت رودار الذي أنهى حياته منبوذا من الأوساط العلمية في فرنسا، وتحوّلت إلى **الشركة الفرنسية للجنوب التونسي** [70] **Compagnie française du Sud tunisien**. ظلّ ديليسبس بعد وفاة رودار شديد الحماس لانجاز مشروع البحر الداخلي وحاول إقناع جيل فيري Jules Ferry، رئيس الوزراء الفرنسي آنذاك برأيه دون جدوى لأنّه لم يكن بإمكانه معارضة الجمعية الفرنسية لتقدم العلوم ورغم ذلك استكمل ديليسبس أبحاثه حول تكاليف المشروع وجدواه الاقتصادية بالانتقال إلى

منطقة قابس للقيام بتحقيق جديد معلنا عزمه إغراق جنوب الجزائر وتونس بالمياه وأنه سيعلن في شهر جوان عن نداء لجمع ثلاثمائة مليون فرنك للبدء في انجاز المشروع وأنّه سيحفر قناة قابس وقناة بناما كما حفر قناة السويس. وبينما شقت قناة بناما سنة 1919، لم يتحقق مشروع البحر الداخلي الإفريقي وظلّ مجرد يوتوبيا سان سيمونية تتقاطعها الغايات الامبريالية.

الخاتمة: المشروع بعد اليوتوبيا السان سيمونية أوراهن الحلم

كانت فكرة البحر الداخلي الافريقي فكرة ذات شعبية كبيرة بشكل خاص بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وقد أعيد طرح هذا المشروع، بعد فشل رودار وديليسبس في حشد التأييد اللازم لشق هذه القناة، للنقاش مرة أخرى خلال النصف الثاني من القرن العشرين، من طرف عدة هيئات علمية ورأسمالية وكانت أغلب الآراء معارضة له بسبب التكاليف الباهظة والصعوبات التقنية وذلك خاصة بسبب وجود شطّ الجريد فوق مستوى سطح البحر، فدفن المشروع حتى سنة 1952 بعد تأكيد بعض الحفريات التي كانت تجرى للبحث عن البترول، في تلك الفترة، على وجود صلة بين البحر المتوسط ومنطقة الشطوط. فتألفت تبعا لذلك وبعد سنوات قليلة تحديدا سنة 1957 جمعية جديدة للأبحاث التقنية لدراسة البحر الداخلي Association des recherches techniques pour l'étude des mers intérieurs du Sahara وتمكنت هذه الجمعية من إرسال ملف المشروع إلى مكتب الجنرال ديغول سنة 1958 واقترحت هذه اللجنة أن تشقّ هذه القناة في بضعة شهور بدلا من ثماني سنوات التي اقترحها رودار في القرن الماضي عبر استعمال خمسين قنبلة هيدروجينية. وقد تغيرت أهداف المشروع تبعا للظروف السياسية والاقتصادية الجديدة فطرحت أهمية البحر في تسهيل نقل البضائع التي تستخرج من المناجم بالإضافة إلى نقل البترول كما برزت الدعوة إلى إقامة سدّ ضخم في توزر لتوليد الكهرباء. وقدّرت تكاليف المشروع بنحو مئة مليار فرنك فرنسي[71].

وتواصلت المحاولات لبحث المشروع بعد سنة 1959 مع وزارة الأشغال العامة للحكومة التونسية[72]، ولكن فرنسا كانت منشغلة آنذاك بمحاربة ثورة التحرير الجزائرية. ومع انتهاء الفترة الاستعمارية للجزائر دفن هذا المشروع مرة أخرى. وبعد أكثر من قرن على مشروع رودار وتحديدا سنة 1983 قامت الجزائر وتونس بطرح المشروع من جديد وأسندت لمكتب دراسات فرنسي وسويدي دراسة قابلية المشروع للتحقق وخرج التقريران بإمكانية

تجسيد المشروع تقنيا لكن عدم جدواه الاقتصادية والتنموية وهو ما حال دون تحقيقه فعليا. واليوم يطرح المشروع كبديل تنموي لمنطقة مهمشة بعد "ربيع الثورات العربية" وذلك لتدعيم السياحة الداخلية وخلق بدائل تنموية بالجهات الصحراوية.

قائمة المصادروالمراجع

باللغة العربية:

الكتب :

بوعزيز، يحي، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1999.

التيجاني، **رحلة التيجاني**، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، تونس،الدار العربية للكتاب، 1981.

جلال، السيد حسين، **قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوروبي، 1882-1904**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995.

الرياحي، نادية، **جذور العولمة في الفكر الحديث من خلال السان سيمونية**، تونس، مركز النشر الجامعي، 2015.

سعيد، إدوارد، **الثقافة والإمبريالية**، ترجمة: كمال أبو ديب، الطبعة الثانية، بيروت، دار الآداب، 1998.

غيرستر، جورج، **الصحراء الكبرى**، ترجمة خيري حماد، بيروت، المكتب التجاري، 1961.

فارن، جيل، **غزوة البحر**، ترجمة آدم فتحي وهادي ثابت، سلسلة مترجمات، مومنت كتب رقمية، 2015.

فركوس، صالح، **إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844-1871**، عنابة، منشورات جامعة باجي مختار، 2006.

المقالات:

بن الأصفر، محمد، "مشروع شط الجريد أو بحر الصحراء"، دائرة المعارف التونسية، **المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون**، بيت الحكمة، قرطاج، الكراس الخامس، 1995.

الرياحي، نادية، "دور النخب السان سيمونية في تحديث المؤسسة العسكرية بمصر محمد علي (1833-1850)"، ضمن أعمال الندوة العلمية **النخب العسكرية المتوسطية عبر**

التاريخ: السلطات والانجازات والمهام، في 23 و24 و25 نوفمبر 2016، **مخبر النخب والمعارف والمؤسسات بالمتوسط** (جامعة منوبة)

--------- "السان سيمونية في الجزائر: بين الرسالة التبشيرية والايدولوجيا الاستعمارية"، من **المجلة التاريخية المغاربية**، العدد 143، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2011.

--------- "دور الشبكات الاتصالية في إرساء ثقافة الحوار بين الشرق والغرب: نظام المتوسط لميشال شوفالييه مثالا"، مجلة **الكلمة**، بيروت، العدد 76، السنة 2013.

المراجع باللغات الأجنبية:

Livres

Collectif , Présences françaises outre-mer (XVIème-XXIème siècles), Académie des Sciences d'Outre-mer, Karthala, 2013.

Delestre, E.**, A Propos De la mer intérieure, ou Fausse Interprétation Géographique,** Paris, 1874.

Dubost, Gérard, **Le colonel Roudaire et son projet de mer saharienne**, Paris, Guéret, 1998.

Emerit, Marcel, **Les saints- simoniens en Algérie**, Paris, Société d'édition les belles lettres, 1941.

Hélène, Maxime, Avec une lettre de M. Ferdinand de Lesseps, **Les Travaux publics au XIXème siècle. Les nouvelles routes du globe, canaux isthmiques et routes souterraines**, Paris, 1882.

Hugonnet, Ferdinand, Capitaine, **Souvenirs d'un chef de bureau arabe**, Paris, Michel Lévy Frères, Libraires Éditeurs, 1858.

Létolle, René et Bendjoudi, Hocine, **Histoire d'une mer au Sahara: utopies et politiques**, Paris, L'Harmattan, 1997.

Marzouki, Issam et Picot, jean – Pierre, **Jules Verne, l'Afrique et la méditerranée, l'Afrique du nord selon Jules Verne ; une terre d'élection des utopies saint simoniennes**, Tunis, Sud Editions, 2005.

Mayet, Valéry, **Mission scientifique d'exploration de la Tunisie**, Paris, Montpellier, 1886.

Nordman, Daniel, **L'invention scientifique de la méditerranée, l'exploration scientifique de l'Algérie**, Paris, Ecole des hautes études en sciences sociales, 1998.

Roudaire, **La mer intérieure africaine**, lettre préface de M. Ferdinand de Lesseps, Paris, Société anonyme de publications périodiques, 1883.
Tissot, Charles, **Exploration scientifique de la Tunisie, géographie comparée de la province romaine d'Afrique**, Paris, Imprimerie Nationale, 1884.

Trumelet, Capitaine, **Les français dans le désert**, Paris, 1862.
Verne, Jules, **Vingt mille lieux sous les mers,** Paris, Fayard**,** 1870.
Watkins, J. **The universal biographical dictionary**, London, New éd., 1821.

Articles et rapports

Bulletin Décadaire, n 400, mar 12, 1883.

Bulletin la société de géographie commerciale de Paris, Paris, 1882, 1883.
Casajus, David, « Le destin saharien d'un saint-simonien rebelle : Henri Duveyrier chez les Touaregs », **Gradhiva**, n°33, Paris, 2003, pp. 11-32.
Georges Lavigne, «Le percement de l'isthme de Gabès», **La Revue moderne**, novembre 1869.
Duveyrier, Henri, **Premier rapport sur la mission des chotts du Sahara de Constantine**, Paris, 1875.
Sachot, Octave, « L'inondation du Sahara, la mer algérienne et le chemin de fer de Philippeville à Tombouctou », **Revue Britannique**, 1879, t. VI, pp.317-332.

Revue des Deux Mondes du 15 mai 1874, " Une mer intérieure en Algérie".

الهوامش:

[1] كتب الكثير عن البحر الداخلي الإفريقي كمشروع استعماري فرنسي ولكن الطريف في هذه الدراسة هو المقاربة السان سيمونية للمشروع وأبعاده المرتبطة بالفلسفة الاجتماعية لهذه المدرسة التي راهنت على عديد المشاريع العالمية لتحقيق الوحدة الإنسانية والإخوة العالمية. تؤمن السان سيمونية بوحدة العالم والمعرفة الإنسانية عبر ربط العالم ببعضه البعض ولهذا خططت لعديد المشاريع مثل مشروع قناة السويس وقناة بناما بأمريكا الوسطى وتعبيد طرق المواصلات ومد خطوط السكك الحديدية والقيام بحركة

استيطانية عالمية لتحرير الشعوب وتطويرها. راجع خصوصا: نادية الرياحي، **جذور العولمة في الفكر الحديث من خلال السان سيمونية**، تونس، مركز النشر الجامعي، 2015.

[2] للمزيد حول السان سيمونيين ومشاريع السكك الحديدية راجع خصوصا:

Jacques Lajard de Puyjalon, **L'influence des saints simoniens sur la réalisation de l'isthme de suez et des chemins de fer**, Paris, Librairie de jurisprudence ancienne et moderne, 1926.

[3] Maxime Hélène, Avec une lettre de M. Ferdinand de Lesseps, **Les Travaux publics au XIXème siècle. Les nouvelles routes du globe, canaux isthmiques et routes souterraines**, Paris, 1882

[4] حول فلسفة الشبكات راجع نادية الرياحي، "دور الشبكات الاتصالية في إرساء ثقافة الحوار بين الشرق والغرب: نظام المتوسط لميشال شوفالييه مثالا"، مجلة **الكلمة**، بيروت، العدد 76، السنة 2013، ص.ص. 55-74.

[5] Georges Lavigne, "Le percement de l'isthme de Gabès", **La Revue moderne**, novembre 1869.

[6] راجع (خصوصا) نادية الرياحي، **جذور العولمة في الفكر الحديث من خلال السان سيمونية، مرجع سابق**، ص.15.

[7] صدر هذا الكتاب سنة 1905، راجع (خصوصا): جيل فارن، **غزوة البحر**، ترجمة آدم فتحي وهادي ثابت، سلسلة مترجمات، مومنت كتب رقمية، 2015.

[8] Jules Verne, **Vingt mille lieux sous les mers,** Paris, Fayard**,** 1870.

[9] راجع (خصوصا): إدوارد سعيد، **الثقافة والإمبريالية**، ترجمة: كمال أبو ديب، الطبعة الثانية، بيروت، دار الآداب، 1998.

[10] C.f , Issam Marzouki et jean – Pierre Picot, **Jules Verne, l'Afrique et la méditerranée, l'Afrique du nord selon Jules Verne ; une terre d'élection des utopies saint simoniennes**, Tunis, Sud Editions, 2005.

[11] Ferdinand Hugonnet, Capitaine, **Souvenirs d'un chef de bureau arabe**, Paris, Michel Lévy Frères, Libraires Éditeurs, 1858, p.141.

[12] الإدريسي: هو محمد بن محمد الإدريسي الهاشمي القرشي، وكنيته أبو عبد الله، وهو أحد كبار علماء الجغرافيا العرب والمسلمين، وهو عالمٌ مشهور وأحد مؤسسي علم الجغرافيا، وله أيضا كتب كثيرة في النبات، الطب، ودروس الفلسفة، والأدب، والشعر، وقد تمّ استخدام خرائطه في جميع كشوف عصر النهضة الأوروبية، حيث قام بتحديد الاتجاهات الخاصة بالمرتفعات والأنهار والبحيرات، ووضع معلومات عن حدود الدول والمدن الرئيسية.

[13] كتب أبو عبيدة البكري كتابه **المسالك** في القرن الخامس هجري، ورغم أنه لم يزر منطقة الجريد ولكن يبدو أنّه نقل عن مصادر دقيقة لعدد من الجغرافيين ذكر مدينة نفزاوة وشط الجريد أو سبخة تاكمرت.

[14] التيجاني هو أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد سالم التيجاني: رجل دين جزائري ومتصوّف ومؤسس الطريقة التيجانية. ارتحل متنقلا بين فاس وتلمسان وتونس والقاهرة ومكة والمدينة ووهران .

[15] ابن الشباط التوزري: هو أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن عمر بن شبّاط المصري التوزري، فقيه ولغوي وأديب ومؤرّخ أصيل مدينة توزر بالجنوب الغربي للبلاد التونسية، وعلى الخصوص مهندس بارع قسّم مياه توزر على النحو الذي شاهده التيجاني وذكره في رحلته.

[16] التيجاني، **رحلة التيجاني**، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، تونس،الدار العربية للكتاب، 1981، ص.ص. 156-157.

[17] زار توماس شوو المشرق الإسلامي وشمال أفريقيا في النصف الأول من القرن الثامن عشر وتحديدا بين سنوات 1720 و1740 وترك ملاحظات عن ذلك في كتاب حول الجزائر وتونس بعنوان **رحلات في شمال أفريقيا و في المشرق** سنة 1738 تضمن تفاصيل دقيقة عن هذه المناطق، وخاصة عن ريفها ومنتجاتها وآدابها العربية. مثلما تضمن قليلا من المعلومات عن الحياة السياسية والإدارية. كما رسم خريطة توضّح عددا من المعالم الجغرافية. وتعتبر ملاحظاته مرجعا عن تاريخ أفريقيا الشمالية في تلك الحقبة. حول ترجمة شوو راجع:

Watkins, J. **The universal biographical dictionary**, London, New éd., 1821.

[18] Daniel Nordman, **L'invention scientifique de la méditerranée, l'exploration scientifique de l'Algérie**, Paris, Ecole des hautes études en sciences sociales, 1998, p. 45.

[19] يحي بوعزيز، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1999، ص. 82.

[20] **نفس المرجع**، ص. 83.

[21] Marcel Emerit, **Les saints- simoniens en Algérie**, Paris, Société d'édition les belles lettres, 1941, p. 219.

[22] **Ibidem**.

[23] Trumelet Capitaine, **Les français dans le désert**, Paris, 1862, pp. 55-56.

[24] زار السان سيموني جون رينو الجريد سنة 1846.

[25] قام لويس براكس برحلة من الجريد التونسي إلى واد سوف بالجزائر بين سنوات 1850 و1854 .

[26] Trumelet Capitaine, **op.cit**, pp.132-134.

[27] وضع الرحالة والجغرافي هنري ديفرييه Henri Duveyrier في الجزائر مؤلفا حول الصحراء بعنوان **طوارق الشمال** Les Touaregs Du Nord سنة 1864، بعد الرحلة التي قادته إلى الصحراء الجزائرية والتي تعتبر من أهم البعثات الاستكشافية التي تعددت الروايات التاريخية حولها. كان هنري ديفرييه متأثرا بالمذهب السان سيموني الذي كان والده من أبرز أعلامه وفي سن السابعة عشر رحل إلى الجزائر مبديا شغفا كبيرا بزيارة الصحراء واكتشافها وقد بدأ سنة 1857 أول رحلة استطلاعية له بالأغواط، التقى بعدد من سكان الطوارق ولم يتردد في ربط صلاته بهم والتعرف على بعضهم (آجر)، وقد مهّد له هذا اللقاء الطريق لكي يقيم بالصحراء مع الطوارق لمدة ستة أشهر (1860-1861) وقد كتب بعد هذه الرحلة كتابه **طوارق الشمال Les Touaregs Du Nord**، وقد أسندت له الجمعية الجغرافية الفرنسية الميدالية الذهبية نظير مؤلفه هذا. وقد بحث هذا الكتاب في عادات وتقاليد الطوارق ونمط عيشهم وطريقة لباسهم وعادات أكلهم وزيهم وطقوسهم الاحتفالية ثم توجه نحو بسكرة في أوائل شهر فيفري 1860 ثم إلى واد سوف وبعدها عرّج على الجريد التونسي ومنه توجّه نحو قابس وقبلي ونفزاوة ثم عاد أدراجه نحو توزر. للمزيد راجع:

David Casajus, « Le destin saharien d'un saint-simonien rebelle : Henri Duveyrier chez les Touaregs », **Gradhiva**, n°33, Paris, 2003, pp. 11-32.

[28] Henri Duveyrier, **Premier rapport sur la mission des chotts du Sahara de Constantine**, Paris, 1875.

[29] يحي بوعزيز، **مرجع سابق**، ص. 81.

[30] للمزيد حول فكرة الجيوش الصناعية العالمية راجع (خصوصا): نادية الرياحي، " دور النخب السان سيمونية في تحديث المؤسسة العسكرية بمصر محمد علي 1833_1850"، "دور النخب السان سيمونية في تحديث المؤسسة العسكرية بمصر محمد علي (1833-1850)"، ضمن أعمال الندوة العلمية **النخب العسكرية المتوسطية عبر التاريخ: السلطات والانجازات والمهام**، في 23 و24 و25 نوفمبر 2016، **مخبر النخب والمعارف والمؤسسات بالمتوسط** (جامعة منوبة).

[31] راجع خصوصا: نادية الرياحي، "السان سيمونية في الجزائر: بين الرسالة التبشيرية والايدولوجيا الاستعمارية"، من **المجلة التاريخية المغاربية**، العدد 143، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2011، ص.ص. 333-356.

[32] Gérard Dubost, **Le colonel Roudaire et son projet de mer saharienne**, Paris, Guéret, 1998, p.78.

[33] صالح فركوس، **إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844-1871**، عنابة، منشورات جامعة باجي مختار، 2006، ص. 267.

[34] Gabriel Dubost, **op.cit**, p. 100.

[35] أسست هذه اللجنة العلمية سنة 1837 وانكبت على دراسة إمكانات الجزائر وكيفية استثمارها وقد تشكّلت من عدد من العسكريين والمدنيين مثل ارنست كاريت وغيرهم.

[36] يحي بوعزيز، **مرجع سابق**، ص. 83.

[37] E. Delestre, **A Propos De la mer intérieure, ou Fausse Interprétation Géographique**, Paris, 1874.

[38] Octave Sachot, « L'inondation du Sahara, la mer algérienne et le chemin de fer de Philippeville à Tombouctou », **Revue Britannique**, 1879 , t. VI, pp.317-332.

[39] هو الوزير المصلح خير الدين التونسي، ولد سنة 1880، في منطقة القوقاز الوسطى. نشأ في القسطنطينية، وشبّ في قصر أحمد باشا بالمملكة التونسية. زار فرنسا سنة 1846، برفقة ملك تونس أحمد باي، أين عاين حجم الفجوة الحضارية التي تفصل الغرب عن العرب والمسلمين. ألّف سنة 1867 كتابه الشهير **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**. كان في مقدّمة المناصرين لعهد الأمان ثمّ لدستور 29 جانفي 1867. ترك انجازات كبرى بعد تقلّده لمناصب وزارية هامة، نذكر منها على الصعيد التعليمي والمعرفي إحداث المدرسة الصادقية سنة 1875 وأعاد تنظيم التعليم الزيتوني وبعث مكتبة جديدة على النمط العصري، هي المكتبة العبدلية، وقام بإدخال أوّل مطبعة لتونس، وشجّع على الصحافة، وأنشأ جمعية الأوقاف. وقد توفي خير الدين باشا بتركيا يوم 3 جانفي 1890.

[40] Charles Tissot, **Exploration scientifique de la Tunisie, géographie comparée de la province romaine d'Afrique**, Paris, Imprimerie Nationale, 1884, p. 117.

[41] أنظر المراسلات التي أرسلها خير الدين لتيسير عمل فرانسوا إلي رودار: الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة E ملف 86 .

[42] الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة E ملف 86، ملحق رقم 1

[43] الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة E ملف 86، ملحق رقم 2.

[44] Valéry Mayet, **Mission scientifique d'exploration de la Tunisie**, Paris, Montpellier, 1886, p. 227.

[45] كتب رودار عددا من التقارير والدراسات حول البحر الإفريقي ومن بينها:

- "Une mer en Algérie avec carte exploration", Paris, 1874.
-" La mission des chotts du Sahara de Constantine", **Bulletin sociologique géographique**, Paris, pp. 113-125.

-" Rapport sur les opérations de la mission des chotts", **Bulletin sociologique géographique**, pp. 574-586.

- "Rapport à M. le ministre de l'instruction publique sur la mission des chotts, études relatives au projet de mer intérieure", Paris, 1877.

-" Rapport sur la mission des chotts", Paris, 1877, pp. 702-723.

- **La mer intérieure africaine**, lettre préface de M. Ferdinand de Lesseps, Paris, Société anonyme de publications périodiques, 1883.

- " La mer intérieure africaine et l'ancienne baie de Triton ", 1884, pp.5-40.

[46] Roudaire, **La mer intérieure africaine**, lettre préface de M. Ferdinand de Lesseps, Paris, Société anonyme de publications périodiques, 1883.

[47] **Ibidem**.

[48] **Collectif** , **Présences françaises outre-mer (XVIème-XXIème siècles)**, Académie des Sciences d'Outre-mer, Karthala, 2013, p. 146

[49] René Létolle et Hocine Bendjoudi, **Histoire d'une mer au Sahara: utopies et politiques**, Paris, L'Harmattan, 1997, p. 129.

[50] Charles Tissot, **op.cit**, p. 92.

[51] Roudaire, **Bulletin de la Société géologique de France**, 1845, p. 349.

Gérard Dubost, **op.cit**, p. 107.[52]

[53] **Ibid**, p. 118.

[54] **Revue des Deux Mondes** du 15 mai 1874, « Une mer intérieure en Algérie », p. 347.

[55] السيد حسين جلال، **قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوروبي، 1882-1904**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995، ص. 232.

., p. 57**La mer intérieure africaine, op.cit** Roudaire, François Elie [56]

[57] فرديناند ديليسبس: (1805-1849) دبلوماسي فرنسي أشرف على مشروع قناة السويس وشارك المهندس رودار حلم شق بحر في الصحراء الجزائرية والفرنسية وعندما فشل حوّل نظره إلى قناة بناما وأسس شركة لدراسة المشروع وتنفيذه.

[58] يحي بوعزيز، **مرجع سابق**، ص. 85.

[59]جيل فارن، **مرجع سابق**، ص. 36.

[60] راجع (خصوصا) نصّ التقرير الذي رفعه فريستييه إلى رئيس الجمهورية في صحيفة شركة قناة السويس، عدد 373، تاريخ 2 ماي 1882، ص.ص. 63-65 . نقلا عن السيد حسين جلال، **مرجع سابق**، ص. 235.

[61] محمد بن الأصفر، "مشروع شط الجريد أو بحر الصحراء"، دائرة المعارف التونسية، **المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون**، بيت الحكمة، قرطاج، الكراس الخامس، 1995، ص.146.

[62] يحي بوعزيز، **مرجع سابق**، ص. ص. 86.

[63] **نفس المرجع**، نفس الصفحة.

[64] من بين الدراسات التي وضعها الدكتور روير Dr. A.M.F. Rouire حول البحر الداخلي:

- La découverte du bassin hydrographique de la Tunisie centrale et l'emplacement de l'ancien lac Triton (ancienne mer intérieure d'Afrique), paris, XIX, 186p.

- L'Emplacement de la mer intérieure d'Afrique, paris, 1884.

- L’ancienne mer intérieure d’Afrique, son véritable emplacement sa disparition graduelle,1883 , pp. 296-325.

- La Tunisie moderne et la Tunisie ancienne, histoire de la découverte du fleuve Menfès et du fleuve Triton, Alger, 1896-1887, pp. 55-76.

[65] السيد حسين جلال، **مرجع سابق**، ص.233.

[66] عبد القادر بن محي الدين الحسني المعروف بالأمير عبد القادر الجزائري هو كاتب وشاعر وفيلسوف وسياسي ومحارب، اشتهر بمناهضته للاحتلال الفرنسي للجزائر. ولد قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري يوم 6 سبتمبر 1808 هو أيضا مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورمز للمقاومة الجزائرية ضد الاستعمار والاضطهاد الفرنسي. كان له دور بارز في حفر قناة السويس، إذ ساهم في تذليل بعض العقبات وتسوية الخلاف بين الخديوي اسماعيل وفرديناند ديليسبس، ممثل الشركة الفرنسية، بحكم صداقته لكليهما وبحكم إيمانه بأهمية مشروع حفر القناة بالنسبة لحركة التجارة والملاحة وللعلاقات الدولية وبضرورة ربط الشرق والغرب. خلال اعتكاف هذا السياسي المتصوف في مكة والمدينة، سنة 1863، نجح في إقناع السلطات الدينية في المنطقة بأهمية المشروع الذي لاقى رفض الباب العالي في القسطنطينية بإيعاز من الإنجليز. ثم توجه بعدها إلى مصر حيث التقى مشايخ القبائل في مناطق الحفر وأقنعهم أيضا بأهمية المشروع، موضحا أنه سيسهل وصول الحجاج إلى مكة وسيؤتي ثماره حضاريا واقتصاديا، ونجح بالفعل بسبب مكانته لدى البدو، كما نجح من قبل في توحيد القبائل الجزائرية لمقاومة الاستعمار الفرنسي في بلاده قبل أن يتم عزله واقتياده إلى السجن والمنفى بطولون ثم القسطنطينية ثم

دمشق حيث وافته المنية بعد حوالي عشر سنوات من إقامته هناك، سنة 1867. فضلا عن مشروع قناة السويس، اقنع فرديناند ديليسيبس صديقه عبد القادر بمشروع البحر الداخلي الإفريقي خمس سنوات بعد افتتاح قناة السويس، أي سنة 1874، وطلب مساعدته مرة أخرى، لتنفيذ المشروع جديد، في الشطوط التونسية الجزائرية، الواقعة في مستوى منخفض عن سطح البحر.

[67] انظر نص الرسالة التي وجهها الأمير عبد القادر إلى سكان قابس 2 سبتمبر 1879، الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة E ملف 86 ملحق رقم 3.

[68] **Bulletin Décadaire**, n 400, mar 12, 1883.

[69] **Bulletin la société de géographie commerciale de Paris**, Paris, 1882, 1883, pp. 342-343.

[70] René Létolle et Hocine Bendjoudi, op.cit, p. 113.

[71] يحي بوعزيز، **مرجع سابق**، ص. 87.

[72] جورج غيرستر، **الصحراء الكبرى**، ترجمة خيري حماد، بيروت، المكتب التجاري، 1961، ص.ص. 336-341.

ملحق رقم 1

الحمد لله   صلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

— ١٩٠

أدام الله سعادة الجناب المنصور المعظم أمير الأمراء الوزير الأكبر سيدي مصطفى [illegible]
[illegible] أما بعد أداء ما يجب على مقامكم من السلام وإزكاء التحية
والإكرام فإنه ينهى لجنابكم أنه كان [illegible] ١٢٧٤ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

القسم الأول

ملحق رقم 2



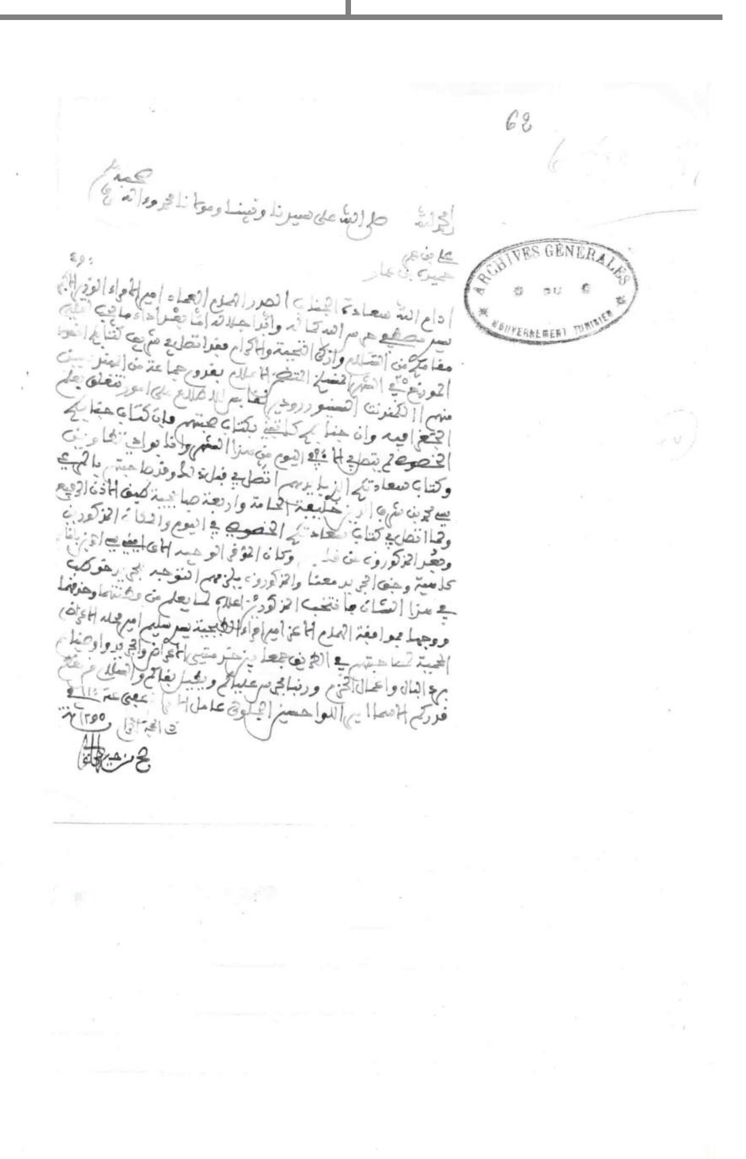
أدام الله تعالى تأييد سعادة الجناب الصدر الأعظم أمير الأمراء الوزير الأكبر سيدي خير
الدين حرس الله كماله وأبد إفضاله أما بعد أداء ما يجب لعلي مقامكم من السلام وأزكى
التحية والإكرام فالمنهي لسيادتكم هو أن ليلة الخميس الثالثة من شهرنا التاريخ بعد الغروب
قدم إلينا مسيو رودير ومن معه على طريق البحر الذي في جنابكم في شأنه ووجهت له كروسة
وركب فيها ومن معه واجتمع في محل نزوله في الغد [illegible] ومنه توجه للمحل الذي أعد له
نزوله مصحوبا بمن أعدته للقيام بشؤونه وفي صبيحة اليوم المذكور توجهت لزيارته
بالمحل المعد له وأقام به يومين وأجريت له جميع لوازمه من سائر [illegible]
وفي اليوم الثالث توجه لنواحي [illegible] وطلب سبعة من الخيل مسرجة
لركوبه وركوب من معه وأحضرت له ووجهت معه عشرة من فرسان [illegible] من المخزن
وغيرهم لهم خبرة بالجهة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
ورفقنا [illegible] على ممر الأيام والليالي والسلام [illegible]
[illegible] عامل الأعراض [illegible] 1293

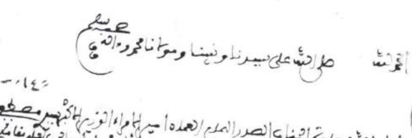
[illegible]

يوجه للقسم الرابع [illegible]

وتعرف الترجمة

يوجه للقسم الرابع


الحمد لله صلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه


الحمد لله — صلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم



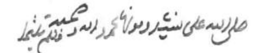
١٤٠

أدام الله سعادة الجناب الصدر الهمام العمدة أمير الأمراء الوزير الأكبر الشهير مصطفى
وزير الأمور الخارجية حرس الله كماله وأبد جلاله أما بعد [illegible]
من السلام وأزكى التحية والإكرام بما أنه كان وأعلمتم في شرعكم كتابكم المؤرخ في [illegible]
العلم المنصوص تضمن أن المحترم الكمندة مسيو رودير البينباشي الفرنساوي و
متوجه لعمل الأعمال ومعه جماعة من المهندسين لاختراع البحر بين العمل
المذكور وعمل الجريد وقد أعلمهم مولانا دام عزه وعلاه بأن [illegible] حوانب
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

الفقير [illegible]

القسم الرابع



ملحق رقم 3

نسخة من مكتوب عبد القادر بن محي الدين الحسيني

2 Sept - 1879

68

الحمد لله وحده   صلى الله على من لا نبي بعده

إلى أهالي قابس ونواحيها السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فاعلموا أن الرأي الذي رآه الكماندات
رودير وعزم على الشروع فيه صاحب العزيمة القوية المرسيو فرديناند دليسبس وهو فتح خليج من جهة قابس
لهذا الرأي المبارك المشروع الذي يبقى نفعه السنين الطويلة ويتوارث هذا النفع الأبناء عن الآباء لا يخفى على عاقل
في صلاحيته وأن الله تعالى خلق العالم كله لأجلك واستعمله لأجل منافع الإنسان ومصالحه وسخر له ما بين السماء
من كواكب وشمس وقمر وغير ذلك إلا وهو يسعى في مصلحة الإنسان وفيما يعود نفعه عليه وما في الأرض من حيوان ونبات
ومعدن إلا وهو مسخر للإنسان ينتفع به وقد امتن الله تعالى بذلك على الإنسان وأكثر ما امتن عليه في القرآن
تسخير البحر والسير فيه للتجارة وتحصيل المنافع قال تعالى وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا
منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله يعني التجارة فيه ومثل هذه الآية
في القرآن كثير ومعلوم أن ذوي [illegible] في فتح البحر المتوسط بين أوربا وإفريقية وجزيرة العرب ما عرف الكثير
البشر بعضهم بعضا وما تناقلوا العلوم والصنائع عن بعضهم بعضا وما تبادلوا البضائع بالتجارة بينهم وقد
أخبر تعالى في كتابه القديم بما ظهر أهل كل زمان وجيل مضى أو يأتي بأنه يخلق لهم شيئا ما لهم به علم ولا
سبقت لهم به دراية بقوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون ولعل في هذا الخليج من هذا القبيل يخلقه الله تعالى
لأهل هذا الزمان واعلموا أنه لا يمنع من هذا الخير العام والمصلحة الجليلة والعائدة الجزيلة ما يحصل لبعض
الأراضي والقرى من الخراب والضرر لأن الخير العام الكثير النفع والعائدة لا يترك لأجل ما يلزم وينشأ عنه من
الشر القليل فإنه تعالى الذي هو أحكم الحكماء ما ترك خلق النار لعموم النفع بها لجميع البشر وإن كان يلزم
وينشأ عنها حرق بيوت ومساكن بعض البشر وكذلك لم يترك خلق الحديد لعموم النفع به لجميع البشر وإن
كان يلزم منه وينشأ عنه قتل بعض المحبوبين عند الله تعالى كالأنبياء والعلماء ومن فيه نفع لعباد الله وكذلك
لم يترك الله إنزال المطر لعموم النفع به لجميع البشر والحيوان الذي خلقه الله لمصلحة البشر وإن كان يحصل
به أحيانا غرق وخراب بيوت ومحلات فالخير الكثير والنفع الجزيل لا يترك لما يترتب عليه ويلزم من الشر
القليل فاللازم على كل عاقل مساعدة الكماندات رودير بالقول والعمل ومعاضدته في السر والعلن
ومعرفة حقه وإكرامه فإنه ساع في أمر يعود نفعه على عباد الله تعالى والخلق عيال الله والدين النصيحة
والسلام في 15 رمضان 1296 من الشام عبد القادر بن محي الدين الحسيني وأسعد الله [illegible] كاتبه
ويجول هذا نص بالقلم الأمر فيه يعرض مكتوبه أعلاه على عامل الأعراض وأعيانه —
ثم على عامل صفاقس وأعيانه   ثم على عامل سوسة وأعيانه —

الكاتب: حاج بنيرد

جامعة مولود معمري – الجزائر

عنوان المقال: الأضرحة ومكانتها في الفترة العثمانيّة بالجزائر-دراسة أنتربولوجيّة-

البريد الالكتروني:hbennaired@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/11/25 تاريخ القبول: 2019/12/28 تاريخ النشر:2019/12/31

الأضرحة ومكانتها في الفترة العثمانيّة بالجزائر-دراسة أنتربولوجيّة-

الملخص بالعربية:

لقد تزايد عدد الأضرحة في الغرب الإسلاميّ بشكل مطّرد بعد القرن العاشر الهجريّ، وما سبقه من سيطرة الزّوايا والتّكايا على المؤسّسة الدّينيّة والمشهد الثّقافي والاجتماعيّ والسّياسي، والّذي صادف بدوره قيام الإمبراطوريّة العثمانيّة، وهي أيضا استمدّت قوّتها ونفوذها من عوامل سيطرة التّصوّف العمليّ والفولكلوريّ والطّرقيّ على العالم الإسلاميّ، ممثّلا عندهم في الطّريقة البكتاشيّة، ودراويشها الّذين شكّلوا نواة الجيش الانكشاري؛ القوّة الضّاربة في اتّساع نفوذ العثمانيّين، وهذا البحث يركّز على دراسة انتشار الأضرحة في الجزائر بشكل خاصّ، وعوامل ذلك وفق طرح ومنهج تاريخيّ وأنتروبولوجيّ، مع التّركيز على مساهمة العثمانيّين في استثمار سيطرة التّصوّف الطّرقي على المجتمع، وتشجيع الدّولة لذلك ومساهمتها فيه، إثر سقوط الأندلس وما صحبه من سقوط مركزيّة السّلطان على حساب تزايد نفوذ الأولياء والصّلحاء، وبالتّالي انتقال البَيْعة من الحاكم السّياسي إلى الحاكم الرّوحي؛ وهو الوليّ الصّالح، وأيضا تعاظم الخطر الأجنبيّ وما رافقه من تضاؤل سلطة العصبيّة القبليّة على حساب تعاظم سلطة الطّرق الصّوفيّة؛ وهو ما أسّس لفكرة الوسيط في العقل الجمعيّ، وبالتّالي تقديس الأولياء، وما يترتّب عليه من طقوس وزيارات وبَيْعات وأخذ للعهود والمواثيق منهم، وما يتبعه من بناء الأضرحة والقباب والمقامات وممارسات طقوسيّة متراكمة من فترات متعاقبة وديانات وثقافات مختلفة؛ تؤشّر على التّديّن الشّعبيّ في المجتمع الجزائريّ.

الكلمات المفتاحية: الضّريح، العثمانيّون، الجزائر، الطّقوس، الصّلحاء.

Abstract :

The number of shrines in the Islamic West increased steadily after the tenth century AH, and the preceding control of angles and tacitas over the religious establishment and the cultural, social, and political scene, which in turn coincided with the establishment of the Ottoman Empire, and it also derived its power and influence from the factors of Tasfoul and practical education. On the Islamic world, represented by them in the Bactic method, and its Derouche who formed the nucleus of the Janissary army; the force striking in the expansion of the Ottomans influence, and this research focuses on studying the spread of shrines in Algeria in particular, and And I hope

that according to a historical and anthropological approach and approach, with a focus on the Ottomans contribution to investing the dominance of the mysticism on society, and encouraging the state to do so and its contribution to it, following the fall of Andalusia and the accompanying fall of the sultanate at the expense of the increasing influence of the Awliya and the Sulayhid, and thus the transfer of the pledge of allegiance from the political ruler to The spiritual ruler, who is the righteous guardian, and also the growing foreign threat and the accompanying erosion of the authority of tribal nervousness at the expense of the growing authority of the mystical methods. Skills and taking the Sales of covenants and charters of them, and the subsequent construction of shrines and domes and shrines and practices of ritual accumulated from successive periods and different religions and cultures; indicate the popular religiosity in the Algerian society.

key words : the shrine, the Ottomans, Algeria, rituals, the righteous.

مقدمة:

– لقد انتشرت الطّرق الصّوفيّة في العالم الإسلاميّ عقب سقوط بغداد سنة 656هـ/1258م على يد التّتار، وازداد تأثيرها وتعاظم نفوذها في القرون الموالية، وخاصّة في الغرب الإسلاميّ بعد سقوط الأندلس سنة 892هـ/1492م، وساهم كثير منها في تشكيل الدّول والحياة السّياسيّة، وصادف ذلك نشوء دولة العثمانيّين الأتراك، والّتي قامت على أساس التّحالف بين آل عثمان والدّراويش بمباركة الحاج بكتاش باشا مؤسّس الطّريقة البكتاشيّة؛ والّتي كانت تكاياها وزواياها قلاعاً لتكوين جيش الإنكشاريّة، بحيث كان دراويش الطّريقة البكتاشيّة نواة هذا الجيش، وكثير من أفراده هم من الغرباء والذّمّيّين واليتامى، وساعدت تعاليم البكتاشيّة في صلابته، والّتي تمتاز بالصّرامة في المأكل والملبس وتقاليد العزوبيّة، وتمتاز أيضا بالمرونة كونها مزيج من المعتقدات الدّينيّة والمذهبيّة من مختلف الدّيانات والفلسفات والمذاهب، وحتّى الشّعبويّة والإثنيّة المختلفة، وتمكّنت من خلالها احتواء مختلف المذاهب والدّيانات، وهذا العناصر الثّقافيّة المرنة هي أساس قوّة العثمانيّين وسرّ انتشار نفوذهم في المشرق والمغرب والبلقان وأواسط أوربا، وعملوا على بناء الزّوايا والتّكايا باعتبارها أماكن للعبادة والرّعاية الاجتماعيّة، والسّلطة الموازية والمتحالفة مع الباب العالي في إسطنبول، حتّى صارت مصدر قلق للسّلطان كما كانت مصدر قوّة له، وخصوصا مع انتشارها في مختلف البلدان واتّساع أملاكها وإقطاعياتها وكثرة أتباعها، وفيها كانت منابع الكرامات والأساطير

وقداسة الأشخاص والأماكن، وبالتّالي نشوء طقوس الزّيارات والقرابين والبحث عن البديل والملجإ في أزمان الشّدّة والاضطرابات، أو لنقل البحث عن الوسيلة الّتي يُدفع بها الضّرر ويُجلب بها المأمول، وهو ما أسّس لعقيدة الوسيط أو تطوّر فكرة الشّفيع، فيما يحيل إلى تقديس الأشخاص l'anthropolâtrie، والّتي تحوّلت مع مرور الوقت بموت أصحابها إلى بناء الأضرحة والقباب والمشاهد، بحيث صار الضّريح le mausolée مركز المشهد الثّقافي والسّياسي في الغرب الإسلاميّ وغيره، باعتبارها الفترة الّتي أرست معالم مركزيّة الشّيخ والزّاوية والضّريح على حساب السّلطان والدّولة والقبيلة.

- فما هو دور كلّ من الزّوايا ومن خلالها السّلطة العثمانيّة في انتشار الأضرحة؟ وما دورها في الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة؟ وما دور الاضطرابات الاجتماعيّة والإثنيّة والسّياسيّة في إعادة صياغة بوصلة المجتمع نحو المؤسّسة الدّينيّة النّاشئة والمتمثّلة في الزّوايا؟ وما تأثير الخوف من الدّخيل والغزو الأجنبيّ وخصوصا الإسباني في انتشارها بكثرة في الجزائر؟

- يحاول هذا البحث مقاربة موضوع الضّريح في الجزائر خلال الفترة العثمانيّة وفق طرح أنتروبولوجي بالبحث في انتشار القباب والأضرحة والممارسات الطّقوسيّة عندها من خلال تقديس الشّخص والمكان، وربطها بالبنية الاجتماعيّة وبالبيئة الثّقافيّة والتّاريخيّة والسّياسيّة خلال مرحلة حسّاسة من التّواجد العثماني والصّراع في حوض المتوسّط.

1- **العناية بتراجم الصّلحاء:** كان دأب أصحاب التّراجم والأعيان في القرون الأولى العناية بأسانيد التّلقّي والرّواية، وبعدد العلوم والفنون والكتب والمقروءات والسّماعات والفتيا والقضاء ونحوها، ولكن بعد القرن السّادس صارت عناية أصحاب التّراجم تتوجّه أكثر إلى تَعْداد الكرامات والخوارق والخاملين وحتّى المكاشافات من الأمّيّين الّذين لا يقرؤون ولا يكتبون، فتغيّرت معايير نقد الرّجال من سعة العلم والرّواية إلى كثرة الكرامات والخوارق الّتي ارتبطت أحيانا بالخرافات والأساطير، وبالتّالي نفهم التّغيّرات الفكريّة والذّهنيّة والاجتماعيّة الّتي طرأت على العالم الإسلامي شرقا وغربا، وأتاحت الفرصة لتقديس المشايخ في حيواتهم ثمّ بعد مماتهم.

ونجد بعض الكتب اختصّت في تراجم الأولياء وتَعداد مناقبهم وكراماتهم؛ وارتبطت غالبا بالفترة العثمانيّة، مثل ابن القنفذ القسنطينيّ الّذي جعل معظم كتابه (أنس الفقير وعزّ الحقير) في ترجمة أبي مدين الغوث وبعض أصحابه، وابن صعد التّلمساني (901هـ) بكتاب: (النّجم الثّاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب)، واختصره بـ: (روضة النّسرين في مناقب

الأربعة المتأخّرين)؛ وهم: محمّد الهواري، وإبراهيم التّازي، والحسن أبركان، وأحمد الغماري، ووضع أبو حامد المشرفي كتابا في ترجمة سيدي محمّد بن علي آبهلول المجّاجي؛ سمّاه: (ياقوتة النّسب الوهّاجة)، ووضع الشّيخ محمّد الصّبّاغ القلعيّ ترجمة لشيخه سيدي أحمد بن يوسف الملياني (ت931هـ) سمّاه: (بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار سيدي أحمد بن يوسف الرّاشديّ النّسب والدّار)، وقد أُعتني بهذا الكتاب واختصر وذُيّل مرارا، ومن ذلك رسالة: (عقد الجمان في تكملة البستان) للشّيخ محمّد بن الهاشميّ، وكتاب (ربح التّجارة) للشّيخ عليّ بن موسى الجزائريّ (ت1913م)، وألّف ابن مريم المديوني بكتاب: (البُستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان)، واختصّ محمّد بن عمر الملالي بترجمة شيخه محمّد بن يوسف السّنوسيّ بكتاب: (المواهب القدسيّة في المناقب السّنوسيّة)، وجعل بابا منه في مكاشفات السّنوسيّ وكراماته[1]. ونشير إلى أنّ الكثير من هؤلاء الصّلحاء الّذين بُنيت لهم أضرحة منهم المجهول والمجنون والجاهل الأمّيّ، والغريب أيضا قد يعتنى به ويقدّس، وحتّى من اليهود والنّصارى، يذكر إدمون دوتي عددا منهم، مثل الدّوق ريبردا المغامر الهولندي، والوزير الإسباني الّذي تقدّم لخدمة سلطان المغرب واعتنق الإسلام، وأصبح مقدّسا تحت اسم سيدي عثمان[2].

2- **الطّرق الصّوفيّة وبناء القِباب والأضرحة:** ارتبط انتشار الأضرحة في الجزائر وفي غيرها بانتشار واتّساع الطّرق الصّوفيّة وامتداد نفوذها في القرن العاشر الهجري وما بعده؛ سواء على مستوى العامّة أم مستوى الخاصّة من العلماء والأمراء والأثرياء، فقلّما يخلو حيّ من الأحياء من وجود ضريح أو قبّة، وبدأت في أوّل الأمر بعزلة الصّلحاء للنّاس وخلوتهم، وللفراغ الرّوحي والعلمي قصدهم النّاس، فإذا اشتهر أحدهم بينهم بُني له رباط يستقبل فيه الزّوّار والغرباء والطّلبة، ويتبرّع له النّاس عند زيارتهم بنفائس أموالهم، فنشأت بالتّالي عادةٌ تسمّيها العامّة (الزّيارة)، فيتطوّر هذا الرّباط، ويصير مؤسّسه (المرابط) عَلَماً على المكان، ويصبح يسمّى به فيُقال رباط أو زاوية سيدي عبد الرّحمن وسيدي بومدين وسيدي امحمّد وغيرها، فإذا مات المرابط دُفِن بذلك الرّباط وبُنيت عليه قبّة، فيصير الضّريح علَما للمكان، ويرث خلفاؤه من بعده السّرّ والبركة، وتزداد قداسة الضّريح بين أهل النّاحية وتنتشر سمعتها ونفوذها إلى نواحٍ أخرى بعيدة وهكذا، وصارت كلّ مدينة أو قرية محروسة أو تحت نفوذ وليّ من الأولياء متمثّلا في ضريحه[3]، وعظمت هذه الظّاهرة فوجدنا ابن مريم المديوني في القرن الحادي عشر الهجريّ يجمع ديوانا في ذكر أولياء تلمسان وكراماتهم سمّاه: (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان)، ونظم محمّد ابن الموفّق المعروف بابن حوّاء (سبيكة العقيان

فيمن في مستغانم وأحوازها من الأعيان) عن صلحاء الشّلف وفيهم أيضا (صلحاء الشّلف) للشّيخ موسى المازوني، وفيهم أيضا أرجوزة (الفلك الكواكبي) لأبي عبد الله ابن المغوفل (ت1023هـ)؛ يقول في أوّلها[4]: [الرّجز]

وَبَعْدُ فَالْقَصْدُ بِهَذَا اَلرَّجَزِ   تَقْرِيبُ مَا نَأَى بِلَفْظٍ مُوجَزِ

سَمَّيْتُهُ بِ(الْفَلَكِ اَلْكَوَاكِبِي)   وَسُلَّمِ اَلرَّاقِي إِلَى اَلْمَرَاتِبِ

أَعْنِي مَرَاتِبَ اَلسُّلُوكِ لِلْمُرِيدِ   فِي الاِبْتِدَا وَالاِنْتِهَاءِ لِلْمَزِيدِ

وقد جمع فيها ابن المغوفل أخبار أولياء الشّلف من عدّة قرون من القرن السّادس الهجريّ إلى القرن التّاسع الهجريّ، وكتب محمّد الجوزي عن أشراف غريس، والبوني بألفيّته (الدّرّ المصونة في صلحاء بونة) أي عنّابة، وامتلأت الرّحلات بذكر بعضهم كرحلة الورتيلاني.

وقد فرّق المستشرق ديفوكس بين زوايا الأرياف وزوايا المدن، فقال إنّ الأولى مبنيّة حول قبرٍ لمُرابط، ويوجد القبر في قرية تسكنها إحدى القبائل، وفيها أحفاد المرابط، وقال إنّ هذا التّجمّع يطلق عليه اسم زاوية، ومن احتمى بها أو بأحفاده فهو آمن ولا يُتابع، بينما في المدينة فهي تشمل ذلك ويُضاف لها أنّها بناية كبيرة ويأوي إليها الفقراء والغرباء وتتوفّر على ضرورات الحياة، وقد تصير مدرسة عليا لتدريس العلوم التّقليديّة من فقه وتفسير وحديث وعربيّة ومنطق ونحوها[5].

3- **السّلطة العثمانيّة وبناء القباب الأضرحة:** يعتقد المستشرق لوسيان غولفان Lucien GOLVIN أنّ بناء القباب أو القبّة على المساجد كان تقليدا للمسجد الأقصى، والّذي تأثّر بفنّ العمارة البيزنطيّة، ثمّ تلاه المسجد الأمويّ بدمشق، ثمّ صار بناء القباب على المساجد تقليدا جرى عليه الفنّ المعماريّ الإسلاميّ في بناء المساجد وغيرها، وأنّ أوّل قبّة بُنيت في الفضاء المغاربي –حسب غولفان- كانت لمسجد القيروان بتونس في القرن التّاسع الميلادي[6]، والجدير بالذّكر أنّه قد شهدت هذه المرحلة بناء القباب بشكل واسع، وصار من لوازم الحياة العامّة والثّقافة الشّعبيّة، فما من مدينة أو قرية إلّا وفيها الكثير من الزّوايا والقباب والأضرحة، فقد ذكر سعد الله في (تاريخه الثّقافي) الكثير من القباب في الجزائر منها مثلا خمس وثلاثون قبّة معروفة وهناك قباب أخرى كثيرة مسكوت عنها، اعتمادا على التّقارير الفرنسيّين كأوميرا وديفوكس، ومعظمها إن لم نقل كلّها كان بناؤها خلال الفترة العثمانيّة، فقد اهتمّوا كثيرا ببناء الأضرحة والقباب والمشاهد ووضع الأوقاف والعُمّال عليها، وممّا يذكر على سبيل المثال أنّ الباي حسين قد أوقف سنة 1173هـ وقفا على زاوية مولاي الطّيّب الوازاني في تلمسان

حين اشترى لها دارا بستّين مثقالا من الذّهب، وفي سنة 1174هـ بنى الباي إبراهيم الملياني بأمر من باشا الجزائر ضريحا للولي محمّد بن علي بن الولي عبد الله بن منصور، كما أنّ الباي مصطفى المانزلي قد جدّد سنة 1218هـ ضريح الولي عبد الله بن منصور[7]، بل إنّ بعض الباشاوات جُعلت لهم أضرحة وقباب منها قبّة الحاج باشا جهة باب الواد، كان حاكما محبوبا حسب بعض المصادر، وكان حاكما سنة 1843م أي بعد حملة شارلكان على الجزائر سنة 1841م[8]، ويُقال أنّ حيّ القبّة المعروف بالعاصمة يُنسب إليه، ومنها أنّ أحد الدّايات بنى قبّة لطبيب كان يُعالجه فسمّيت قبّة المرابط الطّبيب، ومنها تجديد الزّوايا وترميمها، فقد تمّ تجديد زاوية سيدي عبد القادر بالعاصمة سنة 1808م على يد الدّاي أحمد باشا.

4- **البكتاشيّة والانكشاريّة:** لعب جيش الانكشاريّة دورا فعّالا في تأسيس الدّولة العثمانيّة واتّساع نفوذها شرقا وغربا، وارتبط تأسيس الانكشاريّة بالطّريقة الصّوفيّة البكتاشيّة ذات النّزوع الشّيعي والمشارب المختلفة، وتذكر الرّواية أنّ السّلطان أورخان الأوّل بن السّلطان عثمان الأوّل مؤسّس الدّولة العثمانيّة، ذهب إلى الحاج بكتاش مؤسّس الطّريقة مع نفر من جيشه، فوضع الحاج بكتاش جزءا من ردائه على رأس جنديّ، وأعطاهم علما أحمر يتوسّطه هلال وسيف ذي الفقار المنسوب للإمام عليّ، ليبدأ الارتباط الوثيق بين الجانبين، واتّخذ الانكشاريّة بكتاش رمزا وشفيعا، وأطلقوا على أنفسهم اسم أولاد الحاج بكتاش، وجرى تشكيل البكتاشيّة في صورتها النّهائيّة على يد بالم سلطان الّذي عيّنه السّلطان بايزيد الثّاني رئيسا لزاوية الحاج بكتاش، وعهد إليه لإقامة زاويا للطّريقة في القرى والمدن العثمانيّة، وصارت البكتاشيّة تشكّل الإطار الإيديولوجي للدّولة العثمانيّة، ولا سيّما المظهر العسكريّ الّذي يشكّل العمود الفقريّ للفتوحات والتّوسّع الإقليمي، وهذا لا يعني أنّها كانت على وفاق تامّ مع السّلطة العثمانيّة، ولكنّها كانت عنصرا حاسما فيها سلبا أو إيجابا، فقد وقف أتباعها البدو الرّحّل التّركمان القزلباش (أصحاب الطّرابيش الحمراء) مع الدّولة الصّفويّة الشّيعيّة أثناء صراعهم مع العثمانيّين، كما كانوا هدفا للحملات العثمانيّة سبقت حربهم ضدّ الصّفويّين، وتحديدا في عهد السّلطان سليم الأوّل (1512م-1520م)[9]. كما ارتبط المؤسّس الحاج بكتاش في ذهن العامّة بالعقائد المسيحيّة وجعلته كراماته وخوارقه في مرتبة القدّيس عندهم، فيما تذهب بعض الدّراسات إلى أنّ الطّريقة البكتاشيّة تستمدّ من العقائد الصّفويّة ومن عقائد قديمة في الأناضول[10]، وقد ساعد مرونة عقائدها واستيعابها لشتّى الدّيانات والمذاهب إلى الانتشار السّريع عبر أقطار الإمبراطوريّة العثمانيّة، والحقيقة أنّ تبنّي الباب

العالي لها هو العامل الأساس في انتشارها مع انتشار الجيش الانكشاريّ، فقد استهلّ السّلطان سليمان القانوني عهده بافتتاح عشرات الزّوايا ومنحها الكثير من الإقطاعات، وتأثيرها المباشر في السّياسة العثمانيّة، وكان من عادة السّلاطين العثمانيّين اللّجوء لشيوخ التّصوّف لأخذ المشورة وخاصّة في الحروب، كما كانت حاسمة في الصّراع داخل البلاط نفسه، وكانت الزّوايا والتّكايا حاضنة للجماهير خاصّة زمن الأزمات والحروب، وساعدت في استمرار الدّولة، بحيث صار هناك تحالف ضمنيّ بين السّلطة والتّصوّف. وقد حاول بعض السّلاطين الحدّ من نفوذها دون جدوى، فقد حظر السّلطان محمود الثّاني البكتاشيّة بعد إلغاء الانكشاريّة سنة 1826م، وكان يعتقد أنّها ستذوب في الطّريقة النّقشبنديّة بعد نقل ملكية الزّوايا إليها، ولكن عادت إلى سابق عهدها في عهد السّلطان عبد العزيز، وتمّ إعادة إعمارها على يد أمّه، كما لعبت زوايا البكتاشيّة دورا هامّا في حركة المعارضة ضدّ السّلطة العثمانيّة مع حركة تركيا الفتاة، فتحوّلت زواياها إلى مراكز لنشطاء هذه الجمعيّة، وكانوا من أسباب خلع السّلطان عبد الحميد الثّاني سنة 1909م والقضاء على الدّولة العثمانيّة، بعدما تحالفوا معها لقرون طويلة، وساندوا قيام الجمهوريّة الجديدة والدّفاع عن قيم العلمانيّة.

5- **البكتاشيّة وبناء التّكايا والأضرحة:** التّكيّة البكتاشيّة عبارة عن ضيعة كبيرة واسعة فيها قصر ضخم يقيم فيه شيخها، وتضمّ قبورا مزخرفة لرفاة مشايخ الطّريقة والمساهمين في انتشارها، وفيها غرف كبيرة يقيم فيها الدّراويش منقطعين للعبادة والذّكر، وفيها حظائر للمواشي من الأغنام والأبقار، وتحصل على احتياجاتها من المال من تبنّي الطّريقة في البلد الّذي تتواجد فيه، وعلى المنتسب القيام بواجبات عديدة في خدمة التكية منها خدمة الدّراويش والضّيوف، ويتعيّن على المنتسبين البيعة للشّيخ والالتزام بطقوس معيّنة تجاه الشّيخ والقبر وغيرها[11]. وتنافس سلاطين آل عثمان على بناء الزّوايا والتّكايا والقبور البكتاشيّة لأنّها مصدر قوّتهم.

6- **الوقف:** جُعلت لكثير من الأضرحة أوقاف خاصّة بها بالموازاة مع الزّوايا والمساجد والكتاتيب والفقراء وعابري السّبيل، مع أخذ العلم أنّ الزّوايا كانت تُنسب في معظم الأحيان إلى الأضرحة الموجودة فيها؛ كزاوية عبد الرّحمن الثّعالبي والولي دادة في الجزائر، وجامع سيدي بومدين بتلمسان، وفي سنة 1830م/1246هـ أحصى ديفوكس بمدينة الجزائر ثلاثة عشر جامعا ومائة وتسعة مساجد واثنان وثلاثون ضريحا أو قبّة واثنا عشر زاوية، وبالتّالي نرى حجم تأثير الأضرحة في تكوين المؤسّسة الدّينيّة في الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي، وللوقف أهمّية

بالغة في الحياة الدّينيّة والعلميّة والاجتماعيّة، بحيث كانت مصدرا رئيسيا للدّخل لصالح الدّولة والمجتمع، وتمثّلت هذه الأوقاف في الدّور والأراضي والحقول والبساتين والمحلّات التّجاريّة[12]، وحتّى الأغراض الخاصّة والأواني والحلي، مثل ضريح عبد الرّحمن الثّعالبي بالجزائر؛ فقد أوقفت عليه السّيّدة دومة بنت محمّد أواني طبخها النّحاسيّة، على أن يكون إصلاح هذه الأواني من مدخول آخر تملكه، وكثير من الأوقاف الّتي جلت للمساجد صارت أضرحة لأصحابها، منهم الباي حسن المعروف بوحنك باي قسنطينة الّذي أنشأ سنة 1156هـ الجامع الأخضر وأوقف عليه عدّة أوقاف، وقد دُفِن فيه بعد موته سنة 1167هـ[13]، وقد ألحقت جميع هذه الأوقاف أو معظمها –وخاصّة أوقاف الحرمين- بمصالح الدّولة الفرنسيّة بعد الاحتلال.

7- **الزّيارة:** كانت زيارة الأضرحة في الأصل فرعا عن زيارة المقابر، وهي مستوحاة من الثّقافة الدّينيّة، وقد وُضعت في أحكامها كتب؛ منها كتاب: (ربح التّجارة ومغنم السّعادة فيما يتعلّق بأحكام الزّيارة)، ونُظمت قصائد كثيرة في زيارة الأضرحة للتّبرّك والاعتبار والحضّ عليها؛ منها سينيّة ابن باديس أو (النّفحات القدسيّة) لحسن بن باديس يقول في مطلعها[14]: [الطّويل]

أَلَا صِلْ إِلَى بَغْدَادَ فَهْيَ مُنَى اَلنَّفْسِ   وَحَدِّثْ بِهَا عَمَّنْ ثَوَى بَاطِنَ اَلرَّمْسِ

وهي في مدح الشّيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد.

وتُنسب قصيدة للشّيخ عبد الرّحمن الأخضريّ البطنيوسي (ت953هـ) في استحثاث الهمم لزيارة ضريح سيدي خالد بن سنان العبسي، ومطلعها: [البسيط]

سِرْ يَا خَلِيلِي إِلَى رَسْمٍ شُغِفْتُ بِهِ   طُوبَى لِزَائِرِ ذَاكَ اَلرَّسْمِ وَالطَّلَلِ

جَلَّتْ شَوَاهِدُهُ عَزَّتْ دَوَائِرُهُ   مَا خَابَ زَائِرُهُ فِي اَلصُّبْحِ وَالْأَصَلِ

ولمّا مات الأخضري نفسه جُعلت له قبّة للزّيارة ودعا علماء الوقت إلى زيارة قبره أمثال مصطفى بن عزّوز البرجي وعلي بن عمر الطّولقي والمختار الجلالي وعبد الحفيظ الخنقي[15].

وألّف بركات بن باديس كتابه: (مفتاح البشارة في فضل الزّيارة)، تحدّث فيها عن نبوّة خالد بن سنان العبسيّ، وأدرج قصيدة الأخضريّ المتقدّمة وغيره، وألّف محمّد ساسي البوني في فضائل الزّيارة، وربّما يقصد به زيارة الأضرحة[16].

وارتبطت الزّيارة بالتّبرّعات الّتي يعطيها الزّوّار للأضرحة والزّوايا، وأنّه بقدر كرامات الولي والمرابط يكون سخاء الزّائرين وكثرتهم، كما شاع عن زاوية الولي داده بالعاصمة الّذي أنقذ العاصمة من السّقوط سنة 1541م على يد شارلكان، وقد كان لها أوقاف هامّة من مزرعة

جهة الحراش وغيرها، وبعد الاستعمار حُوّل جزء منها إلى كنيسة فيما نُقلت رفات الضّريح إلى زاوية عبد الرّحمن الثّعالبيّ[17]، ومنها نقل رفات قبّة سيدي منصور وأفراد عائلته إلى مقبرة زاوية الثّعالبي لإخلاء المكان، وتذكر التّقارير أنّه قد تمّ ذلك على يد جنود الزّواف.

8- **الممارسات والطّقوس:**

– **طلب الشّفاء والبركة:** يذكر ابن حمادوش في (رحلته) أن زاوية عبد الرّحمن الثّعالبيّ الّتي تأسّست حول ضريحه صارت مجمعا للذّكر وإقامة المولّديات وإلقاء الموشّحات الدّينيّة، وأصبحت مقصد الزّوّار وملتقى الدّارسين ومجمع طلّاب البركة والشّفاء[18]. وكان يقصد النّاس بعضها تبرّكا وطلبا للشّفاء وقضاء الحاجات كزاوية سيدي عبد القادر بالجزائر يكثر النّسوة زيارتها، وكان العامّة يزورون مثلا زاوية سيدي علي الزّواويّ لاعتقادهم أنّ ماءها يُبرئ من العقم والحمّى ويحفظ الأولاد، وكذلك قبّة سيدي عبد القادر كان بها بئر تعتقد العامّة أنّ عبد القادر الجيلاني حفرها عندما زار الجزائر، وأنّ ماءه يشفي من الأمراض والمسّ ونحوه، وبها ضريح كان النّاس يزورونه ويتوسّلون ويتبرّكون فيه، وقد سقطت نخلته سنة 1965م، وهدّمت السّلطات الاستعماريّة القبّة سنة 1866م[19]، وقد ذكر دوتي مجموعة من الأضرحة يشترك فيها المسلمون واليهود بالمغرب الأقصى وتلمسان وتونس، فقد ذكر مثلا وليا في جبال فاس يسمّى أصقرو، يشترك البرابرة واليهود في تقديسه، وأنّه كان موجودا قبل الإسلام، تقصده النّساء البربريّات واليهوديّات الرّاغبات في الإنجاب، يصعدن إلى أعلى الجبل على أرجلهنّ، وهذا ما يحدث بالضّبط عند سيدي يعقوب بتلمسان[20]، وفي قمّة جبل بوزقزة المطلّ على خليج الجزائر ينتصب ضريح لالة تامزقيدة يقصده النّسوة اللّواتي يعانين من العقم لطلب الخصوبة والإنجاب[21].

– **طلب النّصر والحماية:** أسّست الزّاوية في الأصل وما ارتبط بها من ثقافة الولاية والرّباط لأجل الجهاد ومناهضة أعداء الدّين وحماية الثّغور مع أداء واجب العبادة والتّعليم، ولعبت دروا كبيرا مثلا في إيقاف الغزو الإسباني خاصّة بغرب الجزائر كزاوية المجاجي ودورها في حماية ثغر تنس، بينما كانت زوايا معسكر ومازونة وغيرها في حالة رباط دائم ضدّ الإسبان، وقامت بالدّور الرّئيسيّ في فتح وهران سنتي 1119هـ و1205هـ، كان غزاة العثمانيّين في البحر قبل القيام بالغزو يدخلون إلى زاوية ولي دادة أو ضريح سيدي بتقة (أبو التّقى) وغيرهما من القباب سواء في الجزائر العاصمة أو في غيرها؛ طالبين من الأولياء البركة والنّصر[22]. وكان اعتقاد العامّة في الأضرحة أنّها تحمي البلاد والعباد من الغزو الأجنبيّ، وأنّ سبب إخفاقهم في

دخول مدينة الجزائر إنّما هب بركة الأولياء أمثال الولي داده وسيدي الجودي وسيدي عبد الرّحمن وسيدي جمعة وسيدي الكتاني والرّجال السّبعة[23] وغيرهم من حماة البلاد وحراسها، وتذكر الأسطورة الشّعبيّة أنّه ببركة الولي داده بالعاصمة هبّت عاصفة هوجاء أثناء غزو الملك شارلكان للجزائر سنة 1541م، ومن ثمّة أنقذ الولي دادة العاصمة من الاحتلال، ومحمّد التّواتي في بجاية كانت ملجأ للمجاهدين ضدّ الغزو الإسبانيّ، ولمّا مات الشّيخ سقطت المدينة في أيدي الغزاة، وحرصوا على إرضائهم وزيارتهم، وتجنّبوا إغضابهم، فمن الحكايات الّتي تُحكى أنّ سبب سقوط مدينة وهران في يد الإسبان هو أنّ الشّيخ محمّد الهواري قد نقم على أهلها فرفع حمايته عنها ودعا على أهلها، وكذلك الأمر بالنّسبة للشّيخ أحمد بن يوسف الملياني (ت931ه) فتذكر الرّوايات أنّ الزّيانيّين –في أواخر عهدهم- حاولوا إحراقه، فكانت النّار عليه بردا وسلاما، ثمّ سجنوه وبعد خروجه من السّجن دعا عليهم بتخريب ملكهم عندها كان العثمانيّون يخطّطون للاستيلاء على تلمسان، وكان الملياني من أنصارهم[24]، ولذلك كان ظهور العثمانيّين بالجزائر ونفوذ كلمتهم يعتمد على المرابطين وشيوخ الزّوايا أساسا، وعلى هذا الأساس كانت سياستهم في استرضائهم وإعفائهم ممّا يجب على العامّة وتعظيم مكانتهم بالاهتمام ببناء القباب والأضرحة عليهم بعد مماتهم. وقد جعلوا لبعضهما الحرمة والحِمى فلا يمسّ طيرها ويزجر ساكنها ولا يُبطش باللّاجئ إليها والهارب من عدوّه ولا يقربه سلطان، كزاوية سيدي عبد الرّحمن الثّعالبي والولي داده، وكان الثّوار في نواحي قسنطينة لا يمسّون من يلجأ إلى زاوية أولاد عبد النّور، وكان محيي الدّين شيخ الطّريقة القادريّة بزاوية القيطنة يصف زاويته بأنّها كمقام إبراهيم الخليل –عليه السّلام- من دخلها كان آمنا[25]. وذكروا أنّ الباي مصطفى بوشلاغم أمر أحد الجنود بإلقاء القبض على رجل لجأ إلى قبّة سيدي الهواري فانتفخت بطن الجندي، ويُحكى أنّ الشّيخ عبد الرّحمن اليعقوبي دفين ندرومة أنّ زار ضريح سيدي بومدين وسأله تغيير دولة الأتراك من آل يافث لكثرة جورهم، وأنّ أبا مدين أجابه من قبره قائلا: "إن قبلتها يا عبد الرّحمن نعطها لك" فأبى، فقال له أبو مدين: "اصبر، في هذا الوقت لم نجد من يصلح لها ويتكفّل بها، وسيأتي الله بالفرج"[26]. ومن مظاهر تعظيم وحرمة الأضرحة والقباب الحلف بها وعندها، وبها تتجلّى كرامة الوليّ، فإنّ الحلف كذبا عنده يترتّب عليه تحصل به مصائب في بدنه كالإعاقة ونحوها أو في أهله وماله بالهلاك وقلّة البركة، والحكايات في هذا كثيرة متوارثة شفويا ومنها ما دُوّن وكُتب، "فعندما حلف أحدهم كذبا على قبر صالح كُسر طرفٌ من أطرافه لدى خروجه منه، فيما كان يسقط أحدهم أرضا ولا يفيق حتّى يكفّ

عن بعض الشّرور الّتي اقترفها من قبل، وأمّا أحدهم فقد رام الدّخول إلى مغارة أحد الصّلحاء، وما إن دنا منها حتّى رأى كأنّ بابها يضيق عليه حتّى لا يكاد يمرّ، بينما عبرها رفاقه من المصدّقين بسهولة ..."[27]. وقد خصّص إدموند دوتي مبحثا في الصّلحاء الّذين تنبّأوا باحتلال فرنسا للجزائر، فقد تنبّأ مثلا سيدي محمد بن بورقعة قبل سنوات من الاحتلال باستبدال المستعمر من الأتراك إلى المسيحيّين، وتنبّأ أيضا سيدي الحاج عيسى من الأغواط بالاحتلال الفرنسيّ، ومن قبّته بدأت مدافع الفرنسيّين في احتلال الأغواط، وتنبّأ عبد السّلام بن مشيش باحتلال الإسبان لوهران وتطوان وغيرها من التّنبّؤات الّتي تُنسب إلى الصّلحاء وتُعدّ من مناقبهم وكراماتهم[28].

كما كانت بعض الأضرحة مكانا للتّجارة ومستوعات للسّلع والبضائع، توضع فيها السّلع والمدّخرات، لأنّها أماكن محترمة جدّا ولا يمكن سرقتها، مثلا ضريح سيدي خالد بدلّس على شاطئ البحر يستعمل لمثل هذه الأغراض، "وكان الدلسيون يأتون إليه بالزّوارق محمّلين بالملح ويتركونها به إلى أن ينزل قبايل الأعالي المجاورة من الجبال ليأخذوا الملح ويضعوا في مقابله الشّعير والقمح، ثمّ يأتي الدّلسيّون بعد ذلك لأخذها بدورهم"[29].

– **طقوس الاستمطار**: من الطّقوس المتوارثة في شمال إفريقيا هي طقوس طلب المطر عند الجفاف، الّتي لاحظ بعض الباحثين الأركيولوجيّين أنّها قديمة جدّا، فيذكر مثلا روني باصي أنّ بعض المغارات والكهوف كانت مخصّصة لذلك، ففي الكناري –باعتبارها جزءا من ثقافة شمال إفريقيا- كانت هناك مغارة الأستيهطيقا مخصّصة للخلوة خلال فترات الجفاف، لمن يذهب كي يتضرّع للإله، حين يظهر له يمنحه خنزيرا يقدّمه لقومه دليلا على قبول صلواته، على أنّ الكثير من الممارسات الطّقوسيّة جاءت من الشّرق عن طريق الفينيقيّين[30]. فيما تذهب بعض الطّقوس إلى تقديس ظاهرة الطّيف، ويربطون بها ممارسات للاستسقاء، وهي ظاهرة قوس قزح؛ في واد ريغ تسمّى أبشّي abechchi، وفي هراكطا أبْقّاس abggas (حزام)، وعند زواوة ثيسليث ب ونزار thislith b ouanzar، وعند آيت بوتعيو بأرزو ثيسريث ن ونزار thisrith n wanzar، وفي آيت يزناسن ثاسليت نونزير thaslit n ounzir، ومعناها عروسة المطر، وعند بني مناصر ثاسليث ن أوجنّا thaslith n oujenna؛ أي عروسة السّماء، وفي العامية كذلك يقال له عروسة السماء، ويربطون به خرافات تسمّى عرس الذّيب. وأنزار anzar هو المطر، كائن مذكّر، وفي الطّقوس الممارسة للاستمطار يذهب أبناء جرجرة زمن الجفاف من منزل إلى منزل، وهم يغنّون:

أنزار، أنزار

يا ربّ أروينا إلى الجذور.

وفي الميزاب يغنّي الأطفال وهم يدوسون الحبوب:

أعطنا يا ربّ ماء أنزار

وفي ورقلة يشخّصونه بـ (أَمْزار).

وبالتّالي فقوس قزح يرتبط بخطيبة للمطر، وهذه الطّقوس لها صلة بأغلب السّاكنة في شمال إفريقيا عربا وأمازيغا من عين الصّفرا وغيرها بالجنوب إلى تلمسان ومازونة وغيرها، تُختار ملعقة من خشب (آغونجا agheundja) يتمّ إلباسها بالخرق بحيث تصير تشبه شكل الدّمية، تمثّل خطيبة أو عروسة، تسمّى غونجا، ويتمّ تطوافها بأبّهة على مقابر الأولياء المحلّيّين، مع غناء مقاطع تتنوّع حسب المناطق، كما في ما يلي:

غونجا غونجا كشفت راسها؛

يا ربي ستبلّل أقراط أذنيها؛

السّنبلة عطشت؛

امنحها تشرب يا سيدنا.

أمّا في تيط بتوات، فيفعلون نفس الشّيء ويخرج الجميع رجالا ونساء وأطفالا، بينما تحمل الملعقة –الّتي كُسيت بملابس نسائيّة- فتاة شابّة وهم يردّدون:

أغونجا، إميرجا (يا ملعقة، يا مراعي)

ربي فوّت وقت الحرّ

يا ربي باسم النّبيّ

وفي بعض الجهات في الغوانش (الكناري) يسبق ذلك تصويم العباد وربّما الدّواب، وفي تينيريف يفصل الأبناء عن أمّهاتهم ليثير صرختهم شفقة السّماء[31]. فيما تذهب بعض الطّقوس إلى تقديم البشر قرابين في زمن الطّواعين إلى آلهة جوبيتر طارتاريوس.

وارتبطت الكثير من هذه الطّقوس بالسّنة الفلاحيّة، فلا يتمّ الاحتفال في المساجد –بحسب باصي- لكن قرب مقابر الأولياء الشّعبيّين، لأشخاص لا مرئيّين، والاحتفال الأساسي هو الّذي يهمّ ينّاير، وهو حاسم بالنّسبة للسّنة كلّها، وهناك احتفال خاصّ بلعنصرا أو عيد الما، واحتفال عاشورا، وتشترك كلّها في حياة النّبات أو موته، وهذه الاحتفالات تختلط فيها عدّة ديانات قديمة مرّت على شمال إفريقيا فينيقيّة وإغريقيّة ورومانيّة وأمازيغيّة وإسلاميّة[32].

– **الموالد والمناسبات:** كانت للزّوايا والأضرحة دور كبير في المناسبات الدّينيّة، وعلى رأسها المولد النّبويّ الشّريف، كان الوكلاء فيها يعدّون الطّعام يحضرها الخاصّة والعامّة، على اختلاف بين المؤسّسات، فقد خُصّص بعضها للأشراف، وبعضها لعابري السّبيل، وبعضها للمهاجرين الأندلسيّين، وكان بعضها واسع الشّهرة ثريّ المائدة، كزاوية سيدي امحمّد بن علي المجاجي وزاوية القيطنة كانتا تطعم الأعداد الكبيرة مع كثرة طلبتها واللاجئين فيها.

– **كرامة الغُراب أو الطّير:** من التّرسبّات الّتي تعتقدها العامّة هو قدرة المرابط أو الوليّ إلى تغيير خلقته إلى غراب أو طير للفرار من عدوّه، أو لحلول النّقمة بمن آذوه أو قتلوه، ويُقدّس المكان ويجعل له ضريحا، فقد قيل إنّ صالح باي مثلا قد بنى قبّة في المكان الّذي قتل فيه المرابط محمّد الغراب بعد أن تحوّلت جثّته إلى غراب مخيف تطيّر منه الباي[33]. ويُحكى أنّ الحاج بكتاش مؤسّس الطّريقة البكتاشيّة لمّا كان في طريقه من خراسان إلى الأناضول تحوّل إلى حمامة ثمّ صعد إلى السّماء حتّى وصل إلى المكان الّذي فيه الملائكة الّذين سلّموا عليه ورحّبوا به، ثمّ نزل إلى قرية صولجية كرايوك ليخبرهم أنّه أتاهم بسلام، لكن هؤلاء الأولياء أرسلوا وليا منهم، وهو تحوّل إلى صقر ليخيفه ويمنعه من دخول البلاد، لكنّ الحاج بكتاش تحوّل في الحال إلى إنسان، وأمسكه من عنقه، وألقاه إلى الأرض، ولمّا أدرك هذا الوليّ قوّة الحاج بكتاش اعتذر منه وقبّل يده، وذهب إلى أصحابه وأخبرهم بما حدث، ولمّا سمعوا بهذه القصّة ذهبوا إليه، وأخذوا اليد منه، ودخلوا طريقته[34].

– **ظاهرة البوقبرين أو تعدّد القِباب والأضرحة:** شاع تعدّد القباب والمشاهد والأضرحة للأولياء والصّلحاء، ممّا جعل العامّة تعتقد أنّ الشّخص الواحد قد يُدفن في أكثر من مكان، وهذا من كراماته ويستدعي تعظيمه وزيارته، ويعدّ أيضا من مآثره الّتي يتفاخر المنتسبون إليه بها فيضيفون له هذا اللّقب أي (بوقبرين) للدّلالة على عظم شأنه وبُعد صيته، فقد نُسب للشّيخ عبد القادر الجيلاني أكثر من ضريح، حتّى سُمّي بطير المراكب، وأغلبه القباب المنسوبة إليه في الجبال العالية، وله أسماء كثيرة مثل: الجيلالي (الجيلاني)، وقويدر، وجلول، والبغدادي، وبوعلام، وكما هو معلوم فقبره في بغداد، ولكن في الجزائر نُسبت إليه الكثير من الأضرحة في بجاية والجزائر ووهران وغيرها[35]؛ لمكانته عند أهل المغرب وخاصّة الجزائر، فقد كان الحجّاج يقصدونه بالزّيارة والهدايا والأوقاف عند عودتهم من طريق الحجّ، وكانت طريقته منتشرة في عموم البلاد؛ واشتهر بلقب "مولى بغداد"، ومنهم شيخ الطّريقة

الرّحمانية امحمّد بن عبد الرّحمن الأزهريّ، يُنسب له قبرٌ بالحامة في الجزائر، وقبر ببلده آيث إسماعيل بتيزي وزو، ونذكر بأنّ قبّته هُدّمت مرّتين أثناء المقاومة الشّعبيّة للاحتلال الفرنسيّ، الأولى سنة 1857م، إثر مقاومة الحاج عمر، وكان إعلان الجهاد عند قبّته، وكانت نهايتها احتلال زواوة، والمرّة الثّانية كانت سنة 1871م أثناء ثورة الشّيخ امحمد امزيان الحداد شيخ الرّحمانيّة في صدّوق، وكان من نتائجها إطلاق العنان لحملات التّبشير الأولى على أرض ناث إسماعيل بين سنوات 1885-1885م[36]، بينما كانت قبّته تُزار بالحامة في العاصمة في مختلف المواسم والمناسبات. ومن تعدّد الأضرحة أو القباب أيضا ضريح سيدي معمر أبي العالية –من أحفاد أبي بكر الصّدّيق –رضي الله عنه- ناحية تنس، يُنسب له ضريح في معاطن حميس وفي تنس، وفي غليزان، إضافة إلى الضّريح الأصلي بالأبيض سيد شيخ، ويسمّى بضلعة سي معمر، وفي ناحية تنس له عُرف يُنسب إليه؛ فتقول العامّة معروف سيدي معمر بومكحلة، وهو تقليد لتخفيف المهور، فأتباع سيدي معمر في القديم بحسب التّقارير المكتوبة والرّوايات الشّفوية لا يقدّمون سوى عشرين فرنكا (ربعة دورو بحساب العامّة)، والمرأة لا تُزيّن ولا تُحنّى ولا تُقلّد بالجواهر تجري ليلة الزّفاف في غرفة خالية على حصير موضوع على الأرض، ووسادة قربة من جلد الماعز الأسود مملوءة بحبوب الشّعير ... وأوّل مولود يُسمّى معمر والمولودة تُسمّى العالية، توجد قبّة سيدي معمر في بلدية عمّي موسى بغليزان، ويُدعى بومكحلة، لأنّ بندقيته الموضوعة في القبّة، وكما يقولون تنطلق عند اقتراب الحفلة، وأنشئت له عدّة أضرحة خاصّة في الخط بين شلف وتنس، لكنّ القبّة الّتي دُفن فيها تقع في الأحلاف جهة وادي رهيو، تذكر الرّوايات أنّ سي معمر أبا العالية قدم من الجنوب معلّما للصّبيان في قبيلة حميس جهة تنس، واستقرّ بها مدّة معلّما للقرآن، وزوّج إحدى بناته الّتي تُدعى العالية بمهر بسيط جدّا، وإبّان عودته لعائلته في الجنوب أوصى زوجته الّتي كانت حاملا أن تسمّي ابنها المولود معمر، وهذا ما حدث، بقي الطّفل في حضانة أمّه، وتلقّى دروسا لامعة وعُرف بقدراته الخاصّة على ذلك، ذات يوم وجد سلاحاً ناريّا فأراد منحه لأحد أساتذته، فأوصاه هذا الأخير بالاحتفاظ به لأنّه قد يكون مصدر بركة، لما كبِر وصار شخصيّة دينيّة يُعتدّ بها أسّس المهر المحدود للزّواج، واشتهر باسم سيدي معمر بومكحلة[37]، وعليه فيكون الضّريح الأصلي ناحية البيض ضريح سيدي معمر الأب، بينما القباب المنتشرة بين غليزان والشّلف وتنس هو قباب سيدي معمر الابن، على ما في هذه الرّوايات من الأساطير والخرافات إلّا أنّها تحمل جزءا من الحقيقة، لأنّه تُشكّل سمة ثقافيّة بارزة إلى اليوم في هذه المناطق التّابعة لهذا العرف أو المعروف.

– **الدّفن في جوار الأضرحة:** ومن الظّواهر الّتي تتكرّر بجوار الأضرحة هي دفن العلماء والصّلحاء تبرّكا بصاحب الضّريح، لذا نجد أنّ الكثير من الأعيان دُفنوا بجوار هؤلاء الصّلحاء، بل نجد أنّ الكثير من المقابر تكوّنت وتوسّعت حول الأضرحة، فكان الضّريح مركز المقبرة تحيط به القبور من كلّ جهة، كلّ ذلك تفاؤلا أو تشفّعا بمجاورته، فقد دُفن مثلا حول ضريح عبد الرّحمن الثّعالبيّ الكثير من الأعيان والوجهاء، منهم مثلا الحاج أحمد باي، وبعض أفراد عائلة حمدان خوجة[38]، ومنهم على سبيل المثال أيضا الشّيخ محمّد الأرناؤوط (ت1865م) الحنفي المدرّس والمفتي بالجزائر أيّام بداية الاحتلال الفرنسي[39]، ومنهم أيضا القاضي أحمد المجاهد بوطالب دُفن بجوار ضريح سيدي السّعيد الزّواوي بسطيف سنة 1890م[40]. ومنها أيضا أن تنتشر القباب وأضرحة الصّالحين حول الضّريح المركز مثل ضريح الشّيخ عبد الرّحمن الثّعالبي، وهو شيء طبيعيّ بالنّظر لمكانة الثّعالبي –رحمه الله-، وبالنّظر للأوقاف الهائلة الّتي كانت تحيط به، واستولى الاستعمار الفرنسيّ على تلك الأوقاف وضمّت إلى أملاك الدّولة الفرنسيّة سنة 1848م، فقد وجد الاستعمار الفرنسي الكثير من القباب والأضرحة والجبانات والمساجد المحيطة به فقاموا بهدم العديد منها، وأصبح جزء منها بناية لثانوية الأمير عبد القادر[41]، وهناك من القباب من اشتراها المعمّرون ليتمّ تحويلها إلى دار سكناها، كقبّة سيدي المسعود بالعاصمة اشتراها مقاول فرنسي يقال له جيلي (Geylers) وهو صهر المستشرق ديفوكس، ومنها قبّة سيدي علي الفاسي[42]، وبعضها أزيل لشقّ الشّوراع والطّرقات.

– **نتائج البحث:**

– ساهم الضّعف السّياسي والاجتماعي العامّ في العالم الإسلامي، وخاصّة بعد سقوط بغدا وبعدها الأندلس في انتقال المرجعيّة الدّينيّة والسّياسيّة من سلطة الحاكم والسّلطان إلى سلطة الشّيخ والرّجل الصّالح، وانتقلت العلاقة من الحاكم والرّعية إلى علاقة الشّيخ والمريد.

– ساهم الغزو الأجنبي وخاصّة الإسباني على سواحل الغرب الإسلامي وبالإضافة إلى الاضطرابات والصّراعات الدّاخليّة إلى إعادة تشكيل المجتمع، وبالتّالي ضعف سلطة العصبيّة القبليّة بالموازاة مع ضعف سلطة الحاكم والأمير على حساب تنامي سلطة الشّيخ والعصبيّة للطّريقة، ويقابلها البحث عن البديل الّذي وجدته العامّة في شيوخ الطرق الصّوفيّة، وصارت الزّاوية المؤسّسة الدّينيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة محلّ لجوء العامّة والخاصّة.

– ساهمت الزّوايا والتّكايا في نشوء الدّولة العثمانيّة واتّساع نفوذها بقدر اتّساع نفوذ الطّريقة البكتاشيّة، وصارت سلطتها موازية لسلطة الباب العالي، تلتقي معه أحيانا وتتصارع معه أحيانا أخرى.

– عملت الدّولة العثمانيّة على الاستثمار في الطّرق الصّوفيّة لبسط نفوذها، وكانت القناة الوحيدة للتّواصل مع الرّعايا في مختلف الظّروف سواء في الولاءات والتّحالفات، أو في الحروب والصّراعات، وكانت الطّريقة البكتاشيّة نواة آليات الحكم عند العثمانيّين.

– وكان من نتيجة تعظيم الشّيوخ والصّلحاء انتشار الزّوايا والتّكايا، وما يلزمها من فروض الولاء والطّاعة، وما يترتّب عليها من طقوس التّبرّك والزّيارات، ثمّ انتشار الأضرحة بشكل كبير، وخاصّة في المناطق الّتي تعدّ بؤر صراعات وتوتّرات وتهديدات أجنبيّة، وهو ما نلاحظه في الغرب الجزائري؛ إذ كلّما اتّجهت غربا ازداد عدد الزّوايا والأضرحة، لأنّها كانت دائما تحت الصّراعات والتّهديد الإسباني خاصّة طيلة العهد العثمانيّ.

– شغلت كرامات الأولياء ومناقبهم كتب تراجم القرن السّابع الهجريّ وما بعده، وصارت معيارا لانتقاء الأعيان والاهتمام بهم، وإن كانوا من الأمّيّين، وهو يؤشّر إلى بداية انتشار التّصوّف الفولكلوريّ والطّرقيّ وتعميمه على كلّ طبقات المجتمع، كما يعبّر عن ضعف سلطة الدّولة والقبيلة، واستعاضتها بسلطة الوليّ والطّريقة؛ أو ما اصطلحنا عليه من انتقال المركزيّة من سلطة السّلطان إلى سلطة الوليّ، لقضاء حوائج النّاس والدّفاع عنهم ومواجهة الأخطار الّتي كانت تحيط بهم، وخاصّة بعد سقوط الأندلس ثمّ مدن ساحل الغرب الإسلامي كبجاية ووهران والعرائش وغيرها.

– تعدّدت مظاهر الاعتقاد في الصّلحاء والأضرحة، وكان نتيجة لذلك بروز مجموعة من الظّواهر، ومنها ظاهرة تعدّد الأضرحة والقباب، وكلّما ارتفعت قيمة الرّجل الصّالح كثُرت معه القباب والمشاهد والأضرحة المنسوبة إليه، كمشاهد سيدي الشّيخ ناحية البيض، وسيدي معمر ناحية تنس وغليزان.

– **المصادروالمراجع:**

1- ابن عسكر، أبو عبد الله محمّد بن علي بن مصباح الحسنيّ الشّفشاوني، دوحة النّاشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمّد حجي، مطبوعات دار المغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر، ط2، 1977م.

2- ابن مريم، محمّد بن محمّد بن أحمد المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، صحّحه واعتنى به: محمّد بن أبي شنب، المطبعة الثّعالبيّة، الجزائر، 1908م.

3- أحمد بري، ممدوح غالب (2019م)، تاريخ التّصوّف في الدّولة العثمانيّة: الطّريقة البكتاشيّة نموذجا، المركز الدّيمقراطي العربي للدّراسات الإستراتيجيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة، برلين، ألمانيا، ط1.

4- باصي، روني، أبحاث في دين الأمازيغ، ترجمة وتقديم: حمّو بوشخار، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، 2012م.

5- بن عمارة، خليفة، سيرة البوبكريّة (أجداد أولاد سيدي الشّيخ)، تاريخ وهجيوغرافية الجنوب الغربي الجزائري (القرن 14، 15، 16)، ترجمة: محمّد قندوسي، مكتبة جودي مسعود، وهران، ط2، 2002م.

6- حجي، بليدار (1437ه)، الطّريقة الصّوفيّة البكتاشيّة في ألبانيا عرض ونقد، رسالة ماجستير، كلية الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة، جامعة القصيم، المملكة العربيّة السّعوديّة، ص81.

7- دوتي، إدموند، الصّلحاء (مدوّنات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التّاسع عشر)، ترجمة: محمّد ناجي بن عمر، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب، 2014م.

8- ديفوكس، ألبير، المؤسّسات الدّينيّة في مدينة الجزائر، الجزائر، 1878م.

9- سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م.

10- عبّاس، باسم حمزة (2018)، "التّطوّر التّاريخي للطّريقة البكتاشيّة منذ القرن الرّابع عشر الميلاديّ وحتّى الوقت الحاضر"، مجلّة دراسات تاريخيّة، كلية التّربيّة للبنات، جامعة البصرة، العدد24، حزيران 2018م.

11- هويدي، يحيى، تاريخ الفلسفة الإسلاميّة في القارّة الإفريقيّة، القاهرة، 1966م.

12- BENAMARA, Khelifa, La SAGA des Boubekria (Ancêtres des Ouled Sidi Chikh), Histoire et Hagiographie du sud-ouest algérien (14e, 15e et 16 siècles), Librairie Djoudi Messaoud, 2ème édition, 2002.

13- Douté, Edmond, Les Marabouts, Notes sur l'Islam dans la Berbérie Musulmane, Editions Alger livres, Alger, 2008.

14- GOLVIN, Lucien, la mosquée (ses origines, sa morphologie, ses diverses fonctions, son rôle dans la vie musulmane, plus spécialement en Afrique du Nord), Alger-livres éditions, Alger, 2013.

15- Harris, Tafilet the narrative of a journey of expoloration in the Atlas mountains and the North- west Sahara, Londres, 1895.

16- GSELL, Stéphane, Croyances bèrbères (introduction à la mythologie des bèrbères), belles-lettres étude, Alger, 2011.

التهميش:

[1] - انظر: سعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، مرجع سابق، ج1 ص76.

[2] - انظر: دوتي، إدمون، **الصلحاء**، ص90.

[3] - انظر: سعد الله، مرجع سابق، ج1 ص262 وما بعدها.

[4] - انظر: سعد الله، مرجع سابق، ج2 ص117.

[5] - انظر: ديفوكس، ألبير، المؤسّسات الدّينيّة في مدينة الجزائر، الجزائر، 1878م، المقدّمة.

[6] - GOLVIN, Lucien, la mosquée (ses origines, sa morphologie, ses diverses fonctions, son rôle dans la vie musulmane, plus spécialement en Afrique du Nord), Alger-livres éditions, Alger, 2013, p87, 88.

[7] - انظر: سعد الله، مرجع سابق، ج1 ص265.

[8] - انظر: المرجع نفسه، ج5ص127.

[9] - انظر: أحمد بري، ممدوح غالب (2019م)، تاريخ التّصوّف في الدّولة العثمانيّة: الطّريقة البكتاشيّة نموذجا، المركز الدّيمقراطي العربي للدّراسات الإستراتيجيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة، برلين، ألمانيا، ط1: ص59.

[10] - انظر: عبّاس، باسم حمزة (2018)، "التّطوّر التّاريخي للطّريقة البكتاشيّة منذ القرن الرّابع عشر الميلاديّ وحتّى الوقت الحاضر"، مجلّة دراسات تاريخيّة، كلية التّربيّة للبنات، جامعة البصرة، العدد24، حزيران 2018م، ص56.

[11] - عبّاس، باسم حمزة (2018)، "التّطوّر التّاريخي للطّريقة البكتاشيّة منذ القرن الرّابع عشر الميلاديّ وحتّى الوقت الحاضر"، مرجع سابق، ص62، 63.

[12] - انظر: سعد الله، مرجع سابق، ج1 ص227 وما بعدها.

[13] - انظر: سعد الله، مرجع سابق، ج1 ص236.

[14] - انظر: المرجع السّابق، ج1 ص88، 89.

[15] - انظر: المرجع نفسه، ج1 ص 502، 503.

[16] - انظر: المرجع نفسه، ج2 ص138، 139.

[17] - انظر: المرجع نفسه، ج5 ص115، 116.

[18] - انظر: المرجع نفسه، ج1 ص92. وج1 ص270.

[19] - انظر: المرجع نفسه، ج5ص132، 133.

[20] - انظر: دوتي، إدموند، الصلحاء، ص89.

[21] - voir: Douté, Edmond, les marabouts, Alger Livres Editions, Alger, 2008, p72.

[22] - انظر: المرجع نفسه، ج 1 ص189، 190.

[23] - يُذكر أنّ مدينة مرّاكش أيضا تُسمّى بمدينة سبعة رجال، أي سبعة أولياء يحمونها ويحرسونها من كلّ مكروه، وخاصّة الغزو الأجنبيّ؛ منهم سيدي بلعباس، واسمه أبو العبّاس أحمد بن جعفر الخزرجي السّبتي (ق 6 ه)، وتقول الأسطورة أنّه ظهر في معركة وادي المخازن أو الملوك الثّلاثة سنة 1578م على فرس رمادية يستحثّ النّاس على القتال ويشجّع المحاربين، وسمّون أيضا بموالين –أي أهل أو أصحاب- البلاد –مفرده مولى-. (انظر: دوتي، الصّلحاء، ص 82، 83).

[24] - انظر: المرجع نفسه، ج 1 ص461، 464، 465.

[25] - انظر: المرجع نفسه، ج 1 ص271.

[26] - ابن عسكر، دوحة النّاشر، ج1 ص285.

[27] - دوتي، إدموند، الصّلحاء، مرجع سابق، ص31.

[28] - انظر: المرجع السّابق، ص 81، 82.

[29] - المرجع نفسه، ص131.

[30] - باصي، روني، أبحاث في دين الأمايغ، مرجع سابق، ص37.

[31] - انظر: المرجع السّابق، ص48-50.

[32] - انظر: باصي، روني، أبحاث في دين الأمايغ، مرجع سابق، ص68.

[33] - انظر: المرجع نفسه، ج1 ص271.

[34] - انظر: حجي، بليدار (1437ه)، الطّريقة الصّوفيّة البكتاشيّة في ألبانيا عرض ونقد، رسالة ماجستير، كلية الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة، جامعة القصيم، المملكة العربيّة السّعوديّة، ص81.

[35] - هذه الظّاهرة لاحظها المستشرق جولدزيهر، ليس في المغرب الكبير فقط بل في الشّرق الإسلامي أيضا، فقد لاحظ وجود أضرحة تُنسب إلى صحابة ببلدان لم يثبت أنّهم قد دخلوها، مثل وهب بن منبّه بتلمسان، أو سيدي يوشع أيضا، وهو نبيّ بني إسرائيل من أصحاب موسى –عليهم السّلام-، ويعتقدون أنّ الجدار المذكور في سورة الكهف هو جدار تلمسان وغيرها. (دوتي، الصّلحاء، ص86).

[36] - انظر: المرجع نفسه، ج5ص124، 125.

[37] - انظر: خليفة بن عمارة، سيرة البوبكريّة (أجداد أولا سيدي الشّيخ)، تاريخ وهجيوغرافية الجنوب الغربي الجزائري (القرن 14، 15، 16)، ترجمة: محمّد قندوسي، مكتبة جودي مسعود، وهران، ط2، 2002م، ص 29 وما بعدها.

[38] - انظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، المرجع نفسه، ج5ص122، 123.

[39] _ انظر: المرجع نفسه، ج3 ص74، 75.

[40] - انظر: المرجع نفسه، ج4 ص485.

[41] - انظر: المرجع نفسه، ج5ص122.

[42] - انظر: المرجع نفسه، ج5ص128.

الكاتب: **رضوان الأهدب**

مختبر قضايا التجديد في العلوم الإنسانية والإسلامية بالكلية المتعددة التخصصات - الناظور/ المغرب-

عنوان المقال: **الرّحلات الحجازية: رحلة أبي عبد الله الحُضَيكي أنموذجا**

البريد الالكتروني: ridwanelahdeb@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/04/20 **تاريخ القبول:** 2019/09/17 **تاريخ النشر:** 2019/12/31

الرّحلات الحجازية: رحلة أبي عبد الله الحُضَيكي أنموذجا

Hijaz journey : the journey of Abu Abdulah al-Hodaiki as a model

الملخص بالعربية:

يعد أدب الرحلة أحد أهم فنون التأليف، وتشكل الرحلات الحجازية قطبا من أقطاب هذا الفن، وقد هدف هذا البحث إلى الكشف عن ملامح رحلة حجازية كان بطلها الفقيه المغربي "أبو عبد الله الحضيكي" الذي اشتاقت نفسه لزيارة البقاع المقدسة، فاستجاب له ربه وقيض له من يتكلف بنفقات حجه، فاغتنم الفرصة لتسجيل مشاهداته وأطوار رحلته في كتاب سماه: "رحلة إلى الحرمين".

فكيف نسج خيوط رحلته، وحبك تفاصيلها؟ وما هي ملامح رحلته؟ وما الفوائد التي يقطفها قارئ الرحلة..؟

لتحقيق هدف البحث سلك الباحث المنهج الوصفي التحليلي الذي تخلل العناصر الآتية:

– التعريف ببطل الرحلة
– التعريف بالكتاب الذي أرخ للرحلة
– بيان خطة الرحلة ومسارها
– إبراز الفوائد المتنوعة للرحلة

ثم خلص الباحث إلى بعض النتائج عرضها في الخاتمة.

الكلمات المفتاحية: الرحلة الحجازية - حمد بن أحمد الحضيكي – الفوائد – الجوانب

Abstract :

The literature of the journey is one of the most important art of authorship, and Hijaz journeys constitute a pople of this art . The aim of this research was to reveal the features of a Hijazian journey whose hero was the Moroccan jurist Abu Abdullah al-Hodaiki, who longed to visit the holy sites, Allah responded to him and sent him someone to pay the charges of the pilgrimage. He took the opportunity to record his observations and stages of his journey in a book the called "A journey to the two holy Mosques"

So, how did he organize every detail about his journey ? What are the features of his journey ? What are the benefits beyond reading such a work ?

To achieve the purpose of this paper, the researcher a descriptive analytical method that contains the following elements :

- Characterizing the journey's hero
- Introducing the book that antedate to the journey
- Depicting the journey's plan and its pathway
- Highlight the various benefits of the trip

Then the researcher came up to some of the results that he presented in the conclusion, including :

- The journey of Abi Abdullah Al-Hodaiki is worshiping-scientific, wich indicates that worchip is only realized through science, and science must be followed by action.
- The journey of Abu Abdullah Al-hodaiki is an imprtant source of literary texts : poetry and prose.

- The style of Abi Abdullah Al-hodaiki is characterized by clarity, the beauty of expression, the simplicity of sentences, and avoiding affectation.
- His dependence on the communicative function as a technique of narration adopted in the literature of journey's in order to raise the reader's attention.
- The method of historical writing in the Al-hodaiki depends on observation and inseption, criticism, and scrutiny of description, and benefit from the books of Moroccan travellers.
- His interest in the Hadiths, which led him to employ only correct or accepted Hadiths, and to ignore the Hadiths that have been set.
- He was Maliki in Islamic jurisprudence and Acharii in the doctrine.

key words : Keywords : The Hijazian journey – Mohammed Bin Ahmed Al-hodaiki – Benefits – Aspects.

مقدمة:

تعتبر الرحلات الحجازية نوعا من أنواع أدب الرحلة العربية، التي اهتمت بوصف رحلات المسلمين إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، ووصف مناسك الحج ومشاعر الحجاج وهم يؤدونها. وقد ازدهر هذا اللون من النصوص في الأدب العربي ازدهارا كبيرا، وانتشر عبر القرون.

وقد اهتم المغاربيون بهذا النوع من الرحلات، أذكر منهم من تونس: محمد الجودي التميمي القيرواني، محمد بن عثمان السنوسي.. ومن الجزائر: أبو حامد المشرفي، الحسين بن محمد الورثيلاني، أبو العباس سيدي أحمد بن عمار، عبد الله بن عمر البسكري، محمد بن العامري التلمساني، أحمد بن قاسم البوني..، ومن المغرب: أبو عبد الله بن رشيد الفهري، محمد بن أحمد القيسي، أبو سالم العياشي، أبو العباس أحمد القدري.. ومن موريتانيا: الشيخ ماء العينين، محمد الأمين الشنقيطي، محمد حبيب الله الجكني، محمد محمود التركزي، محمد يحيى الولاتي..[1]

وسأحاول في هذا البحث أن أسلط الضوء على رحلة الفقيه المغربي أبي عبد الله الحُضَيكي السوسي من خلال كتابه "**الرحلة الحجازية**".

- **التعريف بصاحب الرحلة:**

أبو عبد الله محمد بن أحمد الجزولي قبيلة، الحُضَيكي شهرة، الشاذلي طريقة، أحد أعلام سوس، ولد سنة 1118هـ، وبها نشأ ودرس، ثم طاف المغرب بحثا عن الشيوخ فأخذ عن عبد الله بن ابراهيم الجرسيفي، وأبي العباس الصوابي، وابن عبد القوي السلجامي، وأحمد بن محمد العباسي،وصالح بن محمد الحبيب السجلماسي، وأبي العباس الورزازي، وكَاتَب من لم يلقه فحصل على الإجازات الكثيرة من المغرب والمشرق، فأصبح مُسند سوس على عهده. اشتهر بعلمه الغزير ورواياته الواسعة، فجلس للإقراء و الإسماع واستجازه معاصروه، ورحلوا للأخذ عنه، وكثر بذلك تلاميذه، وتنوعت معارفه فشملت الحديث والفقه والسيرة والتاريخ والنحو واللغة وطبقات الرجال.. وقد توفي رحمه الله سنة 1189هـ تاركا مؤلفات كثيرة منها:

- ✓ مناقب الحضيكي
- ✓ شرح الرسالة القيروانية
- ✓ مصابيح الإصابة في تعريف الصحابة
- ✓ شرح الهمزية
- ✓ شرح الشفا
- ✓ طبقات علماء سوس
- ✓ شرح البخاري
- ✓ مجموعة أجوبة فقهية
- ✓ مجموعة في أصول الطريقة الصوفية
- ✓ شرح الطرفة في اصطلاح الحديث
- ✓ والرحلة الحجازية التي بين أيدينا[2]

قال عنه صاحب الإعلام:" كان رحمه الله عديم النظير في زمانه، ورعا متبعا للسنة، عارفا بالسير والحديث، أخذ في كل فن من الفنون بنصيب، جمع بين شرفي العلم والولاية، وكانت معه هيبة، مآثره كثيرة وكراماته

خطيرة.[3]

ومما قيل عنه في شهادة بعض تلاميذه: "كان عديم النظير في زمانه ورعاً ونزاهة، وعلماً ونباهة، له اليد الطولى في علم السير والحديث وإليه المفزع في ذلك، وانفرد من أهل زمانه بمعرفة تاريخ الملوك والسير والعلماء وطبقاتهم ومعرفة أيامهم، بحيث لا يجارى في ذلك ولا يبارى، شديد الاتباع للسنة في سائر أحواله حتى في لباسه وأكله وفي أنواع العبادات والعادات، سالكاً مسلك ابن أبي جمرة وابن الحاج وأضرابهم، مثابراً على التعليم مكباً على المطالعة قائماً على البخاري وغيره من كتب الحديث."[4]

- **تجنيس رحلة الحضيكي:**

تنتمي رحلة أبي عبد الله الحضيكي إلى جنس الرحلة الحجازية كما يظهر من عنوانها، وقد برع أهل الغرب الإسلامي قديما وحديثا في هذا الجنس الأدبي، ولعل إطلالة سريعة على كتاب "المختار من الرحلات الحجازية" لمحمد بن موسى الشريف، أو كتاب "الرحلة إلى مكة: مائة رحلة مغربية ورحلة" لعبد الهادي التازي تكفينا لمعرفة تفوق المغاربة في هذا الفن.

- **التعريف بالكتاب[5]:**

صدر كتاب الرحلة الحجازية لأبي عبد الله محمد الحضيكي عن مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث التابع للرابطة المحمدية للعلماء، الطبعة الأولى عام 2011م- في 2000نسخة -، حققها الدكتور عبد العالي لمدبر معتمدا على نسختين مخطوطتين في الخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط، مكتوبتين بخط مغربي مقروء، وتضم النسخة الاولى 27 ورقة، مقياس: 22×17 سم، وتضم النسخة الثانية 32 ورقة، مقياس 23×18[6]، وهما تبتدئان بقول الناسخ: "هذه رحلة الشيخ الولي الكبير الزاهد الصوفي العلامة الشهير أبي عبد

الله محمد بن أحمد الحضيكي، ثم الأيسي... وتنتهي بقوله: وأخبار مصر لا تنحصر، ولقد وضع أصحاب التاريخ عليها تآليف عديدة في عجائبها اللذيذة".

ويعتبر هذا الكتاب من أهم الوثائق التي توثق لرحلات العلماء المغاربة المتأخرين نحو الحجاز، فكان مُثريا لمكتبة أدب الرحلات.

- **ظروف الرحلة ومقصدية التأليف:**

كان الشيخ الحضيكي شديد الحرص على أداء فريضة الحج، إلا أن الخصاصة منعته، ولم يجد إلى ذلك سبيلا، فاستبدله بالشوق والحنين، واستعاض عنه بالتعلق الروحي ولسان حاله ينشد:

إني مشوق إلى أرض البقيع عسى * أرى ضريحك من قبل انقضا أجلي[7]

فاستجاب الله لاشتياقه ومناجاته؛ إذ تطوع ابن عمه - بعد مرض ألمّ به - وتكلف بمصاريف الرحلة في آخر لحظات استعداد الركب للخروج[8]

وقد كان الهدف الرئيسي من تسجيله لمحطات هذه الرحلة المباركة هو شوقه لذكر مشايخه، خاصة وأنه مولع بهذا الجانب كما يظهر من تآليفه: مناقب الحضيكي، والفهرست، يقول مصرحا بذلك: "المراد ذكر جماعة ممن لقيناهم من العلماء في الحضر والسفر، رجاء من الله عظيم البركة، وشمول الرحمة عند ذكرهم، وانخراطا في سلكهم، لوفور محبتي لهم، ولعظيم شوقي ولعظيم شوقي إليهم، فالمرء مع من أحب، تأنيسا لنفسي وتأسيا بهم.."[9]

وبهذا جمع الشيخ الحضيكي بين الرحلة في طلب العلم، والرحلة لأداء مناسك الحج. فجاءت هذه الرحلة في أسلوب سردي وصفي رفيع، يقوم على الإيجاز والاختصار.

- **المسار العام للرحلة:**

انطلق الرَّكب سنة 1152هـ/1740م، نحو سلجماسة، فالقنادسة وبلاد فكيك، ليسلك الطريق المعتاد عند الحجاج، مرورا بأقاليم الشمال الافريقي كالنخيلة وعين ماضي، والأغواط، وبسكرة، وقابس، وجربة، وطرابلس، وبرقة.

ولما وصل الركب مصر، توقفوا بمدن وقرى كثيرة في طليعتها: المنصورية، وبِلاق، والسويس، ومنها عبروا إلى الجزيرة العربية، فمروا بمراكز كثيرة منها العقبة، وآيلة، والشرفات، ومغارة شعيب، والحوراء، والنّبَط، والينبع، وبدرحنين، والبزوة إلى أن وصلوا

قرية رابغ حيث محل الإحرام، واستأنفوا مسيرهم عبر اتجاه الجحفة، وعسفان إلى أن دخلوا من أعلى مكة، فشرعوا في أداء مناسك الحج، وبعد ذلك قصدوا زيارة المدينة المنورة وتحدث عنها صاحبنا حديثا طويلا.

وعبر نفس الطريق عاد الحضيكي مع بعض رفاقه من طلبة سوس حيث توقف بمصر، والتحق بالأزهر لمتابعة الدراسة. فكان الأزهر والنيل آخر ما تحدث عنه في رحلته.

- **فوائد الرحلة:**

لاشك أن أهم فائدة لهذه الرحلة الحجازية تتمثل في تحقيق الاتصال الثقافي بين المغرب والمشرق، وتجسيد الوحدة الإسلامية بينهما. ولعل المتصفح لها سيستفيد من تلك المعلومات والأخبار التي حوتها الرحلة في مختلف الجوانب:

- الجانب العلمي:

لم يكن من عادة الرحالة المغاربة أن يصدروا مؤلفاتهم الرِّحلية بجرد أسماء شيوخهم وأساتذتهم، غير أن الحضيكي كان بِدعا في ذلك - ولعل هذا كاف في إيضاح الخلفية الصوفية التي يصدر عنها - فبدأ رحلته بالحديث عن شيوخه المغاربة كأبي العباس الصوابي، وعبد الله الرسموكي، ومحمد بن الحسن الحامدي، وأبي العباس الإبراهيمي، ومحمد الدرعى، ومحمد بن علي الإندوزالي، والحسين الشربيلي وغيرهم[10]. وخلال الرحلة يستعرض ما استفاده من شيوخ المشرق كالشيخ أحمد الإسكندري الذي حضر عنده مختصر خليل ورسالة بن أبي زيد ...، وأحمد العماوي الدمرداشي الذي أخذ عنه الخزرجية على علم العروض، وأصول الفقه لابن السبكي، والشيخ الجوهري الذي حضر عنده السلم للأخضري، والقائمة طويلة[11].ذ

إن الحضيكي وهو يذكر شيوخه لا يكتفي بتعريف القارئ بأسمائهم، بل يصور مناقبهم، ويصف أخلاقهم، ويقف عند الأحداث والمحن التي أثرت في مسيرتهم، كل ذلك من أجل التأثير في المتلقي، وشحذ هممه، وشحنه بالطاقة الإيجابية، ومده بسطور من صبر العلماء.

- الجانب الجغرافي:

لا تكاد تخلو نصوص الرحلة بشتى أنواعها من إشارات جغرافية تتعلق ببلاد الانطلاق والعبور، بما أن الرحلة انتقال في الزمان والمكان، وبهذه الشاكلة تحضر في رحلة الحضيكي معطيات جغرافية مهمة عبر أوصاف ومشاهد يسوقها الكاتب بين الفينة والأخرى، فإلى جانب وصفه لأماكن معلومة عند كثير من الناس كالحرم المكي، والمسجد النبوي وقبور الصحابة...فإنه يعرف بمختلف البلاد التي مرت بها الرحلة ويذكر سبب تسميتها، ويصفها وصفا مختصرا كوصفه لسجلماسة[12]، والقنادسة، وفكيك، وباسمغون، والغاسول، والنخيلة[13]، وقرية عين ماضي التي يصف جغرافيتها فيقول عنها: "فيها أجنة تين وعنب، محفوفة بالحوائط والزروب، وللقرية كذلك سور ممنوع[14]". وعن مدينة جربة و طرابلس يقول:" فارتحلنا وسرنا بساحل البحر، ومدينة جربة على يسارنا، وسط البحر لايُعبر إلا بالسفن، وهي ذات نخيل وفواكه ومياه كثيرة...ونزلنا بعد أيام قرى بها نخيل يقال لها: الزوارات الغربيات إلى ناحية الغرب، والشرقيات إلى ناحية الشرق، وهي مبدأ عمالة طرابلس، وقابس وتوزر من عمالة تونس، وبسكرة من عمالة الجزائر...ثم نزلنا طرابلس، مدينة كبيرة على شاطئ البحر، تضرب الأمواج بسورها، كثيرة المزارع والبساتين والفواكه بأنواعها، تشتمل على أسواق ومساجد وجوامع.."[15]

ولا ينسى حين يمر ببعض المناطق أن يحيل إلى الآيات القرآنية المرتبطة بها، وصنيعه هذا أسميه بالتفسير الجغرافي والميداني للقرآن الكريم كقوله: "وهناك قرية خربت، وهي أيلة، قيل: هي المراد بقوله تعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾[16].

- الجانب التاريخي:

يعتبر التاريخ مكونا مهما من مكونات الخطاب الرِّحلي، ونلمس في رحلة الحضيكي معطيات تاريخية مهمة سواء كانت تتعلق بالأشخاص أو الأماكن، ولهذا نجده يكثر من ذكر تراجم أشياخه من المغاربة والمشارقة، كما تحدث عن بعض المواقع التاريخية التي أجاز التبرك بها "كالبيت الذي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جعلته الخيزران جارية المهدي مسجد يصلى فيه، وأخرجته من الدار إلى الزقاق الذي يقال له: زقاق المولد. ومنزل خديجة عليها السلام، الذي كان يسكنه الرسول صلى الله عليه وسلم وخديجة، وفيه ولدت أولادها منه، وفيه توفيت خديجة، ولم يزل النبي مقيما به حتى هاجر، فأخذه عقيل، ثم اشتراه منه معاوية، فجعله مسجدا يصلى فيه وبناه."[17] وكذا بعض الآثار النبوية، فيقول

عن منبر النبي صلى الله عليه وسلم: "..فقد احترق في جملة حريق المسجد سنة أربع وخمسين وستمائة، ودثر وأخذ ما بقي من أعواده، فعملت أمشاطا للتبرك، ولم يبق له أثر الآن بالكلية"[18]، كما تحدث عن مشاهد البقيع وقبور الصحابة وآل البيت النبوي[19]، وعدد المساجد التاريخية - مبينا سبب تسميتها - التي مرّ عليها في طريقه سواء بمكة كمسجد دار الأرقم، ومسجد الجن، ومسجد الشجرة، ومسجد الكبش...[20] أو بالمدينة كمسجد قباء، والجمعة، الفضيخ، وقريظة، وبني ظفر، والإجابة، والقبلتين، ومسجد الفتح.[21]

➢ الجانب الاقتصادي:

أشار الحضيكي إلى بعض المسائل الاقتصادية كصرف الدراهم إلى ذهب تبراً أو مسكوكاً مبرزا فائدة هذا الصرف.[22] وكذا تلك البضائع المعروضة في الأسواق التي مر عليها كالكحل، والشب، والعطرية، والكبريت، والمشط، والمرآة، والجلود المدبوغة، والنعال، واللحم، والخضر، والفواكه...ورحالتنا حين يستعرض هذه السلع فإنه ينبه إلى ضابط يراه مهما في المجال الاقتصادي وهو: "فلا تبيعن شيئا من ذلك للنساء المفتنات، واحذر ما تفعله عامة الحجاج وسفلتهم من مخالطتهم مع نساء العرب، ومعاملتهم لهن، واختلائهم بهن، ومضاحكتهم إياهن، إياك ! وارتقب الشاهد ربك".[23]

في هذا النص ينتقد الحضيكي تصرفات مشينة لبعض الحجاج قد تخدش مروءتهم، وتؤثر على صحة نية حجهم. أما الضابط الاقتصادي الذي نبه إليه فهو ألا يكون هدف الربح المادي على حساب قيمتي العفة والحياء، وللأسف هذا الضابط هو ما يفتقد إليه التجار اليوم حيث يهتمون بالجانب المادي على حساب الأخلاق ودون مراعاة مآل وآثار بضائعهم.

➢ الجانب الاجتماعي:

ضمّن الحضيكي رحلته جملة من الارتسامات الاجتماعية التي لاحظها على أهل بعض المناطق، كقوله عن أميري مصر والشام وأهل مكة:" وقد كانت الغيرة والافتخار بين أميري مصر والشام، كل يفاخر صاحبه بالقوة، والشدة، وكثرة العدد، وسعة الأموال من القناطر المقنطرة، غير أن الشامي أكثر مالا، وأسخى من بذل، وأحنى على المساكين من المصري...وأهل مكة: أهل جود وكرم، وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشرة، وألوانهم إلى الأدمة واضحة.."[24]
ولا ينسى صاحبنا أن يلفت نظرنا إلى بعض العادات الاجتماعية الغالبة على بعض المناطق

كقرية عين ماضي:" ويخرج النساء للتسوق مع الحجاج، ولايبيع ولايشتري في تلك البلاد إلا النساء"[25]، وكذا ظاهرة غلبة النساء وضعف التدين:" وانت ترى نساءهم كذلك متبرجات بزينتهن، لا حياء معهن ولا دين، متغلبات عليهم."[26] بل إنه يسجل أخص خصوصياتهن فيقول:" وحكي أنهن لا يصلين أصلا ولا يغتسلن من الحيض ولا من الجنابة، مخافة من الماء مع أنهم ادعوا الشرف."[27]

➢ الجانب النُّصحي:

تعد الرحلة تجربة فريدة يعيشها الرحالة، ولاشك أن النصيحة تكون مؤثرة وفعالة إذا تمخضت عن تجربة، ومن هنا لم يبخل كثير من الرحالة على قرائهم بالنصائح والتوجيهات، هكذا نجد صاحبنا الحضيكي في بعض المواضع ينصح العازمين على الحج بأن يختاروا الرفيق قبل الطريق، وأن يكون هذا الرفيق قويا، أمينا، صحيحا، وفي ذلك يقول: "ثم اعلم أيها الأخ أن من الأهم في ذاك الطريق أن تستعد وتختار أصحابا أمناء أقوياء أصحاء تعاشرهم ثلاثة وأنت رابعهم[28]، وفي الحديث: «التمس الرفيق قبل الطريق» ومرافقة الأخيار ومصاحبتهم سنة العقلاء."[29]

كما ينصح قراءه فيقول:"..وعليك أيها الأخ بمكارم الأخلاق، وحسن المعاشرة والصبر، وتحمل الأذى في طريقك مع الحجاج، والخدام والجمالين، فإن هذا الطريق طويل، ينال فيه المشقة القوي والضعيف، يحتاج إلى زيادة صبر واحتمال، لاسيما مع البداوة الجمالين، فإنهم يحرصون على استخراج أدنى شيء منك، وارع دينك، وصن عرضك ومالك، واحفظ مروءتك، ولا تتعاط معهم المساوئ، فإنهم أشحاء على الخير، وألسنتهم حداد، ووفّ إليهم كراءهم، ثم أحسن إليهم ولو بقليل من طعامك، تفز بالأجر من الله، ومن الرحمة منهم، وألن جانبك ولاتغلُظ."[30]

➢ الجانب الوجداني:

من أهم ما يميز الرحلات الحجازية كونها مفعمة ومثقلة بالجانب العاطفي والوجداني، حيث يعمد الرحالة إلى وصف مشاعره الشخصية، ومشاعر الحجاج وهم يؤدون مناسك الحج، أو يمرون على الأماكن المقدسة، ورحالتنا الحضيكي هو الآخر نحى هذا

المنحى في كتابه، نحو وصفه لحظة الوصول البيت الحرام: "ودخلنا من أعلى مكة مسرعين نحو البيت في شدة الفرح والخجل.."[31].

نلاحظ أن الحضيكي عبّر عن شعورين مختلفين اختلجا صدره وهما: الفرح والخجل؛ فقد أحس بالفرح عند رؤيته للكعبة وهو إحساس طبيعي يحس به كل من يعظم ويحب شعائر الله، وفي الوقت نفسه أحس بالخجل، وهو ايضا إحساس طبيعي بالنسبة لكل مؤمن يستحيي من الله، ويعترف بتقصيره في جنبه عز وجل، هذا التقصير الذي ما انفك صاحبنا يشعر به ويتمثل في شأنه شعرا:

وما لي لا أنوح على خطائي * وقد بارزت جبار السماء

قرأت كتابه وعصيت سـرا * لعظم بليتي ولشـؤم رأيي

بلائي لا يقاسـيه بـــلاء * وآفاتي تدل على شقائي

فيا ذُلّي إذا ما قال ربي إلى * النيران سوقوا ذا المرائـي

فهذا كان يعصيـني مـرارا * ويزعم أنه من أوليــائي

وعند السعي بين الصفا والمروة لا يخفي الحضيكي بهجة الناس وسرورهم في هذا اليوم، فيقول: "ولا يخفى عليك أيها الأخ حال الناس ذلك اليوم، من بسط وابتهاج، واستبشار وانشراح وابتهاج.."[32]

وعن حال الناس يوم عرفة يقول: "ثم إن الناس في غاية المسألة، وكثرة الإلحاح، والتضرع والإلحاف على ربهم، وجلين خائفين.."[33]

- الجانب الفقهي والحديثي والعقدي:

إذا علمنا أن الامام الحضيكي يعتبر من علماء المذهب المالكي، وله مؤلفات في فن الفقه، فإننا لا نستغرب إيراده في رحلته لكثير من القضايا الفقهية المتعلقة بمناسك الحج وآدابه، واستدعائه لأمهات الكتب الفقهية المالكية كالمدونة والعتبية، من ذلك قوله: "سئل مالك هل يقرأ الرجل في الطواف بالبيت الواجب عليه ويتحدث مع الرجل؟ فقال: لا أحب ذلك..وفي المدونة: كان مالك يوسع فيما خف من الحديث في الطواف، ولا ينشد فيه شعرا."[34]

ولتقف على عنايته بالأحكام الفقهية تأمل ما ذكره عن اختلاف الفقهاء في حكم الطواف بعد الصبح والعصر.[35]

ولا يغفل صاحبنا عن الاستشهاد بالأحاديث النبوية كلما سنحت له الفرصة فمثلا عندما يتحدث عن فضل مكة يدعم قوله بالحديث المتفق عليه: "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والارض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده."[36] ويبدو لنا جليا عنايته بالصناعة الحديثية عندما يستعرض أقوال المحدثين وهم يتكلمون في الحديث من جهة تضعيفه وتصحيحه، كما صنع مع أحاديث الحجر الأسود.[37]

وبالرغم من أن الحضيكي لم يصرح في كتابه بانتمائه إلى الأشعرية إلا أنه يمكن استشفاف ذلك من بعض أقواله، فمثلا عند ذكره لحديث ابن عباس الموقوف: "الركن الأسود يمين الله يصافح به عباده، كما يصافح أحدكم أخاه" فإنه يستشهد بشرح ابن فورك: "أن الحجر من نعم الله تعالى؛ لأن العرب تعبر عن النعم باليمين واليد، جعله الله نعمة وسببا للثواب والأجر لمن صافحه، وقربة إليه سبحانه لمن استلمه."[38]

هذا الشرح هو شرح تأويلي لصفات الله تعالى، ومن المعلوم أن الأشاعرة يؤولون الصفات الخبرية كتأويلهم اليد بالنعمة والقدرة، خلافا للسلف الذي يثبتونها من غير تكييف أو تشبيه، ويفوضون العلم بمعناها إلى الله تعالى.

وفي تعليقه على أثر عمر بن الخطاب رضي الله عنه حول تقبيل الحجر الأسود، يستشهد بكلام القاضي عياض: "وإن تقبيل الحجر ليس عبادة له بل لله تعالى بامتثال أمره فيه كما أمر بسجود الملائكة لآدم، وشرع مع ذلك التكبير للناس إظهارا أن ذلك تذللا لا لغيره، وأن التحسين والتقبيح من قبل الشارع لا من قبل العقل.."[39]

ومن المعلوم أن مقالة الأشعريين في مسألة التحسين والتقبيح؛ أن العقل لا يدل على حسن شيء، ولا على قبحه قبل ورود الشرع، وإنما يتلقى التحسين والتقبيح من موارد الشرع.

خاتمة:

كل هذه الجوانب تطرق إليها بأسلوب مبسط، موجز، سهل، سلس، فكانت هذه الفوائد القيمة من تلك الرحلة الشائقة.

وفي ختام هذا البحث يمكن تسجيل النتائج الآتية:

- رحلة أبي عبد الله الحضيكي تعبدية – علمية، وهو ما يدل على أن العبادة لا تكون إلا عن علم، والعلم لابد أن يتبعه العمل.

- تعتبر رحلة أبي عبد الله الحضيكي مصدرا مهما للنصوص الأدبية شعرا ونثرا.

- تميز أسلوب أبي عبد الله الحضيكي بوضوح الفكرة، وجمال التعبير، وبساطة الجملة، والسلامة من التكلف والتصنع.
- اعتماده على الوظيفة التواصلية كتقنية من تقنيات السرد المعتمدة في أدب الرحلات من أجل إثارة انتباه القارئ.
- منهج الكتابة التاريخية عند الحضيكي يعتمد على المعاينة والمشاهدة، والنقد، ودقة الوصف، والإفادة من كتب الرحالة المغاربة كابن رشيد السبتي.
- علو كعب الحضيكي في الجانب الفقهي المتمثل في استحضار أقوال الفقهاء، وأمهات المصادر الفقهية.
- اهتمامه بصناعة الحديث مما جعله لا يوظف إلا الأحاديث الحسنة أو الصحيحة، ويتجاهل الأحاديث الموضوعة.
- مسألة الولاء والبراء جعلت الحضيكي يدعو على بعض الرهبان في طريق رحلته باللعنة، والمفروض أنه لا تلازم بين الولاء والبراء وبين الدعاء على المخالفين في العقيدة، بل المطلوب الدعاء لهم بالهداية.

الهوامش:

(1) للاطلاع على أسماء الرحالة المغاربين راجع فهرست: الرحلات الحجازية المغاربية: المغاربة الاعلام في البلد الحرام، حفناوي بعلي، دار اليازوري، ط 1، 2017م، وانظر فهرست: الرحلات في المغرب الأقصى: مصدر من مصادر تاريخ الحجاز، عواطف نواب، دارة الملك عبد العزيز، بدون طبعة، سنة النشر: 2008م، وأدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، الحسن الشاهدي، منشورات عكاظ، الرباط، بدون تاريخ وبدون طبعة.

(2) انظر ترجمته في: فهارس علماء المغرب منذ النشأة الى ق 12هـ، عبدالله المرابط الترغي، ط 1، 1999م، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان، ص:409 وما بعدها، وانظر مؤلفاته في: سوس العالمة، محمد المختار السوسي، طبعة: 1960م، مطبعة فضالة، المحمدية، ص:197

(3) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام: العباس السملالي، ط 2: 1993م، المطبعة الملكية، الرباط ،ص:82/6 –بتصرف -

(4) فهرس الفهارس، عبد الحي الكتاني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1982، 352-351/1

(5) توجد نسخة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم: د/996/2،انظر: مكة المكرمة في مائة رحلة مغربية ورحلة، عبد الهادي التازي، مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي، الرياض،2005م، ص:371

[6] الرحلة الحجازية: محمد بن أحمد الحضيكي، تحقيق: عبد العالي لمدبر، ط1،2011م، منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرباط، ص:45.

[7] المرجع نفسه، ص:76.

[8] انظر قصة ذلك- وكيف عبر عن سعادته الغامرة بهذا الخبر الذي لم يكن يخطر على باله- في الرحلة الحجازية، ص: 76، 77

[9] المرجع نفسه، ص:57.

[10] المرجع نفسه، ص:59- 64 ومابعدها

[11] المرجع نفسه، ص:177 وما بعدها

[12] انظر المرجع نفسه، ص:80

[13] نفسه، ص:83

[14] نفسه، ص:84

[15] نفسه، ص:88

[16] سورة الأعراف، الآية 163

[17] نفسه، ص: 137

[18] نفسه، ص: 157

[19] انظر المرجع نفسه، الصفحات: 157- 162

[20] المرجع نفسه، ص:137-138

[21] المرجع نفسه، الصفحات: 162- 164

[22] انظر المرجع نفسه، ص:81

[23] المرجع نفسه

[24] المرجع نفسه، ص:105

[25] نفسه، ص:84

[26] نفسه، ص:84

[27] نفسه، ص:84

[28] خص الحضيكي عدد المرافقين في الرحلة بأربعة حتى يسهل تدبير شؤون الرحلة، ويقل الخلاف بينهم..وهذا يدل على تجربته وخبرته بأمور السفر

[29] نفسه، ص:80

[30] نفسه، ص:89-90

[31] نفسه، ص: 99

[32] نفسه، ص: 100

(33) نفسه، ص: 102

(34) نفسه، ص: 121- 122

(35) انظر المرجع نفسه، الصفحات: 126-127-128

(36) نفسه، ص: 106

(37) انظر المرجع نفسه، الصفحات: 111-112-113

(38) نفسه، ص: 112

(39) نفسه، ص: 113

الكاتب: عبد العزيز احديبي

أستاد باحث بسلك الذكتوراه ، كلية الآداب والعوم الإنسانية ابن زهر أكادير، المغرب

عنوان المقال: **الغريب والعجيب في المجاعات التي ضربت المغرب ما بين القرن الخامس عشرونهاية القرن التاسع عشر.**

البريد الالكتروني: Abdelaziz.ahdibi@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/02/15 **تاريخ القبول**: 2019/06/15 **تاريخ النشر**: 2019/12/31

الغريب والعجيب في المجاعات التي ضربت المغرب ما بين القرن الخامس عشرونهاية القرن التاسع عشرونهاية القرن التاسع عشر.

الملخص بالعربية:

عانى المغرب طيلة تاريخه من موجات متكررة من المجاعات والأوبئة خلفت نتائج كارثية على بناه الاقتصادية والاجتماعية، والديمغرافية . يسلط هذا المقال الضوء على إبراز بعض الظواهر والسلوكات العجيبة والغريبة التي صاحبت المجاعات المتكررة التي ضربت المغرب من القرن الخامس عشر الى نهاية القرن التاسع عشر، فبسبب الجوع كان الانسان المغربي يظطر الى أكل النباتات، والجراد، وأكثر من ذلك أكل الميتة، وأكل البشر، ومن الغريب أن أزمة الضمير هاته جعلته يبيع أقاربه وحتى نفسه ويجعل من نفسه عبدا في خدمة غيره، أو يتخلى عن دينه مقابل كسرة خبز .

كلمات مفتاحية:

الكلمات المفاتيح : المجاعة، الجفاف

Abstract :

Abstract:Throughout its history, Morocco faced successive famines that resulted in disastrous effects on its economic, social, and demographic infrastructures. the aim of this article is to shed light on some of the weird and strange phenomena and behaviours which were witnessed during those frequent famines that struck Morocco between the fifteenth century and the end of the nineteenth century.

Key words : famine, drought

عرف المغرب عبر تاريخه موجات من المجاعات والأوبئة العنيفة، والمدمرة التي ضربت البلاد والعباد، وخلفت نتائج كارثية على مستوى بنياته الاقتصادية والاجتماعية وأيضا الديمغرافية، وكان لها وقعا على المستوى السكولوجي والذهني .

لقد ساهم موقع المغرب الجغرافي، وتواجده في منطقة تتميز بسيادة مناخٍ جاف، وشبه جاف ماعاد المنطقة الشمالية التي تتميز بمناخ رطب نوعا ما في تعرضه المتواتر لموجات الجفاف التي تدوم لسنوات نتيجة انحباس المطر، مما خلف جفاف الآبار، والعيون، وتراجع الوديان، وبالتالي قحولة الأراضي، وما نتج عن ذلك من تراجع المحاصيل وانعدامها وبالتالي، حدوث المجاعة .

ولعل ما زاد الأوضاع تأزما هو استعمال وسائل الإنتاج تقليدية، وبدائية وانتشار الملكيات الصغيرة، مما جعل الفلاحة(النشاط الرئيسي)، والفلاح عرضة للتقلبات المناخية، والخضوع لسلطة الطبيعة، التي لا تنفع معها كل الأساليب المبتكرة لرد القدر الذي لا رد لهفي ظل ظروف سياسية سماتها العامة عدم الاستقرار إلا مؤقتا . فيقصد المواطن الأولياء بمختلف درجاتهم، ومكانتهم، والزوايا، ويصلي الاستسقاء لمرات دون جدوى(2)، ليواجه مصيره المحتوم؛ أي مواجهة القحط، والاقتيات على النباتات وغيرها أو الموت جوعا.

وقد خصص العديد من المؤرخين كتابات اهتمت أساسا بالمجاعات والأوبئة التي اجتاحت المغرب في مراحل وأزمنة مختلفة، منذ العصور الوسطى، مرورا بالقرنين السادس عشر والسابع عشر، في دراسة برنار روزنبركي وحميد التريكي، والدراسة القيمة للمرحوم لمحمد الأمين البزاز حول مجاعات وأوبئة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وغيرها من الكتابات والمقالات الأخرى، وقد فصل أصحابها في شرح هذه المجاعات والأوبئة، ومظاهرها، وماتخلفه من نتائج على جميع المستويات، الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية والديمغرافية والسيكولوجية .

ليس هدفنا إعادة ماجاء في هذه الدراسات، والحديث عن الأوبئة والمجاعات فهذا عمل أنجز في جزء كبير منه على الأقل في الفترات التي تناولتها البحوث المذكورة، وما نسعى إلى إبرازه يقتصر على بعض الظواهر والسلوكات الغريبة والعجيبة التي تصاحب هذه الأزمات والتي اكتفت الدراسات بالإشارة إليه في نقط عابرة، وبشكل سريع ونود إبرازها.

نشير بداية أن فترات الأزمات هذه، كانت تبرز بعض الممارسات غير المتوقعة، والغريبة في المدن، والأرياف المغربية، وهي نتيجة لهذه الأزمة نفسها، وإجابة اضطرارية عنها، تبين الوضع المأزوم الذي وصل إليه الإنسان خلال هذه المرحلة الصعبة .

عرف المغرب في هذه الفترة موجات متكررة من المجاعات المدمرة، التي عمت مختلف بقاع البلاد، ولم تسلم منها أي جهة، ويمكن أن نعطي عنها لمحة تاريخية مختصرة : "فمن سوء حظ مغاربة القرن السادس عشر، تزامنت هذه الفتن مع فترات طويلة من الجفاف والمجاعات.لقد عرف ذلك القرن(السادس عشر) إحدى عشرة سنة من الجفاف نذكر منها سنوات: 1511و1517و1519و1520و1540 . ولم يكن القرن التالي أحسن حالا إذ عرف في المجموع 27 سنة بدون مطر.وكانت المجاعات والأوبئة وموت الإنسان والأنعام أهم نتائج تلك السنوات العجاف الطويلة[3]. وهذا جدول يلخص أهم موجات الجفاف والمجاعة خلال الفترة موضوع المقال:

جدول رقم 1: جرد للجفاف والمجاعات التي ضربت المغرب من القرن 15 الى نهاية 19 م[4]

السنة	نوع الجفاف وبعض مخلفاته	المناطق التي تعرضت للجفاف	المصادر التاريخية
1496	جفاف،قحط،، وباء الطاعون	مجموع البلاد، وواحات الجنوب	A.G Martin+ CH.Bois
1519-1522	جفاف قوي، مجاعة ووباء	المغرب، اسبانيا، البرتغال	أحمد الناصيري
1541	جفاف وقحط	مجموع المغرب، الجنوب المغربي	هنري دي كاستري، إبن عسكر
1552-1553	جفاف كبير	تادلة، الحوز، سوس، فاس ونواحيها	إبن عسكر، CH.BOIS اعتماد على وثيقة لأحد يهود فاس
1579	جفاف قوي، مجاعة، وباء	سوس والجنوب الغربي	محمد اليفراني، أحمد الناصري
1603	جفاف، مجاعة، وباء	مجموع البلاد، فاس ونواحيها	الناصري، الموسوعة الاستعمارية
1607	جدب وقحط	مراكش والنواحي	السعدي(مؤرخ

			سوداني)
1608	جفاف حاد، قحط، وباء الطاعون	التوات وجنوب البلاد	A.G Martin+CH.Bois
1613-1614	جفاف كبير ومجاعة	فاس وسائر أنحاء البلاد	L .Raynaud
1626-1628	جفاف قوي، مجاعة وباء	مراكش وسائر أنحاء البلاد	هنري دي كاستري، محمد اليفراني
1634-1635	جفاف وقحط	مجموع المغرب	القادري (نشر المثاني)
1649-1650	جفاف وقحط	مجموع المغرب	القادري، محمد اليفراني
1651-1653	جفاف، قحط، غلاء الأسعار	مجموع المغرب	القادري، دي كاستري، اليفراني
1661-1662	جفاف، مجاعة مفجعة	فاس، مراكش، جل أنحاء البلاد	القادري الزياني، الناصري، اليفراني
1680	جفاف	مجموع المغرب	القادري، الناصري، المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب
1682-1683	جفاف قوي	جل أنحاء المغرب	القادري، الناصري
1719-1724	جفاف حاد، مجاعة، وباء	فاس، الجديدة، مراكش، الجنوب	الزرهوني، CH.Bois
1735-1737	جفاف، مجاعة، وباء	سائر بلاد المغرب الأقصى	أحمد الناصري
1750	جفاف، مجاعة، وباء الطاعون	سائر أنحاء المغرب(سوس)	الزياني، أحمد الناصري
1776-1782	جفاف ومجاعة لمدة سبع سنوات	معظم أنحاء المغرب	الزياني، أحمد الناصري
1789-1794	جفاف متوسط الحدة	المغرب	بعض الكتابات الأوربية
1798-1804	جفاف، قحط شديد، طاعون	المغرب	محمد الأمين البزاز

1817-1820	جفاف، قحط، مجاعة	جل أنحاء البلاد	الناصري، محمد الأمين البزاز
1824-1825	جفاف، مجاعة	جل أنحاء البلاد	الناصري، محمد الأمين البزاز
1836-1838	جفاف حاد، وغلاء المعيشة	المغرب	Drummond Hay
1849-1851	جفاف ومجاعة	المغرب	الناصري، محمد الأمين البزاز
1859-1864	جفاف قوي ومرعب	فاس وجل أنحاء البلاد	A.Mouliéras:"Fes en 1900"
1877-1882	جفاف مرعب وقوي، مجاعة، وباء	أغلب مناطق المغرب	أحمد الناصري، محمد الأمين البزاز
1893-1892	جفاف وجدب	جل أنحاء البلاد	محمد البزاز Ch .Bois
1899-1900	جفاف	المغرب الشرقي، سوس	Ch .Bois

أكل النباتات، والجراد

بعد اشتداد المجاعة، وارتفاع الأسعار وقلة المواد الغذائية، يضطر الجوعى إلى البحث عن سبل بديلة لمواجهة الجوع، وضمان البقاء حيث يعملون على اقتيات ماتم تخزينه، وبعد نفاذه يلجؤون الى النقص في عدد الوجبات، ليصلون الى مرحلة لا يتحملون فيها الجوع ، فيقصدون الغابات والسهول بحثا عن جذور النباتات، يقول أحمد الناصري"وفي هذه السنة أيضا (1266هـ)، كان الغلاء الكبير والجوع المفرط وكان أكثره بقبائل الحوز من ابن مسكين، وعبدة، ودكالة وغيرهم، فأهرعت هذه القبائل إلى بلاد الغرب والفحص وأكلت الناس الجيفة، والميتة، والنبات وصار يعرف عند أهل البادية بعام الخبيزي وعام يرني" [5]، ولم يكتفِ الناس بأكل إيرني، بل كذلك البلوط والبقول والبسباس والكرنينة- التي تقطف حتى في السنوات التي لا يمسها القحط،، من أجل تنويع المحصول المعتاد – ولب النخيل الصغير [الجمار] المسمى "papmito " في النصوص البرتغالية، فضلا عن الخروب [6] وكذلك الخروب، والترفاس،واللفت المحفور، والكلخ، والخردل [7] بالإضافة إلى الحميضة، وثمار العرعار، والثمار الفاسدة....

كما أقدم الناس على أكل الجراد، الذي يصبح من الأكل الشهية في بعض المناطق حتى في أوقات الرخاء، حيث كان الناس "يذهبون زرافات ووحدانا لجمعه في الأكياس ثم يعودون به ليطبخ في المراجل مع الماء والملح [8]، وبعد استخراجه من القدر، يوضع في السطوح، وفي الأماكن المشمسة من أجل تجفيفه ومن تم أكله . ومع ذلك فإننا نعتبر أكل النباتات والجراد من الأشياء الشائعة وخاصة بالقرى وإن كانت تبدو اليوم محط استغراب وتعجب، وإليك عزيزي القارئ ماسيثير دهشتك.

بيع الشخص لنفسه

من الأشياء التي لا يمكن أن يصدقها عقل، ولا يمكن قبولها هو إقبال المغاربة على بيع أنفسهم أيام الجوع وهو ماحصل في مناطق كثيرة من المغرب خاصة آسفي وأزمور خلال مجاعة 1521وهاهو رودريكس الشاهد العيان، يحكي مارأته عينيه "وكان قاطنو تلك الدواوير يهاجمون دواوير بعيدة لاتدين بالولاء للتاج البرتغالي، وياسرونهم . ولم يكن البيع يقتصر على أولئك الأسرى المجلوبين بالقوة، بل كانت أعداد أخرى كثيرة تأتي من تلقاء نفسها وعن طواعية إلى حد أنه حينما وصلنا الى أزمور كان في النهر ماينهاز مائة سفينة مليئة عن أخرها بالشابات لانعدام الراغبين في دفع أي ريال في شراء الرجال والنساء"[9] لقد فاق العرض الطلب من خلال الصور التي رسمها رودريكس، والخطير في الأمر أن التجار اللذين جاءوا من مختلف الأرجاء للتجارة في العبيد ساروا يشترطون ولا "يشترون سوى فتيات في سن العاشرة إلى الخامسة والعشرين "[10].

وفي هذا المشهد المخيف والمرعب الذي يعبر عن حجم الهول، والجوع وغياب الضمير الإنساني يورد هذا الشاهد العيان روايتين عن صفقتين لشراء المغاربة اللذين يبيعون أبناءهم حيث يقول "وقد انتقلت ورفاقي بين الدواوير، واشتريت من شخص يسكن خيمة ابنته وحفيدته، ودفعت في الأولى اثنين وثلاثين طوشطاو، وفي الثانية ثمانية وعشرين"[11] وهما لا يتجاوزان الخامسة والعشرين، والخطيرفي الأمر هو أن يتسابق شقيقين على بيع أنفسهما أو أن يبيع أحدهما الأخر بقليل من الأموال بذريعة "أنا ومن بعدي الطوفان" وهي قصة طريفة حقا، ومؤلمة تبين الانحطاط الذي وصل إليه المجتمعآنذاك، يقول الشاهد العيان، الذي استغل الفرصة لكي يشتري نصيبه بأبخس الأثمان "فقد اتصل

بي أخوان وطلبا مني أن أشتري أحدهما. وبعد كلمات قليلة، أظهرت لهما ثلاثة طوشطاو فأخذها أحدهما وترك لي الأخر [12]وهذه الحادثة تبين أمرين:

أولهما: ماوصل إليه المجتمع من انحطاط، وموت الأخلاق، إلى حد السماح في الأخ الشقيق وبيعه بالبخس، وهو مايعبر عن عمق الأزمة التي حلت بالمغرب من مختلف الجهات حيث دولة متدهورة، وعاجزة، وتدخل أجنبي انتهى باحتلال العديد من الثغور في الواجهتين الأطلسية والمتوسطية، وغضب الطبيعة، الذي برز مع مجاعة، قاتلة، وفتاكة أجبرت الأدمي على بيع نفسه. وعليه يمكن إدراك حجم الفراغ الذي عانه المجتمع المغربي خلال هذه الفترة لن يغطيه إلا التشبث بالماضي والرجوع إلى الدين الذي تمظهر في تنامي ظاهرة الأولياء والزوايا، ومن أجل هذا، ولأسباب أخرى، انتعشت الحركة الصوفية وأسست الزوايا وانتشرت عبر المغرب في حواضره وبواديه وعملت على تأطير المغاربة وملء الفراغ السياسي خصوصا أيام المحن والشدةكما هو الشأن في مطلع القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر [13](وكذلك صعود السعديين الذين استغلوا الأزمة، لتوطيد النفوذ، وبسط السيطرة على المغرب .

ثانيهما : أن الأوربيين استغلوا هول الكارثة التي حلت بالبلاد، وضعف السلطة الوطاسية ليغنموا من تجارة مربحة، وبثمن هزيل لا يتعدى قطع معدودة، لينقلوا الجميلات من الشابات الصغيرات، والشبان الأقوياء لبيعهم بأثمان مضاعفة في بلدانهم، أو لتصديرهم نحو العالم الجديد. ففي سفينة واحدة يقول رودريكس "بلغ أولئك الذين اشتريناهم وأرككبناهم الكرفيلا أكثر من مائة وخمسين شخصا، كان لدوارت رودريكش وحده[بينهم] أكثر من مائة. وغادر النهر وقت إبحارنا أكثر من مائة وخمسين مركبا شراعيا محملا بالعبيد[14] جلهم من أسفي وأزمور ونواحيهما، منهم من باع نفسه طواعية ومنهم من تم صيده واقتيد بالقوة، تحت مباركة حاكم المنطقة يعقوب بن غربية الذي جعل من بيع المغاربة للأجنبي تجارة مربحة حيث كان يخص نفسه بخمس ماكان العراب يجلبونه من أسرى، كما كان ينتقي أجمل الفتيات للاحتفاظ بهن لنفسه، أو لإهدائهن[15]، ومعلوم أن الجوع أرغم المغربي خلال تلك المجاعة على بيع أبنائه قبل بيع نفسه، ولقد كان العرض كبيرا جدا إلى حد أنه لم يعد أي شيء أرخص من الإنسان[16].

وقد تكرر نفس المشهد، وتوافد المغاربة على البرتغاليين إبان مجاعة أخرى ضربت المغرب مابين 1721-1724م وقد كان ذلك بمدينة الجديدة التي كانت خاضعة للاحتلال البرتغالي آنذاك، واستغلال البرتغاليين لأوضاع المتردية لشراء العبيد، خاصة أن الناس يعرضون أنفسهم يورد السيد محمد الأمين البزاز رواية لكولفان (Goulven) حسب هذا المؤلف " للنجاة من الجوع الذي أناخ بكلله، اضطر أعداء الصليب إلى المجيء متوسلين لأهل الجديدة(البرتغالين) ليبيعوا لهم نساءهم وأطفالهم ومواشيهم مقابل حفنة دقيق أو قمح "[17]، ويبدو من خلال نفس الرواية أن العدد كان كبيرا، حيث يقل صاحب نفس الرواية "لم يسبق، كما حدث في هذا الوقت، أن اشترى البرتغاليون مثل هذا العدد الكبير من العبيد المغاربة"[18]

تبديل الدين

من الأشياء التي لن تصدقها أيها القارئ العزيز هو أن المغاربة، خلال أزمة الجوع، وأمام العجز عن المقاومة، يغير العديد دينه وكانوا يدخلون أفواجا، أفواجا، في الديانة المسيحية،حيث " تكثر حالات الردة في فترات الجفاف وانعدام المواد الغذائية لأن المغاربة كانوا يعتقدون أن النصارى يتوفرون باستمرار على المواد الضرورية. فلقد نصب عدد من المغاربة خيامهم حول مازيغن وتنصروا آملين بذلك في تحسين ظروف معيشتهم، ويورد السيد بوشرب نقلا عن الإخباري كويش حالات بعض الذين ارتدوا عن الإسلام وتبنوا ديانة جديدة خاصة المسيحية، وفضلوا الهجرة صوب الديار البرتغالية للعيش هناك وهذا نص كويش" وفي هذه السنة (1521) حدثت مجاعة كبرى سواء بذلك القسم من إفريقيا أو بشبه الجزيرة(ايبيريا)، وكانت جد خطيرة إلى حد أن عددا كبيرا من المسلمين الحلفاء بأسفي وأزمور طلبوا من الملك (دون امنويل) عبور البحر للمجيء إلى البرتغال ليتنصروا ولكي يضمنوا به عيشهم الشيء الذي لم يكن بإمكانهم القيام به ببلادهم آنذاك نظرا للجفاف[19].

إلى هذا الحد وصل الأمر بالمغاربة، التخلي عن الدين والتنصر مقابل لقمة العيش، وطلب ذلك بمحض إرادتهم، التنصر مقابل العيش، إنها علامات الهزيمة والاستسلام والتسليم بالأمر الواقع، إنه اعتراف صريح بضعف المغربي، وعدم قدرة الوطاسيين على الإجابة على حاجيات المغاربة وضمان شروط عيشهم، وبالتالي لم يكن من خيار سوى الردة عن الدين حتى يقبل طلب الهجرة الى البرتغال، لكن للأسف لم يكن مصير هؤلاء المساكين

بالبرتغال أحسن من وضعيتهم بالمغرب رغم التنازل عن الدين فقد ملؤوا لشبونة والضواحي" ومات جلهم من الجوع والبؤس، ذلك أن المملكة كانت تفتقر كثيرا إلى المواد الغذائية[20].

وما إذا كان التنصير والردة عن قناعة، وبقاء أصحابه على المسيحية وعدم العودة إلى الإسلام، فإن مثل هذه الظاهرة تعبر عن حق على واقع مأزوم، وسيكولوجية مهزوزة، مما سيفتح المجال أمام تنامي فكرة العودة إلى الماضي، وأن المصائب التي حلت بالمغرب والمغاربة ماهي إلا نتيجة عن تفشي المنكر، والتخلي عن الدين الحق، وهو مافتح الباب عن مصراعيه لنمو ظاهرة التصوف وانتشار ظاهرة الأولياء والزوايا كمؤسسات اجتماعية تشد بيد المغاربة في الفترات الصعبة كما أسلفنا . هاهو عبد الرحمان المجدوب "نموذج الرجل الذي انعكست عليه أحداث العصر(الغزو البرتغالي لتيط، مسقط راسه(1514)، مجاعة (1521) التي عانى منها كثيرا...الخ)فاتخذ منها موقفا تجلى في ياسه الكبير وشؤمه وعدم تقته في عصره ومعاصريه [21]يقول بعد تجربة مريرة "الخبز يالخبز والخبز هو الإفادة لو ماكان الخبز مايكون لادين لاعبادة"، وهو بذلك يلخص وضعية المجتمع المزرية .

ليس المسلمون وحدهم من أقدم على تبديل الدين، بل اليهود أيضا وقد حدث ذلك في المجاعة العظيمة التي عمت جميع أرجاء المغرب سنة 1721-1724م[22]، وقد بلغ عددهم حوالي 1000 يهودي ممن اعتنقوا الإسلام أملا في التخلص من قبضة الجوع[23]وتكرر الأمر في مجاعة 1780/1779 حيث أن عددا كبيرا من اليهود اعتنق الإسلام [24].

المجاعة وأكل البشروالدواب

من الأشياء الغريبة، التي لا يصدقها عقل هو قدوم المغاربة على أكل لحم البشر، بعدما نفذت كل المخازن والأهراء، ويبست الحقول، وانعدمت الأقوات لم يكن من بديل أمام الأحياء، للنجاة من الموت سوى أكل الموتى من بني جلدتهم، وهو ماحصل مثلا أواخر عام ثلاث وسبعين وألف مع السنة التي بعدها حدثت مجاعة عظيمة بالمغرب ولاسيما فاس وأعمالها[25]، والطاعون الجارف، " وأكلت فيه الجيف وأكل فيه الأدمي بوسط الصفارين ميتا" [26]. مامعنى هذا الكلام ؟

لم يتوقف المؤرخون والكتاب عند هذه الحقائق الصادمة، بشكل كافٍ ولم يعطها حقها بل مروا عليها مرور الكرام، وذلك يعكس في الحقيقة تهرب من عدم إبراز مثل هذه الممارسات المرفوضة دينيا، وأخلاقيا يقول القران الكريم" حرمت عليكم الميتة، ولحم

الخنزير". لكن الإنسان وقت الأزمة، وفي مرحلة الصراع من أجل البقاء لا يفكر في مثل هذه القيود وما يهمه هو حفظ حياته والبقاء على قيد الحياة، لقد قال عبد الرحمان المجدوب عن حق وصواب " الخبز يالخبز، والخبز هو الإفادة لو ماكان الخبز مايكون لا دين لا عبادة"، فهل تصدق أيها القارئ العزيز أن المغربي المسلم أقدم على أكل الجيف، أي أكل الحمير، والكلاب، والقطط، والبغال، والأبقار الميتة، وكذلك الحية ففي مجاعة 1826/1825م، يشير الرحالة بروك أن سكان طنجة أكلوا جميع كلاب المدينة، وأقدم أهل فاس خلال مجاعة 1661-1662 م، على أكل الحمير ويقومون بجزره على مرأى من الجميع[27]، ويورد البزاز شاهد أخر هو صاحب الابتسام الذي يقول "وفي هذه المسغبة أكل الناس الكلاب والقطط والجيف، كما تهافت الجياع على الاقتيات بجثث الخيول والحمير والبغال والأبقار، التي تركت ملقاة على قارعة الطريق وساهمت في انتشار الوباء في صفوف السكان وزادت في تعميق الأزمة[28]. رغم ورود النص القرآني الصريح الذي يحرم ذلك، لا تندهش من هذا الفعل فعندما يوضع الإنسان أمام خيار البقاء فإنه يعمل المستحيل حتى ولوا كان أكل الميتة، والجثث المتحللة .

قد يقول قائل وما العيب في أكل الميتة، في ظرف تصبح فيه الضرورات تبيح المحظورات، ونحن أيضا قد لا نمانع في ذلك، لكن أن يصل الأمر إلى أكل الأدمي، فذلك يبقى غريبا، وعجيبا حقا وهذا ما وقع بعد المجاعة المذكورة أعلاه يقول الناصيري" أكل الناس فيها الجيف، والدواب والأدمي"[29]،ويضيف الضعيف في تاريخ بان الأدمي أكل بالصفارين القريبة من القرويين بفاس جهارا[30]. ومرة أخرى تطرح مسالة الأخلاق، والقيم إلى الواجهة، ويبدو أن الأزمات العنيفة، والمجاعات الكبيرة، تسقط الطابوهات، وتحلل المحرمات، وتصبح الأمور والمسائل الغريبة في أوقات الوفرة عادية في الأوقات العصيبة مادام الوضع يفرض ذلك .

ففي سنة 1295هـ /1878م حدثت مجاعة رهيبة عمت المغرب والقطر السوسي على الخصوص، ولم يجد الناس مايأكلون إلا لحم الأدمي، وأكل الأب لحم أبنائه الصغار، وكم من واحد طمع في أكل جسد امرأة ضخم، ونيئ،في مشاهد مثيرة، مرعبة، ومقززة، تعبر عن انحطاط المجتمع.

لكن الأمور فاقت الخيال، وبلغت حدا لا يتصور، فلم يكتفِ المغاربة الجوعى بأكل البشر كما أسلفنا، بل وصل به الجوع إلى درجة نبش القبور وأخذ ما بها من موتى لسد الرمق

وحتى لا يتهمنا من يطلع على هذه المقالة، بقول الأمور الغريبة، وكتابة مالنا علم به، وإنما ذلك من صنع الخيال، هاكم ماقاله فقيه، تقي يروي، ماحصل في هذه السنة بايت باعمران جنوب المغرب، والعهدة عليه، وهو السيد محمد بن عبد الله البوشواري: "مما وقع في هذا العام أن بني بعمرانة(أيت بعمران) قد أكلوا لحوم الموتى . وجبذوهم من القبور وأكلوهم. وقيل لي بعث واحد منهم إلى امرأة جسيمة ضخمة حتى وصلته فذبحها وأكلها. ثم سأل أهلها عنها ففتشوا داره فوجدوا رجليها ويديها . وقال لي رجل ممن أثق به فقد قوم جارية هذا العام، فسألوا عنها فلم يروا أثرها ولا خبرها .ثم فقدت كلبة سمينة ففتشوا دار امراة في ذلك المدشر فوجدوا رجلي الكلبة في ماعون الملح فقتلوا تلك المرأة، وكم إنسان قتل ولده فأكله وكم من واحد طرح ولده الصغير في موضع وتركه عرضة للضياع، وأكلت أموال المرابطين في السهل، وكم من مطمورة فتحوها وسرقوا ما فيها من الشعير، أو اغتصبوها عنوة عياذ بالله..(31).

ورغم ذلك فإننا نتحفظ على ما ذكره البوشواري رغم أنه شاهد عيان خاصة حديثه عن امرأة" جسيمة ضخمة"، و"كلبة سمينة"، ومعلوم أن فترات المجاعة يصبح الإنسان نحيف ونحيل وحتى الكلاب كذلك لقلة الأكل، ويمكن إن نفهم قول البوشواري على أنه من غرابة ماراه، لم يصدق ذلك وبالغ في الوصف الذي أعطاه. كما يمكن أن يحدث ذلك خاصة إذا كان للمرأة بعض من الذخائر والاحتياط .

ترك الموتى بدون دفن

من المشاهد التي تتكرر مع كل مجاعة تضرب المغرب، هو كثرة الموت، إلى حد الموت في الطرقات، والأزقة، ترك الناس بدون دفن، فكثيرون لم يدفنوا وتركوا عرضة للكلاب، والصقور، تنهش من لحومهم، وهو مرة أخرى ما يعبر عن مدى الوهن والضعف الذي يحلبالناس "إلى حد مخالفة التعاليم الدينية الصريحة، مكرهين فهم يعرفون أن "إكرام الميث دفنه" لكنهم غير قادرين على فعل ذلك كما حدث في مجاعة 1737 "ففي تلك السنة ماتت عامة الناس بالجوع وعجزت الناس عن دفن موتاهم وكانوا يرمونهم في الأزقة والمزابل وغير ذلك"(32)يقول البوشواري"وكم قتيل قتله الجوع أو اللصوص ثم تركوهم من غير دفن فشبعت منهم الكلاب والذئاب(33).

وضع الخبزفي الصناديق

لن تصدق عزيزي القارئ أن المغاربة اضطروا الى وضع الخبز في الصناديق لإيصاله من منازلهم إلى الأفران، لأن الجوعى كانوا يأكولونه وهو عبارة عن عجين وهو ماحدث في عام 1724/1721م، "فالجوع بلغ بهؤلاء مبلغه إلى حد أن الجياع منهم كانوا ينهبون عجين الخبز في طريقه إلى الفرن،مما حمل الناس على وضعه في الصناديق، فسمي العام(1721) من أجل ذلك بعام الصندوق "[34].

خلاصة القول إن أزمات الجوع التي ضربت المغرب خلال هذه الفترة جعلت الإنسان أما امتحان صعب، ودفعته إلى القيام بأفعال لن يصدق أنه سيقدم عليها، ولن يقبل بها، لكنه اضطر إلى فعلها من أجل البقاء وحب الحياة، فتخلى مجبرا عن الدين، وأكل مضطرا لحم أعز الناس إليه وفي أحيان أخرى عجز عن دفنهم، بل وصل به الأمر حد ترك دينه للحصول على لقمة عيش.

الهوامش:

1- الأخباري البرتغالي برناردو رودريكس شاهد عيان على مجاعة 1521م، ضمن برنار روزنبرجي وحميد التريكي "المجاعت والأوبئة في مغرب القرنين 16و17م" الوثيقة 1ص 276.

2- انظر على سبيل المثال ماحصل عام 1094هـ نشر المثاني لاهل القرن الحدي والثاني" لمحمد بن الطيب القادري ، تحقيق محمد حجي، أحمد التوفيق،نشر وتوزيع مكتبة الطالب،الطبعة الاولى،1986/1407م،ص،ص،311،312" تاريخ الضعيف" لمحمد الضعيف الرباطي ص 65

3- أحمد بوشرب" مغاربة البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم 36، ص47

4- عبد العزيز باحو" الجفاف المناخي بالمغرب : خصائصه وعلاقاته بآليات الدورة الهوائية وأثره على زراعة الحبوب" بحث لنيل دكتوراه الدولة في الجغرافيا، جامعة الحسن الثاني المحمدية، 2002 ،ص 113، بتصرف.

5- أحمد بن خالد الناصري " الاستقصاء..."، ص61

6- برنار روزنبرجي وحمبد التريكي "المجاعت ولأوبئة في مغرب القرنين 16و17م"،ترجمة عبد الرحيم حزل،منشورات دار الآمان،الطبعة الثانية 1413هـ/2010م، ص 176،ص 177

7- محمد حبيدة "المغرب النباتي الزراعة والأغذية قبل الاستعمار"، تقديم عبد الأحد السبتي، منشورات ملتقى الطرق،2018،ص 90.

8- بوجمعة رويان" الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945، مطبعة الرباط نت، 2013،ص،45.

9- نفس المرجع،الوثيقة 1 ص 277.

10- نفسه، ص 278.

11- نفسه، نفس الصفحة.

12- نفسه المرجع، ص 279.

13- عبد المجيد قدوري " المغرب وأوربا..." ص 254.

14- برنار روزنبرجي وحمبد التريكي "المجاعت ولأوبئة في مغرب القرنين 16و17م" الوثيقة 1 ص 279.

15- نفس المرجع،، ص 278،277.

16- محمد رزوق" دراسات في تاريخ المغرب"،إفريقيا الشرق، 1991،ص 13.

17- محمد الأمين البزاز "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"،منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم، 18،ص 40.

18- نفس المرجع،نفس الصفحة.

19- أحمد بوشرب" مغاربة البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم 36، ص56.

20- أحمد بوشرب "مغاربة البرتغال.."،نفس المرجع، نفس الصفحة.

21- أحمد بوشرب مغاربة البرتغال..."نفس المرجع، ص44.

22- محمد الأمين البزاز "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم، 18،ص 38

23- نفس المرجع، ص: 38.

24- نفس المرجع، ص: 75.

25- أحمد ابن خالد الناصري" الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى"، الجزء السابع، ص: 104.

26- محمد بن الطيب القادري" نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي،وأحمد التوفيق، نشر وتوزيع مكتبة الطالب، الطبعة الأولى 1407/1986م، ص: 134.

27- برنار روزنبرجي، وجمال التريكي " المجاعات والأوبئة ..."، مرجع سابق، ص: 144.

28- محمد الأمين البزاز "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم، 18،ص122.

29- أحمد بن خالد الناصري" الاستقصاء..."، ج،7، ص 104.

30- محمد الضعيف الرباطي" تاريخ الضعيف، ص،ص 32،13.

31- المختار السوسي" المعسول" ج، 17، ص، 259

32- محمد الضعيف الرباطي " تاريخ الضعيف(تاريخ الدولة السعيدة"، تحقيق وتعليق وتقديم الأستاذ أحمد عماري،دار المأثورات، الرباط،ص 125

33- المختار السوسي' المعسول "،ج،17،ص259

34- محمد الأمين البزاز "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم، 18،ص 38.

قائمة المصادروالمراجع

1)- أحمد ابن خالد الناصري" الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى"، الجزء السابع.

2)- أحمد بوشرب" مغاربة البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم 36.

3)- برنار روزنبرجي وحميد التريكي "المجاعت ولأوبئة في مغرب القرنين 16و17م"،ترجمة عبد الرحيم حزل،منشورات دار الآمان،الطبعة الثانية 1413ه/2010م.

4)- بوجمعة رويان" الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945، مطبعة الرباط نت.

5)- محمد الأمين البزاز "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"،منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم، 18

6) - محمد بن الطيب القادري" نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي،وأحمد التوفيق، نشر وتوزيع مكتبة الطالب، الطبعة الأولى 1407/1986م.

7)- محمد حبيدة " المغرب النباتي الزراعة والأغذية قبل الاستعمار"، تقديم عبد الأحد السبتي، منشورات ملتقى الطرق،2018.

8)- المختار السوسي' المعسول "،ج،17.

9)- محمد رزوق" دراسات في تاريخ المغرب"،إفريقيا الشرق، 1991.

10)- محمد الضعيف الرباطي " تاريخ الضعيف(تاريخ الدولة السعيدة"، تحقيق وتعليق وتقديم الأستاذ أحمد عماري،دار المأثورات، الرباط.

11)عبد العزيز باحو" الجفاف المناخي بالمغرب : خصائصه وعلاقاته بآليات الدورة الهوائية وأثره على زراعة الحبوب" بحث لنيل دكتوراه الدولة في الجغرافيا، جامعة الحسن الثاني المحمدية، 2002.

الكاتب: د. شويشي زهية
أ. أم لرقاب سمية
جامعة محمد لمين دباغين. سطيف2
البريد الالكتروني:tahahatemtaha39@gmail.com

عنوان المقال: الاتجاهات النظرية ودراسة الخصائص التاريخية للعمارة المدنية في إطار المحلية عبر التاريخ

تاريخ الإرسال: 2019/06/15 تاريخ القبول: 2019/09/14 تاريخ النشر:2019/12/31

الاتجاهات النظرية ودراسة الخصائص التاريخية للعمارة المدنية في إطار المحلية عبر التاريخ

Theoretical trends and the study of the historical characteristics of civil architecture within the local framework through history

الملخص بالعربية:

تسعى هذه المقالة إلى رصد الخصائص العمرانية والتاريخية للمدن والحواضر القديمة وما عرفته عبر تاريخها ثم استخلاص عوامل ومظاهر بروز العمران المحلي، وقبل البدء في تناول هذا الموضوع ينبغي الإشارة إلى موقف علم الاجتماع من دراسة العمران في تجلياته المكانية "أي باعتباره عمارة" وموقفه من دراسة ما يمكن تسميته بالنزعة المحلية. حيث يمكن القول بأن علم الاجتماع لم يهتم بدراسة التجليات المكانية للعمران قدر ما اهتم بدراسة تجلياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. وهذا يعد تقصيراً بالتأكيد، ذلك أن العمارة تدخل في نطاق اهتمام علم الاجتماع من زوايا عدة، لعل أهمها الجانب الفني والثقافي كونها نتاج للمجتمع وثوابته الحضارية، وكونها أيضا تلعب دوراً هاماً في صياغة الهوية الفردية والجماعية، فالعمارة لا شك بما تشتمل عليه من مكان ومساحة وموقع للسكن وطراز للمباني تلعب دوراً هاماً وأساسيا في حياة الإنسان الاقتصادية والاجتماعية. أما فيما يتعلق بموقف علم الاجتماع من دراسة ما هو عمران محلي فإنه يرتبط بما عرفه المجتمع عبر مراحل تاريخه الطويل من نماذج ازدهرت وتراجعت (1). وإذا رجعنا إلى الموضوع الأساسي لوجدنا أن هناك سؤالاً يطرح نفسه، وهو ما أسباب الجمع في موضوع واحد بين العمران في ضوء رؤية تاريخية وبين التحولات التي يشهدها هذا العمران.

الكلمات المفتاحية: المدن القديمة، الحضارات القديمة، الحضارة العربية الإسلامية، مدن حوض النيل، مدن الحضارة الإغريقية، مدن الحضارة الإسلامية، مدن الحضارة الرومانية.

Abstract :

This article seeks to monitor the urban and historical characteristics of ancient cities and cities and what they have learned throughout their history and then draw the factors and manifestations of the emergence of local architecture. Before starting to address this subject, we should refer to the position of sociology from the study of urbanization in its spatial manifestations, It can be called localism. It can be said that sociology did not care to study the

spatial manifestations of urban development as much as he cared to study its economic, social, political and cultural manifestations. This is surely a shortcoming The architecture is part of the attention of sociology from a number of angles, the most important of which is the artistic and cultural aspect as a product of society and its cultural foundations. It also plays an important role in the formulation of individual and collective identity. Architecture, no doubt including its location, space, location, Important and fundamental in human economic and social life. As for the attitude of sociology from the study of what is Imran local, it is related to what the society has known through its long history of models flourished and declined. If we return to the basic subject, we find that there is a question arises, which is why the combination in one subject between urbanization in the light of a historical vision and the transformations witnessed by this architecture.

key words : Ancient Cities, Ancient Civilizations, Arab Islamic Civilization, Cities of the Nile Basin, Cities of Greek Civilization, Cities of Islamic Civilization, Cities of Roman Civilization

مقدمة:

في ظل الحداثة ومظاهر التحضر باتت العمارة تشهد ذوبان رغم رغبة الكثيرين في مقاومة هذه العملية ودعوتهم إلى ضرورة البحث عن جذور العمارة، وما تحمله من سمات اجتماعية وثقافية والعودة إلى ما كانت عليه. من خلال توظيف كل العناصر والخصائص الفعالة في ذلك منها إشباع الحاجات المادية والفكرية والروحية في العمارة القديمة.

كما أن تيار الحداثة قد خلق اتجاهين متصارعين فيما يتعلق بنوعية العمارة الواجب إنشاؤها في كل مجتمعات العالم، اتجاه يدعو إلى ضرورة الأخذ بالعمارة الحديثة التي تتناسب ومقتضيات العصر(2) واتجاه آخر يدعو إلى ضرورة الأخذ بالعمارة البيئية والمحلية والشعبية والتقليدية التي تراعي الخصوصيات التاريخية والثقافية والاجتماعية والبيئية، وليس ثمة شك في أن مسألة العمران في الجزائر تعرف حاليا نفس التجاذب، مما يستوجب الجمع في هذه الدراسة بين الإشارة إلى الخصائص التاريخية لهذا العمران وبين التغيرات التي طرأت عليه، واتساقا مع كل ما سبق يحاول هذا الفصل تحقيق أهدافه، بالاعتماد على التحليل الإبستيمولوجي، فضلا عن الشواهد التاريخية لبعض الحضارات كالعمارة التي عرفها الرومان واليونان والمصريين القدامى، ونعرض هنا الرؤية النظرية للعمران، في ظل الحضارات القديمة

والسياق الذي ظهرت فيه نزعتها المحلية في البناء خصوصا الحضارة الإسلامية كونها تتشابه في خصائصها مع موضوع هذه الدراسة، ومن هنا يمكن القول على الرغم من كثرة التيارات النظرية التي تتناول العمران فإنه سوف يتم تناول هذه الخبرة على أنها محصلة نهائية للتفاعل بين الإنسان من ناحية والظروف" الجغرافية والمناخية والاجتماعية والسياسية والثقافية السائدة في تلك المجتمعات من جهة ثانية" (3).

1. الاتجاه النظري ودراسة المدن القديمة:

ارتبطت مسألة نشوء المدن بإشكالية "التعقد الاجتماعي" والظروف المتعددة المرتبطة بها كعادات وتقاليد المجتمع والمناخ وطبيعة الأرض والثروات الطبيعية، وهذا دافع ساعد على ظهور المدن، والقول هنا بظهور المدن في التاريخ سببه الرغبة في الاستقرار يرجع إلى ما اصطلح عليه من طرف "جوردن تشايلد" بثورة العصر الحجري الحديث، تعبيراً عن الأهمية التي شكلتها هذه الحقبة في ظهور المدن، مع أننا نعترف في نفس الوقت بأن أشكال الحياة في العصور الحجرية الحديثة لم تنتشر في مكان واحد كما اعتقد "جوردن تشايلد"، رغم كونه عصراً عرف بحق ثورة في إنتاج التجمعات البشرية القائمة على فكرة الاستقرار، وطبعا يقودنا هذا إلى طرح جملة من التساؤلات أبرزها:

- ما جوهر العوامل التي أفضت إلى ظهور المدن؟
- ما هي العوامل المتسببة في ظهور أولى أشكال المجتمعات المعقدة في المكان والزمان؟
- ولماذا تظل مسألة القراءة في المدن صعبة والإجابة عنها معقدة؟

يدرك العلماء من خلال هذه الأسئلة أن الموضوعات المادية كالعمران وما خلفته الحضارات ليس أكثر من مجرد انعكاسات غير دقيقة للأنظمة الاجتماعية والثقافية، لذلك عرّف العلماء "المدن" بأنها أكثر الاتجاهات دينامية وارتباطا بنشوء حياة المدينة، مع أن ليس كل الديناميات أفرزت مدنا حقيقية، مما يدل على أن المدينة حقيقة قديمة جدا، ومعاصرة لبدء الحضارة، ومن ثم أصبح تاريخ المدن هو تاريخ التفاعلات والأفكار والسلوكيات والاعتقادات والقوة، وهو ما عبرت عنه في مسيرة الحضارة وما انبثق عنها من سمات مادية وروحية واجتماعية وسياسية، أفرزت كما قلنا سابقا مجموعة قيم وعادات وتقاليد وأفكار منظمة تعددت أشكالها ومضامينها، طبعا يدفعنا هذا إلى إيجاد تفسيرات شاملة للتعقد الاجتماعي والثقافي والعمراني الذي انطوت عليه منذ ظهورها (4)هذا يتطلب منّا محاورة الواقع الذي نشأت فيه

والذي مهّد لظهور الكثير من الحضارات، لأن من الضروري ربط الجوانب المادية للتمدن بالخصائص الاجتماعية والأبعاد الثقافية وما لها من دور في تشكيل الإطار الحياتي لسكان المدن. تستلزم العملية تفسير ظاهرة ومفهوم المدن ودمجه بالمتغيرات الاجتماعية والثقافية والعمرانية انطلاقا من فاعلية الأنظمة المختلفة.

ونناقش مسألة المدن من منطلق إخضاع فكرة ظهورها إلى المراجعة التاريخية ذلك أن الجانب الحاسم لهذه الظاهرة لن يكون مجرد وجود أو عدم وجود منشآت وصروح معمارية ضخمة أو سمات أخرى، وإنما يتوجب التعبير عنه من خلال علاقة أنماط سلوكية بالتمدن وبالسمات الثقافية للاتصال، كذلك بالموضوع العام للدراسة ونطاقاته وعلاقته بميدان المعرفة التراكمية، فالبحث في تاريخ المدن بالتعرض لماضيها يعتبر مدخل مهم في هذه الدراسة، من خلال التحقيق في ظهورها والعوامل التي ساعدت على ذلك، وكذا الأدوار التي قامت بها، إذ أن ذلك سيفيد في تتبع مسيرة تطورها ضمن أطرها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وهل أن هذا التطور التاريخي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي هو الذي يعكس حضارة البشرية قديما وحديثا. (5) وسنستعرض بعض المناطق من العالم التي كانت سببا في ظهور المدن وما صاحبها من انتشار هائل، لكن الخلاف القائم بين العلماء والمؤرخين هو حول أعدادها ومظاهر التحضر التي شهدتها، وعوامل بروز تلك المظاهر، هل هي كما أشار إليها "جوردن تشايلد" استخدام الحيوانات والاعتماد على الإنتاج بمختلف أشكاله من زراعة وحرف واستخدام وسائل الري فكلها كانت حوافز حسب رأيه، وهو نفس الخلاف الدائر بين مدن العصر الحالي، كما ظهرت أسئلة عن أدوار المدن والهدف من وجودها؟ هل هي الأدوار الاجتماعية التي ساعدت في تحديد عنصر التنظيم الاجتماعي وإسهامه في نقل الكثير من القيم الثقافية، وبلورة جملة معالم حضارية تميزت بالإنسانية والتكامل، وربما الميزات الروحانية للمدن القديمة دلالة على ذلك (المعابد المساجد، الكنائس، القلاع، القصور).

لقد ساعدت هذه التساؤلات على إثارة الكثير من الجدل بين المؤرخين وعلماء الآثار والأنثروبولوجيين بسبب غياب المعلومات الدقيقة حول تلك الفترة ومحدودية العلوم وطرائق البحث الاجتماعي حولها. لكن في نفس الوقت يرى أصحاب المذهب الإنشائي أن قدرة الإنسان القديم على الابتكار هو من ساعد في ظهور المدن، وإن اختلفوا فيما بينهم حول أصل ونشأة الحياة الحضرية، أين ظهرت أولى الحواضر في العالم "الشرق الأوسط، أوربا، آسيا... أمريكا الوسطى" يرى البعض منهم أنها نشأت في حوض نهر النيل، والبعض الآخر رأى أنها انطلقت

من الهند أومن منطقة ما بين النهرين "العراق حالياً" وهل اتسمت أثناء ظهورها بخصائص ومقومات الحياة الحضرية. استمر هذا الجدل بين العلماء إلى أسباب قيام حضارة الصين ومدى ارتباطها وامتدادها إلى حضارات سابقة مع التركيز على مدى استقلاليتها ثقافيا واجتماعيا. لكن المتشعبين بقراءة حضارات الشرق القديم يرون أن جل الخصائص الحضرية انتشرت في منطقة الشرق وتمركزت فيها، حاملة عناصر ثقافية محلية هي التي مهدت لبروز مدن وحضارات مميزة في بلاد الشرق وأولى تلك الحضارات المتمدنة حضارة ما بين النهرين MESOPOTAMIA المكون الرئيسي لحضارات العالم. (6) فكيف نشأت هذه الحضارة وما هي مؤشرات تحضرها وتطورها؟ ونحن سنجيب كما أجاب العلماء الذين رأوا أن أسس تكون الحياة الحضرية في المدن القديمة قام على توفر الشروط التالية:

- توفر الأساس الإيكولوجي.
- وجود تكنولوجيا متقدمة في المجال الزراعي وغير الزراعي.
- وجود تنظيمات اجتماعية معقّدة.
- وجود أنظمة سياسية متطورة.

كما كانت من أهم سمات التحضر المبكر تأسيس المدن لأغراض الدفاع والعبادة والتجارة وهي نشاطات ميزت ولفترات طويلة مدن مصر، اليونان، الهند، بابل، إلى جانب ما يناط بها كمراكز سياسية تؤدي مهام إدارية وعسكرية. ما خولها لأن تكون مقراً للصفوة الحاكمة التي استحوذت على القوة العسكرية والسلطة الدينية والاقتصادية. فكان من الطبيعي أن تنعكس خصائص الأساس الوظيفي لمدن العصر القديم على طابع بنائها الإيكولوجي وعلى نوعية التنميط المكاني للسكان والنشاطات المختلفة من حيث الموقع، ولعب الاقتصاد والسياسة والأنظمة الاجتماعية دوراً ملحوظاً في تحديد مواقع المدن المبكرة، ويمكن تتبع ذلك بسهولة في المدن التي نمت وتطورت على طول خطوط التجارة البرية والبحرية كإسطنبول وسمرقند، وقد أفاد موقعها كثيراً في ازدهارها تجارياً، ومن حيث التنميط الإيكولوجي تميزت مدن العصور القديمة بخاصية العزل والاستقلال الفيزيقي، فقد كانت المدن المحاطة بالأسوار العالية هي النمط الإيكولوجي الشائع في تلك المرحلة المبكرة من النمو الحضري فقد كانت الأسوار تقوم بوظائف دفاعية، وطبيعة المرحلة هي من فرض ذلك، ليس وحده الجانب الدفاعي من آثر بناء المدن، بل تنظيم النشاط التجاري من المدن وإليها لعب دوره أيضا، ووجود الجدران التي تفصل أحيانا المدن كان تجسيدا واضحا لعمليات العزل الإيكولوجي والثقافي والمهني وحتى

القرابي للسكان.(7) أما نمط التوزيع السكاني والأنشطة داخل المدن فتأثر بمتطلبات التنظيم الاجتماعي والاقتصادي، إضافة إلى الأساس الديني والمقوم السياسي الذين احتلوا مركز الصدارة في الأساس الوظيفي للمدن فتمركزت الأنشطة في منطقة الوسط. وبالنظر إلى الشرط الإيكولوجي (ECOLOGY) نلاحظ أن ظهور المدن القديمة في العالم قد ارتبط بصورة مباشرة بتوفر المناخ والبيئة الجغرافية الصالحة للنمو البشري والحيواني، أي أن توفر الشرط الإيكولوجي يعتبر ضرورة حتمية لمواجهة النمو السكاني وتطور تركيبته، إضافة إلى ما يلعبه العامل التكنولوجي (TECNOLOGICAL FACTOR) في تطوير وتحديث الحياة الاجتماعية في كثير من مناطق العالم، كما أنه في الوقت نفسه يرتبط وجوده بالعامل الإيكولوجي الذي يعتبر القاعدة الأساسية في أصل تكوين الحياة واستمرارها، وتجدر الإشارة إلى أهمية المصادر المائية في نمو وتطور الحياة الحضرية، فبالرغم من أن تكنولوجيا الحضارات القديمة كانت بسيطة جدا مقارنة بتكنولوجيا العصر الحديث إلا أن توفر المصادر المائية من أنهار وغيرها لعبت دوراً أساسياً في ظهور المدن بصورة تلقائية، حيث كان الاستقرار السكاني مكثفا أينما وجدت الأنهار التي كانت توفر حاجة الزراعة وبعض الأنشطة الاقتصادية الأخرى من المياه، وكان ذلك التوافر متواصلاً بتواصل الحياة.(8) كما لعبت مصادر المياه أدواراً رئيسية في الثقافات وامتزاج الشعوب، اجتماعيا واقتصاديا متماثلا وحفزت تلك المصادر العقل البشري على الخلق والإبداع التكنولوجي، الذي تمثل آنذاك في وسائل المواصلات ونقل الإمدادات الغذائية وتبادلها، خاصة في قارة آسيا وشمال إفريقيا كما ساعد وجود تلك الأنهار على تطوير وتنمية الحياة الاقتصادية والاجتماعية، التي نتج عنها آنذاك خصائص ومقومات حضرية متلائمة مع طبيعة الخصائص الإيكولوجية والجغرافية المتوفرة بصورة طبيعية وبتوفير العناصر الأساسية من الغذاء. استطاع الإنسان أن يتحكم في زراعة القمح والشعير والبقول مستخدما ما توصل إليه من تكنولوجيا التخزين للحفاظ على المنتوجات الزراعية من أجل تلبية احتياجات سكان المدن كما قامت صناعات متنوعة، صاحب ذلك تطور نظام المواصلات والتنقل في المدن وانتشارها في كثير من المناطق الحضرية الأخرى، وأدى إلى تنشيط حركة التبادل التجاري بين المدن والمناطق الريفية داخل البلدان وخارجها، فكانت بداية العلاقة بين الحركة الصناعية والنشاط الاقتصادي، ونقطة البداية لظهور نوع من الحياة الحضرية المركبة التي أخذت تتزايد تلقائيا حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن، وساهمت التكنولوجيا بأدواتها المختلفة في تزايد الكثافة السكانية في المدن عن طريق

هجرة أعداد كبيرة من سكان القرى والأرياف إلى المناطق الحضرية، والتي تعرف اليوم بالمدن التجارية والصناعية في شرق وغرب العالم.(9) أما الأساس الثالث لقيام حياة حضرية متميزة في المدن القديمة فإنه يكمن في وجود نظام اجتماعي متطور خاصة في مجالي السياسة والاقتصاد، فالحياة الحضرية في المدينة تتطلب تحقيق نظام اقتصادي يوفر للسكان متطلبات الحياة.(10)

2. أهم مدن الحضارات القديمة:

1.2. مدن حضارة ما بين النهرين:

اتفق جميع الاختصاصيين في مجالات المعرفة على أن المدن ظهرت وتطورت في منطقة ما بين النهرين، إلا أن تاريخ ظهورها لم يتم الاتفاق عليه، الأمر الذي دعا علماء الاجتماع الأوائل إلى الاستعانة بعلماء الآثار والتاريخ، ليؤكدوا على أن المدن ظهرت منذ حوالي 4000 ق.م.

واستمر الجدل حول تحديد وتعريف المناطق الحضرية وفترة نشأتها لمدة طويلة، إلا أن العلماء اتفقوا على أن أول تجمع حضري للسكان قد وجد بما يعرف بمنطقة الهلال الخصيب والمنطقة التي تسمى اليوم بلاد الشام "الأردن، العراق"، إذ كشفت الدراسة التي قامت بها "كينيون" (KENYON) أنّ أول وأكبر تجمع سكاني كان يعيش في بيوت من الطين محاطة بأنسجة حائطية استخدمت للأغراض الدفاعية(11)، كما حددت في دراستها تاريخ بدء الحضارة الإنسانية بحوالي ثمانية آلاف عام قبل الميلاد في تلك المنطقة. إلا أن "ويلر" في تقييم له لدراسة "كينيون" رجّح أن يكون تاريخ بدء الحضارة بين خمسة أو ستة آلاف عام ق. م وذلك من خلال المدن الأثرية التي استطاع التعرف عليها في بلاد الأردن.

أما "جوردن شايلد" فقد اتخذ موقفا محايدا من ذلك الجدل، ورأى أن تاريخ بدء الحضارة الإنسانية ارتبط بوجود كثافة سكانية معينة وبوجود الخدمات العامة، مؤكداً على الكتابة التي تعتبر من العوامل الهامة في ظهور المدن والجماعات البشرية المنظمة والمهارات المهنية. أي ظهور ما يعرف بالتخصص وتقسيم العمل، كما أكد على أن نظام الكتابة هو العامل الحاسم في اعتبار المدينة نواة الحضارة الإنسانية التي تميزها عن بقية التجمعات السكانية. ويعتبر "كينجزلي ديفيد" (K. DAVIS) أن ظهور المدن بدأ ما بين 6000–8000 قبل الميلاد وجاء ليؤكد مرة أخرى أن ظهور المدن الحقيقية كان قد بدأ قبل 3000 آلاف عام ق.م. ولم يكن "ديفيز" واضحاً في استخدامه وتعامله مع مفهوم "المدينة" إلا أنه يعترف ضمنيا بأن المدينة الفعلية ظهرت مع بداية معرفة الإنسان للقراءة والكتابة. ومن بين المدن المبكرة التي عرفت في التاريخ

القديم مدن "إيريك" (ERECH)"إريدو" (ERIDU)، "أور" (UR) "لاجاش" (LAGASH) "لارسا" (LARSA) على ضفاف نهر الفرات ومدينة "كيش" (KISH) على ضفاف الجزء الشمالي من النهر، وهي مدن تؤكد لنا أن عمليات التحول الاجتماعي والاقتصادي قد حدثت هناك، أي بمعنى أن انتقالا من الوضعية الريفية الزراعية إلى الوضعية الحضرية قد أخذ مكانه في عدد من المدن في تلك المنطقة وهي مدن عرفت لأول مرة نوعاً من الاستقلالية في أنظمتها السياسية مكونة بناء اجتماعيا، وكما هو الحال في المدن الحديثة عرفت المدن القديمة الخبرة والمهارة في تصنيع الأشياء. وإذا رجعنا إلى المظهر الشكلي للمدن القديمة فإن التاريخ يحدثنا عن وجود المدن داخل أسيجة حائطية حولها من جميع الجوانب، ومن أبرز معالم تلك المدن احتوائها على معابد لممارسة الشعائر والطقوس الدينية. وما يميز المدن القديمة عن الحديثة بناء البيوت بشكل متناثر وغير منظم يفصل بينها مساحات كبيرة من الأراضي. كما اختصت المعابد والمباني الإدارية بمساحات واسعة من الأراضي تحيط بها من كل الجهات. (12) أما الطرق والشوارع فقد كانت ضيقة للغاية مقارنة بالطرق والشوارع التي تتميز بها المدن الحديثة، ودلت الحفريات بأن معظم البيوت والمنازل بنيت على مستوى منخفض بالنسبة لطرق وشوارع المدينة، الأمر الذي جعل السكان يبنون مداخل عالية تتلاءم ومستوى ارتفاع الطرق والشوارع. كما كانت المدن القديمة تشتمل على بعض المراكز التجارية التي اتخذت للتبادل التجاري.

أما عن الكثافة السكانية لتلك المدن فيحدثنا "فرانكفورت" أن المدينة القديمة كانت تتكون من خليط سكاني يجمع بين الحرفيين والتجار والإداريين والجيش والمزارعين، الذين يزاولون نشاطهم الزراعي في المناطق المجاورة للمدينة، ويؤكد "فرانكفورت" على أن فئة المزارعين كانت تؤثر تأثيراً واضحاً في تقدير سكان المدن وكثافتها. (13)

وقد قدّر "تشايلد" (CHILDE) أن سكان المدن القديمة كان يتراوح عددهم بين 7000–20000 بما في ذلك المشتغلون بالزراعة، ويذهب "فرانكفورت" (FRANKFORT) "وولي" (WOOLLEY) إلى القول بأن عدد سكان المدن قد تطور تطوراً كبيراً، إذ وصل في مدينة "أور" إلى 24000 و19000 نسمة في "لاجاش" و16000 في مدينة "خفجة"، ومع بداية القرن العاشر قبل الميلاد وصل عدد سكان مدينة "أور" 34000 نسمة وهو عدد يضم سكان الأرياف المحيطة، مع العلم هذه الأرقام هي من تخمين المفكرين الأوائل، إذ لا يمكن اعتمادها بالنسبة للدراسات المقارنة على اعتبار أنها تفتقر للموضوعية في التقدير وإلى المنهجية في الدراسة

والتحليل، لكن ظهور المدن في منطقة ما بين النهرين كان له الفضل في انتشار المدن في مناطق أخرى من العالم.

2.2. مدن حوض النيل:

في الوقت الذي كانت فيه مدن منطقة ما بين النهرين تمر بمرحلة تطورية ملحوظة قبل 3500 عام قبل الميلاد، بدأت مجموعة من القرى الكبيرة المتناثرة تستقر حول دلتا حوض النيل وكانت تلك القرى تمثل وحدات سكانية مستقلة عن بعضها البعض، اختصت كل مجموعة بممارسة النشاط الزراعي "القمح والشعير" مستغلة مياه النيل في الزراعة وفي أغراض حياتية أخرى ومعتمدة على الحيوان في التنقل. وتدل الوثائق التاريخية بأن حضارة نهر النيل نشأت عام 3100 قبل الميلاد وهي المعروفة بالحضارة الفرعونية، والتي ظلت معالمها ثابتة إلى يومنا هذا، إلا أن الوثائق الأثرية حتى عام 2000 قبل الميلاد. لم تبرز معالم المعابد والأضرحة التي شيدت واعتبرت كرمز للحضارة. (14) ولم تشر الوثائق إلا إشارة عابرة لبعض المدن الفرعونية التي بنيت من الطين واندثرت بفعل العوامل البيئية، ولم يبق منها إلا المدن التي بنيت من الحجارة أثناء تشييد الأهرامات. ومنذ تلك الفترة أخذت المدن في الانتشار في منطقة حوض النيل وتميزت بتركيبة عمرانية وبشرية واضحة المعالم، ويرى بعض المفكرين أن ظهور العمارة في مصر لم يصاحبه أي نوع من النشاط الاقتصادي المكثف في أينّ من المراكز الحضرية التي تأسست آنذاك باستثناء العاصمة، وكانت تلك الأماكن عبارة عن مراكز تجارية لتسويق المنتجات الريفية، ويؤكد "وولي" (WOLLEY) على أن العاصمة نفسها لم تشهد حياة حضرية حقيقية حيث لم يوجد آنذاك أي نوع من التنظيم الحضري، وأشارت الكثير من الدراسات التاريخية إلى أن مدن الحضارة المصرية اكتسبت خصائصها المميزة من حضارة ما بين النهرين.(15)

3.2. مدن الحضارة الإغريقية:

في العصر الإغريقي بدأت نظريات العمارة والتخطيط في الغرب تأخذ إطارها الفلسفي، وقد استمدت مضامينها الهندسية والجغرافية من الحضارة المصرية القديمة، أين ظهر التخطيط الشبكي للمدينة الإغريقية وذكر أرسطو بأن هذا النظام كان من صياغة المهندس الإغريقي "هيبو داموس" 500 ق.م. وكان من أهم العوامل التي دفعته إلى ذلك توصيات الأطباء، حيث أوصى "هيبو قراط" بضرورة تخطيط المدينة بحيث يمكن للمساكن أن تدخلها الشمس، وجاء على لسان أحد الأطباء الإغريق أن ذلك يتم لو أنشأت الشوارع بطريقة متقاطعة وبزوايا

قائمة ومواجهة للجهات الأصلية فتصبح المدينة حسنة التهوية وتدخل مساكنها الشمس، وبذلك صاغ "هيبو داموس" أصول تخطيط المدن للإغريق، الذي اشتهر باسم التخطيط الشبكي المتأثر بتوجهات هيبوقراط، تابع المهندسين في عصر الإسكندر المقدوني الأسلوب ذاته في تخطيط المدن التي أنشأها في فتوحاته مثل مدينة الإسكندرية. كل تلك المؤشرات دلت على الاهتمام الكبير بالنواحي المناخية والصحية في تخطيط المدن الاغريقية لتحقيق التهوية والسماح بدخول الشمس للمساكن، وهو نموذج مقتبس من العمارة اليونانية، مع خصوصيتها التي تناغمت مع عادات المجتمع الإغريقي ومعاييره الاجتماعية وقيمه الثقافية. (16)

4.2. مدن الحضارة الرومانية:

تأثر الفن المعماري الروماني بالتقاليد السائدة في الشرق من خلال مؤشرين، **الأول** ما ورثوه عن "الأتروسكيين" الذين استخدموا القباب والعقود في بناء المنشآت، والتي أخذوها أصلا عن الفن المعماري لبلاد الرافدين، وما أخذوه من تقاليد العمارة الشرقية التي وجدوها في سوريا بعد احتلالهم لها والتي امتازت بعدة خصائص أهمها:

- استعمال الرومان طرز العمارة الإغريقية "الدوري، الأيوني، الكورنتي" إلا أنهم أدخلوا عليها بعض التعديل، مع ملاحظة أن الطراز الروماني كان أكثر رشاقة من الطراز الإغريقي.
- يقوم المنزل الروماني على الطريقة العمرانية لبلاد الرافدين، وهي أن تنفتح الغرف بنوافذها وأبوابها على الفناء الداخلي مع عدم وجود للنوافذ الخارجية.
- في البداية أقام الرومان عمارتهم بالحجر المنحوت، لكن سرعان ما اهتدوا إلى أنواع أخرى كالملاط الذي يشبه الإسمنت والذي بنوا منه الجدران.

هذه التقنيات ساعدت الرومان على تأسيس مدن في كل البلدان التي أخضعوها لسلطتهم متأثرين بالتخطيط "الهيبودامي الإغريقي" من خلال بناء شبكة من الشوارع المتعامدة على هيئة الفن الكلاسيكي، امتدادا للحضارة الرومانية ظهرت عمارة سميت العمارة البيزنطية والتي ارتبط فنها المعماري بالديانة المسيحية، مع أن العمائر المسيحية البيزنطية لم تظهر إلا بعد أربعة قرون من ظهور المسيحية حينما غدت دين الدولة الرسمي في عهد الإمبراطور " تيو دوسيوس" 395 م. والفن المعماري البيزنطي هو الفن الروماني الممتزج بالروح المسيحية والتقاليد الشرقية السورية والساسانية.

5.2. مدن الحضارة الساسانية:

كانت خريطة بلاد فارس قديما تشمل إيران الحالية وأفغانستان وبلوخستان، تأثرت في بداية ظهورها بعمارة بلاد الرافدين في الغرب وبالعمارة الفارسية في الشرق، وباعتبار العمارة فن، فقد شكل الفن الساساني آخر مراحل تطور الفنون الفارسية "الأخمينية والبارثية" وارثة الحضارات "الرافدية" التي اقتبست الكثير من الوحدات والأشكال من احتكاكها بالشعوب التي استعمرتها في بابل وآشور ومصر... إلخ، الشيء الذي أمكنها ذلك من إظهار أذواق الفن الفارسي الساساني الذي وصل أوجه في القرن الرابع الميلادي، وبشكل عام فإن الفن الساساني يعتبر استمرار للتقاليد الفنية العراقية القديمة.(17)

3. الاتجاه النظري ودراسة المدن الإسلامية:

البحث في العمارة والمدن الإسلامية عرف جدلا منهجيا منذ القدم تميز غالبه بالعقم، كون المدينة الاسلامية ومن خلالها العمارة الإسلامية تمتاز بخصوصيات ودلالات مجالية ورمزية، منبع تلك الدلالات هي منظومة الدين والسلوكيات المجتمعية والأنماط الاقتصادية والتمثلات الذاتية. وقبل هذا وذاك تعد العمارة بشكل عام والإسلامية بشكل خاص بمثابة حقل للفعل الإنساني المعبر عن أنماط التصرفات والأفعال الإنسانية، تصرفات كانت بمثابة الأساس في تحديد ملامح الحضرية، وإن كان الاهتمام بدراسة العمارة والمدن بدأ منذ أقدم العصور بسبب مركزيتها الحضارية وتركزها الحضري، وما تنطوي عليه من خصائص سياسية واقتصادية وسمات اجتماعية وثقافية والشيء الذي ساعد على ظهورها هي المعطيات الفلسفية والأثرية والتاريخية والبيئية التي أبرزت ديناميتها وتحولاتها منذ أقدم العصور "في إطار الزمان والمكان". وإذا كان هدفنا إبراز مفاهيم عن المدن الإسلامية ونشأتها وملامحها المرفولوجية والاجتماعية والثقافية وغيرها، فالجدير بالذكر قبل ذلك هو تسليط الضوء على العمارة والعمران الذين ارتبطا ظهورهما بعوامل ومؤثرات البيئة، المساهمة الكبرى في تشكيلهما، عمارة ساعدت الإنسان على العمل ومنحته القدرة على تصميم المباني وتشكيل أنماط الحياة، وهذا بالتحديد ما اتصفت به العمارة الإسلامية التي تبلورت نتيجة لسيطرة العوامل الإيكولوجية والبيئية والمناخية في كل مكان ارتبط اسمه بالحضارة الإسلامية وعمارتها. الأكيد أنها لم تتأتى صدفة بل لخصوصية المكان الذي ظهرت فيه "جل الأماكن التي عرفت نماذج عمرانية إسلامية تتميز بمواصفات بيئية متشابهة "مناخ حار وجاف" ففرض أنماط عمرانية متشابهة ومقاومة لظروف البيئة. ليست وحدها من ساهمت في إنتاج العمارة

الإسلامية بما يتوافق وخصوصياتها، بل لعبت عوامل أخرى أدواراً في تحقيق تلك العمارة، عوامل لا تقل أهمية عن البعد الإيكولوجي أبرزها العامل الديني الذي طبع شكل العمران في العالم الإسلامي لما له من تأثير فكري على المجتمع وترجمته لتطلعاته، ويؤثر العامل الديني على الطابع العمراني للمباني في أي مجتمع بصورة كبيرة ربما حتى أكبر من عوامل حضارية أخرى التي تتبع في تحولاتها التقلبات التي يتعرض لها المجتمع في حال عدم ترجمتها لتطلعاته، هذا يدل على ثبات العامل الديني وعدم خضوعه المباشر لمختلف الأشكال الاجتماعية وبالتالي اتسامه بالثبات النسبي.(18)

وكما هو معروف ساهم ظهور الإسلام بمختلف تشريعاته في تفصيل حركة حياة المجتمعات الإسلامية، باعتباره دينا مدنيا أعطى بتعاليمه ميزات خاصة للعمارة والمدن الإسلامية عدت كلها خصائص حضارية، حيث رأى تيار من العلماء أن سماتها اقتبست من تعاليم الدين وأصول الفكر والفقه الإسلامي، الذي لطالما ساهم في تطوير مظاهر الحياة الحضارية عند المسلمين، كونها تعاليم تدور في فلك حياة المجتمعات الإسلامية خصوصا التي تعيش في المدن. انتشرت هذه الحالة لفترات طويلة لكن ما لبثت أن حلت محلها تشريعات وقوانين أخرى تميزت بوضعيتها، ما أثار تساؤلات على الصعيد الفكري ومحاورات عديدة اجتهد العلماء في الإجابة عنها وعن تلك التغيرات التي طرأت عليها، بدءا من اختلاف أراء العلماء في فكرة العمران الإسلامي كتسمية حيث رأى البعض أنه لا يجوز أن نصف المباني والعمائر التي وجدت في مختلف مناطق العالم الإسلامي عبر التاريخ بأنها عمائر إسلامية، بسبب أن الكثير من العلماء رأوا أنه لا علاقة بين الدين والعمارة، ولو كان الأمر كذلك لنطبق ذلك على غيرها من العمارة "بوذية، هندوسية، مسيحية، يهودية" لأن أصحاب هذا التيار مقتنعون بأن مصدر البناء والتشييد لا ينبع من التعاليم الدينية وحدها بل من تعاليم أخرى اجتماعية واقتصادية وثقافية، ربما يكون أصحاب هذا التيار محقون لأننا أول ما قلنا: "العمارة الإسلامية ارتبط ظهورها بالعوامل الإيكولوجية". لكن في نفس الوقت ليست وحدها من ساهم في ظهور العمارة والمدينة والتمدن لدى المسلمين(19)، بل الدين كان له دور في ذلك أيضا. اختلاف الآراء وضع فكرة نشوء العمارة الإسلامية بين محكين، محك يرى أنه لا توجد علاقة بين الدين ونشوء وتطور المدن الإسلامية، وهذا ما أعطاها النظرة الشكلية لأنه وبموجب هذه العلاقة تصبح العمارة الإسلامية مجرد مباني أثرية تتسم بمواصفات وخصائص فنية زخرفية، في حين يرى التيار المدافع عن فكرة علاقة العمارة والتمدن في الإسلام بالتعاليم الدينية بأنه من المستحيل

فهم العمارة الإسلامية بمعزل عن الدين، فهو من وجهة نظرهم يمثل جوهر العمران الإسلامي ومصدر إلهامه الأساسي والعامل الأول في بناء شخصيته المتميزة والمتفردة عن باقي الطرز المعمارية، طبعا وجهة نظر هذا الفريق تقف عند فكرة أن الإسلام كدين شامل وكامل هو من حدد أطر العلاقة بين العبد وربّه، وبينه وبين مجتمعه، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة الإنسان المسلم إلا ووضع لها إطارها النموذجي الواجب الإتباع وعلى رأس تلك الأطر، العمران والبناء والتشييد والهندسة . فالإسلام ما كان ليهمل مسألة تنظيم حياة ومعيشة المسلمين وبالطبع أسلوب عمارتهم للأرض. بالعودة إلى البيئة التي كان لها نصيب كبير في نقاشات العلماء وأبحاثهم خصوصا المهتمين بالعمارة الإسلامية، لاحظنا أن ردود أفعال معظمهم ركزت على ربط معطيات البيئة في العالم الإسلامي بالمناطق الصحراوية مركزة في غالبيتها على المؤثرات المناخية ودورها في بلورة عمران خاص وفريد من نوعه، على غرار دراستنا هذه فهناك حقيقة مفادها أن الإسلام لم ينتشر فقط في المناطق الصحراوية القاسية المناخ، بل امتد وجوده إلى مناطق كثيرة تختلف إيكولوجيتها تماما عن إيكولوجية الصحراء "أوروبا، آسيا الأندلس" وإن مثلت الصحراء النسبة الأكبر، كما أن هذه الدراسات ركزت على عمارة المساكن دون سائر الأنواع الأخرى من العمائر "الدينية والمدنية".(20)

بينما نرى نحن أنه لا يمكن فهم العمارة الإسلامية إلا بنظرة أكثر شمولية وأكثر عمقا فالعمارة الإسلامية شكلتها وأنضجتها روافد عدة "دينية ومناخية وحضارية" وهذه الروافد في مجملها تمثل الرؤية الأكثر شمولا لمفهوم البيئة الدينية والاجتماعية والثقافية، وسنوضح كيف ذلك لاحقا لأن ذلك سيسمح لنا بمعرفة أسس العمارة الإسلامية ومكوناتها وخصائصها والبنية المجتمعية التي قامت عليها وهذا هو المقصود بالشمولية، أي عدم الاقتصار على جانب واحد وطبعا كل هذا باستخدام رؤى فكرية مختلفة، ولتحقيق هذا الهدف عكفنا على تقسيم الجانب النظري من البحث إلى مدخل تمهيدي يغطي المستوى العام من الدراسة، ويساعد على فهم العديد من الأفكار والمفاهيم الأساسية المشكّلة لخلفيات البحث كمفهوم المدينة الإسلامية والعمران الإسلامي والمصطلحات المرتبطة بهما، مع تبيان جذور وخصائص المدن الإسلامية واستعراض موجز للعوامل التي ساعدت على تكوينها، مع إبراز حيز للحديث عن تفاعلات ومؤثرات تخطيط المدن الإسلامية وتصميم مبانيها وخواص تلك التصميمات خصوصا المتعلقة بالمساكن وأهم مراكز التجمع السكاني المعبر عن تفاعل الناس . مسائل كهذه من شأنها تحديد اتجاه الدراسة وإعطاء القارئ صورة شاملة عن تخطيط المدن

الإسلامية "مرافق خدمات" وعلاقتها بتنظيم حياة المجتمعات الإسلامية، ولو بدأنا بتقديم بسيط يهدف إلى تعريف المدينة الإسلامية لوجدنا أن هناك الكثير من الإشارات التي ترجع أصل الكلمة إلى مصطلح "دين" ليس فقط في اللغة العربية بل في اللغات السامية كالأرامية، وارتباطها بمصطلح القانون عند الأشوريين والأكاديين وبمصطلح "القاضي" عند الأراميين "توضيح هذه التفسيرات وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف والكثير من المعاجم العربية" هذه التفسيرات اللغوية لمصطلح المدينة يعطي إشارات واضحة تبين كيان المدينة المادي والاجتماعي، والدليل على ذلك قول "ابن منظور" "أن المدينة هي حصن يبنى في أصطمة من الأرض وكل أرض يبنى عليها حصن في أصطمتها" فهي مدينة من منظور اجتماعي، بعد المادي الذي قدمه "ابن منظور". من جهته ذكر "الفيروز أبادي" أن المدينة تعادل الأمة، وهو أمر يتوافق مع تعريف المدينة وكيفية نشأتها الذي أشار إليه "القزويني" الذي ذكر أنه "عند حصول الهيئة الاجتماعية" أي لو اجتمع البشر في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح ولو تستروا في الخيام لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب كما ترى في القرى التي لا سور لها لم يأمنوا صولة ذي بأس فأكرمهم الله تعالى باتخاذ السور والخندق والفصيل فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار... واتخذوا للمدن سورا حصينا وللسور أبوابا عدة حتى لا يتزاحم الناس بالدخول والخروج بل يدخل المرء ويخرج من أقرب باب إليه.(21) لهذا التعريف دلالاته المتصلة مباشرة بالمقاييس والمعايير الحضارية التي تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان الأخرى "فالفيروز أبادي" يشير بصراحة إلى أن المدن لا تقام إلا في حالة تواجد هيئة اجتماعية، وكذا إشارته الصريحة إلى أن المدن لابد وأن تقوم على أسوار تحصنها كدلالة حضارية على مادية المدن، وطبعا هذه المواصفات طبعت المدن الإسلامية وشكلت حياة سكانها وأبرزت كل ما أحيط بها من إبداع وفن وترف، وأيضا بساطتها خصوصا في مراحل نشأتها الأولى والتي كانت تتناسب مع مكانة المسلمين الاجتماعية، حيث عمد المسلمون إلى تشكيل عمارتهم جراء تأثرهم بحياتهم اليومية وعاداتهم وتقاليدهم، وربما يكون "ابن خلدون" أبرز ذلك في مقدمته بقوله "إن تخطيط العمارة الإسلامية وضعت العادات والتقاليد ضمن شروط عمارتها الأساسية، وهي سمات جعلت المسلمون يتميزون عن غيرهم ربما بسبب اتخاذها أساليب معمارية جديدة تنظم المدن اختلفت عن حضارات الرومان واليونان، والمصريين... إلخ" حتى لو تأثروا ببعض أساليب بناءهم مستغلين كل الإمكانات التي تتماشى والعقيدة الإسلامية، هذه تعريفات مختصرة للمدينة الإسلامية الهدف منها ليس فقط

تحديد المفهوم، بل إبراز أبعاده وتفاعلاته مع واقع المدن الإسلامية التي ارتبط وجودها بعوامل عدة منها على وجه الخصوص العامل المرتبط بالبيئة الاجتماعية "العوامل الاجتماعية" التي تحكم العادات والتقاليد والقيم، تلك القيم التي ترتبط بسلوكيات الإنسان وعلاقاته بالآخرين والمجتمع ككل . ففن العمارة والبناء لطالما شكّل الصلة الوثيقة في المجتمع، وعليه دراسة أي طابع عمراني لأي مجتمع يستوجب إبراز الحالة العقلية والوجدانية للمجتمع، وكذا عاداته وتقاليده التي تساهم في إفراز وظهور طراز معماري معين يتميز به هذا المجتمع دون سواه، وعندما نطلق مصطلح "البيئة الثقافية"(22) على الثقافة فإننا نعني بالتأكيد جانبا من البيئة الكلية للإنسان المشتملة على "معرفته وعقائده وفنونه ومقدساته إضافة إلى ما يمارسه من عادات وتقاليد وأعراف اكتسبها باعتباره عضو أساسيا في مجتمعه،" القارئ لهذه الجملة الشهيرة قد يعتبرها تعريفا للثقافة لكنها تعني تفاعل الإنسان مع بيئته الطبيعية التي يحيا داخلها ومن خلالها يقوم باستيفاء حاجاته الروحية والمادية التي تنطبق حتما على تمثلاته العمرانية في مجال البناء، بدورها العوامل السياسية التي يقصد بها "مسؤولية الحكم والعلاقات العامة" داخلية كانت أو خارجية تلعب دوراً هاماً في بناء المجتمعات خاصة إذا كانت تطبق بالطرق والأساليب الديمقراطية، فمن شأن ذلك أن ينعكس على النشاط الفكري لفن وإبداع العمارة ،والعكس من ذلك إذا ما اتسمت السياسة بالتدهور عرفت العمارة تراجعا على صعيد العلاقات الخارجية، فإذا اتسمت بالودية ساعدت على تبادل أفكار العمارة وإشاعتها بل وتجديدها وتنويعها ما يساهم في إشباع رغبات المجتمعات العمرانية والمادية، طبعا بما يتوافق ورغباتها وميولها، بدوره يتأثر الطابع المعماري بالعوامل الاقتصادية التي يعتمد عليها فيما يسمى بالتمويل المادي لعمليات البناء والتشييد والتأثير المباشر على الأساليب المستخدمة، هذا الانعكاس يمس البيئات الحضرية التي تستجيب بدورها للظروف البشرية، وهذا من خلال الظروف البيئية المتمثلة في تطوير الطرق المتعددة للحياة والعالم الإسلامي نموذجنا الحضري عرف منذ القدم ارتباطا بيئيا في مجال العمران ليس فقط بالمدن بل حتى في البوادي والقرى التي تمارس حرفة الزراعة ،حرفة جعلتها لا تعرف الاستقرار ما أعطاها صفة الإغراق في المحلية. وهي الصفات الأساسية للبيئات الحضرية سواء كانت صحراوية أو ريفية، صفات انعكست على العمارة من حيث ثبات العوامل "طبيعية وبيئية" ثبات خلق تكراراً في متطلبات الإنسان بالصورة نفسها تقريبا خصوصا في البدايات، ما أدى إلى وجود مباني تقليدية وفّت الاحتياجات الوظيفية للناس من خلال معطيات البيئة المحلية والخبرات

المتوارثة عبر الأجيال مستغلة بعض الجوانب التي لا يمكن ألا تكون ظاهرة للعيان عند الحديث عن العمارة الإسلامية. (23)

العوامل المذكورة أنفا تعبر عن فكر وفلسفة عمرانية إسلامية لم تتخذ سبيلها نحو التوسع عن طريق الفقه والتاريخ والجغرافيا والرحلات والمعاجم فقط. ولكنه فكر اتجه نحو العمق في وجهة ليست أقل قوة من الأولى وهي "العملية الفلسفية"، وإذا كانت الوجهة الأولى وصفية تستند إلى الواقع المعاش فإن الثانية كانت تتجه إلى تعميق الفكر العمراني وربطه دائما بقيمه الاجتماعية وإلى استخراج مبادئه الأساسية من الشريعة ومن طبيعة النفس البشرية ومن مبادئ الاقتصاد والفلسفة وكلما زادت الحاجات الإدارية والمالية تطورت المدن الإسلامية وتوالى نموها وازدهارها وموتها وازداد التمدن وأصبح أكثر عمقا ونموا وتوالدا وتجدرا، وتوالدت في إطاره الحاجات الفكرية والعملية المرتبطة أكثر فأكثر بالفكر الإسلامي العام، هذا الفكر لم يظهر في بدايات نشأة المدن وهذا بديهي لأنه في البدايات عرف البساطة والتقشف. لكن ما لبث أن أصبح مجالا يتفاعل مع مختلف الحضارات التي أخذ العرب والمسلمون في استيعابها، ولعل "الجاحظ" كان واحداً من الأوائل الذين ظهر عليهم ذلك "تأثير المدارس الحضارية المختلفة" في كتاباته مثل كتاب الضائع والذي تحدث فيه عن المدن الكبرى "بغداد، الكوفة، البصرة، الفسطاط، نيسابور، مرو، بلخ، سمرقند ودمشق" ويبدو أن ثقافته الموسوعية وضّحت بعض أسس الفكر العمراني الإسلامي المتأثر بالنزعة اليونانية. وتستوقفنا محاولة يونانية–رومانية المنبع حاولها "الفارابي" في كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" (24) وهي رؤية فكرية وفلسفية وسياسية حول ما يمكن أن تكون عليه المدينة، مقتديا بالطوباويين "أفلاطون" "القديس أغسطين" مع ميزته التوافقية التي جعلته يجمع بينها وبين الأفكار الإسلامية، التي يرى فيها أن اجتماع المدينة هو أفضل أنواع الاجتماع، وأن الإنسان مدني بطبعه وأن الاجتماع البشري سبيله تحصيل الكماليات، وأن الحياة في المجتمع المدني ضرورة لكل البشر فالمجتمعات عند الفارابي نوعان "كاملة وناقصة" الكاملة مجتمعات عظمى والوسطى هي كل أمة على حدة، والناقصة هي تجمعات "القرى والمحلات والبيوت" وهذا الاجتماع جزء من الاجتماع المدني والاجتماع في المحلات والقرى إنما يؤدي إلى المدينة والمحلات أجزاء منها كما أن القرى خادمة للمدينة، فالمدينة هي أولى درجات الاجتماع الكامل والصورة المثلى للملك. والعلاقة المميزة للمدينة الفاضلة عند الفارابي هي شيوع التعاون بين أفرادها واتصافهم بالعلم والنظام وعشق الفضيلة وخضوعهم لمبدأ تقسيم العمل، هذه الأفكار التي

تحدث عنها "الفارابي" تحدث عنها من وجهة نظر إسلامية معبرة عن المدن وأنواعها، لكن هذا المذهب الفكري النظري كان غريبا على المجتمع الإسلامي ولذلك لم يجد صدى في مجال الفكر العمراني، والدليل فشل محاولات بناء المدن على الطريقة اليونانية في العهد الأموي. ولم ينجح "الفارابي" في إبراز فكره العمراني المتأثر بالفكر العمراني اليوناني، ومن حقق ناجحاً كان تيار التفكير العمراني على أساس إسلامي، كونه مستمد مما هو عملي وواقعي، ومن رواد الفكر العمراني الاسلامي "قدامه بن جعفر" (310هـ/337هـ-922 م/948م) وهو من أكثر المتأثرين بأفكار الأوائل وأبعد ما يكون عن الفقهاء وأفكارهم، فقد قدّم في كتابه "الخراج وصنعة الكتابة" تحليلا نظريا للمدينة والعمران وهو المتأثر بدوره بالفكر اليوناني لكنه يتأثر أكثر بالفكر العمراني الإسلامي الذي تحدث عنه في الباب الثاني من كتابه عن السبب الذي احتاج فيه الناس إلى المدن والاجتماع بقوله "لمّا كانت أفعال الناس المميزة وتصاريفها كثيرة مختلفة، وحاجة الإنسان بسببها وبسبب الجسم الذي لم يكن للنفس في هذا العالم بدمنه والسعة منتشرة وتبعت هذه الاحوال والصناعات والمهن فصارت على حسبها في الكثرة، ولم يكن في وسع إنسان واحد استيعاب جميع الصناعات المتفرقة، وكان لابد للناس من جميعها ضرورة، قادتهم الحاجة إلى الترافد واستعانة بعضهم ببعض ليكمل باجتماعهم جميعهم، ولم يكن بد ضرورة منه لأن هذا يبذل لهذا قمحا يتقوته، وهذا يعمل لهذا ثوبا يلبسه وهذا يصنع لهذا بيتا يسكنه، وهذا ينجز لهذا بابا يغلقه على بيته، وغير ذلك مما لا يكاد العدد يدركه من فنون الصناعات وضروب الحاجات، لأنه لم يكن في استطاعة إنسان واحد أن يكون فلاحاً ونساجاً وبناء ونجاراً وإسكافيا ولو أنه كان محسنا لهذه الصناعات كلها لم يكف وحده بما يحسنه منها، ثم يجوز بعد هذا كله أن تأتي صناعات لم يكن يتأتى للواحد من الناس النفاذ في جميعها كالطب والفلاحة... هذا إلى أن كلا منها يحتاج إلى أوصاف جسمية وعقلية تنجم عن العوامل المحيطة، ولهذا تتنوع الوظائف والمهن التي يقوم بها الناس فتحدث الكثيرة في المدينة وكان علم ذلك ما بقي عند الله، فطر الإنسان محباً للمؤانسة مؤثرا للاجتماع من ذوي جنسه فاتخذ المدائن والأمصار واجتمعوا فيها للتعاقد والتوازن" (25) وهكذا يجعل "قدامة" ظهور المدينة متصلا بأمرين:

- تنويع الاقتصاد وكثرة المهن الضرورية لسد الحاجات لدى الإنسان.
- فطرة الإنسان التي فطره الله عليها من حبه الاجتماع مع بني جنسه.

هذه المداخل الفلسفية والفكرية ليست الوحيدة في التراث الإسلامي حول المدينة والعمران، بل هناك الكثير من المداخل التي تستدعي الضرورة الرجوع إليها في مواقع أخرى من الدراسة، لكن قبل ذلك ولتحقيق الهدف من هذا المبحث والدراسة في مجال المدن والعمارة الإسلامية، تم تقسيمها إلى مدخل تمهيدي تم التطرق فيه إلى محاور وضحت العلاقة بين العمارة "المدن" والبيئة خصوصا الجذور التصميمية التي تعود إلى الحضارات القديمة، وطبعا ساهمت في بلورة العمارة الإسلامية وإلى تأثير العوامل الدينية التي عدت العمود الفقري للعمارة الإسلامية خاصة على صعيد الخصائص التصميمية للمسكن الإسلامي، الذي يأتي على رأس المباني المدنية والتي يتباين أسلوب تصميمها في كل من البيئة الحضرية "المدن" وغير الحضرية "الريفية والصحراوية". محاور تعطي للقارئ فهم أشمل عن الحضارة الإسلامية التي تعد إحدى أهم المحطات في تاريخ الحضارات الإنسانية. وذلك من أجل استجلاء الجوانب التي لا يمكن أن تكون ظاهرة للعيان عند الحديث عن العمارة الإسلامية، فالعمارة الإسلامية تعتبر محطة هامة في تاريخ الحضارات الإنسانية. ولقد قام العلماء والمتخصصون في مجال الآثار والعمارة الإسلامية بجهود كبيرة لمعرفة الأسس المعمارية والحلول الهندسية التي ابتكرتها هذه العمارة، كما اجتهدوا في تصنيف ما درسوا من آثار وعمائر إسلامية منتشرة في كافة أرجاء العالم في محاولة لاستكشاف أوجه الشبه والاختلاف بين طرز العمارة الإسلامية نتيجة لاختلاف التفاعلات الحضارية والتي اختلفت من بيئة لأخرى ومن شعب لآخر. ومن أشهر التصنيفات في هذا المجال تصنيف الأثري الألماني "إرنست كوهنل" (ERENST KUHNEL) الذي أورده في كتابه المختصر المعروف باسم "فنون الإسلام" والذي ترجم إلى العربية، كتاب قام على تقسيم العمارة حسب العصور والأقاليم، والمزج بين هذه وتلك، أما "كريزول" (CRRSWEL) فقد اتبع تقسيما يقوم على أعمال معينة لا على عصور ومدارس، وبذلك يكون أقرب إلى الوصف التاريخي لأهم آثار العمارة الإسلامية التي ظهرت في منتصف العصر العباسي، وتتبع علماء آخرون تاريخ العمارة الإسلامية مثل "جورج مارسيه" في كتابه "الوجيز في فن الإسلام" الذي يعد من أهم وأشمل ما تم تأليفه في الفنون الإسلامية.(26)

1.3. العمارة العربية الإسلامية:

يعد تطور العمارة الإسلامية جزءاً ومظهراً من مظاهر التطور السياسي في العالم الاسلامي وما لفت انتباهنا عند اطلاعنا على أساليب دراسة العمارة الإسلامية، تصنيفان الأول أنجزه

"جوستاف لوبون" في كتاب ألفه عام 1884 سماه "حضارة العرب" التصنيف الثاني قام به "جون هوج" (HOAG JOHN) في كتابه "العمارة الإسلامية" عام1877ويقوم التصنيفين.

1.1.3. تصنيف "جوستاف لوبون" وتطور العمارة الاسلامية:

يرجع "جوستاف لوبون" الاختلاف في فن العمارة العربية الاسلامية إلى اختلاف البلدان التي نشأت فيها وتفاعلت مع سكانها، مقسما تصنيفه إلى أربع مراحل أساسية:

أ. **مرحلة الطراز العربي قبل ظهور النبي " صلى الله عليه وسلّم":** يرى أن هذا الطراز لا يزال مجهولاً باستثناء ما يستشف من بقايا اليمن القديمة ومن البقايا الأثرية التي أقيمت في الممالك السورية القديمة كمملكة الغساسنة.

ب. **الطراز البيزنطي العربي:** والذي نشأ نتيجة امتزاج المؤثرات الشرقية بالمؤثرات الإغريقية الرومانية، فالعمارة العربية في مراحل تكوينها الأول والتي حدّدها "لوبون" في القرن السابع والعاشر الميلادي تم تقسيم أنماطها العمرانية حسب المناطق والبلدان.

ج. **الطراز البيزنطي في الشام**: أهم منجزاته قبة الصخرة بالقدس، والمسجد الأقصى في فلسطين والمسجد الأموي في دمشق والتي بنيت جميعها ما بين القرن السابع والحادي عشر.

د. **الطراز البيزنطي في مصر:** ظهر ما بين القرنين السابع والحادي عشر، من أهم معالمه جامع عمرو بن العاص، وابن طولون، وإن كان "جوستاف لوبون" يرى أن هذه المرحلة عرفت بداية الخلاص من المؤثرات البيزنطية.

ه. **الطراز العربي الإغريقي:** من أهم سمات هذا الطراز جامع القيروان، ومساجد الجزائر القديمة وبقي تأثير الفن البيزنطي ثابتا في هذه المنطقة إلى يومنا هذا خاصة على صعيد تصميم القباب.

و. **الطراز العربي الخالص:** ظهر في مصر في القرن العاشر والخامس عشر، وبلغ كماله وذروته عام 1468 أبرز معالمه "جامع قاتيباي" ولكنه لم يلبث تراجع بفضل سلسلة تحولات ساعدته على ابتكار أشكال جديدة، أما في الأندلس وعكس مصر تخلص سكان الأندلس من البصمة البيزنطية ومؤثراتها بسرعة، ولم يبق من البنايات التي أقيمت على ذلك الطراز غير ما هو قائم في غرناطة وإشبيلية.

ز. **الطراز العربي المختلط:** هذه المرحلة عرفت اختلاط بين فن العمارة العربي وفن العمارة الغربي من خلال المباني التي أقيمت، وسنحدد عددا منها في إسبانيا ممثلة في معابد اليهود وفي كنيسة "سانتا ماريا لابلانكا والترنسينو" أو "كنيسة الانتقال"، كما وجدت مباني

تمازجت مع الحضارة الفارسية بعد ظهور الإسلام، ولاسيما مساجد أصفهان، وهناك طرز أخرى اختلطت مع الطابع الهندوسي في الهند ومناطق أخرى. (27)

يلاحظ من تصنيف "جوستاف لوبون" أنه اتخذ من الطراز العربي أساسا لفهم وتصنيف العمارة الإسلامية التي انتشرت في مناطق وبلدان مختلفة، من خلال دراسة تفاعلاتها مع الطرز المعمارية الأخرى بداية من مركز التكوين الأول. والذي جعل فيها التأثير الأعظم للطراز البيزنطي الذي كان قد التقى مع خصائص من الطرز المعمارية السابقة سواء كانت شرقية أم غربية وقد عبّر عن هذه المرحلة بمسمى "الطراز العربي البيزنطي"، وبعد ذلك ننتقل إلى ما يمكن أن نسميه مرحلة النضوج وظهور الملامح الشخصية المحددة للعمارة الإسلامية، وهو ما أطلق عليه "الطراز العربي الخالص" (28) وتنحصر هذه المرحلة في إطار زماني ومكاني يسمي "لوبون" تصنيفه "بالطراز العربي المختلط"، ويرى أنه تشكل في شكلين أساسين من التفاعلات، الأول نتيجة تأثير فن العمارة العربي على غيره من مباني غير المسلمين في الأندلس، والثاني يظهر في تأثير فن العمارة النصراني على فن العمارة العربية. أخيراً سلّط "لوبون" في تصنيفه للعمارة الإسلامية على تأثير الشعوب والدول التي اعتنقت الإسلام وساهمت في بناء الحضارة والعمارة الإسلامية.

2.1.3. تصنيف "جون هوج" وتطور العمارة الإسلامية:

انتهج في تصنيفه للعمارة الإسلامية أسلوباً يعتمد على نظرة أكثر شمولية في التقسيم مستخدما في ذلك بعض المصطلحات عند دراسة الحضارات الكبرى في العالم الجديد وقد حدّد في تصنيفه ثلاث فترات أساسية:

أ. **فترة ما قبل الكلاسيكية (PRE–CLASSIC):**

مثلت مرحلة تشكل الفن الإسلامي وشملت فترة الخلافة الأموية والعباسية ودويلات الأغالبة في شمال إفريقيا، تميزت فترة الكلاسيكية في العمارة الإسلامية على حد تعبير "جون هوج" بالاستخدام المكثف والملحوظ للأشكال والتقنيات المعمارية من الحضارات السابقة، إلى جانب انسياب وانتقال الأفكار المعمارية ما بين مناطق العالم الإسلامي، ويرى جون هوج أنه في هذه الفترة وحتى القرن الحادي عشر كانت توجد منطقتان تأثرت العمارة الإسلامية بأساليب وأفكار البناء فيهما.

- **المنطقة الأولى**: شملت الجنوب الشرقي للأناضول، وشمال سوريا ضمت هذه المنطقة دمشق وما جاورها والرصافة وفلسطين خاصة القدس إلى جانب عمّان والأردن ومصر وشمال إفريقيا.
- **المنطقة الثانية**: فيرى جون هوج أن بداية مرحلتها ارتبطت ببداية انتشار المقرنصات وهي نظام معماري فارسي سريعا ما انتشر في مناطق العالم الإسلامي خاصة العراق.

ب. المرحلة الكلاسيكية وما بعد الكلاسيكية:

تبدأ هذه المرحلة مع بداية حكم المرابطين وتقابلها الفترة المتأخرة من حكم الفاطميين في مصر وحكم الأيوبيين والسلاجقة الذين أبدعوا الطراز الكلاسيكي للعمارة الإسلامية في هذه المنطقة وأيضا مناطق الأناضول بتركيا والهند. في هذه الفترة عرفت تقنيات وأفكار البناء اتساعا كبيرا وانتقلت أشكاله من مكان لآخر بحرية، باستخدام تقنيات الزخارف والحجر والموزاييك والبلاطات الملونة والجص "الجبس" مثل استخدام السلاجقة لتلك التقنيات بإضافة الخشب، المستمد من تأثيرات العمارة الخشبية الهندسية القديمة. وقد استمرت عملية انسياب الأشكال والأفكار في المرحلة الكلاسيكية المتأخرة، والتي بدأت أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر تميزت هذه الفترة بتقليل مقاييس الزخارف وهو نفس الطراز الذي شهدته الهند.

مرحلة ما بعد الكلاسيكية (POST CLASSIC):

يستعمل جون هوج مصطلح "ما بعد الكلاسيكية" للدلالة على آخر مراحل الابتكارات التي ساهمت في تطوير العمارة الإسلامية، وقد حددها بثلاث فترات حكم في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وإن كانت متزامنة الأولى: الإمبراطورية العثمانية والثانية: الحكم الصفوي الثالثة: الحكم المغولي في الهند. ولكل إمبراطورية خصوصيتها المعمارية ومواد الإنشاء المحلية المتوافرة في بيئتها مما أعطى كل طراز اختلافا وتميزا ملحوظا مع إعطاء حلول متميزة لبعض المشاكل المعمارية القديمة، وبالرغم من التقارب الجغرافي بين مناطق الإمبراطوريات الثلاث فإن ذلك لم يدعم التبادل الثقافي أو الحضاري. فالأفكار والحرف كانت تنتقل بين مناطق الامبراطورية كل على حِدى. إن هذا التصنيف الذي اعتمده "جون هوج" يقوم على رؤيته للتفاعلات الحضارية التي مر بها المعمار الإسلامي على ثلاثة مراحل أساسية الأولى ما قبل الكلاسيكية في القرن الحادي عشر الميلادي وتأثره ببعض الحضارات خاصة البيزنطية التي مثلت مرحلة النضج والاستقلال الفني للعمارة الإسلامية أسماها جون هوج الكلاسيكية

والكلاسيكية المتأخرة انتشرت فيه بعض التفاصيل الزخرفية ومرحلة ما بعد الكلاسيكية تمثلت في عمارة الإمبراطورية العثمانية بعد فتح القسطنطينية والصفوية في إيران والمغولية في الهند. (29)

إن المتأمل للطرز المعمارية بصفة عامة والطرز الإسلامية بصفة خاصة، يجد أنها نشأت بطريقة تلقائية، حيث تفاعل ذكاء الانسان مع بيئته، ولما كانت البيئات تختلف فقد جاءت هذه التفاعلات مختلفة بين بلد وآخر، ومن هنا تبرز أهمية دراسة طرز العمارة الإسلامية بشيء من التفصيل من أجل التعرف على المؤثرات والتفاعلات الحضارية التي اختلفت من بيئة لأخرى وأفرزت طرزا ومدارس فنية مختلفة.

2.3. تأثير العمارة الإسلامية على مباني الغرب:

إذا كانت العمارة الإسلامية قد تأثرت في مراحل نشأتها الأولى بما سبقها من الحضارات القديمة من خلال العديد من التفاعلات الحضارية، فقد استمرت تلك التفاعلات لتصل بالعمارة الإسلامية إلى مرحلة كبيرة من النضج في شخصيتها الفنية حتى وصلت إلى درجة التأثير على فنون الغرب. وقد حدّد "الدكتور زكي محمد حسن" قنوات الاتصال التي أثر من خلالها الفن والعمارة الإسلامية على فنون الغرب في العصور الوسطى بقوله: "وليس مثل هذا التبادل الفني غريبا في شيء فقد اتصل الشرق الإسلامي بأوروبا في العصور الوسطى بواسطة التجار في الأندلس وجزيرة صقلية" وبفضل مشاهدات الحجاج المسيحيين للعمارة العربية في الأراضي المقدسة، ثم بواسطة الحروب الصليبية، فضلا عن اتصال الغرب بالدولة العثمانية التي امتد نفودها للعديد من الدول الأوروبية خاصة في منطقة البلقان، ويتجلى تأثير العرب على الغرب في مجال العمارة من خلال تمازج فنونهم مع بعضها البعض حيث نشأ طراز عرف باسم "الطراز المدجن"، هذا يدفعنا للحديث عن امتياز المدينة الإسلامية بنسيج عمراني متضامن ومتماسك في بنيته ومكوناته المادية والمعنوية، وقد تشكلت البنية المادية بما يتماشى مع إيكولوجية المنطقة التي تواجدت فيها ما أعطى عمارتها طابع الانبساط التام للأنسجة العمرانية، حيث امتدت تلك الأنسجة بشكل أفقي أعطاها صورة التجانس مع عدا الشواهد الدينية "المآذن، القباب" التي تبرز مرتفعة فوق سطح الأرض مشكلة شواهد رمزية ولهذا اتخذ لبناء المدن الإسلامية خواص نذكر من أبرزها:

- الانبساط التام للأنسجة العمرانية.
- انفتاح الوحدات البنائية نحو الداخل.

– التكرار إلى جانب التنويع في الأشكال الحضرية.

– عضوية التكوين العام.

– وضوح التدرج في العلاقة بين العام والخاص، وهو ما يختلف عن مثيلاتها في الحضارات الأخرى.

– التلاحم والتضام بين الكتل البنائية وخاصة في المدن الصحراوية التي تقوم على ثقافة عمرانية تتشابه على صعيد الملامح المرفولوجية وملامح الحياة الاجتماعية والمكونات الثقافية.

ومن الخواص التي ميزت أيضا النسيج العمراني للمدن الإسلامية هو تناقض هندسة خطوط بناءها الخارجية مع الخطوط الداخلية للأبنية العامة، فقد اشتقت المدينة الإسلامية كثيراً من تفاصيلها من المدينة الرومانية التي تأثرت بها فترة بسيطة اكتسبت بعدها شخصيتها المستقلة فالمدينة الإسلامية عبارة عن إبداع ذاتي مستمد من اختلاف حياة الناس وخصوصيتهم التي بدأت اليوم تتراجع بفعل تغلب الغرب والابتعاد عما عرفت به من احتواء داخلي. وبالعودة إلى أشكال البناء في المدن الإسلامية ساهم المسلمون في تنويع أشكال العمارة حسب خصوصية المكان "الجغرافية والاجتماعية" ولعل العمارة الإسلامية بمفهومها البيئي والحضري من أكثر النشاطات تجسيدا للواقع الحضاري للأمة. ولهذا أشيدت المساكن في عصور الإسلام بما يتلاءم مع الحياة العربية في عاداتها وتقاليدها التي كانت في البداية بسيطة المظهر خالية من الزخرفة، تعطي إحساسا بالبساطة ما فتات أن تطورت وظهرت أساليب جديدة في العمارة كان للمساكن القسط الأكبر منها. والمعلوم أن جل المدن الإسلامية امتازت بمناخ شديد الحرارة والقسوة فقد كان لهذه العوامل حساباتها الدقيقة في عملية البناء، التي انفردت بتخطيط يتناسب مع ظروف المناخ ووفر للمسلمين التهوية والبرودة والإضاءة وقد تميزت العمارة الإسلامية بتدخل الشخصية العربية في البناء المستند على روح الشريعة "القرآن السنة" (30) ما منح المسلمين تنظيما حياتيا فريداً من نوعه، قام على الترابط والتوحد ضمن مرفولوجية المكان (31)، وقد كان للتشريع الإسلامي الفضل في تحديد طريقة عيش وسلوك وعلاقات المسلمين الاجتماعية التي وجهوها نحو تصميم عمارتهم. إن هذه العناصر وجدت بدون شك في الحضارات الأخرى، لكن ظهورها في المدن الإسلامية ارتبط بأبعاد جديدة وتنظيمات مغايرة جعلتها تختلف عن باقي الحضارات، وقد أكد "هربرت سبنسر" (SPENCER) على انسحاب السمة الإسلامية على المدن في عصورها المبكرة وصولا للعصر العثماني. وما أكد

هذه الفرضية هو إنشاء المسلمين لمدنهم بأسلوب يؤكد تمسكهم بدينهم وخصائصهم الاجتماعية وتجاوبهم ككيان حي على الدوام مع تطور حاجاتهم. ولقد تنوعت أشكال المدن الإسلامية وشخصيتها فاختلفت تقسيماتها ووظائفها التي أثرت كثيراً في نمط حياة الناس، لكن الجدير بالذكر ورغم تنوع أشكال المدن الإسلامية إلا أن الغالب عليها هو الطابع الديني "المشتمل على المساجد والزوايا والمدارس والأضرحة" دون إغفال المنشآت المدنية وعلى رأسها المساكن من أجل إبراز الحياة الاجتماعية.

4. البنية العمرانية للمدينة الإسلامية:

لا شك أن التحليل المورفولوجي للمدينة الإسلامية أهمية كبرى لمعرفة مكوناتها، ففي بداية ظهورها لم تكن مرفولوجيتها تمثل الشيء المهم. حيث كانت مخططاتها عبارة عن خليط غير منتظم من الهياكل العامة والخاصة "الأزقة الملتوية التي توجد بداخلها فضاءات وميادين كالأسواق العامة وأماكن إقامة المناسبات الشعبية'. إلا أن عدم انتظام البنية العمرانية للمدن الإسلامية لم يدم طويلاً فسرعان ما عرفت سمات عمرانية فريدة، تميزت بسمات مشتركة سواء في المشرق أو المغرب الإسلامي، لأن تشييد المدينة الإسلامية ارتبط بضوابط وشروط معمارية أساسية على رأسها المسجد الجامع والسوق الذي تحدثنا عن أهميتهما ومركزيتهما، إلا أن المدينة الإسلامية احتوت الكثير من المعالم العمرانية التي لا تقل في أهميتها عن أهمية المساجد والأسواق نظرا للأدوار التي تقوم بها. هذا يدعونا إلى الحديث عن أبرز تلك البنى العمرانية على غرار الأسوار التي تحيط بالمدينة من كل الجهات لحمايتها، مدعومة بالأبواب التي تتضمن أسوار ما أعطى المدن الإسلامية طابعها الدفاعي الذي استوجب على المسلمين فيما بعد أن يؤسسوا جل مدنهم بطابع عمراني يعتمد على الحصانة والمتانة المدعومة بالأسوار والأبواب. توسع الإسلام في المشرق والمغرب غير ملامح المدن الإسلامية، واتضح ذلك في تصميم الشوارع وشبكة الطرق الداخلية التي تعد فاعلة في حياة المسلمين، ولهذا أعطوا لترتيب المسالك والدروب والطرق أهمية كبيرة كونها تربط مركز المدينة بأحيائها وبالخارج عن طريق الأبواب، وفي الوقت الذي كانت فيه شوارع المدن الغربية تتميز بانفتاحها من جميع الجهات، فإن شوارع وطرق المدن الإسلامية تميزت بالانغلاق والتفرع والالتواء، وهذا مراعاة لظروف حياة المسلمين المحافظة. وهذا دليل على أهمية الشوارع لدى المسلمين في مجال المحافظة على الخصوصية، ولهذا تختلف أدوارها على الصعيد الاجتماعي، خاصة إذا أخذنا الشوارع الملتوية والأزقة والدروب المغطاة بواسطة سقائف تظلل الطوابق العليا للمنازل الواقعة على جانب

الشوارع موفرة جو من الراحة والهدوء للسكان بعيدا عن صخب الحركة. (32) وتمتد خصوصية العمارة الإسلامية إلى جوانب لم تتشكل من فراغ، حيث تنقسم البنية العمرانية إلى قسمين رئيسيين. بنية خارجية تشكل مظاهر المدينة، وبنية داخلية تمثل المساكن وقد امتاز سكان المدن الإسلامية بحرصهم على البناء وفق أبعاد تقوم على صيانة ديارهم وبناءها على نمط يصون حريمهم من العيون الدخيلة تماشيا مع القيم الأخلاقية والعادات والتقاليد، التي بنيت عليها الأسرة الحضرية الإسلامية، سلوكاً وتصرفات يتقيد بها نظام مسكن الحي في المدينة حتى يستجيب لنظام المجتمع الإسلامي، لأن المدينة كيان حضاري يوفر أسباب الحصانة للسكان ويهدف المخطط العمراني الإسلامي إلى عزل المساكن ووضعها بعيداً عن مسالك النقل الكبرى حتى توفر لأصحابها الراحة وهي ضوابط تفيد مقولة أن البناء في المدن الإسلامية يتميز بعدم التماسك والعشوائية، حيث تشتمل المدينة الإسلامية على طرق ثانوية وأخرى رئيسية وأزقة ملتوية ومتشعبة نافدة وغير نافدة، ويعد الزقاق الممر الخاص المؤدي إلى المجموعة السكنية في الحي الذي لا يقطنه غالبا إلا أفراد قبيلة واحدة أو أسرة واحدة... تشعب الهيكل العمراني للمدينة الإسلامية جعل تقسيماتها الخارجية الممثلة في الطرق تأخذ عدة تسميات كالدروب التي تدخل ضمن مرفولوجية المدينة الإسلامية، والتي تتصل بدورها بالمنازل والمساكن في الأحياء والشوارع وسميت كذلك كونها تحمل في طياتها البعد الاجتماعي على اعتبار أنها تحتوي على أبواب لا يدخلها الغرباء، هذا دليل على أن المجتمع الإسلامي قام على المحافظة على العادات والتقاليد أكثر من ذلك يتحدد التنقل داخل المدينة الإسلامية بواسطة الدروب والشوارع وهذا ما لا نجد له شبيه في شوارع المدن الرومانية التي تميزت بالاتساع والاستقامة والانفتاح. (33) كما لم تتماثل المدن الإسلامية في هذا الجانب مع دروب وشوارع المدن الأوربية في العصور الوسطى، لأن هذه الأخيرة تتصف باتساعها وتعرجها حتى تكون صالحة لاستعمال العربات، بينما دروب وشوارع المدن الإسلامية ضيقة ومتعرجة ولاسيما منها الطرق الثانوية والمتفرعة من الأحياء.

خلاصة:

إن ظاهرة المدن ليست بالظاهرة الأنية والمؤقتة، فمنذ نشأتها وهي تعرف نموا وتطورا في أنماط العمران والبناء وفق مقتضيات عصرها، وأيضا تحولا في أساليب الحياة المعيشية للناس من منطلق علاقاتهم الاجتماعية وقيمهم الثقافية، وقد دللّت على تلك مؤشرات كل المناطق التي طالتها الحضارة، والتي أثرت في بعضها البعض سواء عند الرومان أو اليونان أو المصريين

القدامى وصولا إلى المسلمين، كلها معطيات قامت عليها العمارة منذ وجود الإنسان وماتزال مظاهرها راسخة لكن بدرجة عالية من التعقيد، حول العمارة البسيطة الشكل "القصور" المعقدة التوجيه خصوصا على الأصعدة السوسيو ثقافية.

قائمة المراجع

1-التطور التاريخي لظاهرة الحوش في العمارة: مجلة عالم البناء، العدد 202، القاهرة، مصر، 1998، ص13.

2-عبد الفتاح وهيبة: في جغرافية المدن، د ط، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1973، ص105.

3-محمد حماد: تخطيط المدن وتاريخها، ط 1، د د ن، د ب ن، 1965، ص255،256.

4-المرجع نفسه: ص47.

5-عبد العزيز جاسم: تأملات الحضارة والاغتراب، ط 1، د د ن، بغداد، العراق، 1981، ص31.

6-المرجع نفسه: ص266.

7-صلاح الدين كشريد: المدينة المسلمة، نشر مؤسسات بن عبد الله، تونس، 2016، ص32.

8-فريد الشافعي: مئذنة إبن طولون رأي في تكوينها المعياري، المجلد 14، ج 1، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1952، ص5.

9-عبد الحليم سيد: العمارة التلقائية وأساليب لبناء، مجلة عالم البناء، العدد 100، القاهرة، مصر، ص25،26.

10-المرجع نفسه: ص30.

11-أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1973، ص53.

12-فؤاد شمس الدين: العمارة العربية الإسلامية ما لها وما عليها، مجلة الفكر العربي، عدد52، 1988، ص75.

13-أنور الرفاعي: مرجع سابق، ص55.

14-نعمت إسماعيل علام: فنون الشرق الأوسط والعالم القديم، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1979، ص123.

15-المرجع نفسه: ص213.

16-الفاروقي إسماعيل راجب، لمياء الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، ط 1، مكتبة العنان، 1998، ص265.

17-عثمان إسماعيل: العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية في المغرب الأقصى، ج 1، الرباط، المغرب، 1993، ص9.

18-يحي بوعزيز: وهران مدن تاريخية، ط 1، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، مؤسسة الفنون، 1985، ص87.

19-مصطفى شيحة: محاضرات في العمارة الإسلامية، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، مصر، 1991، ص12.

20-يوسف شريف: تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور، دار الرشيد، العراق، 1982، ص423.

21-أحمد مختار العيادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، مصر، 1985، ص100.

22-مساعد بن عبد الرحمان العنقري: المدينة الإسلامية وتطورها العمراني والحضري، سجل أبحاث ندوة تأثير المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري، المغرب، 1992، ص93.

23-جوميت مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ولطفي عبد البديع، الإسكندرية، مصر، 1995، ص213.

24-جويتين: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ترجمة عطية القومي، الكويت، 1985، ص111.

25-المرجع نفسه: ص122.

26-AHNED FIKRU, LART DU ROMAN POYET LES INFLUENCES ISLAMIQUES; PARIS; 1934.

27-ليوبولدو توريس بالباس: المدن الإسلامية الإسبانية، ترجمة ليودورو لابينيا، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2003، ص564،565.

28-السيد عبد العزيز سالم: العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، مجلة عالم الفكر، عدد 1، الكويت، 1977، ص155.

29-عبد العزيز أبو الخيل: تطور تخطيط المدن الإسلامية منذ ظهور الإسلام إلى تطبيق الاكتشافات العصرية، مجلة البناء، عدد 2، 1979، ص38.

30-أحمد قاسم الجمعة: أهم التأثيرات المعمارية والفنية المتبادلة بين العراق والمغرب العربي في العصر الإسلامي، جامعة الموصل، عدد 9، 1977، ص17.

31-السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير في العصر الإسلامي، ج 2، الإسكندرية، مصر، 1966، ص213.

32-أحمد مختار العيادي: مرجع سابق، ص88.

33-فريد شافعي: مرجع سابق، ص445.

الكاتب: د/محمد اللّافي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة- -
جامعة سوسة- الجمهورية التونسية

عنوان المقال: قبيلة النيبجيني وروما في بلاد نفزاوة (الجنوب الغربي التونسي)

البريد الالكتروني:ellefimohamed@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/09/05 **تاريخ القبول**: 2019/11/15 **تاريخ النشر**: 2019/12/31

قبيلة النيبجيني وروما في بلاد نفزاوة (الجنوب الغربي التونسي)

الملخص بالعربية:

تتطرق هذه المقالة إلى قبيلة النيبجيني الناجعة ثم المستقرة في بلاد نفزاوة الممتدة في جنوب غرب البلاد التونسية. وذلك بالخوض في إشكالية مجالها التقريبي والسعي لتفهم تطور علاقتها بروما سواء من حيث الرومنة الباكرة التي شهدتها أو من ناحية مختلف أنواع المنشآت الدفاعية الهادفة إلى مراقبة التحركات القبلية في منطقة تعد بلا ريب نقطة عبور حيوية. يتعلق الأمر إذن بقبيلة تتبدى أنموذجا فريدا في تلك الربوع إذ تضافرت الشواهد الأثرية والنصوص المكتوبة للكشف عن غوامض عديدة من تاريخها. ولملامسة البعض من جوانب هذه الإشكاليات اعتمدنا على استنطاق النصوص الإغريقية واللاتينية فضلا عن استقراء الشواهد الأثرية التي بحوزتنا مثلما تفحصنا نتائج أحدث الدراسات حول المناطق الحدودية في عموم شمال إفريقيا إبان الحقبة الرومانية.

الكلمات المفتاحية: – قبيلة النيبجيني- نفزاوة- الليماس- التحركية المجالية- الرومنة.

Abstract :

This communication focused on the *Nybgenii* tribe who nomadized and then settled in the region of Nefzaoua extended in southwestern Tunisia. This is the examination of the problematic of its approximate territory. In addition, we try to understand the relationship between the *Nybgenii* and Rome on two well-defined plans. On the one hand, its early and unique Romanization in the region in question. On the other hand, the typology and functions of the different types of defensive constructions those aim to control tribal mobility in a zone of

unavoidable passage. In order to identify the main features of these issues, we have used data from literary sources and archaeological evidence. In parallel, we started with the main results of recent studies on the limes area in the whole of Roman Africa.

key words : *Nybgenii*- Nefzaoua- *limes*- tribal mobility- Romanization.

مقدمة:

نقترح في هذه الدراسة التاريخية-الأثرية طرحا جديدا لإشكاليات ترتبط بقبيلة النيبجيني-*Nybgenii* التي ورد ذكرها في بعض المصادر الأدبية القديمة وبالتّحديد في مصنف الجغرافي الإسكندري بطليموس. ونطمح بالخصوص إلى تفهم أبرز خصائص هذه القبيلة قبل المرور إلى محاولة تحديد مجالها التقريبي ثم إبراز عناصر منظومة الليماس التريبوليتاني في بلاد نفزاوة المنتصبة في جنوب غرب البلاد التونسية وتقييم دورها في مراقبة التحركات القبلية في المنطقة المدروسة.

I- المجال التقريبي لقبيلة النيبجيني:

ذكر بطليموس قبيلة النيبجيني تحت اسم "نقبيني". في سياق حديثه عن بعض القبائل السّاكنة شرقي نهر الكنيبس إذ يروي أنّ مجال النّيبجيني يمتدّ بين قبيلتيْ التيدامنسي والنّكبي[1]. من الرّاجح أنّ النكبي كانوا سكّانا لمنطقة واحة نفطة في حين تعتبر قبيلة التيدمنسي من قبائل بلاد فزّان القديمة وعاصمتها تيدامي أي غدامس الحاليّة[2]. ومن المعلوم أن حدود فزان القديمة تصل إلى شمال منطقة "الجبل" في الجنوب التونسي باعتبار أنّ المؤرّخ بلينيوس الأكبر يشير في مدوّنته الضخمة "التاريخ الطّبيعي" إلى أسماء مدينتين فزانيتين وهما: رمادة /Cilliba وتلالت/Alele في جهة تطاوين[3]. في هاته الحالة يجوز القول أنّ بلاد نفزاوة مثّلت المجال الرّئيس لتوطّن النيبجيني إبان القرن الثاني للميلاد ربما بين الضفة الشرقية لشطّ الجريد والعرق الشرقي الكبير والجانب الغربي من بلاد الظاهر.

والطريف في رواية بطليموس وصفه النيبجيني بالإثيوبيين ما قد يشي بوجود حركية هجرية موسمية لبعض الأفراد من قبيلة النيبجيني من الرحل وأنصاف الرّحل الذين أدركوا مناطق صحراويّة قاصية[4]. ويعتقد المؤرخ قابريال كامبس أنّ صفة الإثيوبيين تشير إلى كون النيبجيني من الزنوج[5]، لكننا لا نشاطره هذا الرأي لأنّنا نرى أنّ الإثيوبيين هم على أغلب

الظن سكان الصّحراء الإفريقيّة طيلة العهد الرّوماني. وما يدعم فكرتنا-نسبيا على الأقل- أنّنا لا نجد في كلّ المصادر اللاتينية والإغريقية أيّة تسمية دقيقة للصّحراء الكبرى.

ومن ناحية أخرى تبرهن سلسلة من العلامات الميلية التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني للميلاد أنّ مجال قبيلة النيبجيني يمتدّ إلى حدود بلاد الشارب على الضفّة الشمالية لشطّ الفجيج مثلما تؤكّد مكانة واحة تلمين كمركز سكني رئيسي لهاته القبيلة. إذ تشير حجرة مسح عقاري مكتشفة مطلع القرن المنصرم جنوبي جبل السطحْ على مبعدة خمسة كم من هنشير الشناه وستة كم إلى الغرب من بيار بلوفا إلى اسم النيبجيني مختصرا: *NYBG*. ولا شكّ في أنّ هذه الحجرة تنتمي إلى نفس سلسلة الأحجار التي تمّ وضعها في منطقة شطّ الفجيج خلال ولاية البروقنصل فيبيوس مارسوس في عهد الإمبراطور تيبريوس. وذلك في إطار عمليّة مسح عقاري كبرى تمت بين سنتي 29 و30م تكفل بها مهندسون تابعون للفرقة الثالثة الأوغسطية برسم تحديد الأراضي الخصبة ولحثّ المستوطنين الرّومان والقبائل المشاكسة على الاستقرار بها غداة نجاح السلطات الرّومانية في كسر شوكة الثورة الإفريقية العارمة بقيادة تاكفاريناس وحلفائه الجيتاليين بين 17 و24م[6].

علما وأن نفس الإشارة المختصرة لاسم النيبجيني عُثر عليها أيضا على علامة من ذات النّوع السابق غير بعيد عن مكان الحجرة الأولى وتحديدا جنوبي جبل السّطح الذي يحدّ شمالا الحدّ الشّمالي لشطّ الفجيج[7]. لقد تمّ وضع هاتين النّقيشتين -المفقودتين اليوم- في عهد الإمبراطور ترايانوس الذي حكم بين سنتي 98 و117م ولعلّ قيمتهما تبرز في ضبط الحدّ الفاصل بين مجال قبيلة التكابيتاني شرقا في واحة قابس ومجال النيبجيني[8].

وعلى صعيد آخر تورد علامتان ميليتان أخريان اسم "مدينة النيبجينيوروم" *Civitas*. *Nybgeniorum/* وقد اكتشفتا على مسافة 65كم من مكان العثور على العلامتين السابقتين جنوبي جبل العسكر[9] الذي ينتصب شمالي الشطوط ولعلّه يشكّل الحدّ الفاصل من الناحية الجغرافية بين مقاطعتيْ البيزاسان والتريبوليتانيا[10]. ومن المهم التنويه في هذا الإطار أنّ الحجرتين تعودان تدقيقا إلى عهد الحاكم العسكري لوقيوس مينيقيوس ناتاليس سنة 105م على طول الطّريق الرّابطة بين مدينة قبيلة الكابصيتاني في واحة قبصة ومدينة قبيلة النيبيجيني[11]. وعلى العموم يبدو أنّ مكان العثور عليهما يمثّل الحد الفاصل بين الكابصيتاني والنيبجيني غير بعيد عن معلم ديني مُهدى على ما يبدو إلى الإمبراطور ترايانوس[12].

والجدير بالملاحظة كذلك وجود منشآت ذات صبغة دفاعية على سفح الجبل من صنف الكلوزيرا لمراقبة المرور باتّجاه قفصة. ونجد نفس النّوعية تقريبا على منوال سور أم علي على بعد 30كم شرقا ممّا يؤكّد إلى حدّ كبير أنّ جبل العسكر يمثّل نقطة فاصلة بين سهل السقي شمالا وبلاد الشارب جنوبا بين قبيلتي الكابصيتاني والنيبجيني[13]. لقد مكنت المعطيات التي توفّرها تلكم الشواهد من تحديد واحة تلمين كعاصمة للنيبجيني وخاصّة واحات الرابطة والمنصورة والجديدة وتلمين[14]. والحقّ أنّ تلمين ارتقت إلى مرتبة بلديّة رومانيّة في عهد الإمبراطور هادريانوس (حكم بين 117م و138م). وتواصل ذكرها في عدد من المصادر القديمة على منوال المسلك الأنطونيني وخريطة مجهول رافان وكذلك بعض اللوائح الكنسية وذلك تحت أسماء مختلفة مثل تورّيس تامالآني أو /تامالّوما[15].

لا جدال في كون اسم تلمين ذو جذور لوبية-أمازيغيّة عريقة لأنّه مشتقّ من لفظ تامالّي أي اللّون الأبيض أو البياض. أمّا اسم تورّيس فقد ذكر لأوّل مرّة في المسلك الأنطونيني وهو يتطابق مع قرية طرّة الحالية في واحة المنصورة[16]. ونحن نرجح أنّ التورّيس بما هي أبراج مراقبة قد تكون مكانا مخصّصا لبعض الزّعماء النيّبجينيين تخبأ فيه بعض المحاصيل الزراعيّة والغنائم. وحجتنا على ذلك الوصف الذي تركه ديودوروس الصقلي بخصوص زعماء لوبيين في منطقة شبه صحراويّة أخرى[17]. **(انظر الخريطة رقم 1)**

II- عناصر منظومة اللّيماس التريبوليتاني في بلاد نفزاوة:

تتميّز منظومة اللّيماس في عموم الجنوب التّونسي بخاصيّتين متناقضتين في الظّاهر فمن ناحية أولى تمتدّ حواجز جغرافيّة متنوّعة أحكم الرّومان تطويعها إلى حدّ كبير كي يراقبوا المنطقة العسكريّة. ومن ناحية ثانية لم يكن مجال الجنوب التّونسي عائقا أمام ديناميّة التكتّلات القبليّة والبشريّة باتّجاه مناطق السّباسب والسّاحل وشرق الجزائر وجنوبها ومقاطعة طرابلس[18]. بخصوص بلاد نفزاوة تجدر الإشارة إلى أنّها مسوّرة بثلاث وحدات طبيعيّة كبرى وهي العرق الشّرقي والشّطوط والجبل[19]. فمنطقة العرق طاردة للسكّان تمثّل حاجزا رمليّا باتجاه الجنوب الجزائري أمّا شطّ الفجيج وشطّ الجريد فيشكّلان منطقة عبور يسيرة في معظم فصول السّنة بينما تعدّ مرتفعات جبل الطّباقا المتقطّعة وقليلة الارتفاع عائقا طبيعيّا يتلاشى تدريجيّا في شبه جزيرة نفزاوة[20].

إنّ المتمعّن في النزر القليل من اللقي الأثرية والنصوص القديمة التي بحوزتنا يلاحظ دونما شكّ أن اتجاهات تدفق التنقّلات البشريّة بين الجنوب الجزائري ومنطقة خليج قابس

تمتد على طول خطّ اللّيماس سواء شمال جهة الشّطوط أو بين الجريد والعرق باتجاه نفزاوة وجبال الطّباقا[21]. انطلاقا من منطقة الظاهر يوجد محوران رئيسيّان يمكّنان من بلوغ نفزاوة وسهل قابس فالمحور الأوّل يحاذي المجرى السّفلي لوادي الحلّوف ميممّا شطر قبلي وتلمين مرورا بمراحل مضبوطة تفطّن الرّومان إلى أهمّيتّها الإستراتيجيّة والعسكريّة[22]. وهي على التّوالي: قصر ترسين وبئر سلطان وبئر زميط وبئر غازن وبئر عقارب. أمّا المحور الثّاني فينحرف على مستوى بئر غازن ناحية الشمال الشرقي ليخترق الطباقا أو جبل الملب في اتّجاهه نحو سهول الحامّة الخصبة.

على ضوء ما تقدّم يبدو أنّ السلطات الرّومانيّة تفطّنت إلى الخصوصيات التضاريسية والطّبيعيّة لبلاد نفزاوة من خلال البناء التدريجي لآليات دفاعيّة تندرج ضمن منظومة اللّيماس التّريبوليتاني التي ميّزت عموم جنوب أفريقا البروقنصلية الرومانية[23]. بيد أنه في الحقيقة لا جدال أنّ تبويب المنشآت العسكريّة خلال العهد الرّوماني إلى أنماط معيّنة عمليّة عسيرة وشائكة إلى حدّ كبير[24]. من ذلك أنّ الحالة المادّيّة لجلّ ما وصل إلينا من لقى أثريّة قديمة لا تسمح البتة بوضع تاريخ دقيق لها فضلا عن صعوبة تدوين خصائص العمارة العسكريّة أو التّقنيات البنائيّة. وعموما نقترح تصنيف المعالم العسكريّة الرّومانيّة في منطقة نفزاوة إلى خمس مستويات متمايزة:

1- معسكرات الفرق المساعدة:

يعتبر حصن بئر غازن أو فيزيريوس-*Vezereos* أنموذجا معبرا عن طبيعة الكاسترومات ووظائفها ففي سنة 1909 ذكر الضّابط الفرنسي دونو وجود سور خارجي مربع الشكل يناهز طول الضلع الواحد 50م فضلا عن السّور الأصليّ ذو الزّوايا الدّائريّة وباب المدخل الرّئيس[25]. يعود تاريخ بناء حصن بئر غازن إلى عهد الإمبراطور قومّودوس الذي حكم بين 180م و192م. ومن الوارد جدّا أنّ معظم أفراد حاميته تنتمي إلى الفرقة الثالثة الأوغسطيّة أشهر فرقة عسكريّة رومانيّة في سائر الشمال الإفريقي. ونعتقد أنّ حصن بئر غازن قد احتفظ بأهمّيته العسكريّة إلى حدود القرن الرّابع ميلادي على الأقلّ لأنّ مساعد حاكم مقاطعة طرابلس اختار الإقامة به لتأمين المنطقة. كما نلاحظ أنّ نفس النّمط يتكرّر في معسكريْ رمادة ورأس العين تلالت في جهة تطاوين[26].

وفي ذات الصّدد نؤكد أن تواصل الأهمّيّة الدّفاعيّة لمعسكر بئر غازن طيلة الحقبة الرّومانيّة مردّه في المقام الأول موقعه الحيوي ضمن شبكة المسالك التي تصل بلاد نفزاوة بمنطقة تمزرط وتلالت أو بجهة الطّباقا.

وهذا الموقع يغطّي عمليّا مساحات ريفيّة مترامية حيث تمتدّ بقايا عدد لا بأس به من الضّيعات الفلاحيّة القديمة غير بعيد عن المعسكر[27]. وبالتّالي شكّل حصن فيزيريوس/ بئر غازن قاعدة عسكريّة خلفيّة للفرق الرّومانيّة التي كانت تجوب المرتفعات الصّحراويّة القريبة المشرفة على واد الحلوف أو واد بالخشب وسائر المناطق الرّعويّة لأنصاف الرّحلّ. ولقد تم اكتشاف نقيشة في معسكر بئر غازن تقدّم لائحة بزهاء ثلاثمائة اسم للجنود المباشرين في حدود أواخر القرن 2 ميلادي[28]. ونستنتج من تحليل أسماء هؤلاء الجنود أنّ معظمهم ينحدر من أصول إفريقيّة مع نسبة ضئيلة من غير الأفارقة[29].

حاليّا لم يتبقّ من حصن فيزيريوس سواء آثار لبقايا الجدار الخارجي لكنّها في وضعيّة سيّئة جدّا. وعلى الرّغم من ذلك من غير المستبعد أنّها تعود إلى بناء ذو شكل مربّع (60x50م) فضلا عن وجود باب المعسكر من النّاحية الشمالية[30]. كما نلاحظ بقايا منشآت ملحقة تحيط بالحصن لعلّها مرتبطة بالسّور الخارجي. وعلى بعد حوالي نصف كم باتجاه الجنوب الشّرقي بين بئر سيدي محمد بن عيسى ومرتفع مرقب الذّياب توجد أطلال برج مراقبة قديم. ولا شكّ في نشأة تجمّع سكني حوالي المعسكر بفضل أعمال تهيئة مائيّة متعدّدة على منوال هنشير السّد على مجرى واد أم الشياه على مسافة 4 كم من بئر سيدي محمد[31].

هكذا إذن يتموضع معسكر بيزيريوس على مقربة من بئر ومن مساحة مرويّة وفي مفترق مسالك مهمّة تخوّل مراقبة أجزاء واسعة من الظاهر بين واحات نفزاوة غربا وسهول جهة قابس في الشّمال الشرقي. والجدير بالملاحظة أنّ معسكرا آخرا للفرق المساعدة قد يكون موجودا في تورّيس تمالّيني المتطابقة تقريبا مع واحات تلمين –الرابطة -المنصورة-الجديدة شمالي شبه جزيرة نفزاوة[32]. وما يدعم هاته الفرضيّة اكتشاف أجزاء من نقيشة مهداة إلى الإمبراطور قومّودوس عثر عليها مطلع القرن المنصرم ضمن الحجارة القديمة المستعملة في تشييد برج طرة.

2- المراكز المتقدّمة:

يعتبر معسكر تيزافار/ قصر غيلان-*Tisavar* أحسن مثال لهذا النّوع من العمارة العسكريّة ليس في منطقة نفزاوة فحسب بل في عموم الجنوب التّونسي[33]. وينتصب

المعسكر على مبعدة ثلاثة كم غربي قرعة بوفليجة غير بعيد عن كثبان العرق الشّرقي. ويعدّ بلا ريب أحد المفاتيح الإستراتيجيّة للظّاهر برسم مراقبة مناطق التنقّلات الموسميّة والمسالك بين غدامس والجريد والطّرقات الصّحراويّة المؤدّية نحو جبل الطّباقا وسهل الأعراض[34]. وتثبت نقيشة عثر عليها ضمن آثار الحصن أن تاريخ إنشائه يعود إلى عهد قومّودوس بفضل جهود حامية تنتمي للفرقة الثالثة الأوغسطيّة.

وتتطابق عمارة مركز قصر غيلان الصحراوي حاليا إلى حدّ كبير مع المعطيات التي وردت في تقرير الملازم قومبو سنة 1901 من ذلك الشّكل المربّع (30x40 م) ذو زاوية دائريّة ويقدّر ارتفاع المعسكر بحوالي أربعة أمتار[35]. ويوجد المدخل في منتصف الجهة الشّرقيّة للسّور الذي يحتوي بقايا قرابة عشرين غرفة مخصصة لإيواء الجنود[36]. وتتواجد في أركان الحصن بقايا مدرّجات تفضي إلى السّطح. أمّا في الوسط فقد لاحظ قومبو وجود بقايا مبنى مخصّص لعبادة الإله جوبيتار. والواقع أنّ حصن غيلان احتفظ بقيمته العسكريّة إلى حدود الحرب العالميّة الثّانية إذ سيطرت عليه فرقة فرنسية خاضت عدّة معارك ضدّ جيش المحور خاصّة معركة 10 مارس 1943 وقامت بتأمين فتح الطّريق عبر بئر سلطان وجبل الملب أمام مدرعات الحلفاء في إطار عمليّة حصار خطّ مارث[37].

بالمقابل يتواجد الموقع المتقدّم تيبوبوسي/ قصر ترسين-*Tibubucci* على الضفّة اليمنى لواد الحلوف وهو يتركّب من سور سباعي الأضلع محيطه يناهز 110م[38]. أمّا المدخل فيمتدّ في جنوب شرقي الحصن فضلا عن بقايا اثنين وعشرين إسطبلا في السّاحة الدّاخليّة ما يؤكّد وجود فرقة عسكريّة من الخيّالة. إضافة إلى بقايا خزان مائي ذو سعة كبيرة أسفل المعسكر[39]. ويعود تشييد هذا الحصن إلى عهد الإمبراطور ديوقليسيانوس وقد حكم بين (284م و305م) أو بُعيده بقليل[40]. ولا يتجاوز عدد الجنود المرابطين به الثلاثين يبدو أنّهم فرقة فرسان سريعة الحركة كي تتمكّن من القيام بمهمّة مراقبة مسالك الظّاهر بفعاليّة[41]. وبالفعل نعتقد أنّ حامية قصر ترسين تكفّلت بمراقبة التنقّلات القبليّة في منطقة واد الحلوف وواد بالخشب... وفي حالة استشعار خطر وجود عناصر قبليّة أمازيغيّة مشاكسة تقوم فرقة تيبوبوسي بإرسال إشارات تنبيه لبقيّة الحصون العسكريّة[42]. إلى جانب هذه الوظيفة الأمنيّة نعتقد أنّ المراكز المتقدّمة تنظر في أحايين كثيرة في الصّدامات المحتملة بين مجموعات قبليّة تتنازع السّيطرة على الآبار والمراعي الموسميّة في نفزاوة[43].

3- أبراج المراقبة:

هي غالبا مباني مربّعة أو دائريّة محيطها في حدود خمسة أمتار منتصبة فوق مرتفعات محاذية للمراكز العسكريّة على طول المحاور الطرقيّة أو على مقربة من أهم الممرّات والمضايق التي تؤدي إلى الظّاهر عبر جبل دمر[44]. ويبدو أنّ الوظيفة الرّكيزيّة لبرج المراقبة تتمثّل في إرسال إشارات ناريّة أو ضوئية برسم تحذير الحصون المجاورة من وجود خطر داهم. في هذا الإطار يمكن اعتبار برج مرقب الذّياب وأبعاده (5x5م) غير بعيد عن حصن بئر غازن أنموذجا لهذا النّمط من العمارة العسكريّة الرّومانيّة بل لعلّ الدّور القديم لهذا البرج تواصل في الفترة الوسيطة[45]. فالأسطورة الشّعبيّة تروي أنّ البطل الهلالي "دياب" كان يراقب من مرقب الذّياب الإشارات التي ترسلها له الجازية الهلالية انطلاقا من قرية تمزرط في جبال مطماطة كأنّ المخيال الشعبي يلمح إلى ذكريات أبراج المراقبة الرّومانيّة. أما برج ليماقس فيبدو أنّه لعب دور برج مراقبة المجال الممتدّ أمام جبل الطّباقا جنوبا وممرّات شطّ الفجيج شمالا[46]. وبالفعل فقد عثر سنة 1903 على بقايا لبرج تتراوح أبعاده بين خمسة وستة أمتار علاوة على عدد كبير من بقايا معاصر لزيت الزّيتون تؤكّد أهمّيّة غراسة الزّيتون في المنطقة عصرئذ[47].

4- المنشآت الخطّيّة:

تتمثل في بناءات عسكرية متواصلة على مسافة طويلة نسبيّا ومن أحسن الأمثلة على الإطلاق في الجنوب التّونسي نذكر "سور الطّباقا" الذي يغلق على طول سبعة عشر كم الممرّ الطّبيعي الفاصل بين مرتفعات مطماطة والطّباقا على مشارف سهل الأعراض[48]. ويتراوح ارتفاع السّور من مترين إلى ثلاثة أمتار. وهو يحوي عددا من أبراج المراقبة إضافة إلى مركز حراسة يقوم بمهمّة ديوانيّة بالأساس، بمعنى آخر تتولّى فرقة الحراسة هذه مراقبة مختلف عمليّات العبور والمرور بين الصّحراء والسّهول السّاحليّة[49].

ولا يقلّ "سور أم علي" شأنا وقيمة عن سور الطّباقا إذ يبلغ ارتفاعه من خمسة إلى ستة أمتار في جبال الشارب ولا يخلو بدوره من حواجز مراقبة مشابهة لما يوجد في سور الطّباقا وإن كانت أصغر منها حجما. وهي عموما تقوم بمراقبة الممرّات الجبليّة جنوبي بلاد السّقي[50]. ولا يزال تاريخ تشييد تلك الأسوار الممتدّة على عدّة كيلومترات محلّ جدال بين الباحثين فالبعض يفترض أنّها بنيت خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد[51]، بينما يرى البعض الآخر أنّها تعود إلى العهد الرّوماني المتأخّر[52] في علاقة بأطروحة "ليماس الجمل" الذي وضع

أسسه جون قاي أحد المدافعين عن نظريّة تعاظم خطر البدو الجمالة على الحدود الرّومانيّة في شمال إفريقيا منذ القرن 3م[53].

5- **الكاستلومات:**

الكاستلومات من أكثر أنماط العمارة العسكريّة الرّومانيّة شيوعا في نفزاوة والجريد والأعراض والظّاهر[54] ومن أبرز نقاط الائتلاف بينها نذكر حجمها المتوسّط نسبيّا (طول الضّلع يتراوح بين 30 و40 م) واتّجاهها غالبا نحو الشّرق علاوة على العناية الملحوظة في بنيانها المحكم[55]. من ضمن هاته الأمثلة نذكر كاستلوم غيدمة الذي تميّز بوجود بقايا سور مربّع الشّكل أبعاده 16x14م[56]. ورغم ترمّل معظم مكوّنات هذه المنشأة فالظّاهر أنّ مدخلها موجود من ناحية الشّمال الغربي. ولعلّ المهمّة الرّئيسيّة لحصن غيدمة تمثّلت في حماية المناطق الواحيّة لشبه جزيرة نفزاوة من ناحية الجنوب[57].

والجدير بالذكر أنه عُثر في مطلع القرن العشرين على بقايا كاستلوم على بعد حوالي 250م غربي برج تمره لكنّ جذوره الرّومانيّة ليست مؤكدة[58]. بالمقابل من المفترض أنّ موقع برج تمره قد يتطابق مع موقع أقار لاباص الذي يذكره المسلك الأنطونيني باعتبار مسافة الثلاثين ميلا التي تفصل بين برج تمره وحامة قابس[59]. وبالنّظر إلى أهميّة اللّقى الأثريّة في محيط البرج من ذلك بقايا قاعدة لحجرة ميلية عثر عليها على بعد 1600م في اتّجاه الجنوب الغربي تنتمي بلا شكّ إلى الطّريق الرّابطة بين قابس وتورّيس تامالّاني[60].

أشارت تقارير الكتائب الطبوغرافيّة التّابعة للجيش الفرنسي إلى وجود بقايا بناء مربّع الشّكل طول الضّلع الواحد يناهز العشرين مترا في قصر طبرية وتحيط بهذا المعسكر بقايا جدارين خارجيين[61]. ويفترض الضابط توسّان أن موقع كاستلوم قصر طبرية يمثّل نقطة تربط بين معسكر فيزيريوس ومدينة آد تمبلوم (لعلّها مدينة قبلي أو جمّنة؟) من جهة وموقعيْ بوتوس وأقارسال على طول الطّريق بين قابس وتبسة من جهة أخرى. ولا يفوتنا هنا التّذكير أنّ الصور الجويّة أثبتت فعلا وجود السّور الخارجي لكاستلوم قصر طبرية. ويقدّر طوله بحوالي 60م بالنّسبة للجانب الواحد ويبدو أنّه تمّ تدعيمه بجدران إضافيّة خاصّة في جزئه الجنوبي[62]. بالنّسبة لبول تروسي يبدو أنّ بقايا الأبراج الدائريّة في الزاويتين الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية تعود على الأرجح إلى عهد الإمبراطور قسطنطين الذي حكم بين 306م و337م. وتحيط بالمعسكر بقايا وفيرة من خزف السّجيل إلى جانب بئر قديمة مهجورة[63].

كما يوجد كاستلوم روماني في موقع هنشير الخنفير على السّفح الجنوبي لجبل أم الشّياه. وحسب وصف الضّابط دونو تبلغ أبعاده (25x31م) كما يوجد مدخل وحيد في الجهة الجنوبية يسمح بمرور الفرسان دون العربات التي تجرّها الخيل(64). كما لاحظ دونو وجود بقايا غرف عديدة لعلّها كانت مخصّصة لإيواء حامية هامّة نسبيّا. وبالنّسبة لنا من غير المستبعد أنّ هنشير الخنفير قد يتطابق مع محطة بوتوس التي تذكرها خريطة لوحة بوتنجار على طول الطّريق بين تكابي وأقارسال نبتي.

حاليا لا تزال العناصر الأساسية لحصن هنشير الخنفير بارزة للعيان على الرّغم من استعمال الكثير من الحجارة في بناء الملاجئ والخنادق خلال معارك مارس 1943. وأيّا كان الأمر يتمتّع هذا الحصن بموقع استراتيجي جنوبي جبل أم الشياه ويشرف على مساحات هامّة باتّجاه منطقة فيزيريوس وهنشير السدّ فضلا عن تحكّمه في الطّريق التي تخترق جبل الملب. وتجدر الملاحظة أنّه تمّ العثور على عدد من النّقائش اللّوبية على بعد حوالي ثلاثة كم في الجنوب الشّرقي لهنشير الخنفير(65).

لكن ماهي وظائف مختلف مكونات اللّيماس في سائر منطقة نفزاوة؟

تفضي الصّعوبات المتّصلة بتنميط مختلف المنشآت الدّفاعية السالفة الذّكر وغيرها إلى طرح تساؤلات موضوعيّة حول الغاية من إنشائها وكذلك حول إشكاليّات التنظيم العسكري في منطقة نفزاوة الحدوديّة66. فهل نحن إزاء منظومة عسكريّة ناجعة في التصدّي لهجومات القبائل القادمة من الصّحراء؟ بالنّسبة لنا نعتقد أنّ عموم نظام الليماس التريبوليتاني الذي يمر قسم هام منه من أراضي نفزاوة كان موجّها بالأساس نحو التصدّي لهجمات مجموعات قبليّة محدودة العدد أو لغارات موسميّة عادة ما تكون ظاهرة مألوفة في تلكم المجالات الصّحراويّة الحدوديّة(67). إنّ المتأمّل في الدّراسات المتعلّقة بطبيعة نظام اللّيماس وتطوّره في سائر الشمال الإفريقي منذ الثمانينات يستنتج نوعا من شبه الإجماع بين المختصّين حول ضرورة إعادة تنزيل وظيفة مختلف أنواع الدّفاعات العسكريّة ضمن بيئتها الجغرافيّة والأنتروبولوجية المحلّيّة(68). على هذا الأساس تتبدّى منطقة نفزاوة منطقة صحراويّة ملائمة للتنقلات البشريّة عبر شبكة متنوّعة من المسالك القوافليّة.

لئن يمثل التّاريخ الصحيح لإنشاء المراكز العسكريّة في عموم بلاد نفزاوة وخاصّة أسوار أمّ علي وجبل العسكر نقطة اختلاف بين جمهور الباحثين فإنّنا نميل إلى تأريخها في القرن الثالث ميلادي في علاقة بتعاظم خطر قبائل البدو الجمالة القادمين من التخوم

الصّحراويّة[69]. لا مناص من الإقرار إذن أنّ جملة المعالم العسكريّة في شبه جزيرة نفزاوة شكلت عموما أدوات لمراقبة أدفاق التحركيّة المجاليّة القبليّة في المنطقة وإدارتها عسكريّا. ويستمدّ هذا الرّأي وجاهته من كون جلّ البناءات العسكريّة تتموقع قرب نقاط التقاء أنصاف الرحل المنتجعين قبل عبور أروقة طبيعية بعينها باتّجاه الأراضي الزّراعية الخصبة في منطقة السباسب أو السّهول السّاحلية[70].

بهذا المعنى تغدو المنشآت الدّفاعيّة حواجز تنظم التنقلات القبلية وتحميها من غزوات خارجيّة محتملة لأنّها توجّه القبائل المرتحلة نحو نقاط عبور إلزاميّة مثل القنطرة والحضنة في جنوب نوميديا والطباقا وتطاوين ورمادة في تونس[71]. ولا يخفى عن أعيينا أنّ نظام المراقبة هذا يسعى كذلك إلى احترام روزنامة مواسم الحصاد بالنّسبة لجموع الرحل والمنتجعين[72].

III- أهم سمات قبيلة النيبجيني:

عندما أصبح جزء هام من أفراد النيبجيني خاضعين للنّفوذ الرّوماني كان معظمهم من البدو الرحل أو أنصاف المستقرّين. وهو رأي يوحي به المعنى اللّغوي للفظ النيبجيني[73]. ففي لهجة أمازيغ زراوة وتمزرط غربي مطماطة تعني هذه الكلمة الضيوف، وهي تطلق على سكان نفزاوة. وبالتّالي يجوز الإصداع أنّ نمط عيش النيبجيني تميز بتحركية مجاليّة واسعة النّطاق لاحظ أهميّتها جيرانهم المستقرون في الجبال والسهول. كما يتوجب التّأكيد على نمط العيش نصف المستقرّ المميز لقبيلة النيبجيني وانتجاعهم وبحثهم عن المراعي والكلأ لدوابهم وقطعانهم خلال فصل الصيف سواء في بلاد السقي أو السباسب العليا أو السّهول السّاحليّة لخليج قابس ومن أقوى الدّلائل على التحركيّة المميّزة للنيبجنيين تعدّد عناصر المنظومة الدفاعيّة المتكاملة التي أرستها السّلطات الرّومانيّة تدريجيّا برسم مراقبة تنقّلات مختلف القبائل القاطنة بالجنوب التونسي الحالي.

والمقصود هنا أساسا سلسلة من الأسوار الطويلة نسبيّا والتي تستهدف في المقام الأوّل تأمين عمليّة مراقبة المسالك الرّئيسيّة شمالا أي عبر جبال الشارب أو شرقا بواسطة مرتفعات الطباقا. ومن الواضح أن جلّ المنشآت الدفاعية المنتصبة شمالي الفجاج إنّما تراقب كذلك المجالات الفاصلة بين مدن قابس وقفصة وتورّيس تمالّاني. والملاحظ كذلك أن اللّقى الأثريّة تبرهن عن التحضّر السّريع لقسم مهمّ من النيبجيني مباشرة بعد تحديد خبراء المسح العقاري الرّوماني للأراضي الخصبة خلال الثلث الأول من القرن الأول للميلاد في

واحات تلمين المنصورة. الرّابطة الجديدة[74]. ولعلّ كثافة المنشآت الريفيّة جنوب شطّ الفجيج وخاصّة حول سور الطباقا خير شاهد على وجاهة هذا الرأي. وبالفعل أثبتت بعض الدّراسات الميدانية في المنطقة وجود عدد لا بأس به من المباني الريفيّة التي يحيط بها سور خارجي ما يؤكّد طبيعتها الأصليّة كمنشآت مدنيّة فلاحيّة بالأساس[75]. وهي تدلّ كذلك على ارتباطها بساكنة ريفيّة مشتّتة لكنّها تعتمد على الزراعة في معظمها[76]. **(انظر الخريطة رقم 2)**

خاتمة:

إلى أي حد أجاب هذا العمل عن الانشغالات المطروحة في مقدمته؟ بمقدورنا القول أنّ استقرار جزء هام من أفراد قبيلة النيبجيني في تجمّع سكني حضري سرعان ما ارتقى إلى مرتبة بلديّة رومانيّة يتنزل ضمن سياسة ممنهجة ترمي إلى تأطير قبائل شبه جزيرة نفزاوة والأعراض والجريد وتثبيتها في مجالات معيّنة لغايات أمنيّة بالأساس. في ذات السّياق يمكن تفهم حرص السلطات الرومانية على إحكام ربط تورّيس تامالآني بالمدن المجاورة: تكابس شرقا وقبصة غربا وعلى إدماجها ضمن شبكة مسالك المنطقة. وبناء على ما تقدم يمكن التساؤل عن مصير قبيلة النيبجيني إبان العصر القديم المتأخر وعن علاقاتها ببقية القبائل التي تتنقل في جنوب أفريقا البروقنصلية وعلاقة اسمها بقبيلة نفزاوة التي ذكرتها المصادر العربية.

الهوامش

[1] R. Cagnat, 1909, p. 569-571.

[2] J. Desanges, 1962, p.78-80.

[3] Pline l'Ancien, *Histoire Naturelle*, V, 35-38. J. Desanges, 1978, p. 189-195.

[4] J. Desanges, 1980, p. 347-348 et P. Trousset, 2001, p. 64.

[5] G. Camps, 1970, p. 35-45.

[6] P. Trousset, 2001, p. 63.

[7] P. Trousset, 2012, p. 5682.

[8] ILAF., 655. P. Trousset, 1978, p. 125-178.

[9] CIL, VIII, 22787-22788.

[10] P. Trousset, 1974, figure 21.

[11] CIL, VIII, 83.

[12] G. Camps, 1970, p. 35-45.

[13] P. Trousset, 2011, p. 212-213 et Ibid, 2012, p. 5681.

[14] P. Trousset, 2001, p. 62.

[15] M. Ellefi, 2015, p. 299-315.

[16] P. Trousset, 2012, p. 5682.

[17] *Bibliothèque Hist*orique, III. F. Chamoux, 1980-1981, p. 254-257. M. Ellefi, 2017, p. 136-137. P. Trousset, 1974, p. 43-46. M. Ellefi, 2017a, p. 101-116.

[18] Atlas Archéologique de Tunisie, feuille Tamezred, 1/100000, n°8. J. Desanges, N. Duval, Cl. Lepelley et S. Saint Amans, 2010, p. 120.

[19] Sur la géographie du Nefzaoua voir en particulier L. Augias, 1911, p. 42-53، P. Moreau, 1947, P. Trousset, 2012a, p. 5378-5380، P. Trousset, 2012b, p. 5382-5389; P. Trousset, 2012c, p. 5578-5589.

[20] Ch. Tissot, 1888, p. 687, 705.

[21] J. Hilaire, 1901, p. 97-99.

[22] J. Guey, 1939, p. 211, n 2.

[23] Capitaine Toussaint, 1905, p. 72.

[24] Napoli J., 1997, p. 440.

[25] R. Donau, 1909, p. 35-38.

[26] Capitaine Toussaint, 1906, p. 231

[27] P. Gauckler, 1912, p. 208.

[28] A. Ep., 1909, 151, 152.

[29] A. Merlin, 1921, p. 236-248.

[30] Chr. Courtois, 1955, p. 72, 77.

[31] P. Trousset, 1974, p. 75-77.

[32] A. Chastagnol, 1967, p. 132 et n. 6. P. Trousset, 1991, p. 1487-1488.

[33] Ch. Tissot, 1888, p. 706-707. P. Gauckler, 1900a, p. 541-547. Idem, 1900b, p. 543-547.

[34] J. Hilaire, 1901, p. 100. J. Toutain, 1903, p. 368. R. Cagnat, 1912, p. 558-569.

[35] Lt. Gombeaud, 1901, p. 81-94.

[36] J. Baradez, 1949, p. 235, n. 2. Chr. Courtois, 1955, p. 71 et 75. P. Trousset, 1974, p. 92-94. D.-J. Mattingly, 1995, p. 101.

[37] J. Desanges, N. Duval, Cl. Lepelley et S. Saint Amans, 2010, p. 268-269.

[38] P. Blanchet, 1898, p. 93. P. Gauckler, 1900a, p. 27.

[39] P. Gauckler et Lieutenant. Tardy, 1902, p. 321-341. J. Toutain, 1903, p. 360-375. P. Gauckler, 1912, p. 213.

[40] R. Cagnat, 1912, p. 535-536, 738. W. Seston, 1946, p. 329. R.-G. Goodchild et J.-B. Ward-Perkins, 1949, p. 91, planche XII.

[41] A. Chastagnol, 1967, p. 120 et n.1, p. 121 et n.2, p. 122, p. 127-128.

[42] P. Trousset, 1974, p. 90-92.

[43] J. Desanges, N. Duval, Cl. Lepelley et S. Saint Amans, 2010, p. 265.

[44] P. Trousset, 1974, p. 91.

[45] P. Gauckler et Lt. Tardy, 1902, p. 321-334.

[46] P. Trousset, 1974, p. 135.

[47] A. Mrabet et P. Trousset, 2000, p. 81.

[48] R. Cagnat, 1914, p. 89.

[49] Y. Le Bohec, 2004, p. 259.

[50] D.-J. Mattingly et G.-D. B. Jones, 1986, p. 94-96.

[51] P. Trousset, 1980, p. 936-937.

[52] M. Euzennat, 1990, p. 575.

[53] J. Guey, 1939, p. 178-248.

[54] R. Guéry, 1986, p. 603-604.

[55] J. Napoli, 1993, p. 67-76. Idem, 1997, p. 72.

[56] P. Trousset, 1997, p. 155-163.

[57] P. Trousset, 1984, note 48 p. 398.

[58] J. Napoli et R. Rebuffat, 1993, p. 41.

[59] A. Mrabet et P. Trousset, 2000, p. 83.

[60] D. Cherry, 1998, p. 58.

[61] P. Trousset, 1974, p. 144.

[62] Chr. Courtois, 1955, p. 70, 75.

[63] J. Napoli et R. Rebuffat, 1993, p. 36-37.

[64] J. Napoli, 1997, p. 72.

[65] P. Trousset, 1974, p. 124-125.

[66] M Bénabou, 1976, p. 23-45.

[67] D. Chery, 1998, p. 56-58.

[68] J. M. Lassère, 1980, p. 955-975.

[69] D. J. Mattingly, 1989, p. 403-415.

[70] J. M. Lassère, 1982, p. 11-25.

[71] Ph. Leveau, 1986, p.1345-1358.

[72] Ph. Leveau, 1987, p. 129-141.

[73] Ph. Leveau, 1988, p. 177-195.

[74] D. J. Mattingly, 1989a, p. 135-153.

[75] A. Mrabet, 2004, p. 83-98.

[76] A. Mrabet, 2004, p. 96.

قائمة المصادروالمراجع:

-Atlas Archéologique de Tunisie, feuille Tamezred, 1/100000, n°8.

-J. Baradez, 1949, *Vue aérienne de l'organisation romaine dans le sud algérien. Fossatum Africae*, Paris.

-P. Blanchet, 1898, « Notes sur quelques points fortifiés de la frontière saharienne de l'Empire romain », in *RSAC*, 32, p. 71-97.

-L. Augias, 1911, « Deux années au Nefzaoua », in *Revue Tunisienne*, n°85, Janvier, p. 42-53.

-M. Bénabou, 1976, *La résistance africaine à la romanisation*, Maspero, Paris.

-R. Cagnat, 1909, « Les Nygbenoï de Ptolémée », in *CRAI*, p. 568-579.

-R. Cagnat, 1912, *L'armée romaine d'Afrique et l'occupation de l'Afrique sous les empereurs*, 1ère édition, Paris.

-R. Cagnat, 1914, « La frontière militaire de la Tripolitaine à l'époque romaine », in *Mémoires de l'Académie des Inscriptions et des Belles Lettres*, 39, p. 77-109.

-G. Camps, 1970, « Recherches sur les origines des cultivateurs noirs du Sahara », in *ROMM*, 7, p. 35-45.

-F. Chamoux, 1980-1981, « Les Libyens d'après Diodore de Sicile », in *BSNAF*, p. 254-257.

-A. Chastagnol, 1967, « Les gouverneurs de Byzacène et de Tripolitaine », in *Ant. Afr.*, I, p. 119-134.

-D. Chery, 1998, *Frontier and society in Roman North Africa*, Oxford.

-Chr. Courtois, 1955, *Les Vandales et l'Afrique*, Paris.

-J. Desanges, 1962, *Catalogue des tribus africaines de l'antiquité classique à l'ouest du Nil*. Université de Dakar.

-J. Desanges, 1978, *Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique*. C.E.F.R., n°38.

-J. Desanges, 1980, *Pline l'Ancien, Histoire Naturelle*. Livre V, Paris.

-Desanges (A.), Duval (N.), Lepelley (Cl.) et Saint Amans (S.) (éd.), 2010, *Carte des routes et des cités de l'est de l'Africa à la fin de l'antiquité. Nouvelle édition de la carte des Voies romaines de l'Afrique du Nord conçue en 1949 d'après les tracés de P. Salama*, édition Turnhout, Brépols.

-Ellefi (M.), 2015, « De Turris Tamalleni à Telmine: approche de géographie historique », in Mrabet (A.) (éd.), 2015, *Géographie historique du Maghreb antique et médiéval. État des lieux et perspectives de recherches*. Actes du premier colloque international du laboratoire de recherche « Occupation du sol, peuplement et modes de vie dans le Maghreb antique et médiéval ». FLSH de Sousse. Sousse: 14-16 mars 2014. Contraste Éditions, Sousse, avril 2014, p. 299-315.

-Ellefi (M.), 2017, L'*Arzugitana*. Recherches d'histoire et d'archéologie sur une entité africaine de l'antiquité tardive. Thèse de Doctorat en histoire ancienne sous la direction du Pr. A. Mrabet. Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Sousse, 433p.

-Ellefi (M.), 2017a, « Les *Arzuges*. À propos de transporteurs et d'éclaireurs nomades du prédésert à l'époque tardive », in Mrabet (A.) (éd.), 2017, *Vie et genres de vie au Maghreb antique et Moyen-âge*. Actes du quatrième colloque international du laboratoire de recherche «Occupation du sol, peuplement et modes de vie dans le Maghreb antique et médiéval». FLSH de Sousse. Sousse: 04-06 mai 2017, p. 101-116.

-R. Donau, 1909, « Recherches archéologiques effectuées par MM. Les officiers des territoires du sud tunisien en 1907 et pendant le 1er semestre de 1908 », in *BCTH*, p. 30-50.

-P. Gauckler, 1900a, *Enquête sur les installations hydrauliques romaines en Tunisie*, Tunis, tome 1.

-P. Gauckler, 1900, « Note sur les fouilles exécutées dans le Sahara tunisien », in *CRAI*, 44, 5, p. 541-547.

-P. Gauckler, 1900b, « L'inscription de Ksar Rhilane (Tisavar) », in *CRAI*, p. 543-547.

-P. Gauckler, 1912, *Enquête sur les installations hydrauliques romaines en Tunisie*, Tunis, tome 2.

-P. Gauckler et Lt. Tardy, 1902, « Le centenarium de Tibubuci (Ksar Tarcine, sud tunisien) », in *CRAI*, 46, 2, p. 321-341.

-Lt. Gombeaud, 1901, « Fouilles du castellum d'el Hagueuff (Tunisie) », in *BCTH*, p. 81-94.

-R. G. Goodchild et J. B. Ward-Perkins, 1949, « The *Limes Tripolitanus* in the light of recent discoveries », in *Journal of Roman Studies*, XXXIX, p. 81-95.

-J. Guey, 1939, « Note sur le limes romain de Numidie et le Sahara au IVème siècle », in *Mélanges Histoire et Archéologie*, École française de Rome, 56, p. 178-248.

-R. Guéry, 1986, « Chronologie de quelques établissements de la frontière romaine du sud tunisien à partir de la céramique collectée sur les sites », in *Akten des 13 Internationalen Limeskongress*, Aalen, 1983, Stuttgart, 1986, p. 600-604.

-J. Hilaire, 1901, « Note sur la voie stratégique romaine qui longeait la frontière militaire de la Tripolitaine », in *BCTH*, p. 95-105.

-P. Moreau, 1947, *Des lacs de sel aux chaos de sable, le pays des Nefzaouas*, Tunis.

-A. Mrabet (éd.), 2015, *Géographie historique du Maghreb antique et médiéval. État des lieux et perspectives de recherches*. Actes du premier colloque international du laboratoire de recherché «Occupation du sol, peuplement et modes de vie dans le Maghreb antique et médiéval». Sousse: 14-16 mars 2014. Contraste Éditions, Sousse, avril 2015.

-J. M. Lassère, 1980, « Remarques onomastiques sur la liste militaire de Vezereos (ILAf., 27) », in *Limes*, XII, p. 955-975.

-J. M. Lassère, 1982, « Un conflit «routier»: observations sur les causes de la guerre de Tacfarinas », in *Ant. Afr.*, 18, p. 11-25.

-Ph. Leveau, 1986, Occupation du sol. Géosystèmes et systèmes sociaux. Rome et ses ennemis des montages et du désert dans le Maghreb antiques, in Annales ESC, 41è, 6, p. 1345-1358.

-Ph. Leveau, 1987, « L'organisation de l'espace agricole en Afrique à l'époque romaine ». *L'Afrique dans l'Occident romain Ier s av. J.-C.-IVème s ap. J.-C.* Actes du colloque organisé par EFR, p. 129-141.

-Ph. Leveau, 1988, « Le pastoralisme dans l'Afrique antique », in C. R. Whittaker (ed.), *Pastoral ecomics in classical antiquity*, (Cambridge, UK, 1988), p. 177-195.

-D. J. Mattingly et G. D. B. Jones, 1986, « A New Clausura in Western Tripolitania: Wadi Skiffa South », in *Libyan Studies*, 17, p. 87-96.

-D. J. Mattingly, 1989, « Ancient olive cultivation and the Albertini Tablets », in *L'Africa Romana* VI, Sassari 1988, Roma 1989, p. 403-415.

-D. J. Mattingly, 1989a, « Farmers and frontiers. Exploiting and defending the countryside of roman Tripolitania », in *Libyan Studies*, 20, 1989, p. 135-153.

-D. J. Mattingly, 1995, *Tripolitania*, London.

-A. Merlin, 1921, « Le fortin de Bezereos sur le limes Tripolitanus », in *CRAI*, p. 236-248.

-A. Mrabet et P. Trousset, 2000, « Axes de circulation, mobilité et contrôle des hommes dans la zone du limes d'Afrique », in *Mobilité des hommes et des idées en Méditerranée*. Actes du colloque de Sousse 9-11 Mars 1999, 1ère édition. Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Sousse, p. 65-88.

-A. Mrabet, 2004, « À propos des sites antiques à fossés et levée de terre (Sud tunisien) », in *L'occupation du sol en Tunisie pendant l'antiquité*, Université de Sousse, p. 83-98.

-J. Napoli et R. Rebuffat, 1993, « Clausurae », in *La frontière*. Séminaire de recherche sous la direction d'Yves Roman. Lyon, Maison d'Orient et de la Méditerranée, Jean Pouilloux, p. 35-43.

-J. Napoli, 1993, « Ultimes fortifications du limes », in F. Vallet et M. Kazanski (éd.), *L'armée romaine et les Barbares du IIIè au VIIè siècle*. Publication, Association Française d'Archéologie Mérovingienne et Musée des Antiquités Nationales, p. 67-76.

-J. Napoli, 1997, *Recherches sur les fortifications linéaires romaines*, Rome.

-Y. Le Bohec, 2004, « L'armée romaine d'Afrique de Dioclétien à Valentinien I », in *L'armée romaine d'Afrique de Dioclétien à Valentinien I*. Actes du Congrès de Lyon, (2002), 2004, p. 251-265.

-Ch. Tissot, 1888, *Exploration scientifique de la Tunisie: géographie comparée de la province romaine d'Afrique*, tome II, Paris.

-Capitaine Toussaint, 1905, « Résumé des reconnaissances archéologiques exécutées par les officiers des brigades topographiques d'Algérie et de Tunisie », in *BCTH*, p. 56-74.

-Capitaine Toussaint, 1906, « Résumé des reconnaissances archéologiques exécutées par les officiers des brigades topographiques d'Algérie et de Tunisie pendant la campagne 1903-1904 », in *BCTH*, p. 223-241.

-J. Toutain, 1903, « Notes et documents sur les voies stratégiques et sur l'occupation militaire du sud tunisien à l'époque romaine par MM. les capitaines Donau et Le Bœuf et les lieutenants de Pontbriand, Goulon et Tardy », in *BCTH*, p. 272-409.

-P. Trousset, 1974, *Recherches sur le Limes Tripolitanus de Chott el-Djérid à la frontière tuniso-libyenne*, C.N.R.S.

-P. Trousset, 1978, « Les bornes du Bled Seguï. Nouveaux aperçus sur la centuriation romaine du sud tunisien », in *Ant. Afr.,* 12, p. 125-178.

-P. Trousset, 1980, « Signification d'une frontière: Nomades et sédentaires dans la zone du Limes d'Afrique, in *Roman Frontier Studies*, 1979, III, *Bar International Series* 71, (CIII), 1980, p. 931-943.

-P. Trousset, 1984, « Notes sur un type d'ouvrage linéaire du limes d'Afrique », in *BCTH*, 19 B, 1984, p. 383-398.

-P. Trousset, 1991, « Bezereos, (Vezereos, Bir Rhezen) », in *Encyclopédie Berbère*, X, p. 1487-1488.

-P. Trousset, 1997, « Nouvelles barrières romaines de contrôle dans l'extrême sud tunisien », in *BCTH*, n.s., Afrique du Nord, fascicule 24, Paris, p. 155-163.

-P. Trousset, 2001, « Territoires de tribus et frontières au sud de l'Africa Proconsularis », in *Histoire des Hautes Steppes. Antiquité-Moyen-Âge*. Actes du colloque de Sbeïtla, sessions 1998 et 1999, publication INP., Tunis, 2001, p. 59-68.

-P. Trousset, 2011, « Une entité frontalière tardive et sa genèse: des Nybgenii aux Arzuges », in C. Briand-Ponsart et Y. Modéran (éd.), *Provinces et identités provinciales dans l'Afrique romaine*. Publications du CRAHM, Caen, p. 201-219.

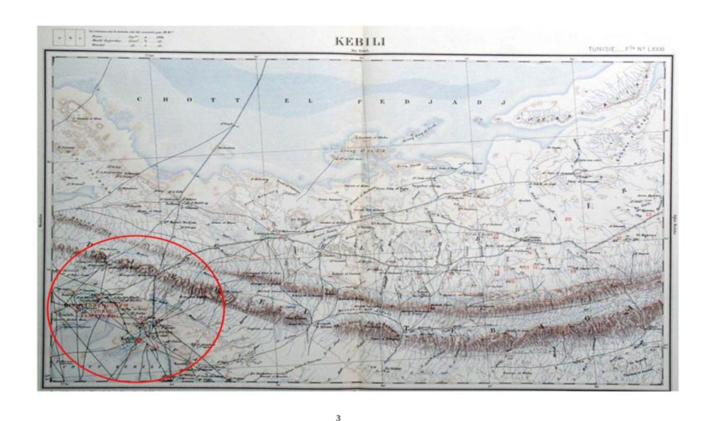
-P. Trousset, 2012, « Nybgenii », in *Encyclopédie Berbère*, XXXIV, p. 5679-5683.

-P. Trousset, 2012a, « Nefta (Nepte, Aggarsel Nepte) », in *Encyclopédie Berbère*, XXXIII, p. 5378-5380.

-P. Trousset, 2012b, « Nefzaoua: Antiquité », in *Encyclopédie Berbère*, XXXIII, p. 5382-5389.

-P. Trousset, 2012c, « Nomadisme saharien en Afrique du Nord dans l’antiquité », in *Encyclopédie Berbère*, XXXIV, p. 5578-5589.

-W. Seston, 1946, *Dioclétien et la Tétrarchie*, tome 1, Paris.



3

خريطة رقم 1: واحة تلمين حسب الخريطة الأثرية لولاية قبلي



خريطة رقم 2: واحات تلمين-الرابطة-المنصورة حسب خريطة قوقل

عنوان المقال: LES OLIVIERS D'HANNIBAL AU SAHEL TUNISIEN UN FILON D'AVENIR DU TOURISME AGRICOLE

الكاتب: د/ عادل نجيم
جامعة تونس

البريد الالكتروني: njim_adel@yahoo.com

تاريخ الارسال: 2019/08/01 تاريخ القبول: 2019/11/16 تاريخ النشر: 2019/12/31

Résumé :

Découverte récente au Sahel à de multiples endroits d'oliviers au tronc immense qui prouve leur âge antique. Mes investigations m'ont permis de mettre ces oliviers avec un témoignage littéraire auquel jusque-là on a accordé peu d'attention sur les oliviers plantés par le général punique Hannibal dans toute la région du Sahel. Cette découverte confirme que ce témoignage textuel ne relève pas du mythe.

Ces plantations seraient la partie infime du système carthaginois très complexe. Il a un aspect militaire et sécuritaire original en rapport avec le système des Phoinikoi Tapoi littéralement Fosses phéniciennes qui passent plus à l'ouest du Sahel. Ces fermes multiples dévoilent aussi un aspect démographique par la fixation de fermiers à la marge des territoires d'une grande ville telle celle d'Hadrumète.

En dehors du volet scientifique très important. Toutes ces données insolites sur le personnage d'Hannibal célèbre uniquement par ses faits militaires et sur l'olivier principal ingrédient de l'agriculture punique constituent un potentiel assez intéressant pour lancer une activité de tourisme agricole très florissante. Grâce à ces plantations on pourrait médiatiser une nouvelle image du général punique. On peut aussi restituer toute la chaine opératoire agricole liée à l'huile ainsi que

sa commercialisation. Ce secteur est de plus en plus en vogue dans le monde. Ses espoirs de réussite sont assurés.

En effet, le patrimoine historique agricole tunisien offre de riches potentialités pour l'épanouissement d'une activité touristique liée au patrimoine agricole. Cette récente découverte d'archéologie punique au Sahel tunisien de plantations d'oliviers qui seraient l'œuvre du Général Hannibal et son armée peut aisément être à l'origine d'une activité originale de tourisme agricole.

Le public ciblé peut se constituer d'adultes avides uniquement de divertissement. Egalement on peut viser les jeunes par ces activités. Des contenus didactiques seront adressés à des collégiens ce qui peut susciter des vocations futures parmi eux.

Cette découverte constitue alors une chance pour assurer la diversification du produit touristique tunisien et le sortir du monolithisme. Elle peut constituer le noyau d'un projet de tourisme culturel prometteur surtout que le Sahel est lié depuis l'antiquité à l'olivier.

Le tourisme tunisien classique axé essentiellement sur les activités balnéaires est de plus en plus en crise. Ce secteur d'activités fondamental dans le système économique tunisien est à la recherche de diversification et d'originalité. L'une des ressources interpellées est celle du patrimoine historique et archéologique de la Tunisie. En effet cet héritage est particulièrement riche. Il est de plus en plus le moteur d'un secteur d'activités multiples de divertissement que représente le tourisme culturel avec ses diverses ramifications dont celle du tourisme agricole. Cette branche touristique relativement récente est en plein essor et ses possibilités de dévelop Mots clés :

Oliviers d'Hannibal -Intérêts scientifiques - Diversification du tourisme tunisien - Tourisme agricole - Activités ludiques - Pédoarchéologie. pement sont énormes.

Abstract :

Recent discovery in the Sahel at multiple locations of olive trees with huge trunk that proves their ancient age. My investigations allowed me to put these olive trees with a literary testimony to which little attention has been paid to the olive trees planted by the Punic general Hannibal throughout the Sahel region. This discovery confirms that this textual testimony is not myth. These plantations would be the tiny part of the very complex Carthaginian system. It has an original military and security aspect related to the system of Phoinikoi Tapoi literally Phoenician Fosses that pass more to the west of the Sahel. These multiple farms also reveal a demographic aspect by fixing farmers on the margins of the territories of a large city such as Hadrumète. Apart from the very important scientific aspect. All these unusual data on the character of Hannibal famous only for its military facts and on the olive tree, the main ingredient of Punic agriculture, represent a rather interesting potential for launching a very flourishing agricultural tourism activity. Thanks to these plantations one could mediate a new image of the Punic general. It is also possible to restore the entire oil-related agricultural production chain and its marketing. This sector is becoming more and more popular in the world. His hopes for success are assured.

Indeed, the Tunisian agricultural heritage offers rich potential for the development of a tourism activity linked to the agricultural heritage. This recent discovery of Punic archeology in the Tunisian Sahel of olive plantations that would be the work of General Hannibal and his army can easily be at the origin of an original activity of agricultural tourism.

The target audience can be adults who are eager for entertainment only. We can also target young people through these activities. Didactic content will be addressed to middle school students which can encourage future vocations

among them.
This discovery is then a chance to ensure the diversification of the Tunisian tourist product and get out of monolithism. It can be the nucleus of a promising cultural tourism project, especially since the Sahel has been linked since antiquity to the olive tree.
Tunisian classical tourism focused mainly on seaside activities is increasingly in crisis. This fundamental sector of activity in the Tunisian economic system is looking for diversification and originality. One of the resources questioned is that of the historical and archaeological heritage of Tunisia. Indeed this heritage is particularly rich. It is increasingly the driving force behind a multi-activity entertainment sector represented by cultural tourism with its various ramifications including agricultural tourism. This relatively new tourist branch is in full swing and its development possibilities are enormous.
Keywords :
Hannibal olive trees - Scientific interests - Diversification of Tunisian tourism - Agricultural tourism - Fun activities - Pedoarchaeology.

Introduction .

La Tunisie compte parmi les pays du Monde arabe et du Maghreb qui sollicite de plus en plus son héritage historique et surtout archéologique pour des questions de développement de nature diverse. L'héritage patrimonial non seulement islamique mais aussi antique est en quête de valorisation. Cette nouvelle tendance n'est qu'à ces débuts et ses potentialités sont énormes.

De ce point de vue, le patrimoine phénico-punique Tunisien constitue une importante source d'inspiration. Pour ma part, mes recherches sur cette civilisation m'ont fait connaître le potentiel patrimonial de l'héritage phénico-punique en Tunisie.

En effet, le patrimoine phénico-punique tunisien n’est pas uniquement architectural. Il ne se limite plus aux vestiges des grandes villes phénico-puniques de Tunisie telles que Carthage, Kerkouane, Utique ou Hadrumète. De nouveaux aspects de l’héritage punique sont visés et explorés. Une découverte récente que j’ai pu faire au Sahel montre la richesse que nous avons pu hériter de la présence phénico-punique. Comme cette rencontre sur le phénomène touristique et ses conséquences socio-économiques, la présentation de cette découverte peut constituer un filon porteur de développement ultérieur du tourisme tunisien.

Récemment, j’ai pu faire une nouvelle découverte au Sahel à de multiples endroits d’oliviers au tronc immense ce qui prouve leur âge antique. Mes investigations m’ont permis de mettre ces oliviers avec un témoignage littéraire auquel jusque-là on a accordé peu d’attention sur les oliviers plantés par le général punique Hannibal dans toute la région du Sahel. Cette découverte confirme que ce témoignage textuel ne relève pas du mythe.

De plus, ces plantations seraient le sommet de l’ice berg du système carthaginois très complexe. Il a un aspect militaire et sécuritaire original en rapport avec le système des Phoinikoi Tapoi littéralement Fosses phéniciennes qui passent plus à l’ouest du Sahel. Ces fermes multiples dévoilent aussi un aspect démographique par la fixation des fermiers à la marge des territoires d’une grande ville telle celle d’Hadrumète.

En dehors du volet scientifique très important. Toutes ces données insolites sur le personnage d’Hannibal célèbre uniquement par ses faits militaires et sur l’olivier principal ingrédient de l’agriculture punique constituent un potentiel assez intéressant pour lancer une activité de tourisme agricole très florissante. Grâce à ces plantations on pourrait médiatiser une nouvelle image du général punique. On peut aussi restituer toute la chaine opératoire agricole liée à l’huile ainsi que

sa commercialisation. Ce secteur est de plus en plus en vogue dans le monde. Ses espoirs de réussite sont assurés.

En effet, le patrimoine historique agricole tunisien offre de riches potentialités pour l'épanouissement d'une activité touristique liée au patrimoine agricole. Cette récente découverte d'archéologie agricole punique au Sahel tunisien peut aisément être à l origine d'une activité originale de tourisme culturel.

Le public ciblé peut se constituer d'adultes avides uniquement de divertissement. Egalement on peut viser les jeunes par ces activités. Des contenus didactiques seront adressés à des collégiens ce qui peut susciter des vocations futures parmi eux.

Cette découverte constitue alors une chance pour assurer la diversification du produit touristique tunisien et le sortir du monolithisme. Elle peut constituer le noyau d'un projet de tourisme culturel prometteur surtout que le Sahel est lié depuis l'antiquité à l'olivier.

Le tourisme tunisien classique axé essentiellement sur les activités balnéaires est de plus en plus en crise. Ce secteur d'activitédont l'importance est fondamentale au sein du système économique tunisien est à la recherche de diversification et d'originalité. L'une des ressources interpellées est celle du patrimoine historique et archéologique de la Tunisie. En effet cet héritage est particulièrement riche. Il est de plus en plus le moteur d'un secteur d'activités multiples de divertissement que représente le tourisme culturel avec ses diverses ramifications dont celle du tourisme agricole. Cette branche touristique relativement récente est en plein essor et ses possibilités de développement sont énormes.

I. Des oliviers exceptionnels

Le patrimoine est de plus en plus une source d'intérêt. Seulement, la vague de l'archéologie des vestiges est dépassée pour voir apparaitre et s'épanouir un courant de patrimoine culturel. Dans cette perspective, l'intérêt porté à la richesse

patrimoniale phénico-punique tunisienne ne se limite plus à l'héritage architectural. D'autres facettes de cette civilisation intéressent d'avantage le public. Des aspects multiples sont scrutés en vue d'une potentielle valorisation. Pour ma part, mes recherches sur cette civilisation me donnent le privilège de découvrir régulièrement l'héritage phénico-punique souvent encore inédit dont dispose la Tunisie. Ces découvertes concernent aussi l'archéologie de terrain[1] que la culture matérielle[2]ou le patrimoine agricole[3]. Cette note porte sur une découverte récente d'un aspect insolite de l'héritage phénico-punique en Tunisie plus précisément au Sahel relatif au patrimoine agricole.

1. Des oliviers millénaires

Lors de mes recherches de terrain, j'ai pu observer dans plusieurs endroits du Sahel des oliviers qui interpellent par leur allure. En effet, ces arbres se distinguent surtout par un tronc assez grand et une racine large en comparaison avec d'autres oliviers qui les avoisinent parfois. Il est certain que de telles caractéristiques témoignent d'un âge avancé ce qui n'est pas sans signification. Je reviendrai sur cette question.

Je n'ai pas encore esquissé de carte sur la répartition de ces oliviers à la taille exceptionnelle. Il n'y a pas de doute qu'un tel travail peut être très instructif scientifiquement. Cette opération pourrait faire l'objet d'un projet entier de partenariat entre les différentes instances du ministère de l'agriculture, du patrimoine et du tourisme. Mes observations préliminaires me permettent de dire que ces oliviers de grande taille se situent dans la région du Sahel. Sur la côte

---

Njim, Thyna. [1]

Njim, Vase. [2]

Njim, Kalea Sgira.[3]

j'ai pu les observer à Melloulech, au sud du village de Rajiche dans la région de Henchir Maklouba, à Thapsus, à Lamta et à Hammam Sousse. Dans des endroits relativement loin de la côte, j'ai pu observer ces oliviers au village de Moureddyn à l'entrée ouest de Sousse et encore plus loin à l'ouest de Kalea Seghira (figure 1). Ces derniers sont carrément en rapport avec des fermes antiques dont je parlerai. Donc, pour résumer ces oliviers semblent se situer dans toute la région du Sahel sous forme d'une bande de quelques kilomètres qui longe la côte.

2. Témoignages littéraires

Bien sûr, le premier souci était de dater avec précision ces oliviers. La méthode de datation des arbres à la portée des archéologues est la dendrologie[4]. Elle se fonde sur l'analyse du tronc de l'arbre par calcul des cercles de croissance. Cette démarche nécessite d'avoir un arbre dont le tronc est sectionné pour pouvoir effectuer la datation. Sans parler du coût de l'opération qui suppose le recours au financement d'une institution de recherche et d'un projet autour de cette découverte. En l'absence de ces possibilités cette découverte est suspendue.

Le retour à ce dossier s'est fait tout à fait par hasard lors d'une recherche sur Hannibal[5]. En effet, en lisant le travail de Segre Lancel consacré à Hannibal je suis tombé sur une donnée littéraire fort intéressante. Le premier réflexe était de tenter de concilier entre ce témoignage textuel et les indices que j'ai découverts sur le terrain. Selon une légende rapportée par un auteur tardif Aurelius Victor on apprend qu'Hannibal craignant les effets pernicieux de l'oisiveté pour ses soldats les avaient employés à planter en masses des oliviers. D'après Serge Lancel, une telle action aurait pu se faire pendant deux périodes. Soit en l'année qui sépara son retour d'Italie à l'automne de l'année deux cent trois et son engagement

---

[4] Jokey, L'archéologie, p. 286-288, figure page 287.

[5] Njim, Hannibal.

contre Scipion à Zama à la fin de l'année deux cent deux alors qu'il avait son quartier général à Hadrumète. Ou dans les années entre la paix imposée à Carthage après Zama et son suffétat[6].

3. Verdict scientifique

Pour résumer la question, d'un côté nous avons sur terrain les traces d'une forêt d'oliviers d'âge très ancien situées dans divers endroits du Sahel.De l'autre nous disposonsd'un témoignage certes tardif mais sans doute digne d'intérêt sur une opération de plantation d'oliviers dans la région du Sahel par les soldats d'Hannibal.

C'est à l'occasion d'un travail de recherche destiné à être présenté lors d'un colloque sur la ville de Kalea Seghira qu'un lien solide a pu être établi entre données textuelles et celles fournies par le terrain. En effet, lors d'une prospection dans un lieu-dit Ennagar à l'ouest de Kalea Seghira, j'ai pu découvrir des exploitations agricoles antiques axées sur la culture de l'olivier. Des investigations minutieuses dans l'une les parcelles en question témoignent qu'elles ont fonctionné durant la période antique et qu'elles remontent avec certitude à l'époque punique[7].

Donc, il n'a nul doute que les oliviers du Sahel remontent à l'époque punique. Les attribuer à l'œuvre des soldats d'Hannibal est facilement envisageable. Certes, nous auront toujours besoin d'une datation précise d'avantage pour être plus sûr. Une telle opération pourrait se faire dans le cadre d'un projet dédié à ce patrimoine agricole punique exceptionnel.

II. Intérêts scientifiques

1. Agriculture punique

Lancel, Carthage, p. 381 ; Id., Hannibal, p. 325.[6]

Njim, Kalea Seghira. [7]

Ces fermes puniques situées à l'ouest de la ville de Kalea Seghira ont une portée plus large.D'abord, ces exploitations élargissent nos connaissances sur le milieu rustique punique en dehors de la métropole de Carthage qu'on connait à travers quelques études ponctuelles[8].

Les fermes puniques situées au Sahel confirment les connaissances dont nous disposons sur l'agriculture carthaginoise. Effectivement, nous savons qu'après la défaite de Zama le potentiel économique local de Carthage était intact. Appien parle des années du début du deuxième siècle avant J.-C.. Il insiste sur la puissance retrouvée de Carthage. En effet, dix ans après Zama Carthage pouvait proposer à Rome de s'acquitter par anticipation des quarante annuités d'indemnités de guerre qui lui restaient à régler selon le traité de deux cent un[9].

De telles découvertes sont de nature à éclaircir notre connaissance sur le fonctionnement du territoire de la métropole punique d'Hadrumète à l'époque punique.

2. Peuplement punique

Effectivement, les exploitations puniques aux environs de l'actuelle Kalea Seghira à l'Ouest de la ville de Sousse l'ancienne cité phénico-punique d'Hadrumète dévoilent un chapitre important et peu étudié de la politique punique de gestion des territoires périphériques. Ce mode de fermes agricoles fait partie du système à facettes multiples. Il a un aspect démographique par le cantonnement de tribus à la périphérie de la limite du territoire de la Byzacène dont la ville d'Hadrumète était la principale cité. Ce mode de gestion a aussi un aspect sécuritaire puisque le Sud-Ouest de la Byzacène échappait relativement au contrôle de l'autorité

Fantar, Gammarth. [8]

Lancel, Hannibal, p. 329. [9]

punique[10]. Enfin, ce mode de gestion avait un aspect économique indéniable surtout par la production de l'huile dont l'importance pour Carthage était incontestable.

Ce mode de gestion paysan par le cantonnement de fermiers dans les marges des territoires puniques allait de pair avec des structures de contrôle appelées Phoinikoi tapoi dont nous avons montré l'intérêt non seulement dans les régions de la Tunisie mais sans doute au Sahel et dans l'actuelle région de Sfax qui correspond à la région historique de la Petite Syrte[11].

III. Valorisation patrimoniale

Ces oliviers millénaires découverts au Sahel méritent d'être valorisés d'autant plus que l'olivier jouit d'une importance à la fois historique qu'actuelle aussi bien en Afrique du Nord, qu'en Tunisie ou dans le reste des pays méditerranéens.

1. L'Afrique du Nord et l'olivier et en Tunisie

L'importance emblématique non seulement sur le plan économique mais aussi culturel de l'olivier en Afriquedu Nord depuis l'antiquité jusqu'à nos jours est incontestable[12].

La Tunisie intègre tout naturellement l'olivier et l'huile d'olive à la fois dans son paysage agricole, dans son histoire et même dans sa propre identité. La place de cet arbre et de son produit est incontestable dans le passé comme dans le présent du pays. Prospérité, richesse, labeur, crises, calamités, misère, violence et arbitraire l'olivier et l'huile ont tour à tour incarné et tout subi. C'est dire qu'ils se

---

Dubuisson-Lipinski, Byzacène, p. 85. [10]

Njim, Thyna. [11]

Camps-Fabrer, L'olivier. [12]

confondent depuis bien longtemps pour le meilleur comme pour le pire avec la vie du pays[13].

2. Structures culturelles méditerranéennes autour de l'olivier

L'olivier offre un panorama exceptionnel dans le bassin méditerranéen (figure 2). L'olivier et l'huile d'olive sont devenus des images de marque et des références touristiques et culturelles. L'olivier concourt au développement durable des territoires agricoles et des cultures traditionnelles en difficulté[14].

Citons l'exemple d'une association devenue célèbre qui a s'est développée autour du patrimoine de l'olivier. « Les Routes de l'olivier » est une fondation culturelle. C'est une idée originale de Goerges Karabatos président de la chambre de commerce et de l'industrie de Méssénie en Grèce marque une réelle volonté de faire bénéficier directement les économies locales de leur travail. Elle vise à la protection des savoirs faire traditionnels, à l'impulsion d'un certain type de tourisme culturel thématique. L'équilibre agricole industriel et commercial des zones oléicoles sont ses priorités[15]. Elle travaille en coopération avec nombre de pays européens et méditerranéens. Elle met en place des initiatives d'itinéraires culturels matérialisés en parcours terrestres autour de l'olivier en Méditerranée. Symboliquement, le premier départ de ses itinéraires s'est fait depuisla ville de Pylos en Grèce où ont été découverts les plus anciens témoignages de la présence de l'olivier cultivé en Méditerranée. La fondation organise des expositions, des concours d'huile d'olive, des fêtes de l'olivier. Ses activités s'accompagnent avec la réalisation d'itinéraires culturels[16]. Les activités de cette fondation ont fait

---

Ben Fradj, Oliviers, p. 13. [13]

Guittard, Routes, p. 452. [14]

Guittard, Op. Cit., p. 452. [15]

Ibid., p. 453. [16]

l'objet d'une reconnaissance internationale en avril 2003, elle a reçu le soutien de l'Unesco. Ses activités ont été reconnues comme « Itinéraire culturel mondial »[17].

3. Patrimonisation de l'olivier en France

En France, depuis une vingtaine d'années les produits oléicoles suscitent un engouement croissant et ils servent de prétexte à un vaste ensemble d'opérations de valorisation appelé patrimonisation[18].

Dès 1969 à Mouriès, un village des Beaux-de-Provence est créée la « Fête des olives vertes ». Dans les années qui suivent d'autres festivités du même type sont inventées dans différents bassins de production oléicole[19]. Dans ces fêtesoléicoles l'olivier dépasse le statut de simple ressource vivrière pour devenir un emblème célèbre pour les valeurs qu'il représente. Ces nouvelles fêtes ont la particularitéd'être tournées vers la représentation de la culture régionale, vers la vie sociale et vers le développement économique et touristique[20].

4. L'huile d'olive et le patrimoine culinaire et de bien être

L'huile d'olive est intimement liée au régime dit méditerranéen et crétois. C'est à partir des années 1952 que des épidémiologistes américains comparent les régimes alimentaires de diverses populations du monde et leur état de santé en particulier en ce qui concerne les maladies cardio-vasculaires[21].

Tout cela a montré un rapport direct entre le mode alimentaire et les maladies cardio-vasculaires. Le lieu où semble le mieux se conserver ce type

---

Ibid., 453. [17]

Fournier, L'oléiculture, p. 459. [18]

Ibid., p. 462. [19]

Ibid., p. 463. [20]

Amouretti-Comet, L'olivier, p. 158. [21]

d'alimentation méditerranéen est la Crète d'où le nom de régime crétois. Mais on le trouve aussi dans les régions d'Afrique du Nord[22].

5. La patrimonisation de l'olivier un nouveau souffle pour le tourisme tunisien

Le produit touristique tunisien se concentre sur le tourisme balnéaire. De plus, le prolongement de la zone touristique vers l'intérieur est très faible. L'activité touristique est essentiellement côtière qui ne dépasse pas deux ou trois kilomètres de loin de la côte. Les zones touristiques tunisiennes sont fermées ou isolées du reste du territoire.

Le produit touristique tunisien commence à connaitre une stagnation du fait de son aspect saisonnier et de l'aspect monolithe du produit touristique. La Tunisie a besoin d'un tourisme diversifié. Les secteurs à développer sont le tourisme oasien, sportif ou culturel. La Tunisie a commencé à enrichir son produit touristique à partir de la deuxième moitié des années soixante-dix[23]. Les oliviers remontant à l'époque punique découverts au Sahel peuvent constituer un support d'activités touristiques florissantes adresses à la fois une clientèle étrangère et locale. L'occasion de cueillette des olives serait une période de festivités et d'activités à caractère culturel. Le public pourrait se constituer de personnes avides de divertissement et surtout de jeunes collégiens et lycéens à qui on pourrait à sensibiliser à l'importance et à la richesse de notre patrimoine.

Conclusion

La Tunisie dispose d'un patrimoine antique considérable et même exceptionnel. La gestion de cet héritage est devenue au centre des préoccupations des

---

Amouretti-Comet, Op. Cit., p. 159. [22]

Settehom, Tourisme. [23]

académiciens qu'il s'agisse des questions de conservation ou de rentabilité diverse[24].

La part de l'héritage phénico-punique tunisien est importante. Les legs matériels de cette civilisation sont de plus en plus considérés en Tunisie. Ces dernières années, on s'oriente de plus en plus vers l'héritage agricole des phénico-puniques afin de le valoriser. La découverte récente d'oliviers remontant à l'époque punique qui sont vraisemblablement à l'œuvre ordonnée par Hannibal constitue sans doute une opportunité pour leur exploitation touristique. D'autant plus que le contexte est très favorable puisque le tourisme tunisien est en phase de se métamorphoser et cherche à se renouvelerpour intégrer de nouveaux produits tirés de l'héritage historique de la Tunisie. Il faut noter aussi que cette nouvelle tendance touristique est commune à plusieurs pays européens et méditerranéens où l'olivier est bien ancré depuis la nuit des temps. Ainsi, le tourisme culturel en Tunisie se voit bien outillé grâce à un arbre très emblématique comme l'olivier pour présenter de nouvelles activités et conquérir un nouveau public et surtout en dehors des périodes estivales ce que la culture de l'olivier offre à merveille.

Cette note sur la valorisation de l'olivier n'est qu'une amorce du tournant que peut accomplir le tourisme tunisien en exploitant le patrimoine agricole antique et ses potentialitésinouïes. Nous pensons également à d'autres produits agricoles non mois célèbres que l'olivier telle que la vigne à titre indicatif qui ne manque pas elle aussi de représenter un immense champ de développement touristique qui marie les données multiples de la géographie, de l'archéologie et du tourisme culturel. Des supports ludiques simples et peu onéreux en rapport avec l'olivier peuvent constituer un excellent moyen de vulgarisation et de médiatisation de la place de l'olivier dans nos coutumes (figure 3). Cibler surtout les jeunes par des

IRMC, Patrimoine.[24]

pareilles activités ne peut être que bénéfique pour les sensibiliser à l'importance de notre héritage séculaire et à l'intérêt de le préserver.

Bibliographie :

Amouretti-Comet, L'olivier : M. C. Amouretti-G. Comet, Le livre de l'olivier, Aix-en-Provence, 2000.

Ben Fradj, Oliviers : Ch. Ben Fradj, Oliviers et oléiculture en Tunisie, Paris 2011.

Camps-Fabrer, L'olivier : H. Camps-Fabrer, L'olivier et son importance économique dans l'Afrique du Nord, Centre International de Hautes Etudes Agronomiques Méditerranéennes, Numéro 24, 1974, p. 21-28.

Dubuisson-Lipinski, Byzacène : M. Dubuisson- E. Lipinski, Byzacène, dans E. Lipinski (Directeur), Dictionnaire de la civilisation phénicienne et punique, Paris-Bruxelles, 1992, p. 85.

Fantar, Gammarth : Mh. Fantar, À Gammarth avant la conquête romaine, BAC , ns. 17 B, 1984, p. 3-19.

Fournier, L'oléiculture : L. S. Fournier, L'oléiculture en France méditerranéenne (17^{e} – 21^{e} siècles) : ressource agricole ou loisir patrimonial ?, dans S. Sehili (Direction), L'olivier en Méditerranée, Actes du colloque organisé à Sousse du 6 au 10 février 2007, Tunis 2011, volume I, p. 459-472.

Guittard, Routes : A. Guittard, « Les routes de l'olivier » des itinéraires culturels et touristiques en Méditerranée, dans S. Sehili (Direction), L'olivier en Méditerranée, Actes du colloque organisé à Sousse du 6 au 10 février 2007, Tunis 2011, volume I, p. 451-458.

IRMC, Patrimoine : L'Institut de Recherche sur le Maghreb Contemporain, Patrimoines en péril : action publique et politiques de préservation au Maghreb,

Colloque International organisé à Hmmamet 13-14 octobre 2017, En cours de publication.

Lancel, Carthage : S. Lancel, Carthage, Paris 1992.

Lancel, Hannibal : S. Lancel Hannibal, Paris 1995.

Njim, Hannibal : A. Njim, Hannibal l'ombre de son père, Colloque International Familles, parents et enfants, de l'Antiquité à nos jours : Sensibilités, stratégies et conflits, Faculté des

Sciences Humaines et Sociales de Tunis 17, 18 et 19 novembre 2016, En cours de publication.

Njim, Kalea Sghira : A. Njim, Les oliviers d'Hannibal à l'ouest de Kalea Seghira, Colloque Kalea Seghira : territoire, histoire et patrimoine, 27-29 avril 2017, En cours de publication.

Njim, Thyna : A. Njim, A. Thyna : station des Fosses phéniciennes, Colloque Sfax et la mer, Juillet 2017 (Sfax), En cours de publication.

Njim, Vase : A. Njim, Vase punique de Carthage avec scène du péché originel, dans M. Ghodbane (Direction), Le répertoire décoratif et iconographique en méditerranée antique et médiévale, Actes du troisième colloque international de l'Institut Supérieur des Sciences Humaines de Tunis 2-4 décembre 2013, Tunis 2016, p. 27-37.

Sehili, L'olivier : S. Sehili (Direction), L'olivier en Méditerranée, Actes du colloque organisé à Sousse du 6 au 10 février 2007, Tunis 2011, Deux volumes.

Settehom, Tourisme : N. Settehom, Le Tourisme en Tunisie, Tunis 1994 (en Arabe).

Catalogue des figures :



Figure 1 : Olivier planté par l'armée d'Hannibal aux environs de Kalea Seghira ;

Njim, Kalea Seghira, page 2, figure 5.



Figure 2 : Carte de l'expansion de l'olivier en Méditerranée ;

Amouretti-Comet, L'olivier, p. 14 et figure.



Figure 3 : Catre représentant l'olivier (collection de l'auteur)



The Democratic People's Republic Of Algeria
The Ministry Of Higher Education And Scientific Research
Cognitive Center for Studies and Research

Journal Of
Madarat Tarikhia

Journal Of madarat tarikhia
Reviewed academic international periodical magazine
For Historical And Researches Studies

Volume01(N°4)
Décembre 2019

